رواية

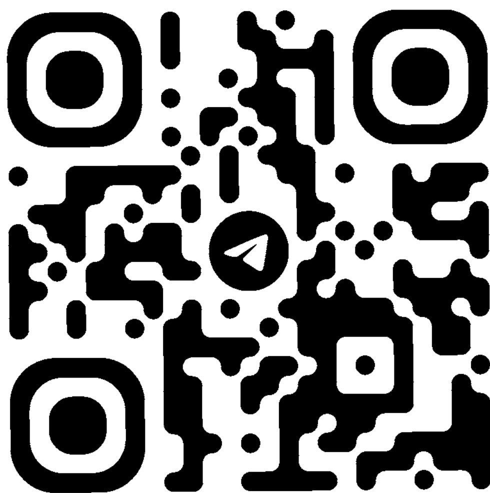
برنار فيربير

من العالم الآخر

ترجمة: حسين عمر

مكتبة





سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

من العالم الآخر

رواية 

اسم المؤلف: برنار فيربر

عنوان الكتاب: من العالم الآخر

ترجمة: حسين عمر

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: **2025**

Author: **Bernard Werber**

Title: **Depuis l'au-delà**

Translated by: **Hussein Omar**

P.C.: **Al–Mada**

First Edition: **2025**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999 · +964 (0) 780 808 0800 · +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+961 706 15017 · +961 175 2617 · +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2275 · +963 11 232 2276 · +963 11 232 2289 · ص.ب: 8272

برنار فيربير

من العالم الآخر

ترجمة : حسين عمر



جميع شخصيات وأحداث هذه الحكاية من وحي الخيال المحض، وأيّ تشابه بينها وبين شخصيات أو أحداث حقيقية راهنة أو سابقة هو من قبيل المصادفة ليس إلّا.

منشورات ألبان ميشيل وبرنار فيربير، 2017.

لذكرى مونيك باران باكون، أوّل وسيطة روحية فتحت لي أبواب الماضي

(حينما روت لي حيواتي السابقة)، وأبواب المستقبل (حينما حدّثتني عن مستقبلٍ محتملٍ) وأبواب العوالم غير المرئية (حينما شرحت لي كيف تعمل الأرواح الهائمة).

أن نصدّق أو لا نصدّق ليس أمرًا ذا أهمية، ما يهمّ بالفعل هو أن نتخيّل، أن نحلم وأن نصغي إلى حكايات جميلة تحرّضنا على التفكير.

شكرًا لكِ يا مونيك لأنكِ حكيتِ لي من الحكايات ما يكفي لمنحي الرغبة في أن أستلهم منها بدوري حكايات جديدة...

«لا أحد يؤمن في قرارة نفسه بموته، وكلّ شخص مقتنعٌ في لاوعيه بخلوده».

سيغموند فرويد

«أنا لا أتكلّم لإقناع أولئك الذين لا يتّفقون مع آرائي؛ أنا أتكلّم لكي يتأكّد الذين يتّفقون معها من أنّهم ليسوا وحيدين».

إدمون ويلز، *موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر

الفصل الأوّل

اكتشافٌ مدهشٌ

-1-

«مَنْ قَتَلَني؟»

-2-

بالكاد استيقظ الكاتب غابرييل ويلز حتى قفز من سريره. لقد عثر أخيرًا في الحلم على الجملة الأولى من روايته المقبلة. سؤالٌ بسيط سوف يفتح الكتاب على لغز موت الراوي.

«مَنْ... قَتلــ... ني؟»

بدا له أنّ هذه البداية تقدّم مفارقة سترغمه على إيجاد حبكة مُبتَكرة. كيف يمكن لبطل روايته أن يتكلّم إذا كان قد مات أصلًا؟ بالأحرى كيف يمكنه التحقيق في مقتله؟

أثاره هذا التحدّي الجديد، فلم ينتظر غابرييل ويلز حتى موعد تناوله الفطور. خرج من عمارته وسار مسرعًا ليذهب إلى حانته المعتادة، لوكوكوليه. كان قد ترك فيها عشية أمس حاسوبه الشخصي، وهو بالنسبة إليه بمنزلة حصانٍ إلكتروني يتهيّأ لامتطائه ككلّ صباح في جولة عَدْو الكتابة خاصّته.

أسرع الخطى وركّز تفكيره على البحث عن جملته الأخيرة. لأنّ الرواية بالنسبة إليه ليست سوى جملة افتتاحية – وهي ما يُسمّى في لغته الاصطلاحية «الاستهلال» – تؤدّي إلى جملة ختامية – «الخاتمة».

بقي أن يعثر على آلية للساعة البيولوجية تتحكّم بالحبكة وتجذب القارئ إلى نظام سيغرق فيه حتى ينسى تدريجيًّا حياته الخاصّة ولا يعود يهتمّ سوى بحياة بطَل الرواية.

أمـام هاجـس الإخفـاق الاعتيـادي، وأمام هـذا النوع من الرهـاب الذي يسـتولي عليـه، تخيّـل غابرييـل ويلـز سـريعًا بعـض المخططـات السـردية الكلاسيكية.

قصّة حبّ كبيرة مستحيلة؟

سرٌّ يتكشّف تدريجيًّا؟

مسعى طوباوي؟

خيانة يتبعها انتقام؟

بيـد أنّـه لا بـدّ أن يرتبط كلّ ما تبقّى مـن الحكاية بالحبكـة المطروحة في الجملة الأولى، التي تتكرّر مراتٍ عديدة لكي تتشبّع بها:

«مَنْ... قَتَلَـ... ني؟»

سـرعان ما تركت إثارة هذا الاكتشـاف مكانها للشـكّ. إذ يمكنه أيضًا أن يبدأ بالسؤال التالي، الذي يُلقي ظلالًا من التشويق مختلفة بعض الشيء:

«لماذا متُّ؟»

إلى هنا، كان الاسـتهلال الأكثر ابتـكارًا الذي وجده هو: «محاولة انتحار فاشلة: يقتلُ شقيقَه التوأم معتقدًا أنّه قد قتل نفسه».

ابتسم حينما تذكّر اللحظة التي وجد فيها هذه الجملة، ثمّ استعاد جدّيته.

«مَنْ قَتَلَني؟» أم *«لماذا متُّ؟»*

المشكلة هي أنّ كتابة قصّة تفرض اتّخاذ خيارات. والحال أنّ اتّخاذ بعض الخيارات يعني التخلّي عن غيرها، وبالتالي المخاطرة حتمًا بالندم عليها.

وقع اختياره في النهاية على الخيار الأوّل الذي وجده أكثر حيويّةً.

لم يبق عليه إذن سوى إيجاد نهاية للقصّة.

هل يمكن لهذه النهاية أن تكون اكتشاف أنّ مدبّرة المنزل هي القاتلة؟

خاتمة هزلية للغاية!

وماذا لو أدرك بطل القصّة في النهاية أنّه لم يَمت؟

هذه قديمة ومكرّرة...

وماذا لو اكتشف القارئ أنّ بطل القصّة في الحقيقة ليس كائنًا بشريًّا؟

حبكة سهلة للغاية.

لم يرضِه أيّ شيء، لكن غابرييل ويلز بدأ برسم الخطوط العريضة للشخصية الرئيسية. تخيّل ملامح بطله الجسدية وحالته النفسية، ووجد فيه نقاط ضعفٍ وعيوبًا ونقائص وبعض المواهب. وجد له اسمًا وكنيةً. كان عليه أن يرفقه بسرٍّ يتكشّف تدريجيًّا مع تعاقب صفحات الرواية.

أيكون تخاطريًّا؟

أيكون مسرنمًا؟

أيكون لديه دماغان؟

ظلّ كلّ هذا ضبابيًّا في هذه المرحلة. ثمّ ارتسمت صورة بطله، شيئًا فشيئًا، بوضوحٍ أكبر في ذهنه: شكله، ومشيته، وثيابه، وابتسامته وسلوكياته. خلق غابرييل ويلز بفضل خياله فردًا من العدم.

ضاعف من سرعته تحت تأثير الإثارة.

كان الشارع في تلك الساعة لا يزال مزدحمًا بالمارّة. مرّ من دون إبطاءٍ من أمام الصيدلية المتوهّجة بألف شعاعٍ أخضر كما لو أنّها ترغب في إبهار المريض ودفعه إلى استهلاك الأدوية. قفز من فوق مشرّدٍ نائمٍ في عرض الشارع. تحاشى فضلات الكلاب المتناثرة حديثًا في الشارع وكاد يسقطُ أرضًا بدفعٍ من تلميذٍ شقيٍّ ومستعجل. ثمّ صادف سيّدة عجوزًا نحيلة وقصيرة القامة ترتدي قبّعة بيروفية ذات شرابة وردية وتُمشي كلبًا مربوطًا بسلسلة. كان الكلب يسحبها بقوّة بحيث بدت المرأة المسكينة كما لو أنّها تمارس التزلّج على الرصيف.

ثمّ مرَّ بجانب مدرسة حيث شاهد آباءً واصلين مبكّرًا يؤنّبون أطفالهم وهم يصلّون من أجل أن يأتي سريعًا رنين الجرس الذي سوف يخلّصهم من عبئهم طيلة النهار.

وبينما كان يمرّ أمام متجرٍ لبيع الزهور، توقّف غابرييل ويلز فجأةً. أحسّ بأنّه لم يشمّ رائحة الأزهار. توقّف وشمّها كلّها.

لم يحسّ بأيّ رائحة.

شمّ جلده. شمّ تحت إبطيه. شمّ الهواء. شمّ دخان عوادم السيارات المارّة. تنفّس بعمق، وقرّب أنفه من كلّ ما توقّع أن ينثر رائحةً واكتشف أنّ حاسّة الشمّ لديه قد انعدمت تمامًا.

ذُعِرَ من فكرة أنّه ربّما يكون قد فقد إلى الأبد حاسّة الشمّ، فتخلّى في الحال عن كلّ مشروعٍ وأسرع مباشرةً إلى طبيبه، الدكتور فريدريك لانغمان، الذي تقع عيادته في نهاية الشارع.

-3-

بداية الفحوصات الطبيّة في الساعة التاسعة صباحًا

رنّ الجرس. ادخل. اجلس

في صالة الانتظار في عيادة طبيبه العامّ، وجد غابرييل ويلز نفسه وحيدًا. بدل أن يجلس، راح يشمّ جلد المقاعد والأزهار الموضوعة في مزهريةٍ على الطاولة المنخفضة، وراحتي يديه. ولكنه لم يشعر بأيّ رائحة وأحسّ بالقلق يتعاظم داخله.

لكي يفكّر في أمرٍ آخر، حاول أن يركّز ذهنه على روايته المقبلة، وبطله المستقبلي، واكتشافه الأخير وجملته الختامية في الرواية.

رنّ الجرس وفُتِح الباب ودخلت مريضةٌ. كان لها شعرٌ بنّي طويل ومتموّج، وجبينٌ يعلو قوسي الحاجبين المرسومين بدقّة، وأنفٌ وذقنٌ بارزان. ترتدي قميصًا من الحرير البنفسجي وتنّورة طويلة مزهّرة. ما لفت انتباه غابرييل ويلز في الحال هو شبهها المدهش مع معبودته، الممثّلة الأمريكية هيدي لامار، نجمة الثلاثينيات من القرن العشرين.

جلست المرأة الشابّة واستغرقت في الحال في قراءة مجلّة قديمة مهترئة تنشر الانتكاسات العاطفية للعديد من المشاهير.

افتُتِن غابرييل بهذه الوافدة الجديدة، وإذ لم يعد قادرًا على تمالك نفسه حاول أن يشرع في حديثٍ معها.

- *هل يمكنني أن أسألكِ ما الذي جاء بكِ إلى هنا، آنستي؟*

منتزعةً من قراءتها لمقالةٍ حول طلاق أميرٍ، أظهرت عبوسًا ساخرًا، ثمّ رضيت بأن تُجيب:

- الصداع النصفي.

نطقت الكلمة من دون أن ترفع عينيها عن المجلّة.

- *أمّا أنا فأعاني من داء فقدان الشمّ. إنّه مرضٌ يسبّب فقدان الشعور بالروائح.*

- كلا، لا أعتقد أنّ هذه هي مشكلتك...

فوجِئ بهذا التأكيد الاعتباطي من طرف امرأةٍ لا يعرفها ولم تولِه حتى نظرة منذ وصولها، ولكن لم يجرؤ على الردّ عليها.

وصل الدكتور لانغمان وطلب من المريضة أن تتبعه. بدافعٍ من شهامته، لم يُلفت غابرييل ويلز انتباهَ الطبيب إلى أنّه قدِمَ قبلها إلى العيادة.

ركّز من جديد تفكيره على البحث عن الجملة الأخيرة من روايته، وفكّر بالجمل الختامية التي استخدمها كتّابُه المفضّلون.

4. موسوعة: الاستهلال والخاتمة

استهلالات شهيرة:

«في البدء خلق الله السماوات والأرض». الكتاب المقدّس.

«بدأ الضجر يتسلّل إلى أليس من المكوث جالسة برفقة أختها عند منحدرٍ من دون فعل أيّ شيءٍ». أليس في بلاد العجائب للويس كارول.

«إذ استيقظ غريغور سامسا ذات صباح، على إثر أحلامٍ سادها الاضطراب، وجد أنّه قد تحوّل وهو في سريره إلى حشرةٍ عملاقة». التحوّل لفرانتس كافكا.

«جرى ذلك في ضاحية «ميجارا» من ضواحي قرطاجة وفي حدائق هاميلكار». سلامبو لغوستاف فلوبير.

«كثيرًا ما أويتُ إلى سريري في ساعة مبكّرة». البحث عن الزمن المفقود لمارسيل بروست.

«اليوم ماتت أمّي». الغريب لألبير كامو.

خواتيم شهيرة:

«تعرفين؟ ليست الحياة، أبدًا، أفضل أو أسوأ ممّا نظنّ». سيرة حياة لغي دي موباسان.

«للأسف، حينما نكبر سنصبح أغبياء مثلهم». حرب الأزرار للويس بيرغو.

«ولْنُحاول دخول الموت بعينين مفتوحتين». مذكّرات أدريان لمارغريت يورسنار.

«وهكذا نتقدّم، كقوارب تسير عكس التيار، عائدين من دون توقّف إلى قلب الماضي». غاتسبي العظيم لفرنسيس سكوت فيتزجيرالد.

«الروح وحدها إذا نفخت في الصلصال استطاعت أن تخلق الإنسان». أرض الرجال لأنطوان دي سانت إكزوبيري.

«وحينما حاول البعض أن يفصله عن الهيكل الآخر الذي كان يضمّه إليه، سقط غبارًا منثورًا». أحدب نوتردام لفيكتور هوغو.

إدمون ويلز،

موسوعة العلم النسبي والمطلق، المجلّد الثاني عشر.

-5-

وبعد أن انتهى فحصها الطبّي، حيّت المرأة الشابّة ذات التنورة المزهّرة الطبيب لانغمان وهي تدور برشاقةٍ مثل راقصة والتقطت معطفها الذي ارتدته على عجلٍ.

فنهض غابرييل، ولكنّ الطبيب لم يعره أيّ اهتمام وأغلق باب عيادته خلفه من دون حتى أن يدعوه إلى الدخول.

تسلّل شيءٌ من الحيرة إلى الكاتب الذي اقترب من الباب المغلق وسأل صديقه:

– هيه يا فريد، أنت تمزح معي، أليس كذلك؟ هذا أنا، غابرييل، غابرييل ويلز!

كانت المرأة الشابّة تتهيّأ لتجاوز عتبة قاعة الانتظار، ولكنّها توقّفت فجأةً في مكانها.

سألت وقد ظلّت تدير له ظهرها:

– هل حقًّا أنت غابرييل ويلز؟ الكاتب؟

– نعم، لماذا؟

– هذا يغيّر كلّ شيء. سأساعدك.

– تساعدينني؟ تساعدينني في ماذا؟

عادت إلى وسط القاعة، وقالت من دون أن تنظر إليه:

– قبل كلّ شيء، يجب أن أشرح لك «مرضك».

– هل أنتِ طبيبة؟

ابتسمت بلطفٍ.

– بطريقـة ما. لنقل إنني «طبيبة أرواح». وميزة هذا الاختصاص هي أنّه لا يحتاج إلى شهادة رسمية. باديَ ذِي بَدْءٍ، يجب أن تعلم أنّ مشكلتك أخطر بكثير من فقدانك المفترض لحاسّة الشمّ.

– هل أنا مصابٌ بالسرطان؟

– بل أخطر من ذلك.

– أخبريني الحقيقة، يمكنني سماع كلّ شيء.

– همم، لا يزال الوقت مبكّرًا بعض الشيء على ذلك. أفضّل أن أكشف لك بعض الأعراض التي تعاني منها. حينما اسـتيقظت هذا الصباح، لم تكن جائعًا، أليس كذلك؟

– هذا صحيح.

– خرجت سريعًا من منزلك، ولكنّك لم تتكلّم مع أحدٍ، هل أنا مخطئة؟

– حينما أستيقظُ في الصباح، لا أتحدّث أبدًا مع أحدٍ.

– وحينما أصبحت خارج المنزل لم تجد الجوّ باردًا.

سأل غابرييل بنبرةٍ شابها المزيد من القلق المتصاعد:

- لستُ حسّاسًا للبرد. ولكن كفّي عن طرح ألغازكِ هذه! وأخبريني ما هو هذا المرض الغامض؟

نظرت إلى يديه.

- هل تعلم أنّ كلمة المرض (maladie) مشتقّة من عبارة «صعوبة في القول - mal à dire»؟

- كفّي عن المراوغة! إلى أين تريدين الوصول، اللعنة؟

- حسنًا، يجب أن أفعل هذا بطريقة مختلفة. كيف يمكن لي شرح حالتك؟ في الواقع... لديّ خبرٌ سارّ وآخر سيّئ. بأيّ واحدٍ منهما تفضّل أن أبدأ؟

أجاب غابرييل وهو في غاية الحنق:

- السارّ.

- لقد كذبتُ عليك، أنت لستَ مريضًا.

- هذا شيءٌ جيّد. وما هو الخبر السيّئ إذن؟

- الخبر السيّئ هو... أنّك ميّت.

رفع غابرييل حاجبيه وبدا مدهوشًا ومنزعجًا ومرتبكًا قبل أن ينفجر في النهاية ضاحكًا.

أطلقت المرأة الشابّة تنهيدة ارتياحٍ، ثمّ قالت:

- أنا سعيدة لأنّك تأخذ الأمر بهذه الطريقة، لقد رأيتُ الكثير من الناس الذين لم يتصرّفوا بهذه الطريقة الإيجابية.

- إذا كنتُ أضحك، فهذا لأنني لا أصدّقكِ.

خطت بضع خطوات، وبدت أنّها تبحثُ عن إلهامٍ.

- إذن سوف نُجري تجربة صغيرة. أقترحُ عليك القيام باختبار المرآة.

أشارت عليه أن ينضمّ إليها أمام مرآة قاعة الانتظار، وتبين له، وسط دهشته البالغة، أنّ صورة المرأة الشابّة وحدها تنعكس في المرآة.

قالت:

– تفضّل، يبدو أنّ صورتك قد اختفت. يا له من أمرٍ غريب...

ارتعش وتسلل الفزع إليه من جديد، ثمّ تمالك نفسه وابتسم.

– *هذا لا يبرهن على أيّ شيء. لا بدّ أنني نائم. وهذا حلمٌ. علاوة على ذلك، من شأن هذا أن يفسّر وجودكِ.*

– حلمٌ؟ اقرص نفسك إذن.

قرص جلد ساعده وخدشه.

– *لا أشعر بأيّ شيء، لأنني بكلّ بساطة أحلم أنني أقرصُ نفسي.*

– لننتقل إلى الاختبار الثاني، وهو الاختبار الذي يُعرَفُ أيضًا باسم «اختبار النار».

أخرجت ولّاعةً وأشعلتها وطلبت منه أن يضع يده فوق اللهب. استجاب لطلبها وتبيّن له أنّه لم يشعر بأيّ انزعاجٍ ولا بأيّ ألم. والغريب في الأمر أنّ حركته هذه لم تولّد أيّ دخانٍ، ولم تُسفر حتى عن تشوّهٍ في شكل اللهب، وكأن شيئًا لم يقترب منه.

نظر إلى جلد يده، فلم يجد أيّ أثرٍ لحروقٍ. سرى فيه إحساسٌ مزعج، تغلّب عليه بجسارة.

– *في أحلامي، يحدث لي أن لا أرى نفسي في المرآة وأن لا يحترق جسدي بوضعه فوق لهبٍ، حتى إنّني أكرّر حركة الأحلام هذه مرّات عديدة في الأسبوع.*

هزّت كتفيها.

– بقي إذن الاختبار النهائي، وهو اختبار السقوط الحرّ. اصعد إلى حافة النافذة واقفز في الفراغ.

– *ولكننا في الطابق السادس...*

– إذا كنتَ تحلم، لن يطرح هذا الأمر مشكلةً. في أسوأ الأحوال، سيوقظك هذا من النوم.

فتحت النافذة على مصراعيها واندفعت الرياح إلى القاعة وجعلت شعرها يتطاير، ولكنّ غابرييل لم يشعر بأيّ نفحة هواء.

– *لا مشكلة.*

هزّ رأسـه مثل حيوانٍ ينتفض، وتنفّس بعمق، واقترب من النافذة. ساوره الأمل في أن توقِفه، ولكن على العكس تمامًا، شجّعته على الاقتراب أكثر.

- حينمـا تحلّـق في الهـواء، انظر حولك جيّدًا إلـى كلّ التفاصيل التي لا يمكنها أن تكون مجرّد ثمرة حلمٍ.

رأى الأرض في الأسفل وأسطح السيارات وجماجم المارّة.

على الرغم من قناعته بأنّه يحلم، لم يستطع غابرييل الامتناع عن الشعور بخوفٍ خفيفٍ.

ألحّت عليه المرأة الشابّة:

- طالما لم تقفز، لا يمكنك أن تتأكّد.

تـردّد، ولكـن لأنّه لم يشـأ أن تعتقد أنّـه يتراجع أمام التحـدّي، صعد إلى حافة النافذة، وسيطر على شعوره بالدوران وقفز في الفراغ فاردًا ذراعيه على وسعهما.

سـقط بأقصى سـرعةٍ، ورأى الطوابق تتوالى أمام ناظريه، فأغمض عينيه. حينمـا رفع مـن جديد جفونه، لم يكـن قد لامس الأرض بعـد وكان لا يزال يحوم فوق الجادة.

«اللعنـة، إذن!» كانـت هذه هـي العبارة التـي راودت ذهنه فجـأةً. تركت مشـاعر الدهشـة والذعـر والإحباط تدريجيًّـا مكانهـا لهذه المتعـة الجديدة بالتحرّر بفعل انعدام الجاذبية والقدرة على الطيران مثل طائرٍ.

رأى الأرض تميـد مـن تحتـه. شـعر بأنّـه ينزلـق مـن دون الإحسـاس بالاحتـكاك بالهـواء، فانقلـب في الهـواء وصعد من جديد ليضع نفسـه على حافة نافذة العيادة الطبيّة.

مضطربًا ومسـكونًا بأحاسيس مشوّشة ومتنوّعة تصادمت في ذهنه، أطلق تنهيـدةً، وأراد أن يقول شـيئًا، ولكنه لم يسـتطع إلّا أن يكـرّر ما يقرب من مئة مرّة، بنبرات مختلفة، تلك اللعنات التي خطرت على باله.

يبـدو أنّ آخـر كلمـة تـراود ذهـن الناس قبـل الموت هـي كلمـة «ماما - Maman». أما الكلمة التي أعقبت إدراكه موته فتبدأ بنفس الحرف (Merde)، ولكنّه لا يضمر أيّ حنانٍ في داخله.

خلال بضع ثوانٍ، عبر المراحل السبع للحداد: الصدمة، الإنكار، الغضب، المساومة، الحزن، الاستسلام والقبول بالأمر. واشتملت كلّ مرحلة من هذه المراحل على لفظة اللعنة نفسها.

بدت المرأة الشابّة أمامه هي الأخرى متضايقة بعض الشيء.

سألته:

– هل أنت بخير؟

– *تبًا، هل يمكن أن أكون... «حقًا» ميّتا؟!*

هبط على الأرض. ثمّ مرّ من جديد بالمراحل السبع، ولكن بترتيبٍ مختلف هذهِ المرّة: الغضب، الإنكار، القبول بالأمر، الاستسلام، الحزن، المساومة، الصدمة.

– *هذا مستحيل! لا يزال من المبكّر جدًا أن أموت في هذا العمر!*

– انظر إلى هذا الأمر نظرةً إيجابية، يا سيّد ويلز. لا أدري... اعتبر أنّك تخلّصت من كلّ ما هو غير ضروري، كلّ ما هو مزعج وهشّ، كي لا تحتفظ إلّا بما هو جوهري: روحك.

– *إذن هل ستكون هذه هي النهاية...؟ لن يعود في وسعي أن أكتب...*

– حسنًا، وأخيرًا أدركت الأمر.

استسلم للسقوط في أريكةٍ، مذعورًا.

– *هذا فظيعٌ.*

– هذا «مختلفٌ».

– *لقد متُّ، سحقًا! لقد متُّ، متُّ، متُّ! لقد متُّ بالفعل!*

– سوف نموت جميعًا ذات يوم، أنت متَّ اليوم، الآن، هنا. بالنسبة إليّ أيضًا، سيأتي هذا اليوم. ولكن في وقتٍ لاحقٍ. أنا لستُ مستعجلة.

نهض من مكانه متوثّبًا ووقف أمامها ليرى أنّها تدير بصرها نحو النافذة. اكتشف أنّها منذ البداية لم تنظر قط إلى عينيه.

– *ولكنّكِ تتكلّمين معي، وأنتِ على قيد الحياة. كيف يمكن لهذا أن يحدث؟*

– أنا مختلفة بعض الشيء عن بقيّة النساء...

- *مختلفة؟*

- أنا وسيطة روحية. يمكنني أن أسمعك، ولكنني لا أستطيع أن أراك. ولهذا السبب لا أنظر إليك. حتى إنّني لا أعرف أين تقف بالضبط في هذه اللحظة، أنا أشعر بكلّ بساطة بحضورك في مجال إدراكي المجاور.

- *لماذا تريدين مساعدتي؟*

- بفضلكَ أنتَ أصبحتُ وسيطة روحية، بفضل قراءة كتابك *نحن الموتى*. كانت المرّة الأولى التي أنجذب فيها بالفعل إلى رواية وكان ذلك بالنسبة إليّ اكتشافًا. أغلقتُ الكتاب وأنا على يقينٍ بأنني وجدتُ طريقي. وقد امتلكتُ من تلك اللحظة حياتي من خلال التحاور مع الموتى ويمكنني أن أضمن لك أنّ السوق يزداد ازدهارًا في هذا القطاع المهني الخاصّ بعض الشيء... وبطريقتي الخاصّة، أنا أيضًا شخصية مشهورة. على الأقلّ في هذا الحيّ.

- *ما اسمكِ؟*

- لوسي. لوسي فيليبيني.

- *لم أسمع قط بهذا الاسم. لا تزالين صغيرة السنّ على أن تصبحي وسيطة روحية...*

- أنا في السابعة والعشرين من عمري، ولا أرى أنّ لهذا علاقة بالسنّ.

- *لطالما اعتقدتُ أنّ الوسيطات الروحيات هنّ سيّدات مسنّات وبدينات، يرتدين ثيابًا سوداء ويتزيّنّ بالحلي، ويتبرّجن بمساحيق تجميل فاقعة جدًّا.*

تبدّلت ملامح لوسي فجأةً، كما لو أنّها اكتشفت شيئًا ما: عبست مقطّبة حاجبيها.

- ولكن مهلًا، مهلًا.

- *ماذا؟*

- كرّر على مسامعي ما قلته للتوّ.

أغمضت عينيها لكي تركّز أكثرَ على حديثه.

كرّر غابرييل كلماته من دون أن يدرك ما الذي ترمي لوسي إليه.

- ... سيّدات مسنّات وبدينات، يرتدين ثيابًا سوداء...؟

- هذا ما بدا لي تمامًا. لصوتك صدى خفيف. أعرف هذه الظاهرة. ربّما لا تكون في النهاية قد متَّ تمامًا. أين تسكن؟

- أبعد من هنا بقليل في نهاية الشارع. البناء رقم 21. لماذا؟

- ربّما لم يفت الأوان بعد. يمكننا أن نتحادث *في الرمق الأخير*. من خلال سماع صوتك، يبدو لي أنّه لا تزال هناك فرصة. يجب عليّ أن أتحقّق من ذلك. لا وقت لدينا نضيّعه، هيا بنا إلى بيتك!

فانطلقت المرأة الشابّة وأطلقت ساقيها للريح، وارتفعت تنّورتها المزهّرة حول فخذيها. لحق بها غابرييل، طافحًا بالأمل العارم في أن يكون لا يزال حيًّا «بعض الشيء»...

-6-

وقفا عالقين أمام الباب المصفّح بخشب الصنوبر الصلب لشقّة غابرييل. ثمّة مشكلة: لم يكن المفتاح معه. حتى وإن كان يرتدي ثيابًا - تأكّد من ذلك من خلال النظر إلى جذعه وساقيه - إلّا أنّه لم تكن لديه جيوب حقيقية، وبالتالي لم تكن لديه سلسلة مفاتيح، ولا بطاقة الهويّة الشخصية، ولا محفظة نقود، ولا هاتف ذكيّ. في الحقيقة لم يكن يحمل معه أيّ شيء.

قالت لوسي:

- سيكون مثاليّاً لو أنّك تُخفي مفتاحاً تحت سجّادة عتبة الباب. هل فعلت ذلك؟

- كلّا، للأسف. حتى الآن لم أفكّر قطّ بأنني قد أحتاج إلى ذلك في اليوم الذي سأموت فيه.

- يجب أن تتذكّر هذا في حيواتك المقبلة. يمكن أن يكون مفتاحٌ مخبّأً في مكانٍ مفيدًا على الدوام في الظروف الاستثنائية. هل لديكَ خطّة بديلة؟

- سيكون علينا الانتظار إلى حين قدوم عاملة النظافة. حسب التوقيت، لن تتأخّر ماريا كونسيبسيون كثيرًا. وإلّا يمكننا أن نستدعي رجال الدفاع المدني من أجل خلع الباب.

- هذه فكرة... ولكن بالنسبة إليك، يمكنك عبور الباب في الحال بما أنّك محض روحٍ غير مادّية.

اكتشف غابرييل أنّه لم يمتلك بعد ردّة الفعل التلقائية هذه وأنّه يتوقّف نفسيًّا أمام الأبواب. مستجمعًا شجاعته، تجاوز الحاجز مغمض العينين، كما لو أنّه يخشى من أن تتلامس حدقتا عينيه مع الألياف الخشبية للباب والصفيحة الفولاذية التي تصفّحه.

ذاق طعم هذه اللذّة الجديدة في كونه أصبح عابرًا للجدران، وأدرك أنّه لا يمكن إخفاء أيّ شيء عن روحٍ تعبر المادّة.

ولما أصبح داخل شقّته، أسرع نحو غرفته.

رقد جسده على السرير. انبطح على بطنه، ومال برأسه نحو اليمين، وفتح عينيه على وسعهما، وتدلّى لسانه.

فكّر الكاتب وهو يرى نفسه لأوّل مرّة من الخارج:

- *هذا ما أشبهه إذن...*

تفحّص نفسه من زوايا لا يمكن الوصول إليها حتى باستخدام مرآةٍ، ونظر إلى قفا رقبته وقمّة جمجمته.

راودته فكرة.

في الحقيقة، لا يعي المرء جسده بالفعل إلّا عندما يشعر بألمٍ أو يحسّ بلذّة جسدية. عندما يدخل الظفر في اللحم، نتذكّر أنّ أظفارنا تنمو؛ عندما نعاني من التهابٍ في المعدة والأمعاء، نتذكّر أنّ لدينا أمعاء؛ ولكن حينما لا يحدث أيّ شيءٍ غير عاديّ، لا ننتبه إلى كلّ هذا. ومع ذلك، إنّه لأمرٌ استثنائيّ للغاية أن يكون للمرء جسدٌ. وهنا، ومن خلال رؤيته في شموليته، اكتشفتُ أنني محظوظٌ لأنّه كان لديّ هذا الغلاف لروحي.

قرّب غابرييل إصبعه من حدقة عينه وعبرها. لمس فمه وتجاوز حاجز الأسنان واللسان. دسّ يده في جمجمته، ثمّ سحبها فجأةً من دماغه دون أن يُحدِث ذلك أيّ ضجّة.

وضع وجهه الإكتوبلازمي[1] أمام وجهه اللحمي، ورأى رموشه وقرنية عينه الجافّة قليلًا. نظر إلى مساماته ومنخريه الجامدين بلا حراك، وحاول أن يتحدّث مع نفسه، ولكن من دون جدوى. عبر كلّ مكان من جلده وقال في نفسه إنّه لا بدّ أنّ بعض الأحياء يشغلونه الآن.

عاد ليلتقي الوسيطة الروحيّة الشابّة التي كانت في انتظاره.

- عيناي مفتوحتان وأشعر أنني لا أعود أتنفّس.

- هذا لا يعني شيئًا. حاولت من جهتي أن أستدعي رجال الدفاع المدني، ولكنّ جميع الخطوط الهاتفية مشغولة وأتلقى في كلّ مرّة رسالة مسجّلة. أعتقد أنّك لست الوحيد الذي اختار أن يموت اليوم. يبدو أنّ هناك هجومًا قد وقع أو حريقًا هائلًا قد نشب أو أنّ عددًا كبيرًا من القطط المنحوسة قد علقت فوق الأشجار.

اضطرا لأن ينتظرا قدوم عاملة النظافة. ولكن حينما وصلت ماريا كونسيبسيون أخيرًا، ارتابت في أمر الشابّة المجهولة ورفضت السماح لها بالدخول إلى الشقّة.

جاء غابرييل ويلز لنجدتها، وقال:

- أخبريها أنّكِ إحدى صديقاتي وأنّكِ قد نسيتِ هاتفكِ النقّال في منزلي البارحة مساءً. لقد سبق أن حدث هذا في الماضي...

فعلت لوسي ما طلبه منها، فغالبت عاملة النظافة ارتيابها ووافقت على دخولها وانكبّت على الأقفال الثلاثة الضخمة للباب المصفّح قبل أن تندسّ في المطبخ.

وحينما رأت الوسيطة الروحيّة نظامًا مدهشًا للإنذار، قالت في نفسها إن صاحب المكان يعاني من شيءٍ من البارانويا. اكتشفت شقّة واسعة من طراز هوسمان على غرار الشقق الفخمة في الأحياء الراقية والأنيقة. رأت في الصالون صورًا معلّقة على الجدران باللونين الأبيض والأسود تعود

1 - إكتوبلازم: مصطلح يُشير في الروحية إلى مادة أو طاقة روحانية «تتشكل خارجيًا» عبر وساطة روحية. المترجم

لممثّلات في هوليوود، مثل ليز تايلور، وغريتا غاربو، وأودري هيبورن، ولكن كانت هناك صورٌ عديدة بقياسٍ أكبر للممثّلة هيدي لامار وهي ترتدي ملابس أميرة.

سألت:

- هل هذه نجمتك المفضّلة؟

اكتفى غابرييل ويلز بالردّ بشكلٍ قاطع:

- *هيدي لامار أجمل امرأة في العالم وعلى مرّ الأزمان.*

- ربّما يكون هذا شيئًا من الغرور، ولكنني أشعرُ أنّها تشبهني.

- *إذا كنتُ أسمح لنفسي، لديّ لعبة أخرى ألعبها غير لعبة التشابهات. لنتصرّف بسرعة، أنا هنا. اتبعيني.*

بدافع الفضول، لم تستطع الوسيطة الروحيّة الامتناع عن النظر إلى كلّ مكانٍ حولها؛ رأت مكتبة مليئة بعدّة مئات من الكتب المصنّفة بلصقاتٍ مكتوبة بخطّ اليد: كتبٌ تبدأ من أبحاثٍ تاريخية وكتب الطبخ والأساطير ذات النصوص الروحانية إلى الشعر الكلاسيكي والروايات المعاصرة، ومن كتب الفكاهة إلى أعمال الخيال العلمي، مرورًا بمجموعات قصصية خيالية رائعة ومسرحيات كلاسيكية، ومجموعات الألغاز الرياضية، وكذلك كتب التصوير والسحر.

أسرع غابرييل خطاه وقادها من خلال صوته إلى الغرفة.

- *من هنا! بسرعة!*

في الممرّ، رأت لوسي صورَ ممثلاتٍ فرنسيات معاصرات، على بعضها إهداء أو توقيع: «ذكرى عطلة نهاية أسبوع ممتعة معك، يا غابي»؛ «اكتب لي نصّ سيناريو، وسوف أُريكَ ما الذي أُستطيع فعله»؛ «اجعلني نجمةً»، «إلى غابي من أجل الحياة»، وكانت كلّ هذه النصوص محاطة بقلوبٍ صغيرة أو بابتسامات مرسومة بأقلام ملوّنة.

- تعيشُ حياةً مرفّهة إذن!

وأبعد من تلك الصور، وجدت صناديق زجاجية تحتوي على أسلحة -

مسدّسات وسكاكين وسلاسل - مرفقةً بمقالات من الصحف تذكر مسارح الجريمة التي رُفِعت منها.

- هل هذه هي الأدلّة الماديّة الدامغة للمحاكمات؟ هل تهوى جمعها؟

وبدل أن يجيبها، كرّر غابرييل عليها أن تتبعه. وعندما وجدت نفسها أمام باب ما خمّنت أنّها الغرفة، أدارت المقبض ودخلت. وجدت الجثّة راقدة في ثنايا اللحاف.

عاملة النظافة التي انضمت إليها اكتشفت الجثّة الهامدة لسيّدها مفتوحة العينين وفاغرة الفم. ارتجفت ساقاها تحتها، وخارت قواها وسقطت على الأرض.

لم تضيّع لوسي وقتها في الانشغال بها. قلبت جثّة الكاتب لتجسّ نبضه.

فلاحظ غابرييل على جثّته بقعًا صغيرة مائلة للون البنفسجي على جلد يديه. وكان قد تعلّم، في دروس علم الجريمة، أنّ هذه العلامات التي تُدعى «نزفًا داخليًّا» هي علامة على تسميمٍ.

وضعت لوسي أذنها على القفص الصدري لغابرييل، ثمّ أعلنت:

- هذا ما كنتُ أعتقد بالضبط. نبضك ضعيفٌ جدًّا بالفعل، لكنّه لا يزال يعمل.

- لا بدّ أنني في غيبوبة. *وهذا يعني أنه من الممكن إنقاذي.*

- على الأرجح لا يزال أمامنا فرصة لكي نتصرّف، ولكنني أسمح لنفسي أن أطرح عليك السؤال بكلّ وضوح: هل تُريدُ حقًّا أن تستعيد هذا الغلاف اللحمي؟

نظر غابرييل إلى جسده وأجاب من دون تردّد بالتأكيد.

استدعت لوسي جمعية «سامو أورجانس» المعنية بتقديم الخدمات الطبيّة العاجلة، فحضرت سريعًا. توجّه أحد مسعفي الجمعية نحو ماريا كونسيبسيون، التي ظلّت طريحة الأرض.

أوضحت لوسي وهي تشير إلى السرير:

- كلا، ذاك هو المريض.

تفحّص زميلها سريعًا غابرييل واقترح نقله فورًا إلى قسم الطوارئ في مستشفى بومبيدو.

رفع الرجلان اللذان يرتديان صدرية فوسفورية باللون البرتقالي الجسد على نقّالة، ثمّ أقلعت سيارة الإسعاف بأقصى سرعتها، وهي تشغّل صفّارات الإنذار وأضواء التنبيه. لحق بهما غابرييل، قلقًا، وأخذ مكانه بجانبهما في مقدّمة سيارة الإسعاف.

قال المسعف الجالس إلى يمينه:

– هل تعلم كيف اختار والداي اسمي؟ لأنني ولدتُ في سيارة الإسعاف التابعة لجمعية سامو. وكذكرى عن الواقعة، قرّرا إطلاق اسم ساموئيل عليّ. كان قدرًا مكتوبًا عليّ.

ما إن انطلقا حتى اضطرّا إلى التباطؤ.

قال زميله:

– لقد قالت الفتاة إنّه كاتبٌ شهيرٌ. هل تعرفه، أنت؟

– اسمه يعني لي شيئًا ولكن بغموض.

– أليس هذا هو الكاتب الذي يكتب للشباب؟

– نعم، أعتقد أنّ ابني قرأ الكثير من كتبه. إذا ما نجحتُ في إنقاذه وأخذتُ منه توقيعًا تذكاريًّا، سيكون من شأن هذا أن يُفرِحه كثيرًا.

– ابنك يقرأ كتبًا؟ مرحى له! أمّا ابني، فلا يقرأ. لا بدّ من الاعتراف بأنني لا أمثّل بالنسبة إليه مثالًا يُحتذى به في هذا المجال. لم أفهم قط كيف يمتلك المرء الصبر لقراءة هذا العدد الكبير من الصفحات المتتالية! وأن يبقى جامدًا في مكانه لا يحرّك سوى عينيه أمام ورقٍ مليءٍ بحروفٍ ناعمة... ولا توجد لا صور ولا حتى مناظر! وأنت، هل تقرأ كتبًا؟

– أنا أتعب كثيرًا بحيث لا يعود لي متّسع لذلك. بعد وظيفتي، أنام حتى أمام التلفزيون. وبالتالي لا داعي لأن أخبرك بما سيحدث أمام كتابٍ...

– ماذا تشاهد في التلفزيون؟

– المسلسلات الطبيّة، مثل مسلسل *إي آر*، وغريز *أناتومي*، ودكتور *هاوس*، وماذا عنك؟

– أما أنا، فأفضّل مشـاهدة المسلسـلات البوليسية مثل مسلسل *سي إس آي: التحقيق في موقع الجريمة*.

– على أيّ حال، في النهاية لا تعرض هذه المسلسـلات تقريبًا سـوى ما نعيشـه كلّ يوم: أناسٌ يموتون، وليس دائمًا بالطريقة العاديّة. الأمر مشابه في الواقع أيضًا، اللعنة، في مهنتنا، لا نصادف سوى حالات الموت المذهلة!

– بالنسبة إليك، ما هو أغرب موت شاهدته؟

واصلا نقاشهما بينما انفتح الطريق أمامهما أخيرًا. أصغى غابرييل إليهما، محبطًـا لكونه لا يسـتطيع التدخّل في هذا النقاش. فـي تلك اللحظة، تملّكته فكرة وحيدة:

«أتمنى أن يصلا في الوقت المناسب لإنقاذي».

7. الموسوعة: حالات موت فريدة وشهيرة

– توفي الكاتب المسرحي اليوناني إسخيلوس بضربة على الرأس عام 456 قبل الميلاد. اعتقد صقرٌ أنّ رأس إسخيلوس هو صخرة ملساء مدوّرة، فأفلت سلحفاةً حيّةً فوقه لكي يحاول تحطيم قوقعتها ويستطيع التهامها[1].

– توفي الفيلسوف خريسيبوس عام 205 قبل الميلاد خلال وليمةٍ. حينما شاهد حمارًا يأكل بعضًا من التين مباشرةً من سلّة مخصّصة لضيوفٍ مرموقين، انتابته نوبةٌ من الضحك الهستيري انتهت باختناقه.

– في القرن الأوّل بعد الميلاد، اختنق دروسوس، ابن الإمبراطور الروماني كلاوديوس، بحبّة كمثرى ألقى بها في الهواء ثمّ التقطها بفمه لكي يتباهى أمام أصدقائه ويُبهرهم.

– في عام 1518، في ستراسبورغ، استبدّت بقسمٍ من السكان

1 – لكي تلتهم الطيور الجارحة السلاحف، تقوم بحمل السلحفاة والارتفاع بها عن سطح الأرض ومن ثم تركها حتى تسقط على صخرة وتتكسّر قوقعتها كي يستطيع أكلها. المترجم

رغبة جامحة في الرقص. وكان نوعٌ من الفطر، وهو فطر الشقران، قد نما في الواقع بين مخزونات الحبوب. والحال أنّ هذا النوع من الفطر (الذي يدخل في تركيب مخدّرٍ يُدعى إل إس دي) له مفعولٌ مهلوسٌ فوري. ولأنّ الأطبّاء لم يعرفوا كيفية معالجة الضحايا، أقاموا في وسط السوق مسرحًا سُمِح بالرقص عليه، ودعوا موسيقيين لكي يقوموا بالعزف. انخرط أكثر من أربعمئة شخصٍ في الرقص والهذيان طيلة شهرٍ كاملٍ قبل أن يموتوا بسبب الأزمات القلبية أو الإنهاك.

- في عام 1567، مات هانس شتينينغر، عمدة مدينة برونو النمساوية، بسبب تهشّم رقبته بعد أن سار على لحيته التي بلغ طولها مترًا وأربعين سنتيمترًا.

- في عام 1599، مات ناندا باين، ملك ميانمار من جرّاء نوبة ضحكٍ هستيرية حينما علم أنّ مدينة البندقية هي جمهورية يحكمها مجلسٌ وبالتالي ليس لها ملكٌ.

- في عام 1601، سافر العالم الفلكي الدانماركي تيخو براهي مبتكر علم الفلك الحديث في عربةٍ مع الإمبراطور رودولف الثاني. وكان في غاية الحماس والافتخار بشرح حركة الكواكب له إلى درجة أنّه لم يجرؤ على طلب التوقّف وإفراغ مثانته، فتسمّم دمه ببوله ممّا أدّى إلى موته.

- في عام 1687، كان جان بابتيست، المؤلّف الموسيقي الرسمي لبلاط الملك لويس الرابع عشر، يقود عملًا موسيقيًّا بعنوان «إلى الله» احتفالًا بتعافي الملك بعد نزلة بردٍ قويّة، فطرقت قدمه من دون قصدٍ بالعصا التي استخدمها في ضبط الإيقاع. أدّى الجرح إلى إصابته بالغرغرينا التي تسبّبت بموته.

- في عام 1763، عُثِرَ على الأب بريفو، مؤلّف رواية مانون ليسكو، وهو ملقى بجوار تمثالٍ لمسيح اليسوع على الصليب. وبينما كان الطبيب الشرعي يشقّ قفصه الصدري لمعرفة سبب وفاته، فتح الكاتب عينيه وأطلق صيحة مدوّية ومات، مقتولًا بسبب التشريح.

- في عام 1864، أُصيب جورج بول عالم الرياضيات ومبتكر جبر بول بنزلة برد. فقامت زوجته ماري، نصيرة الطبّ المثلي الذي كان حديثًا تمامًا ومن مبادئه «علاج الدّاء بالدّاء»، بسقاية زوجها ماءً باردًا جدًّا لمعالجته، ولكنّه مات في نفس المساء من جرّاء إصابته بالالتهاب الرئوي.

إدمون ويلز،
***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

-8-

بسيارتها من طراز سمارت الكهربائية، سارت لوسي بسرعةٍ فائقة في إثر سيارة الإسعاف. رنّ صوتٌ فجأةً في قمرة القيادة.

- *هل يمكنني البقاء معكِ، يا آنستي؟ أنا أفضّل حديثكِ على حديث رَجُلَي الإسعاف. إنّهما يغيظانني ولا أطيق العجز عن التدخّل في حديثهما. أمّا أنتِ، فعلى الأقل تسمعينني.*

ولكن سرعان ما اضطرّت إلى التوقّف، حيث علقت من جديد وسط الازدحام المروري.

سأل الكاتب، حانقًا:

- *لماذا لا يستخدمان الرصيف؟*

- لأنّ هناك مشاةً على الأرصفة. على أيّ حال، لا داعي لأن تغضب، فأنت قادرٌ على عبور المادّة، أمّا نحن فلا نستطيع فعل ذلك. نحن عالقون هنا.

سأل غابرييل، متنهّدًا:

- *ألا يمكننا أن نستقلّ طائرة مروحية؟*

ثم استدرك، قائلًا:

- *اعذريني، إنّه الانفعال. لحسن الحظّ أنّكِ هنا، ولكنني لا أزال لا أستطيع أن أفهم لماذا تساعدينني، يا آنسة فيلييني.*

- لقد أخبرتك، فكتابك غيّر حياتي.

- **نحن الموتى**؟ *ولكنّه كان أكبر إخفاقات عملي! لم يبع الناشر سوى ما يقرب من عشر نسخ من الكتاب وأُتلِفَت بقية النسخ. اضطرّ لتركه في واجهة المكتبات لأسبوع كاملٍ، ولم يحظَ بمقالةٍ واحدةٍ في وسائل الإعلام. هكذا تموت الكتب التي لا تجد جمهورها.*

- لقد وجدني أنا. والآن بعد أن أصبحتُ أعرف على نحوٍ أفضل العالم اللامرئي، يمكنني التحقّق من المعلومات الواردة فيه. بعض الأشياء التي قلتَها صحيحة، ولكن هناك الكثير من الأشياء التي تفتقر إلى الدقّة.

ظلّت سيارة السمارت واقفة، وغطّت أصوات منبّهاتٍ غاضبة على ضجيج صفّارات الإنذار في سيارة الإسعاف. حاولت بعض السيارات المناورة بعرض الشارع الأمر الذي لم يسفر إلّا عن إضافة المزيد من الفوضى.

- لنبدأ بالأمور الأكثر أهميةً. في كتابك، تقول إنّ تسعين بالمئة من الأرواح تتناسخ بعد الموت في حين تتحوّل عشرة بالمئة منها لتصبح ما يُسمى بالأرواح الهائمة، وهي الفئة التي نجد فيها، بحسب رأيك، المنتحرين والأشخاص الذين لا يزالون متعلّقين بشدّة بماضيهم.

- *لقد وجدتُ هذه النسب المئوية في* **كتاب الموتى التيبتي** *و*في **كتاب الموتى الفرعوني**.

- العكس هو الصحيح تمامًا.

- *هل أنتِ متأكّدة؟*

- هذا منطقيٌّ. بكلّ بساطة لأنّ أغلبية الناس يحنّون، مثلك، إلى «غلافهم الجسدي» وإلى الأسطورة التي بنوها حول شخصهم. ثمّة عبارة تلخّص هذه الحالة: «كلّ شخص أسير القصّة التي يرويها عن نفسه». يحبّ المرء كثيرًا ماضيه إلى درجة أنّه ليس مستعدًّا للتخلّي عنه فجأةً لكي ينطلق في حياةٍ جديدة يفترض حتمًا أنّها سوف تكون أقلّ إثارةً للاهتمام من الحياة السابقة.

- *أحسستُ بهذا في بعض الأحيان مع بعض رواياتي التي لم أرغب في تركها. كنتُ أصبح على علاقة جيّدة مع بطل الرواية، بحيث يكاد يصبح صديقًا لي.*

– أنت تُدركُ إذن جمود نسبة تسعين بالمئة من الأرواح الهائمة التي تظلّ متعلّقة بذاتها السابقة.

– نعـم. وأعتـرفُ بأنني لكثرة ما كتبتُ قصصًـا أرى الماضي الخاصّ بي كرواية. أنا مستعدٌّ لأن أصغي إلى ما لديكِ لتقوليه لي.

– يجب أن تعرف ما هي سمات الأرواح الهائمة. أعتقدُ أنّك استطعت سـابقًا التحقّـق مـن بعضهـا، ولكنني سـوف أعددها لـك جميعًا بحسـب ما صنّفتها. لنبدأ بالمحاسن:

1. لا تعود هناك آلام جسدية.
2. لا تعود هناك أمراض.
3. لا يعود هناك تعبٌ.
4. لا تعود هناك حاجة لتناول الطعام.
5. لا تعود هناك حاجة للنوم.
6. لا تعود هناك شيخوخة.
7. لا يعود هناك خوفٌ من الموت.
8. تصبح هناك إمكانية الطيران.
9. تصبح هناك إمكانية عبور المادّة.
10. تصبح هناك إمكانية الذهاب لرؤية وسـماع كلّ ما تريده وحيثما تريد (ناهيـك عن الدخـول المجاني إلى دور السـينما وقاعات الحفلات الموسيقية والمتاحف).
11. إمكانية أن تختار مظهرك الجسدي ولباسك.
12. إمكانية التحدّث مع الأرواح الهائمة الأخرى.
13. إمكانية أن يُسـمَع صوتـك وأن تتصرّف مع الأحياء الذين لا يكونون «معزوليـن» تمامًـا لأنّ لديهـم ثغـرات فـي هالتهـم: مدمنـون على المخدّرات أو الكحول أو يعانون من انفصامٍ في الشـخصية. سـوف نعود إلى ذلك لاحقًا.
14. إمكانية أن تراك القطط وتسمعك.
15. إمكانية التحدّث مع الوسطاء الروحيين، أقصد الخيّرين...

– وما هي المساوئ برأيكِ؟

عدّدت:

1. لا تعود هناك حاسّة اللمس.
2. لا تعود هناك حاسّة الذوق.
3. لا تعود هناك حاسّة الشمّ.
4. لا يعود هناك نومٌ، وبالتالي لا تعود هناك أحلامٌ.
5. لا تعود هناك إمكانية أن يراك الأحياء.
6. لا يعود هناك احتكاكٌ مع المادّة. لا يمكنك أن تجلس على كرسيٍّ ولا أن تنام على سريرٍ من خلال الإحساس بهما. لا يبدو أنّ لهذا الأمر أهمية تُذكَر، ولكن مع مرور الوقت سوف تفتقد ذلك.
7. لا تعود هناك إمكانية ممارسة الحبّ.
8. لا تعود هناك إمكانية امتلاك الأشياء أو حملها أو الإمساك بها.
9. لا تعود هناك إمكانية أن ترى نفسك في المرايا (وسرعان ما يصبح هذا الأمر مثيرًا للغضب).
10. لا تعود هناك إمكانية استخدام حاسوبٍ.
11. وبالتالي لا تعود هناك إمكانية مواصلة كتابة روايات، لأنّه يستحيل أيضًا الإمساك بقلمٍ. وأعتقدُ أنّك سوف تشتاق إلى هذا.

– الأمرُ يشبه بعض الشيء فيلم الشبح، الفيلم الأمريكي الذي أُنتِج في التسعينيات من القرن العشرين؟

– إلّا أنّ هذا الفيلم يحتوي على أخطاء أكثر من روايتك. على سبيل المثال، في نهاية الفيلم، ينجح شبح باتريك سويزي في التصرّف مع المادّة ويوجّه لكمات إلى خصمه. هكذا تحوّل إلى «الرجل غير المرئي» وبالتالي لم تعد له أيّ ميزة في هزيمة خصومه! في حين أنّ الأرواح الهائمة لا تستطيع في الواقع أن تلمس أيّ شيءٍ على الإطلاق ولا أن تتحرّك. إنّها تعبر كلّ شيء.

– ألا تستطيع الأرواح الهائمة حتى إصدار صريرٍ من الأدراج أو مفصّلاتها، أو إغلاق الأبواب أو دقّ جرس الساعات الجدارية في القصور التي ترتادها؟

– هذه عبارات نمطية تصعب إزالتها، ولكن إليك القاعدة الرئيسية: إنّ

الروح التي تغادر جسدًا لا يعود في وسعها أن تفعل أيّ شيءٍ بالمادة. أقصى ما يمكنها فعله هو أن تؤثّر على روحٍ أخرى. وتذكّر جيّدًا أنّ الأجساد محميّة بهالتها، بنفس الطريقة التي يحمي بها الغلاف الجوّي الأرضَ من النيازك والإشعاعات الشمسية. وحدها الأجساد التي تعاني من وجود ثقوبٍ في هالتها تكون سهلة المنال، أي متجاوبة.

انتهى الازدحام المروري أخيرًا، فتقدّمت سيارة الإسعاف وحاولت سيارة السمارت أن تسير في أعقابها من أقرب مسافة ممكنة، ولكنّ سيارات أخرى نجحت في الفصل بين العربتين.

– أحببتُ في روايتكَ أيضًا حبًّا جمًّا *موسوعة العلم النسبي والمطلق* لإدمون ويلز. ولكن كيف راودتك فكرة أن تضع كلّ هذا التوثيق داخل الكتاب نفسه؟

– كان «البروفيسور إدمون ويلز» أحد أعمام أبي. وقد مات منذ زمنٍ بعيدٍ. كان بالفعل قد ألّف موسوعةً شخصيّة أورثها لعائلتي، وقد اقتنيتها ذات يوم لكي أقرأها. فقلتُ في نفسي إنّه سيكون من المفيد أن أنشر هذه المعلومات التي يعرفها غالبًا القليل من الناس.

– وماذا كان يفعل عمّ والدك هذا في حياته؟

– كان عالم حشراتٍ مختصًّا بالنمل، ولكنّه أيضًا كان بيولوجيًّا وفيلسوفًا ومؤرِّخًا. وقد أطلق على هذه الموسوعة العجيبة اسم م.ع. ن. م، اختصارًا لاسم «موسوعة العلم النسبي والمطلق». لم تُنشَر قط، ولكنّ والديّ تحدّثا باستمرار عنها كمرجعٍ عائليّ. وقد عثرتُ فيها على معلوماتٍ مفيدةٍ جدًّا لرواياتي.

– هل كان يهتمّ بالروحانية؟

– كان إدمون ويلز فاقدًا للذاكرة، ولذلك كان يدوّن كلّ ما يجده غير مألوفٍ. ليس عن الموت فقط، رغم أنه يبدو في الواقع منشغلًا جدًّا بـ «الآخرة». من جهتي، استخدمتُ بشكلٍ أساسيّ المجلّد الثاني عشر من الموسوعة، الذي يتحدّث عن الروحانية.

أقرّت لوسي:

- حتمًا الموت هو السرّ الأعظم في كلّ العصور والأزمان.

ذكّرت هذه الكلمات غابرييل فجأةً بأنّه ربّما قد تبقّى له أملٌ ضئيلٌ في القدرة على العودة إلى عالم الأحياء...

-9-

حينما وصلت لوسي إلى مستشفى بومبيدو، لم يُسمَح لها باللحاق بالفريق الطبّي للتدخّل. أبعد من مكانها، في قاعة الإنعاش، تلقّى جسد غابرييل الشاحب صدمات كهربائية وحقن أدرينالين مباشرةً في قفصه الصدري. ورغم كلّ الجهود التي بُذِلَت لم يستجب.

قال أحد الأطباء:

- لن نتمكّن من إنقاذه.

صرخ الكاتب عبثًا:

- *كلّا، واصلوا محاولاتكم، لا تتخلّوا عنّي!*

ألحّ أحد الرجلين من ذوي الصدريات البيضاء كما لو أنّه سمع صرخة الكاتب:

- يجب أن نبذل المزيد من المحاولات.

- *أحسنت! قرارٌ صائب. أحبّك كثيرًا يا رجل.*

واصل الأطباء بذل مساعيهم، ولكنّهم فقدوا بالفعل الثقة بنجاحها.

- أؤكّد لك أنّه فارق الحياة. نحن نخسر وقتنا وأموال دافعي الضرائب.

- *تبًّا، حافظوا على تركيزكم!*

- ليست هناك أدنى فرصة للنجاح...

- هيّا، اصعقه بأقصى شدّة، وإن لم ينجح ذلك سوف أقدّم لك كوبًا من القهوة وفطيرةً في الكافيتريا قبل أن ننتقل إلى المريض التالي.

لم تُحدث الشحنة الكهربائية أيّ ردّ فعل، وهكذا بات الغلاف الجسدي لغابرييل ويلز خارج الخدمة نهائيًّا.

فكّر الكاتب في نفسه:

- هذه المرّة انتهى الأمر. لقد متُّ وانتهى أمري بالفعل.

خطر حينئذٍ في ذهنه سؤالٌ: *«ماذا فعلتُ في حياتي؟»*

في الثانية والأربعين من عمره، بينما وصل إلى الفصل الأخير من حياته، أجرى ما يشبه جردة حساب لنفسه بطريقة مبهرة.

لم أفعل الكثير في حياتي. بالطبع، كتبتُ بعض الروايات، ولكن كان بإمكاني إنتاج ضعف ما كتبت لو لم أكن على هذه الدرجة من الكسل. كان إيقاع عملي الطبيعي هو أن أكتب روايتين في العام، ولكنني قيّدتُ نفسي بكتابة رواية واحدة في العام لأنني كنتُ أعلم أنّ إصدار المزيد لن يكون أمرًا جدّيًا.

كان يجب أن أكافح لكي تُتَرجَم كتبي في الولايات المتّحدة الأمريكية. كان يجب أن أكافح لكي تتحوّل رواياتي إلى أفلام سينمائية. كان يجب أن أشارك في ورشات الكتابة لكي أشرح طريقتي في صنع حكاياتي.

كان يجب أيضًا أن أسافر أكثر. لماذا لم أذهب قط إلى أستراليا، رغم أنّ هذا كان على الدوام حلمي؟

في الواقع، أهملتُ أشياء كثيرة في حياتي لأنني كنتُ أعتقدُ أنّ لديّ متّسعًا من الوقت. ولكن هنا، دهمني الموت واكتشفتُ أنني قد أجّلتُ كثيرًا إنجاز أمورٍ مهمّة.

كان يجب أن أولي اهتمامًا أكبر بوالديّ. لقد عرفتُ الكثير من النساء، ولكن كان عليّ أن أثبت مع امرأةٍ واحدة فقط. لماذا لم أتزوّج قط؟ انتظرتُ المرأة الكاملة ولم أشأ أن أتخلّى عن متعة التجديد. كنتُ أخشى الارتباط والالتزام.

لماذا لم أُنجِب أطفالًا؟ كنتُ أدركُ أنّه سيكون عليّ أن أستثمر طاقتي في تربيتهم، وكنتُ أخشى أن أكون أبًا فاشلًا.

هأنذا أموت وأنا أشعرُ بأنني أهدرتُ حياتي.

يُقال: «ليت الشباب يعلم، لو الشيخوخة استطاعت».

والمقولة تناظر قول الشاعر: «ألا ليتَ الشّبابَ يعودُ يومًا فأخبرَهُ بما فعل المَشيبُ» وربّما علينا أن نضيف: «ألا ليتَ الموتى يستطيعون الاستمرار في الحياة لفترةٍ أطول قليلًا منتفعين بما فهموه في لحظاتهم الأخيرة»...

إذا ما نجحت جهود الإنعاش اليائسة هذه، سوف أتزوّج بأوّل امرأة

ترغب في الزواج منّي، وسوف أنجب منها طفلًا مباشرةً، ثمّ سوف نسافر في رحلة حول العالم وسوف أكتب ثلاثة أضعاف ما ألفتُ من كتب!

يا لها من مأساةٍ أن يموت المرء شابًا.

جاء ممرّضون وأخذوا مكان المنعشين. جرّدوا جسده من الثياب، وقلّبوه على السرير.

سأل أحدهم:

– هل تعلم لماذا نتحدّث عن «متعهّد دفن الموتى»؟ لأنّه في السابق، كنّا نعضّ الإصبع الكبرى في قدم الجثّة لكي نتأكّد من أنّ الشخص قد مات بالفعل وليس في حالة غيبوبة فقط.

– هيّا إذن! حاول أن تعضّ إصبعه هذه، تبدو قاسيةً.

أسقطه أحد الممرّضين برعونة. أحدث سقوط غلافه الجسدي المتهاوي صوتًا شبيهًا بصوت سقوط كيسٍ مليءٍ باللحم.

– انتبه!

– ليس هكذا، فمن شأن هذا السقوط أن يؤلمه!

شاهد غابرييل ويلز ظهره واكتشف عناصر جديدة أقلقته.

صاح الكاتب، الذي حلّق فوق المشهد:

– *هيه! انظر إلى هناك، وكأنّ هناك بقعًا مريبة! يجب إجراء عملية تشريح!*

لكنّ الأحياء لم يستطيعوا سماع صوته، وبدأ الممرّضون بتغليف جثمانه بغطاءٍ، وأغلقوا عليه في الحال باب ثلّاجة.

أعدّ في ذهنه قائمةً:

العلامة رقم 1: نمش أرجواني على راحتي اليدين.

العلامة رقم 2: بقع دائرية واسعة مائلة للون الأرجواني على الظهر.

انضمّ غابرييل إلى لوسي التي انتظرت في صالة الانتظار بنفاد صبرٍ، مغمضة العينين.

– *هذا ليس وقت النوم، يا آنستي، لقد قُضي الأمر ومتُّ تمامًا وقد رأيتُ على ظهري آثارًا دالّة على تسمّمٍ. لا بدّ من تشريح الجثّة بأسرع ما يمكن!*

فتحت لوسي عينيها ببطءٍ.

- لا تزعجني أبدًا حينما تراني مغمضة العينين.

- *ولكن...*

- لا يوجد «ولكن». أنت لا تعرف حتى ما الذي كنتُ أفعله.

- *قيلولة؟*

- كلّا، كنتُ «أتخلّصُ من الطفيليات». سوف أشرح لك لاحقًا. حسنًا، ماذا كنتَ تقول؟

- *أُريدُ أن تُشرَّح جثّتي. النمش الأرجواني الذي اكتشفته على راحتي يديّ، بالإضافة إلى البقع الكبيرة التي شاهدتها على ظهري، كلّها علاماتٌ مؤكّدة لتسمّمٍ. لا بدّ من إجراء تشريحٍ مهما كلّف الأمر في سبيل التحقّق من ذلك. أرجوكِ يا لوسي، افعلي هذا من أجلي.*

تنهّدت المرأة الشابّة، ثمّ نهضت لكي تذهب وتقف في طابور انتظارٍ أمام كوّة كُتِبَت فوقها عبارة «شكاوى/ دعاوى». بعد انتظارٍ طويلٍ، أجابتها سيّدة بدينة:

- وحده أحد أفراد العائلة يمكنه أن يقدّم طلبًا كهذا. هل أنتِ فردٌ من العائلة؟

- كلّا، أنا مجرّد... صديقة.

- في هذه الحالة...

صاح الكاتب في تلك اللحظة:

- *ها هو أخي.*

في الواقع، دخل رجلٌ غاضبٌ يرتدي معطفًا أنيقًا بخطى سريعة وطلب أن يرى غابرييل ويلز.

همست لوسي:

- هذا توأمك! لماذا لم تخبرني أنّ لك أخًا توأمًا؟

تفحّصته عن قرب وتعرّفت على الوجه المستدير المطبوع على الأغلفة الخلفية لروايات غابرييل، والأنف الذي ينتهي بكرة صغيرة، والشفتين الرقيقتين، والشعر البنّي القصير.

أكّد غابرييل:

- في الواقع، توماس وأنا توأمان، ونحن نتشابه تشابهًا مطلقًا في مظهرنا، ولكننا متناقضان تمامًا من الناحية النفسيّة.

عرِف شقيقُ الكاتب من موظّفة في مكتب الاستقبال الوجهة التي عليه أن يسلكها. أرادت لوسي أن تعترض طريقه، لكنّ غابرييل استوقفها.

- انتظري! يجب في البداية أن يتجاوز توماس صدمة موتي، وبعد ذلك سوف يكون من السهل إقناعه.

لحق بشقيقه الذي جرى من مكتبٍ إلى آخر قبل أن يصل إلى مشرحة الجثث. انزلق الدرج الذي يحتوي على جثّة غابرييل مصدرًا صريرًا.

انحنى توماس وضمّ جثمان شقيقه التوأم المتوفى. ظلّ لوقتٍ طويلٍ في حالة العناق الحميم هذه، ثمّ نهض.

قال أخيرًا:

- إنّه هو بالفعل.

طلب الطبيب الشرعي من توماس أن يملأ استمارة تعريف ويوقّع عليها. فمسح هذا الأخير دمعةً وفعل المطلوب منه. حالما غادر المستشفى، أخرج هاتفه لكي يتّصل بوالديه من موقف السيارات ويعلمهما بالخبر.

تقدّمت لوسي لكي تقف أمامه.

- توماس ويلز؟

لم يعرها أيّ اهتمام، واكتفى بأن غمغم:

- لم يكن هذا أوانه بالفعل.

- لديّ شيءٌ مهمّ للغاية لأخبركَ به بشأن أخيك.

- منْ أنتِ وماذا تريدين منّي؟

- يجب أن تطالب بتشريح جثّة أخيك.

نظر إليها للمرّة الأولى، قلقًا.

- لم تخبريني من تكونين، يا آنسة...

- صديقة مقرّبة جدًّا.

– كنتِ آخر عشيقة له؟ كان عليّ أن أعرف ذلك، فأنتِ بالضبط نموذجه المفضّل من النساء.

– مجرّد صديقة، ولكن...

– من فضلكِ، أريدُ أنا أبقى وحدي.

– أنا آسفة لإزعاجك، لكنّ غابرييل أخبرني، أقصد كان قد أخبرني أنّه إذا مات، يتمنّى أن تُشرّحَ جثّته.

– يا لها من فكرة غريبة. ولماذا هذا الطلب؟

اقترح عليها غابرييل:

– *أخبريه أنّه كانت لديّ أسباب وجيهة للاعتقاد بأنني سوف أُغتال.*

– أوه... كان يعتقد أنّ هناك من يسعى إلى اغتياله.

– *أخبريه أنني تلقّيتُ رسائلَ تهديدٍ.*

ارتجلت لوسي:

– لقد تلقّى رسائلَ تهديدٍ... كان يعلم أنّ أحدهم يريد قتله.

أجاب توماس:

– أنا أعرف من هو «أحدهم» هذا.

– حقًّا؟ من هو؟

– قلبه.

– ماذا؟

– كان غابرييل يعاني من مشكلة قلبية خطيرة: يعاني من انسدادٍ في الشريان التاجي بنسبة خمسة وسبعين بالمئة، ناجمٍ عن تصلّبِ الكوليسترول. أعرف ذلك، لأنّه أطلعني على صورة إشعاعية. كان عليه أن يخضع لعملية قسطرة، ولكنّه خاف من عملية القلب المفتوح هذه فآثر أن يأخذ بنصيحة هذا الطبيب الطيّب لانغمان، الذي، بحسب رأيي المتواضع، يبالغ في تفاؤله بعض الشيء. نصحه لانغمان بأن يمارس الرياضة كلّ يوم مدّة خمس وأربعين دقيقة، فبدأ غابرييل بممارسة الرياضة. كما نصحه بتناول 0.75 مليغرام من الأسبرين يوميًّا، فبدأ بأخذ الأسبرين. وها هي النتيجة ماثلة أمام أعيننا. كانت نصائح الطبيب لانغمان مجرّد علاج ذاتي، في حين كان عليه

أن يخضع لعملٍ جراحيٍّ ويتناول أدويةً مضادّة للكوليسترول. يقول المثل: للأوضاع القاسية حلولٌ قاسية. ولكن هيهات... لقد آثر أخي اتّباع نصائح صديقه. وقد كلّفته هذه الثقة العمياء غاليًا. لقد حذّرته أكثر من مرّة. ولذلك ليست هناك جريمة، لا تهديد ولا عدوّ خفي، وإنّما فقط هناك أزمة قلبية مثلما يحدث للكثير من الناس.

واصل غابرييل، قائلًا:

- أرجوكِ يا لوسي، ألحّي عليه! قولي أيّ شيء! يجب إقناعه بطلب التشريح.

- لقد تلقّى تهديدات واضحة للغاية بالقتل. لا ينبغي أن تستخفّ بهذا الأمر.

- يؤسفني أن أُخبركِ بهذا، ولكنّ غابرييل كان يعاني من مشكلة بارانويا جدّية. كما هي الحال بالنسبة إلى الكثير من كتّاب الروايات البوليسية. فقد كان يتخيّل جرائم ومؤامراتٍ واغتيالات، باختصار، كلّ ما كان يلزمه كمادّة أوّلية لعمله الذي هو مجرّد تشوّه مهنيّ بسيط. المشكلة هي أنّ الأمر انتهى به إلى تصديق هلوساته. وكان هذا هو الاختلاف الكبير بيننا. كان يعيش في عالم الأحلام، بينما أعيش أنا في عالم الواقع. والواقع هو أنّه كان يعاني من انسدادٍ في الشريان التاجي أدّى إلى حدوث أزمة قلبية أثناء نومه. وما إن يموت المرء، ينتهي بأن تلتهمه الديدان (على الرغم من أنّ الميّت يُحبَسُ في أيامنا هذه في تابوتٍ محكم الإغلاق. ويبدو أنّ الجثث لم تعد تتعفّن حتى، لأنّ هناك الكثير من المواد الحافظة والمضادات الحيويّة وآثار المعادن في الغذاء المعاصر). وكما ترين، الحقيقة دائمًا مخيّبة للآمال. ولكن الآن حينما أفكّر في الأمر، أعتقدُ أنّه سيبقى أكثر وقاية للصحّة إذا ما تمّ حرق جثّته.

صاح غابرييل:

- كلّا! لا تدعيه يحرقني، فمن شأن هذا أن يجعل أيّ تشريحٍ مستحيلًا! يجب إقناعه مهما كان الثمن.

تنهّدت لوسي بعمق وانتهت إلى القول:

- أنا وسيطته الروحية.

بـدا واضحًـا أنّ توماس ويلز قد فوجئ بكلام لوسـي. حـدّق فيها مطوّلًا وهو يتساءل إن كان الأمر يتعلّق بمزحةٍ، ووسط الشكّ الذي انتابه، كتم رغبةً في الضحك.

وعلّق أخيرًا على كلام لوسي:

- أنا لستُ مثل أخي. أنا عالِمٌ حقيقي، ولا أؤمن بكلّ هذه الترّهات.

استشاط غابرييل غضبًا:

- مـن الذي أعطاني هذا الأخ المغرور والمتعجرف؟ من غير المعقول أن يحوّلنـي إلـى كومـة رمـادٍ فـي حين أنّ جسـدي عبـارة عن منجـمٍ للأدلّة والقرائن!

- أنا وسـيطة روحية وغابرييل يتحدّث إليّ. إنّه يعطيني الإشـارة، أقصد أنّ روحه تعطيني الإشارة بأنّه لا يُريدُ أبدًا أن يُحرَقَ.

رفع توماس حاجبه الأيمن، ثمّ قال:

- هل تزعمين أنّه الآن معنا هنا؟

هزّت رأسها ببطءٍ.

- ويطلب منكِ أن تتحدّثي إليّ، هل هذا صحيح؟

- بالضبط.

- هذا غير معقول.

- ولكن هذه هي الحقيقة.

- هـذه هي الحقيقة «خاصّتكِ». ولكنّها لا تنطلي عليّ. الأشـخاص من نوعكِ لا يسـتغلّون سـوى سـذاجة الآخريـن. أنتم لا تدركـون حجم الأذى الذي تتسبّبون به من خلال نشر أكاذيبكم.

صُدِمَت لوسي:

- إنّها ليست...

- لسـتُ ديكارتيًّا صارمًا فحسب، بل أيضًا، مثل معلّمي، لا أؤمن إلّا بما

أراه. حتى حينما كنتُ طفلًا، لم أكن أؤمن ببابا نويل ولا برفات القديس نيكولاس ولا بجنيّة الأسنان وَهَلُمَّ جَرّاً.

– يجب أن تُصغي إليّ لأنّ...

– أنا لا أؤمن بالأشباح، بالله، بالإبليس، بالملائكة. لا أؤمن بالجنّة، بالحياة بعد الموت، بالتناسخ. لا أؤمن لا بالمخلوقات الفضائية، ولا بالجنيّات، ولا بالعفاريت، ولا بالأقزام الخرافيين، ولا بأبراج الطالع، ولا بأوراق التاروت، ولا بالمنجّمين، ولا بالمعالجين بالطبّ التجانسي، ولا بالمعالجين بالطاقة، ولا بالعرّافين، ولا حتى بقارئي الكفّ، ولا بالمحلّلين النفسيين، وبالتالي فإنّ الوسطاء الروحيين الذين يتحدّثون مع الموتى، يكفي أن أخبركِ أنّهم يجعلونني أضحك بخفّة...

– حضرتكَ...

– أنا عالمٌ أؤمن بالمذهب التجريبي الذي هو مصدر ما يكفي من الانبهار والاندهاش. هذا العالم بكلّ بساطة هو ما يبدو عليه: عالمٌ محكومٌ بالقوانين الفيزيائية والبيولوجية غير القابلة للجدل. ليس هناك ما هو خارقٌ للطبيعة في هذا العالم. هناك فقط بعض الناس المُتطيّرين بالجهل الذين يحتاجون إلى تخيّل أشياء والإيمان بأوهامهم لكي يطمئنوا نفوسهم لأنّهم يخشون الموت. ومع ذلك فالحقائق موجودة، محقّقة ولا يمكن إنكارها. وهي معروفة. هذه الحقائق هي التالي: تُولَدُ، تكبر، تموت، تتفسّخ، تتحوّل إلى رماد، ومن ثمّ يأتي يومٌ ينساك فيه الجميع. والحال هكذا تمامًا. لا يُثقلُ المرءُ كاهل الكوكب بوجوده. الحقل السحري الوحيد الذي يبقى لنا، وهذا يكفي بالفعل، هو الحلم: يكفي أن نغمض عينينا، وعلاوة على ذلك هذا لا يكلّف شيئًا.

فتحت لوسي فمها ولكنّها لم تجد شيئًا لتردّ به في وجه محدّثها العنيد والساخر.

– أصغي إليّ إذن عزيزتي، أنتِ ساحرة، فعلًا ساحرة... أنتِ محظوظة في أن تكسبي لقمة عيشكِ من مهنة ليست متعبة كثيرًا وتجني الكثير من خلال الاستثمار في سذاجة الأغبياء، ولكن احترمي هذه اللحظة العصيبة بالنسبة إليّ وهي لحظة موت أخي التوأم.

تدافعت الكثير من الكلمات في ذهن لوسي ولكنّها استعصت جميعًا في حلقها، فاستسلمت واكتفت بأن تنهّدت. ثمّ بعد أن أدارت ظهرها لتوماس، ابتعدت بخطى سريعة. أسرع غابرييل في اللحاق بها.

- أرجوكِ يا آنسة فيليبيني، لا تستسلمي بهذه السرعة. افعلي شيئًا. لا يجب أن أُحرَق، يجب أن يتمّ تشريح جثّتي!

لم تُجِب.

- أخي غبيٌّ واثقٌ من نفسه.

سارت بسرعة أكبر.

- لا تخذليني. أتوسّل إليكِ. هذه أوّل مرّة أموت فيها ولا أدري ماذا أفعل!

- يجب أن أذهب لإطعام قططي.

صعدت إلى سيارتها وأقلعت بسرعة وتوجّهت نحو مخرج موقف السيارات في المستشفى.

- ارحمي ميّتًا بائسًا تمامًا يريد أن يعرف لماذا مات!

أظهرت عنادًا.

- كفّ عن لعب دور الضحيّة.

- دور *الضحيّة؟ ولكنني قُتِلتُ! ومن الطبيعي أن أسعى إلى معرفة المزيد حول هذه الواقعة.*

- لدينا جميعًا مشكلاتنا الشخصية الصغيرة، وهذا ليس سببًا لإزعاج الآخرين بها. هل تتخيّل لو أنّ كلّ مَن اغتيلوا أرادوا أن يعرفوا كيف قُتِلوا؟ هل تريد أن أخبركَ بذلك؟ إنّه فضولٌ غير صحّي. أطلقت منبّه سيارتها لكي تخلي سيارةٌ طريقها. ولأنّ غابرييل ويلز شعر بأنّها غاضبة جدًّا، لم يعد يجرؤ على توجيه الكلام إليها. ومع ذلك أراد بأيّ ثمنٍ أن يحصل على جوابٍ على هذا السؤال الذي كان يتردّد أن يفتتح به روايته والذي ظلّ يستحوذ على ذهنه:

لماذا متُّ؟

-10-

اكتشف غابرييل ويلز مسكن الوسيطة الروحيّة الشابّة، الذي بالكاد يبعد عدّة مئاتٍ من الأمتار عن مسكنه. كان البيت عبارة عن فندق خاصّ يشبه بيت الدمى؛ له بوّابة من الحديد المشغول مزخرفة برسوم حوريّات تنفتحُ على حديقةٍ فيها بستانٌ للخضروات والأشجار المثمرة، وواجهته مبنية من القرميد ومغطّاة باللبلاب، وتنفث مدخنة عالية دخانًا يعلو قمّة السطح.

في داخل المنزل، تتجوّل قُرابة عشر قططٍ برشاقةٍ. اقترب قطٌّ من بينها من الكاتب. ارتعشت أذناه المنتصبتان والحادّتان.

قال غابرييل، مندهشًا:

- *هل يراني؟*

وكردٍّ على تساؤله، ماء القطّ:

- مياو.

فوق المدفأة، رأى صورةً مؤطّرةً تضمّ شخصين، من خلفهما مشهدُ غروب الشمس. كانت صورة لوسي وهي ترتدي البكيني ولرجلٍ مسمرّ البشرة، عضلات ذراعيه مفتولة وعضلات بطنه مشدودة لا تشوبها شائبة، يعانقها بمودّة.

كانت هناك العديد من الصور الأخرى معروضة لهذا الثنائي؛ ملتقطة في أحضان مناظر خلّابة على شطآن الرمال البيضاء، أو وسط غابات أشجار جوز الهند أو أدغال الخيزران. ويظهران غالبًا في حالة عناقٍ أو تبادل نظراتٍ حنونة.

ملأت لوسي بالطعام آنية القطط التي أسرعت رافعة أذيالها مثل هوائيّات. احتكّت بعض القطط بمودّة بربلتي ساقيها. لاحظ غابرييل في ركنٍ من المنزل أجهزة رياضة كمال الأجسام وقد عُلّقت فوقها لافتة تقول:

«على المرء أن يُمتّع جسده ويُريحه

كي ترغب روحه في البقاء فيه».

جلست لوسي القرفصاء على وسادة دائرية وأغمضت عينيها. فُتحت قناة نورٍ فوق رأسها.

رأى غابرييـل أرواحًا هائمة تدور على السـقف. دخلت هذه الأخيرة إلى جسدها من منطقة كليتيها، صاعدة عبر عمودها الفقري حتى قمّة جمجمتها، ثمّ تدفّقت في ذلك الشعاع الضوئي كما لو أنّه مصعدٌ.

حينمـا اختفت كلّ الكيانات من الأنحاء، فتحت لوسـي عينيها، شـهقت وزفرت مرّات عديدة، ونفضت يديها كما لو أنّها تتخلّص من قطراتِ ماءٍ.

سأل غابرييل بحذر:

– *والآن، هل يمكنني أن أسألك ماذا كان هذا الطقس الغريب؟*

– في المستشـفى، كانت هناك حتمًا الكثير مـن الأرواح الهائمة. حينما رأتني، أرادت أن أساعدها في «الصعود».

– *كيف تفعلين هذا؟*

– أتلقّى مقترحات من هرميّتي.

– *هرميّتكِ؟*

– لنقـل إنّها عبارة عن أرواح سـامية تعيش فـوق الأرواح الهائمة ولكنّها تبقى هنا في الأسفل لكي تُدير على نحوٍ أفضل ما يجري على الكرة الأرضية.

بعـد أن غسـلت يديهـا ووجهها فـي الحمّـام، رضيت الوسـيطة الروحيّة الشابّة، وهي تواصل مداعبة إحدى قططها، أن تشرح له:

– أنـت في المسـتوى الأوّل الذي يُدعى «الهيئة النجميـة الدنيا». وفوق هذا المستوى، هناك «الهيئة النجمية الوسطى». وتعلو هذين المستويين «الهيئة النجمية العليـا». تعرض عليّ هرميّتي الأجنّة الضرورية للأرواح الهائمة التي تشـعر بأنّها مسـتعدّة للتناسـخ. وهم يقترحون عليّ عمومًا «صفقات جيّدة». ويعرف كثيرون ذلك، ولهذا السبب فإنه حينما تشعر هذه الأرواح بحضوري تُقبِلُ نحوي. بيد أنّه هناك أيضًا بعض الأرواح الهائمة المتمرّدة. فتطلب منّي الهرميّة أن أُقنعها. أنجح أحيانًا في ذلك، وأُخفق في أحيانٍ أخرى. يحصل لي أحيانًا أن أرافق روحًا هائمة إلى حافّة نفق الضوء الذي يؤدّي إلى التناسخ، ويحصل أن ترفض هذه الروح في اللحظة الأخيرة مواصلة تقدّمها فتتراجع وتعود إلى الوراء.

هزّت كتفيها وأردفت:

- إنّها القاعدة المطلقة: تحفظ الروح إرادتها الحرّة. ولذلك يجب إقناعها، ولهذا السبب تحتاج الهرميّة إليّ على الأرض لكي أتفاوض بدبلوماسية مع الأرواح المتردّدة.

ذهبت لوسي إلى مطبخها الريفي الخشبي وأخرجت كلّ عدّتها من الأقراص والمساحيق والشراب.

- *ما كلّ هذا؟*

- إنّها فيتامينات، وعناصر نزرة، وزيوت أساسية ومستحضرات للمعالجة المثلية.

- *في الحقيقة أنتِ... مصابة بوسواس المرض، ولهذا السبب التقيتُ بكِ في عيادة الطبيب!*

- أنا أدرك ميزة أن أكون حيّةً وأبذل جهدي لكي يستمر هذا لأطول وقتٍ ممكن. إذا كنت تعدّ هذا إصابة بوسواس المرض، فأحسنت. ولكننا رأينا جيّدًا إلى أين أوصلتكَ لامبالاتك بشأن صحّتك...

وعند هذه النقطة شرعت لوسي بإعداد طبقٍ من السلطة المشكّلة لنفسها. وقد شمّت العديد من أنواع الخضروات قبل أن تغسلها وتقشّرها وتضعها مرتّبة على طبقٍ. أضافت سويقات ووريقات بعض الأعشاب، ورشّت بعض بذور السمسم، وتبّلت مجموع الخليط بقليلٍ من زيت البندق.

- أنا أعلم أنّك لا تشمّ روائح أيّ شيء، ولم تعد تمتلك حاسّة الذوق ولا تحتاج إلى الطعام، أمّا أنا، فأحتاج إلى كلّ هذا. ثمّ إنّ وجودي في أماكن مشحونة إلى هذه الدرجة يرغمني على أن أتخلّص من الطفيليات، الأمر الذي يجعلني أشعر على الدوام بالجوع.

تناولت خضرواتها بلذّة واضحة، وهي تقضمها تحت أضراسها.

نظر غابرييل ويلز، المحلّق فوقها، إلى المرأة الشابّة وهي تمضغ الطعام وتلتهمه وتبتلعه. بدا له كلّ هذا ينتمي إلى زمنٍ ولّى، الأمر الذي أثار فيه الحنين.

انتظر إلى أن انتهت من تناول الطعام لكي يواصل الحديث:

– هـل يمكننـا أن نسـتأنف الحديـث عـن معلوماتكِ حول عالـم الهيئة النجمية الدنيا، الوسطى والعليا؟

فرنّ جرس الباب في تلك اللحظة وقطع حديثهما فجأةً.

قالت لوسي مندهشةً:

– أرأيت؟ لقد جاء قبل أوانه.

– منْ؟ هل تنتظرين أحدًا؟

– عملكَ اليومي هو كتابة قصصٍ، وعملي هو أن أقرأها. أنا آسـفة، حتى وإن كنتُ أحبّ كتبكَ، فإنني لا أستطيع أن أكرّس لك كلّ وقتي. سيكون عليّ أن أتـركك الآن، فقـد وصـل أوّل زبائني لهذا اليوم. أنا أعلم أنني لا أسـتطيع إخراجك من البيت، ولذلك سوف أطلب منك فقط، إن كنت تُريد أن تحضر الاستشارة، أن تراعي عملي وخاصّة ألّا تتدخّل فيه. هل اتّفقنا؟

دار غابرييل حولها، ثمّ قال:

– في الحقيقة، لا أعرف أيّ شيء عن مهنتكِ. ويهمّني للغاية أن أكتشفها. هل يُعدُّ فنّكِ بطريقةٍ ما استمرارًا لفنّ الأخوات فوكس؟

11. الموسوعة: الأخوات فوكس

البنات الثلاث للقسّ فوكس هنّ أساس الحركة الروحانية المعاصرة.

اكتشفن موهبتهنّ في مارس / آذار 1848، في قرية هايدسفيل في ولاية نيويورك، حينما زعمت الشقيقتان الصغيرتان كاتي ومارغريتا، البالغتان على التوالي اثني عشر وخمسة عشر عامًا، سماع صوت خبطاتٍ في سرداب منزلهنّ، الذي كان قد اشتُهِرَ بين أهل القرية بأنّه بيتٌ مسكون.

زعمتا أنّهما تستطيعان التواصل مع ميّتٍ أسمتاه «الرجل ذو القدم المشقوقة»، الذي كان يجيب بنعم أو لا حينما تشير الفتاتان الصغيرتان إلى أحرف الأبجدية المكتوبة على ورقة. زعم صاحب الروح الهائمة أنّه يُدعى شارل ب. روسما، وأكّد أنّه بائعٌ متجوّل

اغتيل قبل خمسة أعوام. وادّعى أنّ القاتل أخفى جثّته في سرداب البيت الذي تعيش فيه عائلة فوكس.

يُروى أنّه حينما استطاعت الأخوات فوكس إقناع بعض البالغين بتفتيش السرداب، عثر هؤلاء على بقايا شعرٍ وشظايا عظامٍ تبيّن أنّها بقايا بشرية بعد فحصها من قبل خبراء. أثارت القصّة ضجّة كبيرة وعمّت شهرة الأخوات الثلاث ربوع البلاد.

نظّمت الأخت الكبرى لياه جولة في الولايات المتحدة الأمريكية وتحدّثت أمام حشودٍ تزايد عددها باطّراد. وبدأ العديد من الشخصيات الشهيرة في ذلك الوقت بتغيير معتقداتها. زعم المئات ومن ثمّ الألوف من معجبي الأخوات فوكس بأنّهم نجحوا هم أيضًا في التحدّث إلى الموتى. وبات ذلك العصر عصر البدعة الكبيرة للموائد الدَوّارة ولوح الويجا المعروف أيضًا بلوح الروح وهو عبارة عن لوحٍ صغير مزوّدٍ بأحرف أبجدية تتيح لروح الميت تهجئة أجوبته. وفي عام 1852، قُدِّر عدد الأتباع الرسميين للقضية الروحانية بثلاثة ملايين في الولايات المتّحدة الأمريكية وحدها.

انتشرت الظاهرة كالنار في الهشيم في إنجلترا (نقلها كونان دويل مبتكر شخصية شيرلوك هولمز)، وفي فرنسا (بدعمٍ من فيكتور هوغو وألان كارديك، مؤسس الروحانية)، وفي روسيا (بفضل راسبوتين)، وكذلك في أمريكا الجنوبية.

جنت الأخوات فوكس الثلاث ثروةً لقاء كلّ محاضرة من محاضراتهنّ. في عام 1852، تزوّجت كاتي في إنجلترا بمحامٍ ثريٍّ نجح في إقناعها بالخضوع لاختبارٍ على يدِ خبيرٍ إنجليزي مختصٍّ في كشف الخداع في مجال الخوارق، وهو وليام كروكس. وبعد أن حضر هذا الأخير جلسةً، أقرّ بأنّه ليس هناك أيّ احتمالٍ للغشّ.

في نفس الفترة، تزوّجت مارغريتا بمستكشفٍ مات بعد ذلك بخمس سنوات، أثناء إحدى رحلاته وترك خلفه أرملته المهمومة. وقد حاولت هذه الأخيرة أن تغالب حزنها بتعاطي الكحول.

بعد مضي بضعة أشهر، مات زوج كاتي هو الآخر، الأمر الذي أدّى إلى أن تغرق أرملته أيضًا في الإدمان على الكحول.

اختلفت الأختان الصغيرتان، وقد باتتا مدمنتين حقيقيتين على الكحول، مع شقيقتهما الكبرى لياه التي كانت تقود الحركة الروحانية التي باتت حركة عالمية. وبهدف الإضرار بها، قرّرت كاتي ومارغريتا الصعود إلى مسرح نيويورك لتكشفا الحقيقة: إنّ الأصوات التي كانت تشير إلى نعم أو لا، والتي من المفترض أنّها تصدر عن الأرواح، كانت في الحقيقة صادرة عن الشقيقتين اللتين كانتا تقومان بطقطقة أصابع قدميهما في أحذيتهما. ولدعم أقوالهما، قدّمتا عرضًا أمام طبيبٍ وشرحتا أنّ لياه قد أرغمتهما على تقديم العروض أمام الجمهور بهدفٍ وحيدٍ وهو الإثراء.

هلّل العقلانيون لانكشاف الحقيقة، ولكن الحركة الروحانية كانت قد اتّسعت كثيرًا بحيث لم يعد هذا الحادث كافيًا لإيقاف تأثيرها، حيث ذهب أنصارها إلى حدّ الزعم بأنّ هذه الاعترافات قد انتُزِعَت تحت التهديد. غرقت كاتي ومارغريتا أكثر في عالم الإدمان على الكحول والبؤس. ومع ذلك حاولت مارغريتا أن تستأنف مهنتها وصعدت من جديد إلى المسرح، وتنحّت مرّة أخرى، وأكّدت أنّها تمتلك قوى حقيقية. ولكنّ الاهتمام المتجدّد الذي أثارته سرعان ما تلاشى، وتوفيّت في فقرٍ مدقعٍ في عام 1893، في سنّ الخامسة والخمسين، بعد موت شقيقتها كاتي بأشهرٍ قليلة.

في عام 1904، بعد وفاتهما بأحد عشر شهرًا، وجد أطفالٌ كانوا يلعبون في سرداب البيت في قرية هايدسفيل هيكلًا عظميًا بشريًا خلف جدارٍ. أثارت هذه القصّة ضجّة كبيرة وأتاحت للحركة الروحانية متنفّسًا جديدًا في العالم.

إدمون ويلز،

موسوعة العلم النسبي والمطلق، المجلد الثاني عشر.

-12-

كان أوّل زبائن لوسي رجلًا متميّزًا، يرتدي بدلةً من ثلاث قطع خالية من العيوب. يرافقه كلبٌ ضخم، هو كلب صيدٍ أفغاني. كان للقادمين نفس الشعر الصوفي، ونفس الساقين الرفيعتين الطويلتين، ونفس العينين البرّاقتين، ونفس الشكل. كان الرجل يضع خواتم في كلّ أصابعه.

ترك نفسه يتهاوى في أريكة ذات مسندين كأنّه منهك.

– أُدعى وليام كلارك، وأنا إنجليزي، واشتريتُ قصر ميرينياك، والحال أنّ القصر مسكونٌ بشبحٍ. أحسُّ بحضوره العدواني في منزلي. وخاصّة في الليل. ويجعل هذا نومي مضطربًا، وفي كلّ مرّة أوقِظُ زوجتي. بدأت علاقتنا الزوجيّة تتأثّر بهذا الأمر. وحتى كلبي بات عصبيًّا ومتوتّرًا.

تثاءب الحيوان.

– أنتِ ملاذنا الأخير.

تحدّث الزبون في موضوع طلبه بنفس نبرة مَنْ يحاول التخلّص من جرذانٍ أو نملٍ أبيض. أوضح الرجل أكثر:

– سبق لي أن لجأتُ إلى كاهن الأسقفية الطارد للأرواح الشريرة، ولكن ذلك لم يكفِ. وقد قيل لي إنّكِ الأفضل في معالجة هذه الحالة التي أعيشُ فيها. تحدّث لي أصدقاءٌ كيف أنّهم استفادوا من خدماتكِ وارتاحوا بها. يبدو أنّكِ الوحيدة التي تجيدين حقًّا التحدّث مع الموتى. أتوسّل إليكِ، أنقذيني من هذا المتطفّل المزعج.

هزّت لوسي رأسها وأغمضت عينيها. استخدمت مختلف الوسائط لاستحضار الكيان. وأخيرًا ظهر إكتوبلازم نحيف له ملامح أنثوية بعض الشيء، يرتدي بدلةً أنيقة.

سألته لوسي:

– هل أنت شبح القصر؟

ردّ بصوتٍ جافّ:

– *أنا بارون ميرينياك، السابع عشر بالاسم. أنا المالك السعيد للقصر.*

- يريد المالك الجديد أن تغادر. يقول إنّه في منزله على هذا العقار.

- يا له من زعمٍ وقحٍ! منذ ثمانمئة عام وسبعة عشر جيلًا على الأقلّ تسكن عائلتي في هذا القصر الذي ينتقل من الأب إلى الابن. إنّها لمحض صدفةٍ إذا كان الوارث الأخير، الذي كان وغدًا ليس إلّا، قد لعب البوكر وبدّد التركة التي كان قد ورثها. لا يمكن لغريبٍ، لا يمتّ إلى عائلتنا بصلة حتى من خلال المصاهرة، أن يسرق منّي قصري. أخبريه أنني أنا الذي أريدُ أن يرحل بأسرع وقت، وإلّا سيحصل له مكروهٌ.

لاحظ غابرييل أنّ لدى لوسي رجفةٌ في الجفن الأيسر، وهي حركة يبدو أنّها تعني: «أعلم أنّ هذا لن يكون أمرًا هيّنًا». سعلت بين يديها ورفعت عينيها إلى زبونها:

- حسنًا... يا سيّد كلارك، مثلما طلبت منّي، استحضرتُ الشبح الذي يسكن أرضكم. لقد وافق على أن يتحدّث معي، وبالتالي التحدّث معك. لقد حرص على أن يذكّرنا بأنّه بارون ميرينياك وأنّه في بيته في هذا القصر، لأنّه ملك عائلته منذ سبعة أجيال.

- ليس منذ سبعة أجيال، يا آنستي، بل منذ سبعة عشر جيلًا. يمكنكِ أن تكوني أكثر انتباهًا!

- أوه نعم، اعذرني، سبعة عشر جيلًا. وبالتالي يبدو للوهلة الأولى أنّه لا يريد أن يرحل. يبدو أنّه على العكس من ذلك يرغب أشدّ الرغبة في أن ترحل أنت عن المكان.

- اشتريتُ هذا القصر لقاء الأموال التي كسبتُها خلال سنواتٍ طويلة من العمل الجادّ والمضني في مجال التمويل. لديّ كلّ الصكوك والعقود الموثّقة. إنّه ملكي بموجب القانون.

هزّ الأرستقراطيّ الشفّاف الذي كان يحلّق فوق المشهد كتفيه.

- إنّها ليست سوى أوراق رقيقة مغطّاة ببقعٍ من الحبر. أمّا أنا فأحدّثكِ عن أختام العائلة والتاريخ والمآسي؛ ليست لديكم أيّ فكرة عمّا جرى بالفعل في هذا القصر. لقد ماتت والدة جدّتي أثناء الولادة على السرير الذي يريد هذا الغبيّ تحويله إلى بارٍ للويسكي. قاتلَ جدّي الألمان بالبندقية من

خـلال نافذة الطابق الأوّل التي يريد هذا المالك الجديد سدّها بالأسـمنت. ناهيكم عن شـجرة السـنديان المعمّـرة التي يبلغ عمرها قُرابـة مئة عام والتي يريد قطعها لكي يبني مسـبحًا في مكانها! هذا الرجل ليس لصًّا فحسـب، بل رجـلًا همجيًّـا لا يكنّ أيّ احتـرامٍ لتراث بلدنا. لا يمكن أن أتـرك له منطقتنا. عـلاوة على ذلك، إنّه رجلٌ إنجليزي يأكل لحم البقر المسـلوق مع الصلصة بالنعنـاع. لـن يُفاجئنـي أن يكون سـليل آكلـي الجيـف الذين أطلقـوا بجبن سـهامهم على الفرسان الفرنسيين، الذين ينتمي إليهم أجدادي الأوائل، أثناء معركة أجينكور.

ألحّ الزبون:

- وهل أدرك أنّه يجب أن يدعني وشأني؟

انحنـت لوسـي وغمغمـت كمـا لـو أنّهـا أرادت ألّا تسـمعها الـروح الأرستقراطية:

- لقـد أجاب بارون ميرينياك إجمالًا بأنّ إعطـاءَك المال لوكالة لا يعني البتّة أيّ شرعية في أن تشغل هذا المكان.

صاح الرجل الحيّ:

- ولكن هذا بيتي!

- *كلّا، هذا بيتي أنا.*

- يجب أن يغادر هذا الشبح!

- *إذن فـي هـذه الحالة عليه أن يتنازل مرغمًـا! فأنا لن أرحل أبدًا ومهما حصل!*

علّقت لوسي باقتضاب:

- يقول إنّه لا يريد ذلك الآن...

أحاطت القطط بكلب الإنجليزي. لم تسعَ إلى إخافته، وإنّما فقط أظهرت له حضورها بهذا العدد الكبير. تثاءب كلب الصيد وسـع شدقيه وبعمق لكي يعبّر عن اللامبالاة التي أبداها هؤلاء المنافسون التفهون الذين كان في وسعه أن يسحقهم بضربةٍ من قدمه.

بحثت لوسي عن كلماتها وهي تشابك بين أصابعها وتفردها.

- برأيي كان عليك أن تفاوض، يا سيّد كلارك. وقبل كلّ شيء كفّ عن قول «الشبح». فهذا المصطلح لا يروق للأرواح التائهة. سمِّه «بارون» أو «السيّد البارون». هل من الممكن أن تقتسما القصر؟ أن تترك له قسمًا اعتاد أن يقيم فيه وتترك لنفسك الباقي؟ أريدُ فعلًا أن ألعب دور الوسيط في ما يتعلّق بملاحظاته بشأن أعمال الحديقة، لا سيما حكاية قطع شجرة السنديان المعمّرة التي يبدو أنّها قد أغضبته.

- من المستحيل أن أتفاوض بأيّ شكلٍ من الأشكال مع هذه السحابة من الأبخرة السامّة. لقد فاوضتُ المكتب العقاري الذي باعني هذا القصر بثمنٍ غالٍ جدًّا. لقد أنفقتُ في هذه الصفقة كلّ مدّخراتي ولن أتنازل عن جزءٍ من هذا المُلك لأتركه لهذا المؤذي غير المحسوس حتّى!

مطّت لوسي فمها في تكشيرة تنمّ عن التبرّم وانحنت أكثر قليلًا نحو الأمام.

- أناشدكَ ألا تهينَه إذا كنت لا تريد أن يشهد الموقف تصعيدًا.

- *بماذا نَعَتني هذا الإنجليزي الشبيه باللحم البقري المشوي؟ بسحابة من الأبخرة؟ بالمؤذي؟ أيهينني هذا الشبيه بكومة اللحم الفاسد؟*

لاحظ غابرييل متفاجئًا وجود عنصرية ضدّ الموتى وأيضًا ضدّ الأحياء، ولكنّه آثر أن يبقى خارج كلّ هذه المعمعة.

- عليك أن تُدرك، يا سيّد كلارك، أنّ مطلب بارون ميريناك، الذي يذكر أنّه يقيمُ هناك في بيته، يجب أن يؤخَذ بالحسبان أيضًا.

- ولكن ليس له أيّ حقّ أمام العدالة! إنّه مجرّد متشرّد ليس إلّا!

سألت لوسي، ساخرةً:

- هل تريد أن تقيم عليه دعوى؟ هل تريدُ طرده بوساطةِ مُحضرٍ من المحكمة أم بوساطةِ شرطيٍّ؟

- أريدُ طرده بوساطتكِ أنتِ. أنتِ شرطيّتي الطاردة للأشباح. يجب أن تنظّفي قصري من هذا المُزعِج.

– زن كلماتك، فهو يسمعك. كيف يمكنني أن أجعلك تفهم الأمر... حينما وصل الغزاة الأسبان إلى أمريكا في عام 1492، كانوا يمتلكون هم أيضًا الأوراق الرسمية التي تمنحهم الأراضي التي رست سفنهم بجوارها... لكنّ الهنود كانوا رغم ذلك موجودين على الأرض منذ قرونٍ.

– لا أرى صلة بين هاتين الحالتين!

– بالنسبة إلى الغزاة أيضًا، كان يجب تنظيف البلاد من الهمجيين الذين كانوا يقيمون فيها. ومع ذلك، من وجهة نظر الهنود، كانوا غرباء جاؤوا لاحتلالهم وسرقة الأرض التي ولدوا فيها وعاش أجدادهم باستمرار عليها. هذه مسألة وجهة نظر لا غير.

عبس ويليام كلارك.

– أنا موجودٌ في القصر وسأبقى فيه. وطالما لستِ قادرة على مساعدتي في طرد هذا الشبح، سأذهب لاستشارة وسيطٍ روحيٍّ أكثر مهنيّةً منكِ بقليل. لديّ أسماء وسطاء روحيين آخرين، إنّهم أناسٌ أقلّ شهرةً، ولكن ربّما أكثر فاعليةً منكِ.

– فعلًا، يا سيّد كلارك، ربّما لم أستطع أن أنصحك بما فيه الكفاية لكي أجعلك تختار الدبلوماسية بدل الإصرار على رأيك الذي لن ينجح في الوصول إلى أيّ نتيجة. علاوة على ذلك، لستُ متأكّدة تمامًا من أنّك سوف تكون قادرًا على كسب هذه اللعبة الصغيرة. ففي نهاية المطاف، هذا الشبح موجودٌ بالفعل في بيته. إنّه على أرضه ويعرف ميدانه.

نهض الرجل الإنجليزي، غاضبًا.

– أنتِ تقفين في صفّه، هل هذا صحيح؟

– كلّا، أنا أحاول أن أجد الحلّ الأمثل للجميع.

– لقد طفح الكيل! أفضّل ألّا أضيّع ثانية أخرى من وقتي هنا!

نهض الرجل، ونهض معه كلبه، المتفاجئ، مديرًا خطمه نحو باب الخروج.

أخبرته لوسي:

– ومع ذلك عليك أن تدفع لي مئة وخمسين يورو لقاء هذه الجلسة.

- أنا محبطٌ للغاية! وصدّقيني أنّكِ لا تعرفين عني بما فيه الكفاية.

أخرج وليام كلارك الورقة النقدية وألقى بها أرضًا بازدراء.

توجّهت لوسي بالحديث إلى الروح الهائمة.

- أنا آسفة، لقد فعلتُ كلّ ما في وسعي.

- من الآن فصاعدًا، لن يكون لديّ أدنى وازع في القيام بكلّ ما من شأنه أن يدفعه إلى الرحيل عن القصر. هناك بالفعل أناسٌ نرغبُ في أن نلقّنهم كلّ ما لم ينالوه في طفولتهم.

- لم أفهم، ماذا تقصد بكلامك؟

- الصفعات، على سبيل المثال.

قالت:

- لا تُفرِط في القسوة. إنّه ليس سوى رجل ضيّق التفكير.

- سأكتفي بوضعه أمام تناقضاته.

بينما كانت تتأهّب للمغادرة، لاحظت الروحُ الهائمة للبارون الروحَ الهائمة للكاتب.

سأل:

- هل أنت سائح؟

- آه... نعم، نوعًا ما. لقد متُّ هذا الصباح.

- حقًّا؟ استعد إذن للكثير من المفاجآت.

- عليّ أن أعترف بأنني حتى الآن لم أشعر بالضجر.

- ولماذا أنت هنا؟

- أريدُ أن أعرف مَنْ قتلني.

قال البارون بوجهٍ تهكّميٍّ:

- فعلًا هذا هو ما يشغلُ «ميّتًا جديدًا»...

انحنى انحناءة احترامٍ، ثمّ بحركةٍ يشير فيها إلى الوسيطة الروحية، أسمَعَ غابرييل بأنّه بين أيدٍ أمينة.

-13-

خلعت لوسي حذاءها وخرّت في أريكةٍ. رنّ هاتفها المحمول ولكنّها لم تردّ على المكالمة. بينما كانت قططها تحيط بها لتلعق يديها، اقترب منها غابرييل حائمًا فوق رأسها.

– *يجب أن تساعديني، يا آنسة فيليبيني.*

– أتمنى ألّا تعاتبني بدورك على أنني لستُ «مهنيّة» بما فيه الكفاية.

– *يجب أن تتصرّفي في العالم المادّي لأنكِ وحدكِ قادرة على فعل ذلك.*

– كيف؟

– *من خلال التحقيق في مقتلي.*

– أنا لستُ محقّقة.

– *ليس في وسعي فعل أيّ شيء من دونكِ. أنا وحيدٌ لا سند ولا معين لي.*

نظرت بإهمالٍ إلى هاتفها الذي عاود الرنين، لترى منْ هو المتّصل ومرّة أخرى امتنعت عن الردّ عليه.

– في النهاية، أنت تتصرّف بطريقة مناسبة كميّتٍ حديث الوفاة. يشعر معظم الناس بالأسف على مصيرهم ويفقدون فجأةً حسّ الفكاهة لديهم. أمّا أنت، فلا يزال لديك شيءٌ من هذا الحسّ.

بينما كان يحاول إيجاد طريقة لإقناعها، تذكّر العبارة التي نطقتها: «كلّ شخص أسير القصّة التي يرويها عن نفسه». أدرك أنّه لم يُظهِر أيّ تعاطف حيالها. منذ البداية، لجأ إلى خدماتها ولكنّه لم يُظهِر اهتمامًا بها. تمامًا مثل جميع الزبائن الذين يأتون لمراجعتها وبأنانية مفرطة يعدّون أنّ مشكلتهم هي المشكلة الأخطر في العالم.

– *اروِلي قصّتكِ، يا آنسة فيليبيني.*

– ما هذا، ها أنت تهتمّ فجأةً بأمرٍ آخر غير ذاتك المركزية؟

– *إنّه مجرّد فضول روحٍ انتهت رحلتها إلى شخصٍ بالكاد بدأ رحلته...*

ذهبت لوسي إلى غرفتها وجلبت منها دمية من النسيج تمثّل مهرّجًا مضحكًا. وضعتها في وضعية الجلوس في أريكةٍ.

- سأستخدم هذه الدمية لكي أعرف إلى أين سوف تتوجّه نظرتي، وأنتَ ليس عليك سوى أن تثبّت عينيكَ على عينيها لتلتقط نظرتي. سيجعل هذا حوارنا أكثر راحةً، بالنسبة إليك كما بالنسبة إليّ.

حدّقت المرأة الشابّة في عيني المهرّج الجامد في ابتسامته، وشعر غابرييل أخيرًا بأنّها تنظرُ إليه حينما تتكلّم معه.

- هل تُريدُ حقًّا معرفة قصّتي؟

تغطّت بشالٍ، ودعت قططها تأتي وتتجمّع حول قدميها، وبهدوءٍ بدأت تروي قصّة حياتها.

-14-

«ولدتُ في إقليم سافوا. كان والدي يملك مذبحة دواجن، وأمّي تساعده في إجراء حساباته المالية، وتعدّ وجبات الطعام وتعتني بالشؤون المنزلية. وكنتُ طفلتهما الوحيدة.

بدءًا من سنّ الثامنة، بدأتُ أعاني من نوبات صداعٍ نصفيٍّ متكرّرة. فتقوقعتُ على نفسي، واضطررتُ إلى أن أبقى ساكنة بلا حراك، حبيسة وسط العتمة، مدّة يومين متتاليين في بعض الأحيان. كان أقلّ ضجيجٍ أو أخفّ ضوءٍ يجعلني أقفز من مكاني ويحدِثُ ألمًا فظيعًا في جمجمتي. ودخلتُ في أطوار لا تُطاق من الحساسية المفرطة.

أخذني والداي لمراجعة كلّ الأطبّاء في المنطقة، وجرّبتُ كلّ الأدوية المحتملة والمتصوّرة، ولكن لم يكن هناك أيّ علاجٍ معروفٍ وناجع، وأدى تغيّبي المتكرّر عن المدرسة إلى تراجع مستواي الدراسي. كنتُ دائمًا في الترتيب الأخير بين زملائي في الصفّ، وكان الناس في القرية ينظرون إليّ باستمرار كفتاةٍ معاقة من دون أن يعرفوا حقيقةً ما هي المشكلة التي أعاني منها. وكانوا يتحدّثون معي كأنّني معاقة ذهنيًّا.

ذات يوم، قلتُ لوالدي إنني أريدُ مغادرة هذه القرية التي لا يحبّني فيها

أحـدٌ. فروى لـي عندئذٍ قصّة عنزة السـيّد سـيغان. لا أزال أتذكّرهـا: « قالت العنـزة بلانكيـت إنّها تشـعرُ بالضجـر وسـئمت المزرعة. ففرّت ذات مسـاء وذهبت إلى الجبل حيث التقت وعلًا فتيًّا، فتسـلّيا معًا لسـاعاتٍ عديدة. حلّ الليل وناداها السـيّد سـيغان ببوقه ولكنّها لم تشأ العودة من جديد إلى النطاق الضيّـق لحظيرتـه، فظلّت فـي الجبل وهاجمها ذئـبٌ. قاومت ببسـالة طَوال الليـل، وفي الصباح، نـال منها الإنهاك، فاستسـلمت والتهمها الذئب». ختم والدي سـرده قائلًا لي بألّا أقلق بشأن مسـتقبلي، وبأنني سوف أستطيع تولّي قيادة منشأة العائلة.

أثّـرت هذه الحكاية فيّ تأثيـرًا بالغًا، ولكنني كنتُ أكـره مذبحة الدواجن التـي تغمر رائحتها الكريهة الثياب والشـعر. فتغلّبتُ على خوفي من الذئب، ولمّا بلغتُ سـنّ الرشـد سـافرتُ إلى باريس. وجـدتُ أوّل وظيفة كنادلة في مطعـمٍ نباتـيٍّ صغيـرٍ، واسـتأجرتُ غرفـةَ خادمةٍ فـي عليّةٍ بالقـرب من كراج الشرق، في الطابق السابع من دون مصعدٍ مع مرحاضٍ على الدرج.

كان العمل مرهقًا، ولكن الزبائن المعتادين عمومًا على ارتياد المطعم كانوا يتركون إكراميات جيّدة. ذات يومٍ، حضر رجلٌ وسـيمٌ جدًّا، يرتدي ثيابًا أنيقة ومتميّـزة، ويبدو خجولًا بعض الشـيء. كان وحيـدًا، ويأتي للمرّة الأولى إلى مطعـمٍ نباتـيٍّ. علّمته هذا النظام الغذائي الذي لا يشـتمل على تناولِ «جثثٍ». أضحكه هذا التعبير، واستلطفنا بعضنا بعضًا وتواعدنا خارج ساعات الدوام. كان يعمـل في المجال المالي، وهو نشـاطٌ مربحٌ جـدًّا ولكنّه يعاني في بعض الأحيان من مشكلات أخلاقية لأنّه كان يشكّ في نزاهة ربّ عمله.

كان يُدعـى سـامي داودي. أنا مـنْ بادرتُ في المرّة الأولى إلى الإمسـاك بيده، وبعد ذلك تبادلنا قبلتنا الأولى. في ذلك الوقت، كنتُ في الثامنة عشرة مـن عمـري، وكنـتُ لا أزال عذراء. تقابلنا ما يقرب من عشـر مـرّات قبل أن نجرؤ على أن ننام معًا. وتقابلنا ما يقرب من عشر مرّات أخرى قبل أن يجرؤ على أن يقترح عليّ أن نمارس الحبّ. كانت لحظة استثنائيّة، شعرتُ فيها بأنّه أيقظ جسـدي المخدّر من خلال إضاءته من الداخل. استهواني خجله كثيرًا، ودأب علـى أن يسـألني على الدوام: «ألا يزعجكِ هـذا؟»، كما لو أنّه يخاف طيلة الوقت من أن يزعج الناس.

وبعد ذلك، جرى كلّ شيء كما لو أنّه يحدثُ في حلمٍ. قدّم لي سامي زهورًا كلّما التقينا. بدا مهتمًّا بي كثيرًا ومراعيًا لشعوري ومهذّبًا معي ومحترمًا. كان يردّد على مسامعي كلّ يوم: «أحبُّكِ». عرّفني على شقيقاته الأربع اللواتي يعيش معهنّ (كانت والدته ووالده متوفيين). بالنسبة إليّ كطفلةٍ وحيدةٍ لوالديّ، بدا لي كأنّ عائلةً جديدة تتبنّاني، ووجدتُ في شقيقات سامي صديقاتٍ حقيقيّات. كنّا نتلهّى معًا، ونطبخ معًا، ونقضي معًا عطلات يوم الأحد. خرجنا في رحلاتٍ أثناء العطلة نحن الستّة معًا، ثمّ خرجنا نحن الاثنين فقط. سعدتُ للغاية وسرعان ما تحدّثنا عن العيش معًا في بيته. كنتُ أتوق لمغادرة غرفة الخادمة الصغيرة خاصّتي. قال إنّه يعتزم أن يتزوّج بي، ويريدُ أن ننجبَ ثلاثة أطفال، وإنّه سيفعل كلّ شيء لكي أستطيع التوقّف عن العمل في المطعم. اضطرّ أن ينحني أمام ربّ عمله الفظيع لبعض الوقت الإضافي، ولكنّه كان ينوي أن يفتتح مشروعه الخاصّ في مجال الاستشارات المالية حالما يوفّر ما يكفي من المال.

حسب علمي، لم يكن يعاني سوى من جرحٍ وحيد: غياب والديه. كان والده قد هجرهم بعد ولادته. أمّا أمّه، مونيا، فقد ماتت حينما كان في الرابعة عشرة من عمره، وبالفعل لم يتعافَ من ذلك قط. أخبرني أنّه يراها كلّ ليلة في أحلامه وأنّه يتمنّى لو يستطيع في يومٍ ما التحدّث معها، لأنّه يؤمن بالأرواح. كما أكّد لي أنني بالضبط نموذج المرأة التي كانت أمّه ستفتخر بها زوجةً لابنها. ظلّ يحدّثني عنها باستمرار. كان يقول لي إنّنا نحبّ في كبرنا بقدر الحبّ الذي حظينا به في طفولتنا، وإنّ كلّ قبلة هي مثل قطعة نقدية نتلقّاها ويمكننا استعمالها، حينما نكبر، لكي نلعب لعبة بوكر الحبّ، وكلّما كان معنا قطع نقدية أكثر، كان لدينا فرص أكبر في الفوز. وبالنسبة إليه، كان قد تلقّى الكثير من الحبّ من لدن أمّه، وبالتالي يمكنه أن يمنح هذا الحبّ بالمقابل.

ذات مساء، عاد سامي وقد بدا في غاية القلق؛ تكلّم بسرعة، وشرح لي أنّ مؤسسته سوف تخضع لرقابة ضريبية قد تسفر عن إفلاسها، وأنّ ربّ عمله طلب منه إخفاء حقيبة مليئة بالوثائق المشبوهة. ولأنّه كان يخشى أن يُفتَّش بيته، طلب منّي أن أخفي الحقيبة في بيتي. في الأيام التالية، تصاعد القلق والتوتّر، وأصبح سامي عصبيًّا، وراح يحدّثني عن ربّ عمله البغيض الذي

سـوف يُغرقهم جميعًا. ثمّ اضطرّ لأن يسافر على وجه السرعة. لا أزال أتذكّر التاريـخ، كان أحـد أيـام الجمعة الذي صـادف يوم الثالث عشـر من أبريل / نيسان. أخبرني فقط أننا قد لا نستطيع التواصل لفترة من الزمن، ولكنّه سوف يعـاود الاتصال بي حالما يعود. وفي انتظـار ذلك، كان عليّ التحلّي بالصبر. وهذا ما فعلته بالفعل.

بعـد مضـي ثلاثة أيـام، اسـتيقظتُ في السـاعة الثامنـة صباحًـا على وقع طَرَقاتٍ على باب غرفتي. وحينما فتحتُ الباب رأيتُ رجال الشـرطة أمامي. دخلوا مسرعين إلى الغرفة وفتّشوها إلى أن عثروا على الحقيبة، التي كنتُ قد أخفيتُها تحت السـرير. خلعوا أقفال الحقيبـة وعثروا في داخلها على أكياس مسحوقٍ أبيض.

وأُخذتُ في الحال إلى عربةٍ للشرطة التي اقتادتني إلى المفوضيّة.

كانت الأدلّة كلّها ضدّي، وكنّا نشهد فترةً من القمع الشديد للمخدّرات في أعقاب موتِ مغني روك شهيرٍ من جرّاء تعاطيه لجرعةٍ زائدة من المخدّرات. ولذلك حُكِم عليّ بالعقوبة القصوى: السجن ثماني سنوات.

صـرّح القاضـي: «إنّ هيئتـكِ التـي توحي بالبـراءة والطيبـة تجعلكِ أكثر خطـرًا وضـررًا من الآخريـن، ولذلك يجب أن تكـون عقوبتـكِ بمنزلة مثالٍ رادعٍ». أجهش والداي بالبكاء حينما نطقت المحكمة بالحكم. وكنتُ بالطبع قـد حاولتُ مرّات عديدة الاتصال مع سـامي، ولكن فـي كلّ مرّة كنتُ أتلقّى الردّ من المجيب الآلي لهاتفه.

ومـن هناك شـهدتُ أول انتكاسـة فـي حالة الصداع النصفـي التي كنتُ أعاني منها أصلًا، والتي جعلتني أقضي ذلك المسـاء في المستشفى. وحينما خرجتُ من المستشـفى، نُقلتُ إلى سـجن النساء في مدينة رين. عومِلتُ في البدايـة باحتـرامٍ لأنّ بقية السـجينات رأين أنني مختلفة. الأمـر الوحيد الذي أقلقني هو سـماع صرخاتٍ من بعيد في المسـاء. لم أعلم إن كانت صيحاتُ غضـبٍ أم جنـونٍ أم ألمٍ، ولكنّهـا ألهبت خيالي. علمتُ مـن خلال الحديث مع الفتيات الأخريات أنّ هناك بين زميلاتي السـجينات امرأة من آكلي لحوم البشـر جمّدت لحم أطفالهـا الذين ولِدوا موتى، وأرملة سـوداء قتلت ثمانية

من أزواجها بسمّ الفئران. لم أعرفهما شخصيًا، لأنّ جميع النساء السجينات حينما كنّ يُسألن عن سبب سجنهنّ، كنّ يرددّنّ: «تجارة المخدّرات». كانت هذه هي الجناية الوحيدة التي تُعدُّ «مشرِّفة». من جهتي حاولتُ أن أُظهِرَ براءتي ولكن رُدَّ عليّ بأنّ كلّ سجينات هذا السجن كنّ بريئات لأنّ «المجرمين الحقيقيين لا يُعتقَلون أبدًا»، بحسب ما قالت لي السجينات.

علّمتني عدّة فتيات طريقة كسب المال في ورشة الألعاب (كنتُ أصنع تحديدًا دُمى كبيرة لمهرجّين كهذه الدمية)، كما علّمنني طريقة لسدّ الأذنين لئلا أعود أسمع صرخات الليل، ولكن النصيحة الأهمّ ظلّت ممارسة الرياضة لكي لا أصاب بالجنون. ولكن ذلك لم يمنع لسوء الحظّ نوبات الصداع النصفي التي ظلّت تعصف بي وتزداد إيلامًا يومًا بعد آخر...

ولمّا رأت الفتيات الأخريات أنني أعاني من مشكلات صحيّة جمّة، منحنني الحقّ في الحصول على حصص غذائية إضافية من مطعم السجن، في حين قدّمت لي أخريات بعض شامبو الاستحمام ومساحيق التجميل وطلاء الأظفار وسواها من اللوازم التي كنّ يدخلنها إلى السجن سرًّا من خلال إعطاء رشوة للحارسات. حذّرتني إحدى زميلاتي في السجن ذات يوم ونبّهتني إلى أن لا أبالغ في إظهار جمالي لأنّ من شأن ذلك أن يجرّ عليّ بعض المتاعب والمشكلات. اعتقدتُ في البداية أنّها تمزح، لكن سرعان ما تبيّن لي أن تحذيرها كان جدّيًا؛ فقد علمتُ أنّ فتياتٍ أخرياتٍ قد شوّهن لمجرّد أنّهن بالغن قليلًا في وضع أحمر الشفاه، الأمر الذي أثار غيرة بعض السجينات.

بيد أنّ الجوّ تدهور تدريجيًا وتسلّطت عصابةٌ عليّ. كانت النساء في هذه العصابة يُطلقن على أنفسهنّ تسمية «الضباع» وكان شعارهنّ: «هنا حيث توجد ضبعةٌ، توجد لذّة».

كانت زعيمة عصابة «الضباع» التي تُدعى دولوريس، الأطول قامةً والأكثر قوّة بدنيّة والأكثر مهابةً. شرحت لي أنّ اسمها يعني «ألمًا» في اللغة الإسبانية وربّما لا يكون هذا صُدفةً. أُخذتُ ككبش فداء من قبل ثلاث من مساعداتها اللواتي أردن أن أتخلّى عن رغبتي في البقاء مستقلّة في شخصيتي.

شعرتُ بنفسي مثل عنزة السيّد سيغان وسط قطيعٍ من الذئاب. كنّ يطاردنني في الممرّات، فبحثتُ عن ملاذٍ ألجأُ إليه ووجدته في مكتبة السجن. لم يكن هناك أحدٌ في المكتبة سوى حارسة واحدة. ولكي أخدع الحارسة، أمسكتُ كتابًا بالصدفة من أحد الرفوف. وكان *نحن الموتى*.

أنا التي لم أكن أهتمّ قط بالأدب وحصلتُ على درجات متدنيّة في مادة اللغة الفرنسية، انتابني للمرّة الأولى الشعور بأنّ القراءة وسيلة نجاةٍ. لم يعد لديّ خيارٌ، وتحت الأنظار المرتابة للحارسة شرعتُ أقرأُ بالفعل.

وفي حين كان الكتاب بالنسبة إليّ مضجرًا للغاية، نجحتُ أخيرًا في اجتياز عتبة الحروف والكلمات والجمل، وفجأةً ظهرت في ذهني شاشة سينمائية تحرّكت عليها بنشاطٍ وحيوية شخوص الرواية وتحادثت في ما بينها. شعرتُ أنّني أتقلّبُ وسط عالمٍ موازٍ. كنتُ أسمع أصوات الشخوص، وضجيج الرياح والسيارات وإطلاق الرصاص، والعاصفة؛ كنتُ أرى الوجوه، وأشمّ الروائح، باختصار كلّ ما هو موصوفٌ في روايتك. إلى درجة أنّني حينما جاءت الحارسة وأخبرتني أنّ الوقت قد تأخّر وأنّ المكتبة ستُغلَق، نظرتُ إلى الساعة واكتشفتُ أنّ ساعتين قد مضتا. أمضيتُ ساعتين متواصلتين في القراءة دون أن أشعر حتى بمرور الوقت! ساعتين من الوقت ظللتُ خلالهما متعلّقة بشغف بشخوص روايتك مثل غريقةٍ تتشبّثُ بلوحٍ خشبيٍّ في عرض البحر!

لم أعد أرغب في التفكير بأيّ شيءٍ آخر غير قصّتك. فسألتُ إن كنتُ أستطيع أخذ الكتاب معي إلى زنزانتي، ووافقت الحارسة، منبهرةً بكون إحدانا تقرأُ كتبًا. انتهيتُ من قراءة روايتك في نفس المساء، متخلّيةً عن تناول العشاء.

لقد عشقتُ فكرة البداية في رواية *نحن الموتى*، ذلك الفريق العلمي الذي يسعى إلى صناعة جهاز يُدعى «نيكروفون»[1]، وهو جهازٌ للتواصل مع الموتى. يلتقطُ أبطالك الانبعاثات دون الصوتية الصادرة عن الأرواح الهائمة وينجحون في التحدّث مع الموتى بنفس طريقة محاولة التواصل مع

1 - يُسمى أيضًا هاتف الروح. المترجم

الدلافيـن أو الطيور. على نحوٍ أدقّ، يتحدّثون مع الموتى بنفس الطريقة التي أرادوا سابقًا أن يتحدّثوا بها مع المخلوقات الفضائية.

رأيـتُ روايتـك كروايـة خياليّـة، مـع يقيـن أنّ هـذا سـوف يتحقّق خلال السـنوات المقبلة. في الواقع، حتـى وإن كنتَ قد وضعت كلمة «رواية» على الغـلاف، فإنّــه من الواضح بالنسـبة إليّ أنّك قد اكتشـفت، من دون أن تدري ذلـك، شـيئًا حاسـمًا. بدا لـي كلّ هذا فـي مرحلةٍ مع حدسـي الخـاصّ. إلى درجـة أنّه، في اليوم التالـي، بينما كانت دولوريس وضباعها يحاصرنني لكي يعنّفنني، أشرتُ بإصبعي إلى زعيمتهنّ، وقلتُ لها:

«الروح الهائمة لأختكِ فرانسيسكا حاضرةٌ هنا، وتُخبرني أنّها قادرة على التواصل معكِ من خلال استخدامي كوسيطة روحيّة».

كنـتُ قـد علمـتُ مـن فتـاةٍ أخـرى أنّها قـد فقدت أختهـا في حـربٍ بين العصابـات المتنافسـة في المدن. أمّا بالنسـبة إلى ما تبقّى مـن الحديث، فقد ردّدتُ حرفيًّا حوارًا من روايتك.

ثـمّ ظللتُ حائـرة في أمري، فشـرحتُ لها أنّ فرانسيسـكا كانـت ترعاها وتحبّهـا وفخـورة بهـا. باختصـار، ارتجلتُ الحديـث وأنا أحتفـظُ في ذهني بقاعـدة ذهبيـة: قولي للناس مـا يرغبون في سـماعه وأعطيهـم انطباعًا بأنّهم ليسـوا وحيدين لأنّ أحدًا مـا، في العالـم اللامرئـي، يحميهم. الجميع يرغب في سماع هذا الكلام. لم أعطِ أيّ معلومة دقيقة، و... نجح الأمر.

منـذ تلـك اللحظة، شـملتني دولوريـس بحمايتها مقابل حـوارٍ يوميٍّ مع فرانسيسـكا، الأمـر الذي أتاح لـي فرصة تحسـين منهج تواصلي مـع العالم الآخـر. بـدأتُ أمارسُ شـيئًا مـن الكوميديـا: كنتُ أُغمـضُ عينـيّ، وأعبسُ متظاهـرةً بسـماعِ روحٍ. أدركـتُ أنّ دولوريـس كانـت تكره والدها، وتشـعر بأنّها ضحيّة لعسف الحياة وأنّها تكره الكائنات الضعيفة. عمدتُ إلى ملاءمة خطابي على نحوٍ أدقّ مـع رغباتها لأنني رأيتُ أنّ مسـاعِداتها يحافظن على ريبتهنّ وخشـيتُ أن تُثير إحداهنّ شـكوكها على نحوٍ حاسـمٍ بشـأن مواهبي كوسـيطة روحيّة. وحالمـا ضمنتُ حماية عدوّي اللدود، قدّمتُ استشـارات لسـجينات أخريـات كنّ يسـعين إلى التحدّث مـع موتاهنّ. أدركـتُ أنّ لكلّ

هؤلاء الفتيات رغبات بسيطة: أن يُجامَلن ويُصغى إليهنّ ويَطْمَأنِنّ على مستقبلهنّ. وكي لا أكرّر على جميعهنّ نفس الجُمَل، كنتُ أُصيغُ خطاباتي انطلاقًا من الطريقة التي تقف بها الفتاة أمامي وتلعب بيديها وتبتسم وتمشّط شعرها. ثمّ حاولتُ في المرحلة الثانية أن أسبر أغوار لاوعي هذه الفتاة. في البداية، لم ينجح الأمر، وأوشكتُ في مرّاتٍ عديدة على أن ينفضح أمري أو يعترضن على كلامي، ولكنني استطعتُ على الدوام أن أنقذ الموقف.

بعد أن أغريتُ دولوريس ومن ثمّ جميع الضباع، ذاعت شهرتي وسط فتيات العصابات الأخرى. فأدركتُ أنّ جميعهنّ يشتركنَ في كونهنّ قد سرقن أو جرحن أو قتلن في محاولةٍ لتحقيق أحلامهنّ. كلّ ما كان عليّ فعله هو أن أضفي شيئًا من البهجة على حياتهنّ. كانت مهمّتي بسيطة: أن أخفّف عنهنّ وأمنحهنّ القليل من الصفاء وأساعدهنّ على تقبّل الماضي.

كلّما مارستُ جلساتي الروحانية أكثر، زادت خبرتي وصُقِلَت موهبتي. جمعتُ مساء يوم الأحد قُرابة عشرين فتاةً لكي أعرض أمامهنّ الموائد الدوّارة. بعد السجينات، جاء دور الحارسات، ودائمًا بنفس قصص الحبّ المستحيل، وشعورهنّ بأنّهنّ ضحايا أو أنّ لا أحد يفهمهنّ. كنتُ أخفّف من غضبهنّ وأطمئنهنّ، وأُعلنُ لهنّ عن «مفاجآت سارّة قادمة»، من دون تحديد تاريخٍ دقيق، وأرتجلُ خطبًا داعمة لهنّ. باختصار، كنتُ أمنحهنّ في النهاية الإحساس بأنّ هناك منْ يفهمهنّ. ومن دون أن أدري، تعلّمتُ مهنةً.

وبعد ذلك، خطر ذات يوم في ذهني مباشرةً كلامٌ كأنّ أحدٌ ما حدّثني به من الخارج: «أخبري كارولينا أنّه يجب أن تتخلّى عن انتقامها لأنّ هذا هو ما يجعلها تعيسة. ولكي تجعليها تتخلّى عن ذلك، ستعطيها معلومة هي لا تملكها: والدتها لا تزال على قيد الحياة، وهي تقيم في مدينة آنسي، 12، شارع ريكوليه، الطابق الثالث، الباب الأيمن. رقم هاتفها موجود في دليل الهاتف باسم بيركاي».

كان العنوان محدّدًا بدقّة بحيث رميتُ كلّ أوراقي على طاولة الرهان، لأنّه لو أخطأت لخسرتُ كلّ مصداقيتي، ولكن لحسن الحظّ وبمحض المصادفة، نودي على الفتاة وقابلت أمّها التي كانت تعتقد أنّها ميّتة. فطبقت

شهرتي الآفاق واستسلم آخر معاقل الارتيابيين لتتقاطر السجينات نحوي لاستشارتي.

كما أنّني تلقّيتُ في أعقاب ذلك رسالتين أو ثلاث رسائل خارجية واضحة ودقيقة، وبالتالي اتصالات من شأنها أن تعرّضني للخطر، ولكن في كلّ مرّة تبيّن أنّ المعلومات صحيحة.

استدعتني مديرة السجن ذات مساء وشرحت لي أنّها منذ عدّة أشهر لا تستطيع أن تنام رغم أنّها جرّبت كلّ الأدوية. لاحظتُ وجود الكثير من الصلبان وتماثيل الملائكة والرموز الدينية في مكتبها، وارتجلتُ الحديث معها. أخبرتها أنّ عليها أن تطلب العون من الملائكة. جرى حوارٌ حقيقيٌّ بيننا، فارتاحت ونامت جيّدًا في تلك الليلة التي تلت جلستنا.

ولكي تشكرني على صنيعي، سمحت لي بأن أحظى بزنزانة فردية فاخرة، مخصّصة في الحالة العادية للشخصيات المهمّة. وجدتُ في الزنزانة كلّ وسائل الراحة المتوفّرة في الخارج، مثل التلفزيون والحاسوب وكذلك غرفة منفصلة لأجري فيها «معايناتي». وبقدر ما تحسّنت ظروف حياتي، ندرَت نوبات الصداع النصفي التي تنتابني.

وهكذا أدركتُ، أنا التي كنتُ في الواقع أعاني إلى حدٍّ ما من وسواس المرض، أنّ أفضل وسيلة للحفاظ على صحّة جيّدة هي السعادة. أمّا الشقاء، فهو الذي يستجرّ المرض؛ فالأمر يشبه إلى حدٍّ ما البنوك التي لا تقرض الأموال إلّا للأثرياء وترفض منح القروض للفقراء: واقعٌ جائرٌ، مثل قانونٍ سريٍّ، يتحكّم بكلّ الأقدار.

كما قُدِّم لي هاتفٌ محمولٌ حاولت من خلاله الاتصال مع سامي، ولكن ظلّ التواصل معه متعذّرًا. ثمّ سمعتُ ذات صباح، بعد ألف محاولة للاتّصال، صوتًا يُجيب: «إنّ الرقم المطلوب غير مخصّص». وقد سبّبت لي هذه الرسالة القصيرة نوبةً جديدةً من الصداع النصفي.

ووسط دهشتي الكبيرة، في ذلك الصباح، تبيّن لي أنّ كلّ أولئك الفتيات اللواتي لطالما حسبتهنّ تهديدًا كنّ في الحقيقة سندًا ودعمًا لي. كما لو أنّ هذه الزمرة من النساء المتوحّشات قد أحسّت أنّ واحدةً منهنّ جريحة واعتبرن أنّ

من واجبهنّ أن يهبن لمساعدتي. لقد غدا السجن بأكمله، بنزيلاته الثمانمئة والثماني والسبعين، عائلتي الحقيقية.

علاوة على الراحة، استطعتُ أن أستفيد من خدمات عديدة من هذا المجتمع النسائي المغلق: تنظيف الزنزانة وإعداد الطعام وجلسات تدليك وتزيين. كنّ جميعًا يعتنين بي لكي يحصلن على جلسات روحانية. ومع ذلك لم أبالغ قط في ممارسة سلطتي.

واعتدتُ في الوقت ذاته على تلقّي رسائل متزايدة الوضوح والدقّة واردة من العالم الآخر. في الواقع، تمثّلت الصعوبة في البداية في سماع تلك الرسائل على نحوٍ صحيحٍ، لأنّ الموتى لا يلفظون الكلمات بوضوحٍ؛ إنّهم يغمغمون أو يهمسون، من دون التفكير في راحة تلقّي الوسيط الروحي. وهكذا حدث لي أن خلطتُ بين كلماتٍ متقاربة في لفظها، ولكن ظلّ من الصعب أن أشرح لكائنٍ حيّ أنّ الميّت الذي يتواصل معه لا يكلّف نفسه عناء التحدّث بوضوح.

ذات يوم، اتّصل بي كائنٌ زعم أنّه «أحد أفراد هرميّتي». كان يُدعى دراكون. وهو من شرح لي مبدأ الإدارتين المتوازيتين في العالم الآخر: إدارةٌ تدير الأرواح التي تصعد لكي تتناسخ في جسدٍ جديدٍ، وإدارةٌ تهتمّ بأمرِ أرواحٍ ترغب في البقاء على الأرض. وبحسب دراكون، تسير الإدارتان بطريقة متماثلة مع «موظّفين سماويين» يساعدون في إدارة وتنقية وقيادة الأرواح البشرية. وعرض عليّ أن أكون سفيرةً للهرميّة على الأرض، الأمر الذي قبلته دون تردّدٍ.

طلب منّي أحيانًا أن أتحدّث مع روحٍ هائمة لإقناعها بأن تتناسخ في جسدٍ جديدٍ. وللقيام بذلك، عرض عليّ مقترحات بأجنّة لم تولد بعد وسط أسر ميسورة، الأمر الذي ساعدني في إقناع بعض الموتى بالتخلّي عن فردانيتهم البشرية السابقة.

حينما فشلت، لم يعتب عليّ دراكون، وردّد على مسامعي أنّ لكلٍّ شخصٍ إرادته الحرّة وأنّ لا شيء في وسعه أن يُرغِم الأرواح على القيام بأيّ شيءٍ بالضدّ من إرادتها. الخوف من المجهول طاغٍ عندها والرغبة في

التطوّر غالبًا ما تُكتَم. لقد ذكّرني دراكون بأنّ ما أطلبه منها هو تخلّيها عن كلّ ما يحدّدها، لكي تكون «شيئًا مختلفًا، وفي مكانٍ مختلف، وبوجهٍ مختلف». وقد شكّل هذا بالنسبة إليّ درسًا بليغًا في التواضع: القبول بالإرادة الحرّة للأرواح وعدم الحكم عليها.

ولذلك سعيتُ إلى إنجاز مهمّتي على أكمل وجه وبالمقابل، منحني دراكون كلّ المعلومات التي تمنّيتُ الحصول عليها للتأثير على «زبائني» الأحياء. وهو نفسه منْ علّمني التخلّص من الطفيليات.

ممّا لا شكّ فيه أنني حاولتُ أن أحصل من خلال دراكون على معلومات بشأن سامي، ولكنّه لم يجبني قط، لا ليخبرني عن مكان وجوده ولا حتى ليخبرني إن كان حيًّا أو ميّتًا. بل اكتفى بالقول إنّ ذلك من خارج «صلاحياته».

أيًّا يكن، سار تعاوني مع الهرميّة بوساطة دراكون سيرًا ناجحًا، بل كاد أن يكون في غاية النجاح.

في الحالة الطبيعية، كنتُ سأستفيدُ من تخفيض مدّة العقوبة بسبب حسن السلوك، ولن أقضي في السجن سوى ثلاث سنوات (بموجب سياسة تخفيف الضغط في السجون المكتظّة)، ولكنّ مديرة السجن حرصت عليّ للغاية وعلى مواهبي التي ظلّت تساعدها على النوم، ولذلك آثرت أن تمنح تخفيضات مدّة العقوبة للعديد من المجرمات المتعددات السوابق بدل أن تدعني أغادر السجن. ولم توافق على إطلاق سراحي أخيرًا، صباح أحد أيام شهر أغسطس/ آب، إلّا بعد أن نفدت كلّ الطعون المقدّمة من قبلها للاحتفاظ بي.

كانت مغادرتي مفجِعة لكلّ فتيات السجن. وبهذه المناسبة، نظّمن لي، بموافقة المديرة، احتفالًا كبيرًا بين جدران السجن المركزي. وأعلنت بعض السجينات أنّهنّ سوف يتصرّفن بطريقة مثالية لكي يخرجنَ على نحوٍ أسرع من السجن ويلتقين بي في الخارج. قدّمت لي العديد من الفتيات هدايا؛ سترات صوفية نسجنهنّ بأنفسهنّ، وقوالب حلوى، وحليًّا من صنعهنّ، ولوحات رسمنني فيها في هيئة قدّيسة. كان الاحتفال أشبه باحتفال عيد الميلاد. قبّلتني الحارسات كما السجينات الواحدة تلوى الأخرى. وكانت دولوريس آخر فتاةٍ تعانقني وهي تهمس في أذني: «تعالي للقائنا بين الفينة

والأخرى، وإن لم تستطيعي، اتّصلي بنا على الأقلّ هاتفيًا، فنحن جميعًا بحاجةٍ إليكِ، مثلما تعلمين».

في اللحظة التي تجاوزتُ فيها عتبة باب السجن، بدأت فتياتٌ كثيرات بالبكاء. كنتُ على أملٍ كبيرٍ بأنّ سامي سيكون في انتظاري خارج السجن لكي يفاجئني، ولكن لم يكن هناك أحدٌ. ذهبتُ إلى الحانة الأقرب وحاولتُ الاتّصال به هاتفيًا، وأنا أتساءلُ إن لم يكن قد تمّ التلاعب بهاتف السجن على نحوٍ خاصّ لمنعي من التواصل مع عشيقي. سمعتُ من جديد نفس العبارة: «الرقم المطلوب غير مخصّص».

عدتُ إلى عنوانه، 19، جادة ستراسبورغ، ولكنّ البوّاب أخبرني أنّ السيّد داودي لم يعد إلى البيت قط منذ يوم الجمعة الشهير المصادف في 13 أبريل / نيسان، قبل ثمانية أعوام. وكذلك شقيقاته لم يعدن إلى المكان. ولم يكن قد ترك عنوانًا حتى لمتابعة البريد. خطر لي أنّ ذلك بسبب ربّ عمله الفاسد من دون شكّ وشعرتُ بالارتياح لأنني سُجِنتُ نيابةً عنه.

لدى خروجي من السجن، أعطوني المال الذي كنتُ قد كسبته من خلال عملي في مشغل الألعاب، ولكنني كنتُ أعلم أنّه عليّ أن أجد عملًا في أسرع وقت. لم يوافق المطعم النباتي على إعادتي إلى العمل: لم يكن توظيف سجينة سابقة أمرًا جيّدًا لصورته أمام الزبائن. وفي كلّ الأماكن الأخرى التي بحثتُ فيها عن عملٍ، أُفهمتُ بأنّ ماضي كسجينة يلعب لغير مصلحتي. وحدث الأمر ذاته بالنسبة إلى إيجاد مكانٍ للإقامة، حيث طلب جميع أصحاب العقارات سجلًا جنائيًا نظيفًا. بلا مأوى وبدون عمل، لم أكن أعلم كيف سأخرج من هذا المأزق. قضيتُ ليلتي الأولى تحت جسرٍ ونجوتُ بصعوبة من اعتداء مجموعة من المتشرّدين المخمورين. وفي اليوم التالي، وجدتُ مأوى بالقرب من محطّة الشرق، ولكن هنا أيضًا كدتُ أُسرَق من قبل متشرّدين آخرين. فعرض عليّ قوّادون أن «يحموني». في اليوم الثالث، بدأ الثلجُ بالسقوط؛ كنتُ أشعرُ بالبرد وكدتُ أتحسّر على السجن: على الأقلّ كنتُ أحظى هناك بسكنٍ دافئ، وبوجبات طعام صحيّة، وبصديقاتٍ، بينما تعرّضني حريّتي من الآن فصاعدًا لأهواء الطقس واعتداءات من صنوفٍ شتّى. فأرسلتُ رسالةً إلى دراكون وقرّرت أنّ أوّل

عنصر غريب أراه سيمنحني المفتاح للخروج من هذا المأزق. وفي تلك اللحظة بالذات لمحتُ إعلانًا على لوحةٍ زجاجية. وسوف أتذكّر دائمًا ما كان مكتوبًا فيه:

البروفيسور مامادو مبا.

الوسيط الروحي الكبير المجاز

من جامعة داكار.

ثلاثون عامًا من الخبرة. نجاحٌ 100%

هل تعاني من الخجل، من العجز الجنسي، من الوزن الزائد؟ ألم تربح قط في ألعاب الحظّ؟ هل تُريد أن تحظى بحبٍّ كحبّ أمٍّ لطفلها؟ اختبار الجنس للحصول على القوّة في الحبّ. لدى مامادو مبا الوصفات السحرية. يحمي من الأعداء، ومن الجنون، ومن حوادث السيارات، ومن الأرواح الشريرة. يُعيد عرائس هربنَ مع رجالٍ آخرين، ويُعيد الكلاب والقطط الشاردة. يتحدّث مع أقارب موتى. يؤمّن الحصول على علاوات في الراتب. يشفي السيدا عبر الهاتف. يُصلِح أعطال الدرّاجات الروسية. إن لم ترضَ عن العلاج، استردّ ما دفعته. أقسم بشرفي على ألّا أخون زبائني. أسعار خاصّة للعاطلين عن العمل وللطلاب وللنقابيين وللأرامل ولمعاقي الحرب.

وبعد أن تغلّبتُ على تحفّظاتي الأوّلية، اتّصلتُ بالبروفيسور مبا المتعدّد الاختصاصات، الذي وافق على استقبالي فورًا. كان رجلًا سنغاليًا مسنًّا جدًّا بشعرٍ مجعّدٍ أشيب، يرتدي ثوبًا أفريقيًا من الزيّ الشعبي بالألوان البرتقاليّة والبنفسجية والخضراء، تزيّن جذعه قلائد ذهبية وميداليات عسكرية. كان نصف وجهه مخفيًّا بنظّارات واسعة سميكة مثل قاعدة قارورة زجاجية. حينما كان يضحك، تظهر أسنانه المذهّبة.

بدل أن أطلب منه مساعدتي، عرضتُ عليه خدماتي شارحةً له «موهبتي». بدا في الحال متحمّسًا للفكرة وعيّنني مساعدةً له دون أن يسألني عن سجلّي الجنائي، ولا عن شهاداتي العلمية، بل عرض عليّ أن يؤويني ويُطعمني.

علمتُ لاحقًا أنّه، في لحظة لقائنا، كان قد تعرّض للسطو من قبل أحد زبائنه وأنّ إصابته بشبه العمى لم تكن تسمح له بضمان أمنه الشخصي.

ولهذا السبب بدا له حضوري ليس مُستحبًّا فقط بل ضروريّ أيضًا. وعلاوة على ذلك، كان الزبون الذي سطا عليه قد حضر من جديد في ذلك اليوم مع مساعدين اثنين لاستكمال عملية نهبه. ولكنّ المسدّس الزائف الذي لوّحتُ به آنذاك (الذي أعارني إياه مامادو) كان كافيًا لردّهم على أعقابهم.

لم أحتج إلى العمل طويلًا مع هذا المرابط السنغالي لكي أتأكّد من أنّه لم يكن سوى ما أسمّيه «المرحلة الأولى»: مرحلة علم النفس من خلال المراقبة والإصغاء. كان يقدّم لزبائنه تمائمَ مع لفّة ورق دوّن فيها عبارات بلغته الأمّ: «شغف عاطفي»، «ثراء»، «صحّة كالحديد»... بفضل هذه العبارات القصيرة المهدّئة، حصد نتائجَ مرضية لزبائنه، الذين كانوا غالبًا من السذّج والمؤمنين بالخرافات – مزيجٌ من تأثير الدواء الوهمي ومنهج الإيحاء الذاتي.

سرعان ما تولّيتُ زبائنه الأكثر التزامًا، واقترحتُ عليه تنظيم جلسات روحانية لاقت النجاح سريعًا جدًّا.

ترك لي مامادو نصف الواردات مقابل معالجة الزبائن الذين استقبلتهم فرديًّا وكامل إيرادات الجلسات الروحانية الجماعية. كان رجلًا لطيفًا للغاية، ولم نحتج إلى الكثير من الكلام لكي نتفاهم. لقد اتّفقنا على رمزٍ خاصٍّ بعض الشيء: كانت للجملة نفسها، حسب نغماتنا، ألوف المعاني المختلفة. وهكذا، كان من شأن عبارته الشهيرة «ألا ترى أنّ الطقس باردٌ في هذه البلاد؟» أن تعني أنّ الزبون كئيبٌ أو أنّه يجب التفكير بإعداد وجبة الطعام. أمّا بالنسبة إلى عبارتي: «كان عليك أن تتغطّى على نحوٍ أفضل»، فكانت تعني «اطرده خارجًا بسرعة كبيرة» أو «يمكنك أن ترتاح، وأنا سأتكفّل بكلّ شيء» أو «سأبحث عن المساعدة».

حينما وفّرتُ مبلغًا كافيًا من المال، شكرتُ المرابط العجوز، وأخبرته أنني أريدُ العمل من الآن فصاعدًا لحسابي الخاصّ، ولكن ليس قبل أن أعثر له مسبقًا على بديلةٍ لي، أعتقدُ أنّها سوف تجيدُ العمل بنفس درجة كفاءتي. لم يحاول الاحتفاظ بي، بل رفع نظّاراته لكي يضمّني بين ذراعيه، وللمرّة الأولى، استطعتُ أن أرى أنّ عينيه كانتا مليئتين بالديدان الطفيلية مثل حُقق شفّافة مليئة بالرخويات. قبّلته وشكرته على كلّ ما فعله من أجلي.

استطعتُ حينئذٍ أن أستأجِر شقّةً باسمي، ونشرتُ إعلاناتٍ في كلّ مكانٍ تقريبًا، أكثر رصانةً من معلّمي السابق:

لوسي فيليبيني. وسيطة روحية.

تستقبل الزبائن بعد الظهيرة فقط.

في البداية، كان لدي من الزبائن فقط ما يكفي لدفع إيجار شقّتي وشراء طعامي. ثمّ جاء مامادو لزيارتي وأخبرني أنني أدين له ببعض المال لأنّ منْ حلّت محلّي كانت «غير كفؤة».

بعد صاحبي المرابط، حان دور الشرطة لكي تدهمني، فأخبرني رجال الشرطة أنّهم لا يرون أي مثلبة في ممارسة «فنّي» طالما أنني سأدفع نصف أرباحي للدولة. وبالطبع امتثلتُ لطلبهم دون تذمّر. ثمّ جاءت وسيطة روحيّة أخرى ذات يوم لزيارتي. كانت امرأة مسنّة ترتدي ثيابًا مبهرجة وتضع مساحيق تجميلٍ فاقعة، مثلما يمكنكم تخيّل وسطي الاجتماعي، باختصار. قالت لي إنّه لا مكان في هذا الحيّ إلّا لوسيطة روحيّة وحيدة وإنّها تعمل فيه قبلي. وقد هدّدتني بأن تسلّط عليّ «عبيدها من العالم اللامرئي» لمعاقبتي إن لم أغادر الحيّ سريعًا. بل راحت تصرخ بصوتٍ عالٍ: «ستخسرين شعركِ، وسوف يزداد وزنكِ، وتفوح رائحة كريهة من أنفاسكِ، ولن يرغب الرجال في تقبيلكِ، وستتعفّن قدماكِ، وسينقطع عنك الطمث مبكّرًا، وبالتالي لن يعود بمقدوركِ إنجاب أطفالٍ، وحتى عندما تعدّين طبقًا من المايونيز، لن يكون سائغًا ولن يؤكَل».

وهكذا اكتشفت مباهج العمل الحرّ والمنافسة... ولكن هنا أيضًا، تلقّيتُ يدًا منقِذة: واحدةٌ من زبوناتي، سيّدة عجوزٌ نحيلة ساحرة وأنيقة للغاية بشعرٍ مصبوغٍ باللون الأزرق المائل للرمادي، كانت قد عملت محامية مختصّة بالقضايا التجارية، وثريّة للغاية. لم يكن لديها وريثٌ وعَلِمت حديثًا أنّها ستموت قريبًا. ولكي تشكرني على السماح لها بالتحدّث إلى كلّ أزواجها السابقين، وضعت اسمي في وصيّتها.

دارت العجلة من جديد: بعد المشكلات تأتي الحلول. وهكذا بعد سنواتٍ من الصعوبات، تلقيتُ تلك الهدية من السماء أو من الهرمية: كان إرث السيّدة العجوز يتكوّن من فندقٍ صغيرٍ خاصّ في الدائرة السادسة

عشرة في باريس، تبلغ مساحته نحو مئتي مترٍ مربّعٍ مع حديقة، بالإضافة إلى مليون يورو. أصبح لديّ أخيرًا عشٌّ يؤويني والأمن المالي الضروري لإجراء التقييم ومواصلة العمل. بدأتُ باستخدام هذا المال لتجنيد محقّقٍ خاصٍّ بغرض العثور على سامي. ولكن بعد مضي عدّة أسابيع من البحث والتحقيق، كلّ ما استطاع أن يكشفه لي هو أنّ السيّد داودي لم يعطِ قط دليلًا على بقائه على قيد الحياة منذ يوم الجمعة الشهير ذاك المصادف للثالث عشر من شهر أبريل / نيسان. لم يُعثَر له على أثرٍ في أيّ إدارة ولا في أيّ قسمٍ قضائيّ. كلّفتني هذه المعلومة المحبِطة غاليًا، ولكنني كنتُ مقتنعة في أعماقي بأنّه لا يزال على قيد الحياة.

ثمّ جلب لي ذيوع شهرتي المزيد من الزبائن، وجعلني أكثر ثراءً وشهرةً. نظّمتُ أسبوعيًّا جلسةً جماعية يجلس خلالها أربعة أشخاص حول طاولةٍ ليتحدّث كلٌّ منهم بالتناوب مع الميت الذي يختاره. ومن جرّاء ذلك زادت سياستي المتمثّلة في التخفيض الطوعي لعدد الزبائن من هيبتي ورفعت مكانتي. ذات يوم، زارني وزير الداخلية فالاديه لاستشارتي. وسرعان ما أصبح صديقًا لي. فطلبتُ منه البحث عن سامي، وبعد مضي بضعة أيام، أخبرني أنّ المدعو داودي، بحسب أجهزته الأمنية، لم يختفِ في فرنسا فحسب وإنّما من على وجه الأرض أيضًا. لقد تبخّر. واستنتج من ذلك أنّ رجل الأعمال الفاسد الذي كان سامي يعمل لمصلحته قد أعطى بالتأكيد الأمر بقتله وإخفاء جثّته.

واليوم استعدتُ توازني، وأعيشُ حياتي كوسيطة روحيّة وأنا فخورةٌ بذلك. ليس لديّ سوى خوفٍ وحيدٍ ألا وهو الموت. أشعر بنفسي محظوظةً بوصولي إلى العوالم غير المادّية وأنا بخيرٍ في العالم المادّي. الشيء الوحيد الذي ينقصني لكي تكون سعادتي كاملة هو حبّ حياتي: سامي داودي».

-15-

خلال كلّ الوقت الذي استغرقه سردها، لم تُزح لوسي بصرها عن دمية المهرّج التي لم تبارحها ابتسامتها المرحة الجامدة. مرّت بضع ثوانٍ.

- *إنّها... حقًّا حياةٌ جميلةٌ جدًّا، يا آنسة فيلييني.*

- لا يمكنني أن أقارن، فأنا لم أعرف حياة أخرى.

- *هذا يؤكّد نظرية البرونويا هذه التي قرأتُ عنها في موسوعة عمّ والدي، إدمون.*

- البرونويا؟ لم أسمع قط بهذا المصطلح...

- *البرونويا هي نقيض البارانويا بالضبط. بدل أن تعتقد أنّ الجميع يحقد عليك ويحاول إيذاءك، حينما تعاني البرونويا، تصبح مقتنعًا بأنّ الكون والناس يعملون سرًّا لجعلك أكثر سعادةً.*

أجلست الدمية التي مالت ببطءٍ على جنبها.

- يعتقدُ أخوكِ بالضبط أنّك، أقصدُ يعتقد أنّك كنتَ تعاني من البارانويا على نحوٍ مرضيٍّ.

- *لا يمكنني أن أعدّه مخطئًا تمامًا بشأن هذه المسألة. لكن أن يعاني المرء من البارانويا لا يمنع أن يكون لديه أعداء حقيقيون، تمامًا مثلما لا يمنع كون المرء متشائمًا أن يعيش الكثير من المصائب.*

- إنّ ردّ فعلكَ حيال موتك في نهاية المطاف مبالغٌ فيه بعض الشيء.

- *أتمنى أنّكِ تمزحين، أليس كذلك؟*

- أعتقدُ أنّك تعاني تشوّهًا ناجمًا عن مهنتك ككاتب التي تجعلك ترى المأساة في كلّ مكان. استسلم للبرونويا بدورك واعتبر أنّ «نهايتك» ليست سلبية إلى هذه الدرجة في نهاية المطاف.

- *ولكنني كنتُ ضحيّة اغتيالٍ!*

- وماذا إذن؟ فكّر في مستقبلك. يتذكّر الناس جون لينون الذي اغتيل بطلقة مسدّسٍ في أحد شوارع مانهاتن أكثر من جورج هاريسون الذي مات من جرّاء سرطانٍ طويل الأمد في المستشفى. ومارلين مونرو، التي ماتت في السادسة والثلاثين من عمرها، على الأرجح مسمومةً من قبل الاستخبارات السرّية لكنيدي، ظلّت في ذاكرتنا أكثر من هيدي لامار، التي عاشت حتى سنّ الخامسة والثمانين، وتضرّرت من عمليّة تجميل أجرتها

خوفًا من الشيخوخة، لكي تموت في النهاية بسبب المرض وسط البؤس والنسيان.

- *ما تقولينه شنيع!*

- أحاول أن أساعدك على رؤية الجانب الإيجابي للأمور.

- *هناك مواضيع أفضّل عدم المزاح بشأنها؛ وموتي، مثل موت هيدي لامار، أحد تلك المواضيع.*

سكنت لوسي في مكانها وأغمضت عينيها.

سأل غابرييل:

- *ماذا يحدث؟*

- هم يُخبرونني أنّ لديهم مقترحًا ليعرضوه عليك، يا سيّد ويلز.

- *منْ يكونون «هم»؟*

- *أعضاء هرمّيتي.*

قطّبت حاجبيها تاركةً جفونها مطبقة.

- إنّه عرضٌ استثنائيّ يجب اغتنامه.

ارتعشت أهدابها الطويلة.

- هناك جنينٌ في أسرة برجوازية تعيشُ في فيلا مريحة جدًّا مع إطلالة على البحر بالقرب من مدينة نيس. سوف تتلقّى الحبّ وتحظى بتربية صالحة. ولن تعاني من أي مشكلة صحيّة خلقيّة. وستُحاطُ بأخوة وأخوات يكونون زملاء رائعين لك في اللعب. حتى إنّ هناك كلبًا طويل الشعر.

- *محالٌ أن أتناسخ روحيًا في جسدٍ آخر في حين لا أعلم كيف متُّ! أنا متأكّدٌ من أنّكِ لو كنتِ في مكاني لتصرفْتِ نفس تصرّفي هذا.*

لمّا رأى أنّ رموشها لا تزال ترمش، أدرك غابرييل أنّها تتلقّى رسالة جديدة.

- يُخبرني دراكون أنّ السادة مصرّون على موقفهم. على ما يبدو، تناسخك الوشيك هو جزء من الخطّة الكونيّة.

- *وما هذه «الخطّة الكونيّة» أيضًا؟*

- الرواية العظيمة التي نحن جميعًا شخوصها.

- *وما هو موضوع هذه الرواية العظيمة؟*

- ذات يوم، أثناء حديثٍ أكثر حميميّة من الأحاديث العاديّة، شرحها لي دراكون على نحوٍ غامضٍ. أعتقدُ أنّ لها علاقة مع تطوّر الوعي.

مـن جديـد، تحرّكت حدقتـا عينيها تحـت الجلد الرقيـق لجفونها. بدت كأنّها تحلم.

- يخبرنـي دراكـون أنّـه إن لـم تقبـل بالولادة مـن جديد في جسـد هذا الجنين، فسـوف تنـدم على ذلك إلى الأبد... إلى الأبـد. أنت بالفعل بحاجة إلى أن تتناسـخ روحيًّا بأسـرع ما يمكـن. هذا مهمّ جدًّا، ويُسـاهم في الرخاء العامّ.

- *ولكنني صاحب إرادتي الحرّة، أليس كذلك؟*

- بالتأكيد.

- *وإذا ما فهمتُ على نحوٍ صحيح، إرادتي الحرّة أقوى من كلّ شيء؟*

- بالفعل.

- *إذن، أُعلنها لكِ رسـميًّا: سـوف أتناسـخ روحيًّا حينما أعرف الحقيقة بشأن موتي.*

فتحت عينيها، وحدّقت في المهرّج ثمّ تنهّدت.

- يُخبرنـي دراكـون «أنّهـم» محبطـون جدًّا مـن تصرّفك، الـذي ينعتونه بالتصرّف الأناني وضيّق الأفق.

- *ولكننـي لا أطلب الشـيء الكثيـر! أريدُ أن أعرف الفصـل الأخير من رواية حياتي الشـخصيّة، ويبدو لـي هذا مطلبًا مشـروعًا، أليس كذلك؟ أريدُ أن أعرف مَن الذي قتلني! بموهبتك، وحماسـتكِ، والمؤشّـرات التي سوف أعطيـكِ إيّاها عن حياتي وعن محيطي الاجتماعي، أنا متأكّدٌ من أنّكِ سـوف تتمكّنيـن مـن حلّ هذا اللغز. ففـي نهاية المطاف، التحقيقات الجنائية بشـأن الجرائم هي من اختصاصي أنا. سوف أطيرُ بكِ انطلاقًا من اللامرئي.*

هزّت رأسها، وأنزلت يدها، وجاء قطٌّ يتمسّح بكفّها وهو يموء.

- إذا ما قبلتُ بعرضك، هل تعدني بأنّك سوف تتناسخ روحيًّا بعد ذلك؟

- *أعدكِ بذلك.*

- ومع ذلك يجب أن أنبّهك إلى أنّه ليس واردًا بالنسبة إليّ أن أعرّض نفسي لأخطارٍ، مهما كان السبب. فأنا أحرص كثيرًا على صحّتي وأعتني بها.

أحاطت بها قططها كما لو أنّها أدركت ما يجري التحضير له وأرادت أن تثنيها عن مساعدة غابرييل، الذي ارتاح وأحسّ بأنّه أكثر خفّة.

16. الموسوعة: وزن الروح

كان الدكتور دونكان ماكدوغال، وهو أمريكي الجنسية، أوّل طبيب يسعى إلى إثبات الوجود المادّي للروح.

في عام 1900، اتّفق مع مركزٍ لمرضى السلّ في بوسطن وأجرى تجربةً قام خلالها بوضع سرير مريضٍ على ميزانٍ وحسب وزنه في المرّة الأولى وهو يشارف على الموت، ثمّ حسب وزنه في المرّة الثانية بعد وفاته.

وجد فرقًا في وزن هذا المريض الأوّل يبلغ واحدًا وعشرين غرامًا بالضبط.

أعاد التجربة على خمسة مرضى آخرين وأكّد أنّه وجد في كلّ مرّة نفس هذا الفرق في الوزن والذي يبلغ واحدًا وعشرين غرامًا بعد أن يلفظ المريضُ أنفاسه الأخيرة.

واستنتج من ذلك أنّ هذا هو وزن الروح.

أجرى نفس التجربة على خمسة عشر كلبًا. وإذ لم يلاحظ أيّ فرقٍ في الوزن، استنتج أنّ روح الإنسان فقط لها وزنٌ.

نُشِرَت أعماله في عام 1907 وأحدثت ضجّةً في وسائل الإعلام التي تحدّثت جميعًا عن «نظرية الواحد والعشرين غرامًا للدكتور ماكدوغال». لكنّ العلماء ظلّوا متشكّكين بشأن هذه النظرية. وقد اعترضوا على شروط التجربة وعدّوا أنّ دراسة تُجرى على ستّة مرضى فقط لا يمكنها أن تكون برهانًا كافيًا.

علاوة على ذلك، في إحدى الحالات، اضطرّ الدكتور ماكدوغال للانتظار أكثر من دقيقة بعد الوفاة لكي يتأكّد من تناقص الوزن. ولكن كان لدى ماكدوغال تفسيرٌ لهذا التأخير: عدّ بكلّ بساطة أنّ الروح «تردّدت» في الخروج من الجسد.

أنهى هذا التفسير التشكيك في مصداقيته. مات ماكدوغال في عام 1920 دون أن يكلّف أحدٌ نفسه عناء أن يزن جسده قبل وبعد وفاته.

إدمون ويلز.

***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

-17-

انسلّت هيئةٌ نحيلةٌ إلى خارج الأدغال الفاصلة بين موقف السيارات والجناح الجنوبي من المستشفى. سارت بجانب سياج الشجيرات لتقترب من حاويات القمامة. حينما اقترب أحد عمّال المخازن وهو يدفع حاويةً مليئة بالنفايات العضوية، التصقت تلك الهيئة بالأرض. ثمّ واصلت تقدّمها بمحاذاة الجدار القرميدي.

ارتدت لوسي فيليبيني بدلة رياضية داكنة وعقدت شعرها الطويل على هيئة ذيل حصان، وانتعلت حذاءً رياضيًّا. ذهبت ووقفت تحت مظلّة وتأكّدت من أنّ جميع مصابيح المشرحة في القبو مطفأة.

فوقفت أمام النافذة التي لم تكن، لحسن الحظّ، مزدوجة الزجاج.

- والآن ماذا أفعل؟

- يمكنكِ تحطيم الزجاج بحجرٍ، ولكن غلّفي الحجر أوّلًا بقطعةٍ من النسيج كي لا يُصدر ضجيجًا. ليس عليكِ سوى أن تأخذي صدريةً من الحاوية.

عملت لوسي بنصيحته وانتظرت سماع صوت منبّه سيّارة إسعافٍ لكي تلقي المقذوف على زجاج النافذة الذي تحطّم محدثًا دويًّا قويًّا. حينما تأكّدت من أنّ لا أحد لاحظ شيئًا، أسقطت قطع الزجاج بقدميها، ولكن في اللحظة التي عبرت فيها النافذة، خدشت معصمها الذي احتكّ بقطعة زجاجٍ كانت قد ظلّت في مكانها.

- كنتُ متأكّدة من ذلك. لقد جُرِحتُ. سأتوقّف هنا!

- أُسكتي، لا تصدري ضجيجًا!

- ولكنني أنزف دمًا! لقد قلتُ لكَ ذلك مسبقًا، هاجسي هو تلف جسدي! يجب أن أعود وأعالج جرحي، وإلّا سيلتهب.

- هيّا، لا تبالغي، الأمرُ ليس خطيرًا. إنّه مجرّدُ خدشٍ بسيطٍ ليس إلّا. في الوقت الذي نتحدّث عنه، يكاد النزيف يتوقّف.

نظرت، مرعوبةً، إلى الجرح الذي سال منه خيطٌ من الدم القرمزي.

- أنا معرّضة لخطر الإصابة بالغرغرينا! يجب أن أعقّم الجرح بأسرع وقت. سأعود إلى بيتي.

- آملُ ألّا تتركي كلّ شيء من أجل هذا الجرح البسيط! إذا كنتُ أعاني من البارانويا، فأنتِ تعانين من وسواس المرض. قولي إذن إننا نشكّل معًا فريقًا جميلًا.

- بدل أن تسخر منّي، ستفعل خيرًا إن ساندتني. أنا على وشك أن يُغمى عليّ. أعاني من رهاب الدم.

- كفّي عن التظاهر بالرقّة البالغة واستمرّي في مهمّتكِ.

- يا لك من أنانيّ! لا يهمّك شيءٌ سوى جثّتك القديمة. لا تهتمّ بأمر الآخرين أبدًا!

- اسمعي، حقًّا هذا ليس الوقت المناسب للشعور بالإشفاق على نفسكِ بسبب هذا الجرح البسيط، قد يصل بعض الناس في أيّ لحظة. هيّا، تحمّلي قليلًا! ليكن جرحكِ هذا على الأقلّ في سبيل تحقيق شيءٍ ما.

رضيت لوسي على مضض بأن تعبر النافذة المهشّمة أخيرًا.

خاطبها غابرييل:

- ابحثي عن جسدي، لا بدّ أنّه في أحد هذه الأدراج.

أشعلت المرأة الشابّة ضوء هاتفها الذكيّ وأضاءت به الغرفة.

جفلت حينما رأت جثّة عارية فوق طاولةٍ، وُضِعَ رأسها فوق مقذافٍ، وأُبقي فمها مفتوحًا بكمّاشةٍ.

قال غابرييل بنبرة أرادها باعثة على الاطمئنان:

- هيّا، هذه مشرحة، ومن الطبيعي أن تكون فيها جثثٌ.

- اعذرني، صحيحٌ أنني أتحدّث مع موتى، ولكنني لم أعتد على رؤيتهم من لحمٍ ودم. أعتقدُ أنني هذه المرّة سأُصاب فعلًا بالإغماء. أشعر بالانهيار...

أرادت أن تستند إلى عربةٍ، ولكنّ العربة تدحرجت وانزلقت لوسي لتسقط أخيرًا على ردفيها.

- نحن نضيّع الوقت، ولكثرة ما تثيرين ضجيجًا، سوف نثير الانتباه في النهاية.

- أوف اللعنة! لستُ المرأة القطّة!

- لم يطلب أحدٌ منكِ أن تكوني المرأة القطّة، وإنّما فقط أن تنظري أين تضعين قدمكِ. انظري إلى درج الثلّاجة الذي يقع إلى أقصى اليمين؛ فقد وضعوني في هذا الدرج إن كنتُ أتذكّرُ ذلك جيّدًا.

ولكنّها لم تُصغِ إليه وفتحت الأدراج إلى أن عثرت على ما تبحث عنه: مطهّر وضمادة لفّت بها جرحها مكشّرةً. بعد أن اطمأنّت قليلًا، فتحت أدراج ثلّاجة الجثث، وتغلّبت على اشمئزازها وتفحّصت وجوه الجثث المودعة فيها إلى أن وقعت على وجه الكاتب. فتحت سحّاب كيس الجثّة لتكشف عن جسده كاملًا.

- لم أنظر إليك جيّدًا في غرفتك، ولكن عليّ القول إنّ غلافك الجسدي ليس سيّئًا على الإطلاق. كنتَ مفتول العضلات، ومن الواضح أنّك كنتَ تمارس الرياضة. لو لم أكن على علاقة آنذاك، كان من الممكن أن أُعجَبَ بك.

- هل تعتقدين حقًّا أنّ هذا هو الوقت المناسب للحديث في أمور كهذه؟ هيّا، اعثري على وريدٍ وخذي عيّنةً من الدم.

أخرجت محقنًا وبحثت عن مكانٍ تغرزه فيه لسحب الدم. في الرسغ، في منطقة الأوردة الظاهرة، لم يأتِ شيء؛ في الشريان الفخذي والرقبة، من الوريد الوداجي، أيضًا لم تأتِ أيّ نقطة دم.

- هل أفرغوا جسدك من الدم لصنع النقانق أم ماذا؟

- الجسد يفرَغُ من الدم بشكلٍ طبيعي، حاولي أن تسحبي دمًا من القلب مباشرةً.

- لا أستطيع القيام بذلك لأنّ الإبرة رفيعة جدًّا ولا يمكنها اختراق عظم القص.

- تحوّلي إلى مكانٍ آخر. حاولي الوصول إليه من الأسفل من خلال الضغط على البطن.

فجلست لوسي منفرجة الساقين على جثّة الكاتب وحاولت ثقب قلبه مرورًا من تحت الأضلاع النافرة. نجحت أخيرًا في ذلك وسحبت بالمحقن سائلًا بنيّ اللون كثيفًا.

فجأةً، اشتعل ضوء المصباح السقفي. صاحت ممرّضةٌ:

- لقد ضُبِطَت! تعالوا بسرعة، المرأة الشاذّة التي تُجامع الموتى موجودة هنا!

أسرعت ثلاث ممرّضات أخريات إلى المكان.

- وأخيرًا وجدناها! «نيني، الشبقة مُجامِعة الموتى»! لا بدّ أنّها هي!

أضافت إحدى زميلاتها، عريضة الساعدين مثل فخذين:

- سوف نقبض على هذه المجنونة!

بالكاد وجدت لوسي الوقت لتنزل عن الطاولة وتهرب عبر بابٍ جانبيٍّ، لكنّ النساء ذات الصدريات البيضاء لحقن بها.

وصلت الوسيطة الروحية، رافعة محقنها المليء بالدم نحو الأعلى، إلى ممرٍّ أفضل إنارةً دون أن تنجح في الإفلات من أعين الممرضات اللواتي كنّ يلاحقنها.

صاحت إحدى الممرّضات:

- من هنا! إنّي أراها!

- أوقفوها!

اصطدمت لوسي بمريضين يسيران ببطءٍ ممسكين بعصا تعليق حقنة المصلِ ودفعتهما.

- ابتعدوا عن طريقي! دعوني أمرّ!

شقّت لوسي لنفسها طريقًا بين مرضى آخرين مذعورين وممرّضات لم يفهمن تمامًا ما الذي يجري. في حين أصبحت الممرّضات الأربع اللواتي يلاحقنها أكثر عزمًا وتصميمًا على الإمساك بها.

- من أين مرّت؟

أشارت مريضةٌ:

- من هنا. لقد رأيتُها. كانت قريبة جدًّا منّي، واصطدمت بي ودفعتني.

أضافت أخرى:

- كانت تحمل محقنًا مليئًا بالدم! لا بدّ أنّها مصّاصة دماء.

صحّحت مريضةٌ أخرى:

- كلّا. إنّها نيني مجامعة الموتى.

- ما معنى مجامعة الموتى؟

- امرأة شاذّة تمارس الجنس مع الموتى! إنّها تجول في المستشفى منذ فترة ولم ننجح قط في إلقاء القبض عليها.

واصلت لوسي عبور الممرّات مسرعةً في حين تزايد باستمرار عدد ملاحقيها الذين جذبهم الضجيج الذي أثارته الملاحقة. سبقها غابرييل وسار أمامها محاولًا أن يدلّها على الممرّات الأقلّ اكتظاظًا.

- كلا، ليس من هنا، هناك نقّالات للمرضى تسدّ الممرّ، انعطفي نحو اليمين!

لم تستسلم الممرّضات اللواتي يلاحقنها. ولم يعد أمام لوسي خيارٌ، فانعطفت نحو اليسار. ولحسن حظّها، لم تلاحظ الأخريات انعطافتها، فواصلن جريهن إلى الأمام بخطٍّ مستقيم.

اندسّت الوسيطة الروحيّة، المتحوّلة رغمًا عنها إلى محقّقة خاصّة، في قسم الأمراض النفسية، الذي كان خاليًا في ذلك الوقت، وهي تضغطُ بشدّة على معصمها لتصنع ما يشبه عاصبةً على جرحها.

غمغمت وهي تضغط على جرحها الذي عاود النزيف:

- ما كان عليّ قط أن آتي إلى هنا! ما كان عليّ قط أن أصغي إليك!

حثّها غابرييل، قائلًا:

- اختبئي في هذه الزاوية وأفرغي محقنكِ في أنبوب الاختبار.

قالت وهي تنفّذ ما اقترحه عليها:

- لقد وضعتني بالضبط في المواقف التي أكرهها!

- لقد نجحتِ في الإفلات منهنّ. أحسنتِ!

وصلت لوسي، الباحثة عن المخرج، إلى غرفة واسعة حيث ينتظرها رجلٌ بعينين تقدحان شررًا قطع عليها الطريق.

قال بصوتٍ يشبه خوار الثور:

- الساحرة!

في حين ظهر أفرادٌ آخرون من كلّ حدبٍ وصوب، نجحت المرأة الشابّة بصعوبة من الإفلات منهم، ولكن هذه المرّة طاردها مرضى قسم الأمراض النفسية. وسرعان ما وجدت نفسها محاصرة ومحاطة بمجانين.

ردّد المجنون الأوّل الذي رآها:

- ساحرة! ساحرة!

وسرعان ما قلّده الآخرون في عبارته.

- ساحرة! إنّها هنا مع كامل موكبها من العفاريت!

صاحت لوسي في الحال:

- العفاريت! العفاريت!

سأل غابرييل بينما تضيق الحلقة تدريجيًّا حول الوسيطة الروحية:

- ماذا يحدث؟

- السجون والمقابر والثكنات العسكرية وميادين المعركة والمستشفيات والملاجئ هي الأمكنة المفضّلة لطواف الأرواح. ما إن يحدث أمرٌ ما، حتى تلتمّ مثلما تلتمّ حماماتٌ حول سيّدة مسنّة تحمل كيسًا مليئًا بفتات الخبز، وتطالب بما تعتقدُ أنّه استحقاقها. وقد اكتشفت وجودي وتريد أن تستخدمني للحصول على عمليات تناسخ مميّزة. المشكلة هي أنّ

مرضـى الفصام وكذلك المدمنين على المخدّرات يشـعرون بها، كلّ أولئك الذيـن يمتلكون هالات رقيقة للغاية أو فيهـا فجوات. تلك الأرواح هي التي تُسمى «عفاريت».

ظلّ المرضى على مسافة بعيدة عنها وردّدوا جميعًا بصوتٍ واحدٍ:

– الساحرة... في النار! الساحرة... في النار!

تمتمت لوسي التي جعلها الذعر تشدّ على معصمها أكثر:

– هل فهمت الآن لماذا كانت لديّ تحفّظات على المجيء إلى هنا؟

اقتـرب المجانيـن المحيطون بها أكثـر قليلًا بحيث لامـس الأكثر إضاءةً شعرها. سرت فيها رعشاتُ ذعرٍ.

– افعل شيئًا، أرجوك!

اسـتفادت روح الكاتب من قدرتهـا على اختراق الجـدران لتذهب بحثًا عن ممرّضي قسم الأمراض النفسية. وجدتهم مجتمعين في قاعة في الطرف الآخر من المبنى، مشـغولين بمشـاهدة مباراة لكرة القـدم، والصوت مرفوعٌ إلى أقصى درجاته.

صاحت لوسي:

– النجدة!

أدرك غابرييـل أنّ عليه أن يجد حلًّا بأسـرع ما يمكـن. توجّه إلى الأرواح الهائمة:

– ارحلـوا من هنا! ألا ترون أنّكم تزعجون الأشـخاص الموجودين في الأسفل؟

– هـذه لوسـي! نريـدُ أن ترفعنـا إلى الأعلـى. لديها أفضـل المقترحات لعمليات التناسخ في كلّ باريس!

ردّ:

– إذا ماتت، لن يعود في وسعها أن تساعد أيًا كان!

– إذا ما اقترحت علينا أجنّة مناسبة، سوف نغادر.

- إذا ما غادرتم المكان في الحال، سوف أدافع عن قضيّتكم.

رضيت الأرواح الهائمة بأن تغادر، بشرط أن تعِد الوسيطة الروحية بمساعدتها في صعودها وتناسخها.

نقل غابرييل شروط الصفقة إلى لوسي. وإذ هاجمها المجانين وبدأوا، بأعدادهم المتزايدة لحظة بعد أخرى، بملامستها، وافقت لوسي على شروطهم.

غادرت الأرواح الهائمة جميعها معًا مثل سربٍ من الزرازير، وفي الحال هدأ المرضى الأكثر حساسيّةً. استغلّت لوسي هذه الفسحة لتهرب باتجاه الباب الأوسع الذي تعلوه كلمة «**مخْرَج**».

أصبحت أخيرًا في الخارج. جرت نحو سيّارتها، وأقلعت مسرعةً واندفعت نحو مخرج باحة المستشفى.

هتف غابرييل ويلز:

- أحسنتِ!

لم تجب المرأة الشابّة بأيّ شيء، متمالكةً غضبها الشديد ولكنّها ضاعفت من سرعتها باطراد.

- يجب أن يعثر كلٌّ منّا على علاماته، أنا في العالم اللامرئي، وأنتِ في العالم المرئي. على أيّ حال، أهنّئكِ على هذه المهمّة الأولى التي أدّيتها على أكمل وجه! الآن وقد بات بحوزتكِ أنبوبُ اختبارٍ مليءٌ بدمي، سوف نتمكّن من مواصلة التحقيق. ضعي الأنبوب سريعًا في الثلّاجة.

فقالت لوسي بنبرةٍ صارّة:

- اسكت وإلّا رميتُ الأنبوب من النافذة!

- هل أنتِ غاضبة منّي؟ أحسُّ بما يشبه عتبًا في نبرة صوتكِ...

- اخرس! لم أعد أريدُ سماع صوتك! قط! هل فهمتْ؟ لن أفعل أيّ شيءٍ معك ثانيةً! لا شيء البتّة! انتهى الأمر!

- اسمعي، حينما كنتُ صغيرًا وكنتُ أتذمّر، كان جدّي يروي النكات لكي يلطّف الجوّ. وأنا أعرف واحدة من تلك النكات التي تناسب تماماً وضعنا الحالي. يمكنني أن أرويها لكِ إن رغبتِ.

- كلا. لا تهمّني نكاتك ولا يهمّني جدّك.

- هيّا! ومع ذلك سأرويها لكِ، سوف ترين، سوف تجعلكِ تضحكين.

- سيدهشني ذلك.

- حدث ذلك في أحد الملاجئ. كان شاذٌّ مدمنٌ على ممارسة الجنس مع الحيوانات وساديٌّ وقاتلٌ وشاذٌّ مدمنٌ على ممارسة الجنس مع الموتى ومازوشي يتحدّثون مع بعضهم عندما مرت فجأةً قطّة. فعرض المدمن على ممارسة الجنس مع الحيوانات مقترحًا: «ما رأيكم أن نمسك بها لكي أمارس معها الجنس؟» أجاب الساديّ: «حسنًا، ولكن بعد ذلك سوف أعذّبها». أضاف القاتل: «وبعد أن تعذّبها، سوف أقتلها» وأضاف الشاذّ المدمن على ممارسة الجنس مع الموتى: «وحين تقتلها، سوف أمارس أنا الجنس معها من جديد». فالتفت الجميع بعد ذلك نحو المازوشي الذي لم يقل شيئًا. فسألوه: «وأنت، ماذا تقترح؟»، فأجاب حينها المازوشي: «مياو».

- هذه أردأ نكتة أسمعها في حياتي! وعلاوة على ذلك لا يمكنني حتى أن أتحمّل مجرّد فكرة إيذاء قطّة! اخرج من سيارتي في الحال! اذهب وارمِ بلاءك على وسيطة روحيّة أخرى! هذا أمرٌ! اخرج! اخرج من حياتي! بل وابقَ بعيدًا عنّي طيلة ما تبقّى من حياتي!

عبر غابرييل على مضض سقف السيّارة. تابع بالنظر سيّارة لوسي الصغيرة وهي تندفع متعرّجة وسط السائقين الآخرين، متجاهلةً قواعد السلامة والأمان لكي تعود إلى بيتها بأسرع ما يمكن.

-18-

حلّق غابرييل ويلز مثل طائرٍ في سماء باريس.

فكّر بأنّ عليه، الآن وقد مات، أن يتعلّم تنظيم وقته بطريقة مختلفة. لن يعود هناك تناولٌ للفطور في الصباح، ولن يعود هناك استحمامٌ، ولا شرب القهوة في الحانة، ولا تناول الغداء مع صديقٍ، ولكنّ الأهمّ من كلّ ذلك هو أنّه لن يعود هناك تنظيفٌ للأسنان بالفرشاة ولا ارتداءٌ للبيجاما قبل أن يندسّ تحت اللحاف.

وبدل ذلك، سيبقى نظيفًا باستمرار، مرتديًا نفس الثياب، نشيطَ الذهن ويقظًا.

كما أدرك أنّ كون المرء حيًّا يعني الخضوع لقانون الجاذبيّة والبقاء ملتصقًا بالأرض. البشر حيوانات ثقيلة وزاحفة، أمّا هو فقد أصبح الآن خفيفًا وطائرًا. فاستغلّ ذلك لكي ينخرط في طيرانٍ بهلواني: الطيران الحلقيّ، والشقلبة، والانعطاف، والانقلاب، والانقلاب على الظهر، والمناورة مع الصعود السريع، ورسم الرقم ثمانية باللاتينية في السماء. حاول القيام بمناورات وشقلبات بين مباني منطقة لا ديفونس التجارية. وجرّب انطلاقات سريعة للحاق بالميترو. بات كلّ شيء ممكنًا وأبهجه ذلكَ كثيرًا، لا سيما حينما اخترق الجدران وباغت الناس في لحظاتهم الأكثر حميميّةً. هكذا تسلّى لساعات عديدة، ثمّ نال منه التعب.

ما الذي عساه أن يفعل بكلّ هذا الوقت المُتاح؟

فتذكّر أنّ أخاه أراد أن يحرق جثمانه فقرّر الذهاب لرؤيته، عاقدًا العزم على التأثير في أحلامه.

لمّا وصل إلى أمام المبنى الذي يسكنه توماس، عبر الواجهة وجلس على حافة سريره. تبيّن له أنّ أخاه يعاني من نومٍ مضطربٍ للغاية، ومن خلال مراقبته بانتباهٍ شديد، نجح في رؤية هالته، تلك الشبيهة بطبقة من البخار المشعّ التي تحمي غلافه الجسدي. لاحظ أنّه كلّما بات نوم توماس أكثر عمقًا، هدأ تنفّسه أكثر وتحرّكت عيناه تحت جفونه. وكانت هالته تغيّر لونها وتصبح رقيقةً في قمّة جمجمته. حينما غطّ توماس في نوم حركة العين السريعة، تحرّكت عيناه سريعًا جدًّا وهدأ تنفّسه تدريجيًّا، وخمد جسده. وظهرت في المنطقة الأكثر رقّةً من هالته فتحةٌ.

قال غابرييل، منبهرًا: *آه، ثقبٌ في طبقة الأوزون فوق القطب الشمالي!*

في الواقع، يمكنه الآن أن يمرّر إصبعه في هذا الثقب، ويعبر عظام جمجمة أخيه ويحاول التأثير فيه. وللقيام بذلك، اقترب من صيوان أذنه وهمس فيه:

- *أنا غابرييل. أنا أمنعك من حرق جسدي.*

ردّد هـذا الأمر الحـازم مرّات عديـدة. بعد أن اضطـرب توماس وتحرّك كثيـرًا، فتـح عينيه، وفـرك جفونه كما لو أنّـه يريد إزالة ذكرى مـا حدث للتوّ، وخـرج من سـريره، وذهـب يتبوّل، وشـرب زجاجة مـاء ثمّ عاد إلى سـريره واستلقى ونام من جديد.

أردف غابرييل

– *تذكّر هذا جيّدًا: لا حرق لجثّتي وإلّا سوف تعيش الكوابيس كلّ ليلة.*

تحرّك توماس مضطَربًا من جديد، وركل حشيّته وهو يصرخ: «كلا! كلا!»

وإذ عـدّ غابرييـل أنّه فعل مـا كان عليه فعلـه، خرج محلّقًا مـن جديد في السماء الباريسية.

رأى مـن بعيـد أرواحًا هائمة أخـرى تتنزّه، ومعظمها تواصل السير على الأرض، وعلـى الأرجـح لمجرّد اعتيادهـا على ذلك. من دون شـكّ، ذاقت هـي الأخرى، مثله، طعم متعة الطيران قبل أن تُدرك أنّها ستشـعر بالمزيد من الارتياح بالسير على الأرض والجلوس والتظاهر بالتصرّف مثل الأحياء.

طـارت طائـرةٌ من فوقه، فارتفع غابرييل إلى مسـتواها وعبر غلافها الأمر الذي أعطاه الإحساس بملامسة روح كلّ مسافرٍ على متنها.

دائـرًا فـوق برج إيفـل، وحائمًا حول بـرج مونبارناس، ومحلّقًا فوق سـاحة تروكاديـرو، خطـر في بـال الكاتب أنّ عليه، لكي يسـتفيد بأقصى مـا يمكن، أن يحلّـل كلّ مزايا وضعه الجديـد. وبما أنّ إمكانات غير مسبوقة توفّرت له، فكّر الكاتب بما كان يتمنّى أن يستطيع فعله عندما كان لا يزال على قيد الحياة. وكان الجواب: الدخول إلى غرفة إحدى النجمات الشهيرات والنظر إليها وهي نائمة.

وضـع نصب عينيه نجمة شـهيرة كان قد رأى قصرها فـي مجلّةٍ ووجدها بسـهولة. دخل إلى غرفتها واقترب منها لكي يلمسـها، ولكنّ أصابعه عبرت جسدها. رغب في أن يستطيع شمّها وكذلك تقبيلها.

وهي نائمة، أدارت الممثّلة رأسـها وأزاحت شعرها الذي يغطّي وجهها. وحينمـا رأى عـن قرب، بدت أقـلّ جمالًا بكثيـر ممّا هي عليه فـي صورها. تغطّي بثورٌ ناعمة خدّيها وبشرتها مضيئة.

– *إذن، هل نحدّق في الفتيات العاريات في سريرهنّ؟*

جفل غابرييل مثل طفلٍ ضُبطَ متلبّسًا وعرف الصوتَ ثمّ وجهَ الذي لفظ هذه العبارة.

- جدّي!

- غابي.

- ولكن ماذا تفعل هنا، يا جدّي؟

- نفس ما تفعله، أيها الشقيّ: أستغلّ كوني ميّتًا لأرمق الفتيات الجميلات بنظرات غرامية.

انزعج من كلامه فسدّد إليه لكمةً عبرت جسده.

- كلّا، بجديّة أكثر، عندما كنت حيًّا لم أفارقك قط، يا غابي. ولذلك عندما متّ، ظللتُ أرغب في معرفة ما يحدث لك.

- أنت تلاحقني منذ موتي؟

- بالطبع، كنتُ أحلّق فوقك، ولكنّك لم تفكّر قط في أن ترفع رأسك.

بدأت الممثّلة تشخر وأطلقت ريحًا خفيفة جعلت الإكتوبلازمين يقهقهان ضحكًا.

- أجل! نرى أشياء غريبة حالما نموت! دع المزاح جانبًا، الحقيقة هي أننا نرى كلّ شيء، ونفهم كلّ شيء، ولكن فات الأوان على استخدامنا هذه المعرفة بطريقة عملية.

قاطعه غابرييل:

- لقد قلتَ إنّك كنت تلاحقني، ولكن لماذا؟

- حينما كنتَ رضيعًا، كانت تعابير وجهك المضحكة تبهرني دائمًا، ثمّ حينما أصبحت طفلًا أكبر سرعان ما وجدتك أكثر ميلًا إلى التخيّل وأكثر فنًّا، باختصار، كنت مسليًّا أكثر من أخيك. أنت تعلم أنّ توماس كان المفضّل لدى والدكَ، وأنت كنتَ المفضّل عند والدتك، وأنا أيضًا لطالما شعرتُ بمحبّة خاصّة تجاهك. كنتُ أنا، من بين أفراد العائلة، أوّل من لاحظ أنّك تُجيد سرد القصص، وأنا منْ نصحتُ والديكَ أن يقرآ لك كثيرًا لكي تستطيع لاحقًا أن تروي قصصًا بدورك. وفيما بعد، حينما بدأتُ

أشيخ وتسوء حالي، ظللت حاضرًا إلى جانبي، في حين أهملني الآخرون. وحينما متُّ... أخيرًا... أنت تعلم ما الذي حدث. تأثرتُ آنذاك كثيرًا بردّ فعلك وواصلتُ مراقبتك، ليس كشخصٍ سيّئ، بل كنجمٍ مميّز، لأنك بالنسبة إليّ كنتَ أفضل أفراد العائلة. والسبب الوحيد الذي رفضتُ من أجله أن أتناسخ روحيًا هو أن أظلّ أتابعك. حينما كنتَ تنام كنتُ أستفيد من الثقوب الموجودة في هالتك لكيّ أبثّ لك أفكارًا. أردتُ أن تصبح كاتبًا لكي تخلّد اسمنا. في الحقيقة، كنتُ أعمل في الخفاء لكي تنمّي موهبتك في الكتابة. كنتُ أتمنّى أن تتميّز عن الآخرين وألّا تستسلم لمحاولة تأليف كتب كالتي كانت دارجة. فالدارج هو ما يخرج عن الدارجِ. ولكن لتحقيق ذلك كان عليك التغلّب على خوفك من أن تكون مختلفًا. ولم يكن من السهل دائمًا التأثير عليك.

- كلّ ما يهمّني الآن يا جدّي هو أن أعرف مَن الذي قتلني.

- أنت تخيّب أملي، يا غابي. هذا بالفعل طموحٌ محدودٌ للغاية.

- لستَ أوّل من يقول لي هذا. ولكنني أفترضُ أنك، أنت الذي كنتَ شرطيًا، سوف تستطيع مساعدتي في الحصول على معلوماتٍ.

- ربّما تعرف كم من الصعب التحقيق في هذا الجانب من المرآة، ولكنني سأرى ما الذي يمكنني فعله. هل تشكّ في أحدٍ ما بالتحديد؟

- توماس. أرى أنّه من الغريب والمريب ألّا يرغب في طلب تشريح جثّتي. ثم إنّه... كان على الدوام يغار منّي.

- ومنْ سواه؟

- حتى هذه اللحظة لا أرى غيره.

- حسنًا... يجب أيضًا أن أخبركَ بأمرٍ. اعتقدتُ أنني علمتُ أنّك تواصلت مع لوسي فيلبيني، وهي في الحقيقة ليست امرأة عاديّة. أعتقدُ أنّك لا تزال لا تقدّر أهمية فرصة أن تكون لديك صلة وصل عند الأحياء قادرة على سماع صوتك، وعلاوة على ذلك لها مداخل إلى أعلى مستويات العالم غير المرئي.

- هل تقصد دراكون؟

– ليس دراكون فقط. لقد رأت الهرميّة فيها سفيرة فعّالة، وبالنسبة إليك هي أفضلُ سندٍ يمكنك أن تحلم به. افهم هذا جيّدًا. دلّلها وساعدها قدر استطاعتك، وسترى أنّها امرأة أروع ممّا اعتقدتَ.

نظر غابرييل إلى جدّه بانتباهٍ أشدّ. وجد أنّه يرتدي ثيابًا من طراز ستينيات القرن العشرين: يرتدي سترةً رمادية وقميصًا أبيضَ وينتعل حذاءً جلديًّا، ويضع ربطةَ عنقٍ رفيعة. شعره أشيب ولكن فيه تجاعيد قليلة؛ وكان وجهه مدوّرًا وتعابيره واضحة. أحسّ غابرييل فجأةً بأنّه ليس وحيدًا. أحسّ بأنّه قد عثر على حليفٍ في دهاليز الليمبو[1].

بعد أن وعد جدّه بأن يعود إلى لقائه بأسرع وقت، غادر غير نادمٍ بيت النجمة وانطلق للقاء لوسي التي وجدها نائمة، عارية تمامًا. ظلّ لبرهةٍ ينظر إليها كتحفة فنّية. تذكّر مساره الفريد وخطر في باله أنّ جدّه محقٌّ في ما قاله: لقد قلّل من شأن الفرصة التي حظي بها من خلال لقاء كهذا.

لقد وجدها أكثر إبهارًا من كلّ الممثلات اللواتي استعرض صورهنّ في شقّته. هذا بالإضافة إلى أنّها تشبه حقًّا هيدي لامار، التي تمنّى كثيرًا أن يلتقي بها في حياته. لو لم يمت لاستطاع أن يحاول إقامة علاقة معها، بل ربّما، منْ يدري، أمضى ما تبقّى من أيامه مع هذه النجمة الرائعة...

عند هذه الفكرة، استولى سؤالٌ على ذهنه من جديد:

منْ ذا الذي سمح لنفسه أن يختصر حياته؟

19. الموسوعة: دودة البلانريان

البلانريان دودة صغيرة مسطّحة تعيش في المياه العذبة. يبلغ طولها بالكاد أربعة سنتيمترات، ولها رأسٌ وعينان ودماغ ونخاع شوكي يربط جهازها العصبي بما تبقّى من جسمها. كما لديها فمٌ

1 – (limbes) الليمبو أو دهليز جهنم: في المسيحية، هو المكان الذي تذهب إليه أرواح من ماتوا ولم يتم تعميدهم، خاصة الأطفال. وهو مكان قبل الجحيم ومعناه «الشفاء»، وهو مخصّص لأرواح الأطفال الذين يتوفاهم الله قبل أن يعمدوا وأرواح الوثنيين الفاضلين، ممن عاشوا قبل المسيحية. المترجم

وجهازٌ هضمي، وجهازُ تكاثرٍ خنثويّ. ظلّت هذه الدودة لزمنٍ طويل مثار دهشةٍ لدى العلماء لأنّها تمثّل القدرة على التجديد التلقائي، أي أنّها تستطيع أن تعيد نموّ أيّ جزءٍ ينقطع عن جسمها الأمر الذي جعل العلماء يعلنون أنّها «حيّة خالدة في مواجهة نصل السكين». في عام 2014، أعدّ فريقٌ من جامعة تافتس في ولاية ماساتشوستس مجموعةً من ديدان البلانريان لكي تتذكّر بيئةً محفوفةً بالمفاجآت والفِخاخ. لم تحتج الديدان إلى أكثر من عشرة أيام حتى تأقلمت مع هذه البيئة، من خلال اكتشاف وتذكّر الأماكن التي كدّست فيه الغذاء والأماكن التي تلقّت فيها صدمات كهربائيّة. ثمّ قام العلماء بقطع رؤوسها. وخلال خمسة عشر يومًا، نمت رؤوسها من جديد.

فوضعت من جديد في نفس البيئة، ووسط اندهاش الجميع، تذكّرت ديدان البلانريان الأماكن التي كوفِئت فيها وتلك التي عوقِبت فيها.

أتاحت هذه التجربة طرح سؤالٍ: إذا كانت ذاكرة الملذّات والآلام لا تقع في الدماغ، فأين تقع إذن؟

إدمون ويلز،
***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

-20-

لامس شعاعٌ من الشمس جفنها الأيمن، وجعلها تنهض ببطءٍ. رأت لوسي السماء عبر نافذة غرفتها، فابتسمت وتثاءبت، وأجرت حركات دائرية خفيفة لحوضها لكي تمرّن عمودها الفقري، ووضعت برفق قدميها على الأرض الواحدة تلوى الأخرى.

ذهبت إلى الحمام ونظّفت أسنانها بالفرشاة كالعادة. نظرت إلى الجرح في رسغها، وتأكّدت، مطمئنّةً، من أنّه قد التأم.

واقفة أمام المرآة، أغمضت عينيها وقالت:

«شكرًا على نعمة كوني على قيد الحياة

شكرًا على نعمة أنّ لي جسدًا.
أتمنى أن أُبرهن على أنني جديرةٌ اليوم بحظّي في أنّني موجودة.»
ثمّ ضمّت يديها، وتوجّهت نحو الشمس وذهبت إلى المطبخ.

حـام غابرييل فوق رأسـها وراقبها من دون امتلاك الجـرأة على التحدّث معهـا. رآها تُخـرجُ علبـةً مليئةً بالحبـوب والقواريـر والمسـاحيق المختلفة والمتنوّعـة، ثمّ تمزجُ بمسـاعدة قطّارة سـائلًا غريبًا أصفر اللـون في زجاجة ماء وشـربته في جرعةٍ واحدة. ثمّ صبّت في راحة يدها حُبيبات مُعالَجة مثلية وتركتها تذوب تحت لسانها.

وبعدما انتهت طقوس تناول الأدوية، أشـعلت حاسوبها اللوحي الرقمي واستعرضت صفحات عديدة من الأخبار والأحداث وهي تتناول فطورها.

قالت أخيرًا:

– لا تزال هنا، أليس كذلك؟ مع أنني طلبتُ منك أن تدعني وشأني.

فأفأ غابرييل، متفاجئًا بحقيقة أن تراه لوسي:

– *هذا... أقصد أنني أريد القول هذا لأنّ... أقصدُ أنني اعتقدتُ...*

– هذا أمرٌ جيّد. غضبي سـريع الزوال. التأم كلّ شـيء فـي الليل، بما فيه جرح رسغي، حتى إنّني لم أعد غاضبة عليك.

– *إذن هل يمكنني البقاء بجانبكِ؟ أعدكِ بأنني لن أزعجكِ مرّة أخرى.*

قالت وهي تنتهي من شرب كوبها من الشاي:

– فـي اللحظـة التـي تكـفّ فيهـا عن طـرق مسـامعي بقاتلـك، يمكنني التساهل مع وجودكَ بقربي.

– *شكرًا لكِ. أنا آسفٌ جدًّا لما حدث البارحة. حرصتُ على أن أعتذر لكِ على سلوكي الذي وصفتِهِ بالأنانيّ. أعتقدُ أنّ موتي كان قد استولى على ذهني.*

– والآن، ألم تعد كذلك؟

– *أحاول أن أخفّف قلقي.*

قالت من دون أن ترفع بصرها عن حاسوبها اللوحي:

– تفضّل وابتهج، فالصحافة تتحدّث عنك.

اقترب غابرييل منها وقد بلغ فضوله ذروته.

- تعالَ لترى النعايا التي وجدتها في الصحف.

فاكتشف بفزع عناوين المقالات التي تتناول موته:

«موتُ كاتبٍ عديم الأهمية»

«موتُ كاتبٍ مغمور»

«ويلز: كاتبٌ سطحي يرحل أخيرًا»

كانت هذه المقالة الأخيرة أوسع من الأخريات: فقد شغلت صفحتين كاملتين من صحيفة يومية شهيرة وتعلوها صورة غير لائقة للراحل. كان التعبير الدقيق للصورة هو: «بئس المصير»، وكانت المقالة موقّعة باسم جان موازي.

واصلت لوسي تصفّح مواقع أخرى نقلت خبر وفاة غابرييل.

- قل لي إذن، بشكلٍ عامّ، لا تحظى بإعجاب كبيرٍ من قبل زملائك. ليس بينهم واحدٌ كلّف نفسه عناء كتابة نعية إيجابية.

- ليسوا زملائي، بل هم النقّاد الباريسيون. إنّهم عبارة عن بضع عشرات فقط من الأشخاص المنسّقين في نفس القالب الذي تعلّموا فيه أن يكرهوا الأدب النوعي من خلال تعريفه على أنه أدبٌ هامشيّ.

- وماذا عن المدافعين عنك؟

- إذا كانوا موجودين، فهم لا يصلون إلى وسائل الإعلام إلّا نادرًا.

عبست لوسي بملامح ساخرة:

- هنا أيضًا بارانوياك هي التي تتكلّم.

- حبّذا لو كان الأمر كذلك، ولكن يمكنك التأكّد من ذلك بنفسكِ من خلال قراءة هذه المقالات. على كلّ حال، في فرنسا كلّ كاتب ينجح في ملامسة الجمهور العامّ يصبح محلّ شكٍّ وارتياب.

- با - را - نو! لو لم ألتقِ بكِ لما تخيّلتُ قط هذا الجانب من شخصيّتك؛ كنتُ أعتقدُ حقًّا أنّك فوق كلّ هذا.

- هل كان سيُرضيكِ أن يُقال «بئس المصير» بعد موتكِ؟ فأنا أيضًا لستُ عديم الإحساس.

– ولكن إذا نجح النقّاد في إزعاجك، فهذا يعني أنّهم انتصروا عليك.

أطفأت حاسوبها اللوحي الرقمي، وصبّت لنفسها كوبًا جديدًا من الشاي، ثمّ أطلقت أخيرًا الجملة التي انتظرها غابرييل:

– هيّا، لديّ بعض الوقت هذا الصباح وأعلم أنّك تنتظرُ على أحرّ من الجمر. اروِ لي قصّتك، يا سيّد ويلز.

-21-

«كما تعلمين، لديّ أخٌ توأم هو توماس. وعلى ما يبدو، اشتبكنا في بطن أمّنا قبل أن تلدنا بعدّة أيام. وقد سارت الأمور على نحوٍ سيّئ. بحسب ما قالت، كان الأمر «مذبحة حقيقية» نجت منها لحسن الحظّ. على أيّ حال، زعمت أنّها توقّعت حدوث ذلك؛ فقد كانت عالمة فلك.

أمّا والدنا، فكان أكثر إيماناً بالفلسفة الديكارتية، ويُدرّس علم الأحياء في الجامعة وكان بموازاة ذلك باحثًا مستقلًّا. أَمِل أن تجعله تجاربه مشهورًا، ولكنّ مجالاته المفضّلة لم تُثر اهتمام أقرانه. وهو منْ اكتشف، حينما كان يعمل في الولايات المتّحدة الأمريكية، أنّ الديدان البلانرية تجدُ طريقها في متاهةٍ حتى حينما يتمّ قطع رأسها الذي ينمو من جديد. وكان يعتقدُ بالفعل أنّه سيكون قادرًا ذات يوم على إطالة عمر البشر من خلال هذا الاكتشاف عبر التجربة على الديدان البلانرية. وردت هذه التجربة في موسوعة عمّ والدي، إدمون ويلز وأبهرتنا، أخي وأنا، لزمنٍ طويلٍ. وجعلتنا في سنٍّ مبكّرة جدًّا نطرح على أنفسنا أسئلة حول الموت والحياة والذاكرة ومكان الروح.

حافظ أبي على علاقةٍ متميّزة مع توماس، في حين كنتُ المدلّل عند والدتي التي تحبّني حبًّا خانقًا بعض الشيء. كان شريكي المقرّب هو جدّي لوالدي، إينياس ويلز، الملازم في الشرطة. خضتُ معه نقاشات مطوّلة على ضفاف بحيرة غابة بولونيا، ونحن نُلقي بفتات الخبز إلى طيور البجع.

لستِ الوحيدة التي لديها حكاية مفضّلة للأطفال المدلّلين. حكايتكِ هي «عنزة السيد سيغوين» للكاتب دوديه، وحكايتي هي «فرخ البطّ القبيح» للكاتب أندرس. إذا كنتِ قد نسيتِ، أذكّركِ بالحكاية: حينما يكبر فرخُ بطٍّ،

يعاني من الاضطهاد وسوء المعاملة، يتبيّن أنّه في الحقيقة ليس بطًّا، بل بيضة بجعٍ كانت قد وُضِعتْ خطأً بين بيض البطّ. وبدءًا من اللحظة التي تخلّص فيها من هذا الاختلاف الذي سبّب له الكثير من الأذى أصبح سعيدًا. كما كان جدّي يقول: « كلّ إعاقة يمكنها أن تغدو ميزةً. وكلّ خطأ ما حين يتمّ تقبّله يمكنه أن يتحوّل إلى خيارٍ فنّي».

وهكذا أصبحت البجعة «علامةَ» تواطؤنا، وباتت البحيرة مكان تواصلنا.

وعدا اللحظات المدهشة التي كنتُ أقضيها مع جدّي، لم تكن الحياة وسط «البطّات» الأخرى سهلةً. وعلى عكس شقيقي، لم أكن تلميذًا مجدًّا، ولا رياضيًّا. كان يجلس في الصفّ الأمامي، وأنا في الصفّ الأخير، بالقرب من جهاز التدفئة. لطالما وصفتني ملاحظات المعلّمين على وثائق نتائجي المدرسية بالعبارات التالية: «تلميذٌ حالم، يحتاج إلى العودة إلى الأرض». أصبحنا حالة مدرسيّة بالنسبة إلى معلّمينا: توأمان يتشابهان في كلّ شيء، ولكن أحدهما يأتي في المرتبة الأولى في الصفّ، ويأتي الثاني في المرتبة الأخيرة.

لم أكن أحبّ الكتب التي تُعرَضُ لنا في الدروس المدرسية، وبدا لي كتّاب المنهاج المدرسي مثل من يعطون الدروس، والوعّاظ المعتدّين بأنفسهم، وظننتُ أنّهم لم يكونوا يتقيّدون في حياتهم بالنصائح الحكيمة التي ينصحون قرّاءهم بها.

لمّا لاحظ جدّي أنني أرفض الأدب «الرسمي»، قال لي ذات يوم: «في الحقيقة، يمكن لكتابٍ جيّد أن يُختَصَرَ في نكتة ». فعلّمني بعض النكات التي أثّرت فيّ فورًا. روى لي نكات أكثر طولًا باطراد، إلى أن نصحني ذات يوم بقراءة كتابٍ «مختلفٍ»، كان من وجهة نظره نكتة مفيدة من ثلاثمئة صفحة: *كلب آل باسكرفيل*، للكاتب الإنجليزي كونان دويل. مثّل هذا الكتاب بالنسبة إليّ اكتشافًا. قلّبتُ صفحات الكتاب بشراهة. قرأتُ الرواية كلّها دفعةً واحدة، حتى من دون أن أشعر بالوقت يمضي. ما شعرتِ به في السجن أثناء قراءتك رواية *نحن الموتى*، شعرتُ به أثناء قراءتي رواية دويل. أردتُ أن أعرف من يكون ذاك الوحش الكامن في المستنقع والذي يُرعِب كلّ منْ يغامر بالاقتراب

من المكان. منذ تلك اللحظة، لم يعد الأدب يبدو لي على أنّه تتبّعٌ للجمل مثل لآلئ في عقدٍ، ليغدو لغزًا معقدًا جدًّا يُحلُّ بخدعة سحرية.

وبالنسبة إليّ أيضًا، لـم يعد العالم الذي عرضه عليّ والداي والمدرسة مناسبًا. فهربتُ، ليس جسديًّا، بل ذهنيًّا.

بعد رواية *كلب آل باسكافريل*، قرأتُ كلّ أعمال كونان دويل واخترعتُ محقّقي الخاص الذي أسميته «البجع». تخيّلتُ بشرته ناصعة البياض برقبة طويلة، وحين يتمّ إغضابه سُرعان ما يغدو عدوانيًّا جدًّا. كان شعاره: «هناك حقيقتان، الحقيقة التي نريدُ أن نقنع أنفسنا بها- والحقيقة التي نُريدُ إخفاءَها عن أنفسنا».

في البداية، كتبتُ قصصًا قصيرة من عشر صفحات بعددٍ قليلٍ من الشخصيات. وهي عبارة عن حكايات أبحث لها كلّ مرّة عن النهاية الأكثر دهشةً قدر المستطاع. كنتُ أبلور في ذهني عمارة ضمنيّة لكلّ قصّة: كان بعضها على شكل دائرة (يكتشف المحقّق أنّ مفتاح اللغز تحت أنظاره منذ البداية)؛ وأخرى حلزونية (لا تكفّ الحكاية فيها عن التعقيد والتوسّع من خلال انعطافات غير متوقّعة)؛ وبعضها الآخر مثلّثة الشكل (تستخدم إحدى الشخصيات فيها شخصيّة أخرى لكي تصل إلى أهدافها الخاصّة)؛ وعلى شكل هرمٍ (تتقارب فيها ألغازٌ عديدة متوازية وتلتقي في القمّة)، وعلى شكل صليبٍ، وعلى شكل كاتدرائية... كما استخدمتُ كبنية سردية المبادئ المتأصّلة لفنّ السحر مثل التضليل والخيار القسري والقاع المزدوج والمرايا والتوائم... نعم يمكنني القول إنني أُنقِذتُ بفضل تحقيقات شيرلوك هولمز وكلّ ما أيقظته في ذهني.

لطالما حصلتُ على درجات رديئة في المدرسة، ولكنّ أساتذتي للغة الفرنسية أثنوا عليّ يومًا بعد آخر. أتذكّر أنّ أحدهم في الكليّة قال لي: «بصراحة، أنا أعشق قراءة ما تكتبه: لقد ضحكتُ كثيرًا، فقد أذهلني اكتشافك الأخير، ومع ذلك كان عليك أن تهتمّ بالشكل. لقد ارتكبت عشرة أخطاء إملائية، الأمر الذي أرغمني مرّة أخرى على أن أسجّل لك علامة الصفر. ولكن مع ذلك أردتُ أن تعلم أنني أستمتع كثيرًا بقراءة ما تكتبه وأنني

أبدأ دائمًا بورقتك لكي أمنح نفسي بعض الروح حيال الطلّاب الآخرين المعصومين غالبًا عن الأخطاء الإملائية ولكن المملّين إلى حدّ الموت».

إذا كان الأساتذة قد واصلوا معاقبتي، فلم تكن الحال كذلك قط مع زملائي في الصفّ الذين كانوا يعشقون الإصغاء إليّ وأنا أروي حكايات المفتّش البجع في ساحة المدرسة.

وجدتُ مكاني المناسب: أصبحتُ «راوي الحكايات». منذ فجر التاريخ، كان هناك مغنّون وقوّالون ورواةٌ ساهموا في خلق الثقافة الجمعية. وفقط من خلال حكاياتي التي أسميتُها الملازم البجع خلقتُ ما يشبه قبيلة «المستمعين»، وهو ما جذب أخيرًا اهتمام الفتيات نحوي.

ومنذ ذلك الوقت، وجدنا أخي وأنا أنفسنا في تنافسٍ: هو ينجح في الدائرة التقليدية، وأنا في هذه الموهبة الجديدة. أصبحتُ بطريقة ما امتدادًا لوالدتي التي كانت، كمنجّمة، تروي الحكايات لإمتاع زبائنها.

أراد توماس أن يصبح عالِمًا جدّيًا، تلبيةً لرغبة والدي، وإن كان قد اختار فيما بعد التخصّص في مجال الفيزياء وليس في مجال علم الأحياء. أراد أن يصنع أجهزةً ذات موجات. كان هذا هو مجال اهتمامه.

حينما نُقِلَ جدّي إلى المستشفى، كنتُ في الثالثة عشرة من عمري وكنتُ أزوره لكي نواصل أحاديثنا الطويلة. كان هو في الثانية والثمانين من عمره وتدهورت صحّته سريعًا جدًّا. قال لي إنّه يريد أن يموت، ولكنّ جدّتي ردّت عليه بحزم: «كلّا، أنت تهرف، ونحن نثق بطبيبك: لديك فرصٌ في النجاة والتعافي». أتذكّر أنّه حاول أن ينتزع أنابيب الحقن الموصولة بجسده ولذلك قاموا بربطه بأشرطةٍ بسريره. توسّل إليّ أن أساعده لكي يموت، ولكنني لم أعرف ما الذي يجب عليّ فعله. وفي النهاية، علمتُ ذات يومٍ أنّه تمكّن من فكّ أشرطته ووضع بنفسه حدًّا لحياته. صدمني موته بقدر ما صدمني رفض جدّتي احترام رغبته. تساءلتُ في نفسي: «إذا كان المرء لا يستطيع أن يقرّر متى يموت، فما الجدوى من أن يكون حرًّا؟»

وإذا كنتُ قد تأثّرتُ كثيرًا بهذه الخسارة، فإنّ الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى أخي الذي ظلّ يردّد: «لقد فعل الطبّ ما في وسعه، لكنّ جدّي قرّر

الكفـاح ضدّ قرارات الطبيب ودفع ثمن ذلك». ومـع ذلك حينما رآني متأثّرًا جدًّا بهـذه الوفاة، اقترح توماس عليّ أن يصنع جهاز «نيكروفون» وهو جهازٌ للتحدّث مع الموتى مسـتوحى من جهازٍ حقيقيٍّ كان أديسـون قد تخيّله لهذا الغـرض. أعجبتني هـذه الفكرة للغايّـة، وقرّرتُ، بانتظـار أن ينتهي من صنع هذا الجهاز الأسطوري، أن أستخدم موهبتي الخاصّة، موهبة كاتبٍ موهوبٍ وطموح، لأتخيّل طريقة عمله. وقد شـكّلت الكتابة الجديدة في ذلك الحين التي عنونتها بكلّ بسـاطة «نيكروفون» أسـاس الرواية التي سأكتبها بعد عشر سنوات من تلك البداية، وهي رواية *نحن الموتى*.

ثمّ تابعتُ دراسـتي في مجال القانون، والتي سـرعان ما أتعبتني، وكذلك دراسـة علم الجريمة التي افتتنتُ بها فـي الحال. نجحتُ في امتحان التخرّج بتفـوّقٍ، وبمـا أنّـه لـم يكن هنـاك الكثير مـن المنافسـة (حيـث كان الطلاب الصحفيون يفضّلون السياسـة والثقافة على علم الجريمة)، وجدتُ بسـهولة عملًا في صحيفة أسـبوعية يسـارية كانت تبحث عن صحفـيٍّ متخصّصٍ في القضايا الجنائية.

لاقـت مقالاتي الأولـى الكثير من النجاح: أحبّ القرّاء أسـلوبي الروائي المتأثّـر مباشـرةً بكتابات دويل. كنـتُ أتابع الدعاوى في الجلسـات ومن ثمّ أضعهـا في مشـهدٍ في مقالاتـي بطريقة تمثيليـة، من خلال إعطـاء الكثير من التفاصيل حول الحالة النفسية للمتحدّثين والجناة وكذلك الضحايا.

سريعًا جدًّا، عرض عليّ رئيس التحرير ترقية وظيفية ومنحني لقب «كبير المراسـلين»، وهو لقـبٌ مرغوبٌ فيه كثيـرًا. ونلتُ في النهايـة الإذن بتحرير تقارير ضخمة، مع مصوّري الخاصّ وحصلتُ على الوقت الكافي لكي أنجز بنفسـي تحقيقاتي وأعدّ جلسـاتي الخاصّة بالاسـتماع إلى الشهود. حصلتُ على أفضل راتبٍ، وعلى مسـاحةٍ أوسع للتعبير عن رأيي، وبالمقابل، وفّرتُ للصحيفـة نموًّا في عـدد قرائها. كانت تقاريري الأولى متميّزة، فاستشـهدت بي الإذاعات وأعادت مقالات الصحف المنافسـة نشـر تحليلاتي، وتكدّس بريدُ القرّاء على مكتبي.

ثمّ أعددتُ تقريرًا عن متحرّشٍ بالأطفال بلجيكي متّهمٍ باختطاف أطفالٍ.

كان يُعتقَد أنّه يتصرّف منفردًا. ولكنني اكتشفتُ بعد إجراء التحقيقات أنّه جزءٌ من شبكة مؤلّفة من قُرابة مئة شخصٍ، بينهم شخصيات معروفة ألمانية ووزراء بلجيكيون. والمثير للدهشة هو أنّ القضاة رفضوا حتى النظر في فرضيّة وجود شبكة، إلى درجة أنّهم أسكتوا المتّهم عندما أبدى استعداده للكشف عن شركائه. صعقتُ لذلك التصرّف، فكتبتُ مقالةً ذكرتُ فيها كلّ الأدلّة التي تُثبِتُ أنّ القضاء يسعى إلى طمس القضيّة. سوى أنني لم أحظَ بالوقت الكافي لعرض كلّ استنتاجاتي حتى النهاية، لأنّ رئيس تحرير صحيفتي خشي من أن يُلاحَق، بل والأسوأ من ذلك، مثلما أشار لي ذات يوم قائلًا: «في بعض الأحيان يختفي أناسٌ بسبب قضايا أقلّ شأنًا من هذه».

فلم ألحّ عليه وتخلّيتُ عن نشر هذا التقرير لكي أتفرّغ لتحقيقاتٍ أقلّ «إزعاجًا»، وانشغلتُ خاصّةً بتحقيقٍ بخصوص مقدّم برامجٍ تلفزيونية يحظى بشعبيّة كبيرةٍ اكتشفتُ أنّه يتعاطى الكوكايين وقد أصاب سابقًا العديد من الفتيات بجروحٍ خطيرةٍ، تحت تأثير المخدّرات، في حين كان يقدّم بنفسه برامج تلفزيونية يندّد فيها بالعنف الزوجي لإثارة مشاعر الجمهور. هنا أيضًا، لم أستطع نشر اكتشافاتي. كان لهذا الرجل جمهورٌ واسعٌ جدًّا يحول دون المسّ به.

في أعقاب هذه الحادثة، استدعاني رئيس التحرير في صحيفتي وأخبرني أنّ عليّ الكفّ عن الرغبة في إجراء تحقيقاتٍ بهذه الطريقة. وقد سخر من سذاجتي التي جعلتني، بحسب ما قال، أخلط بين مهنة الصحافة ومهنة القضاء. على أيّ حال، لم تعد هناك، بحسب ما أخبرني، ميزانية مخصّصة للتحقيقات الطويلة. وأنهى حديثه معي بالقول: «غابرييل، تواضع قليلًا، وكفّ عن محاولة إثارة اهتمام الآخرين بك، واكتفِ بإعادة صياغة التقارير الإخبارية من خلال إضفاء أسلوبك الفريد عليها وإدراج شخصياتك المجسّدة ببراعة فيها. فهذا أقلّ كلفةً بالنسبة إلى صحيفتنا ويكفي تمامًا قراءَنا».

فبدأتُ أكتبُ من جديد مقالات لا تزعج أحدًا، وأنا أحلم في الوقت ذاته بالانكباب على دراسات أكثر رصانةً. وقد سنحت لي الفرصة. التحقيق الثالث المعمّق الذي أجريته بمفردي تناول مدير وكالة حكومية لمراقبة الأخلاق في التلفزيون، شوهِدَ من قبل عدّة شهود وهو يقتل عاهرةً أثناء

نوبةٍ من ممارسة الجنس بساديّة. وقد هبّ العديد من السياسيين لنجدته في سبيل تبرئته من تلك الجريمة؛ وقد زعم بأنّه كان أبًا مثاليًا لأسرةٍ، لا تشوب أخلاقه شائبة، وأنّه ضحيّة منتجين لأفلامٍ إباحية محبطين من عدم قدرتهم على إغراق التلفزيون ببذاءاتهم. ولتبرئة نفسه، كان هذا المدير التلفزيوني قد كتب روايته للأحداث على شكل بحثٍ تحت عنوان *الكرامة المنتهكة لرجل*. عشية الدعوى، خُنِق أحد الشهود الرئيسيين في زنزانته، وكان متحوّلًا جنسيًّا. والعاهرات الأخريات اللواتي استدعيْنَ كشهود تراجعن عن الإدلاء بشهادتهنّ، كما سُرِّح صَحَفيٌّ تلفزيونيٌّ يدعم فرضية القتل.

قابلت أولئك الفتيات الواحدة تلوى الأخرى، وجميعهنّ قلن لي إنّهنّ هُددن بسحب حضانتهنّ لأطفالهنّ في حال «أصْرَرْن على أكاذيبهنّ الهادفة إلى تشويه سمعة رجلٍ فاضلٍ». روين لي بالتفاصيل الدقيقة ما حدث في ليلة وقوع الجريمة؛ ولأنّ إفاداتهنّ كانت متطابقة، كتبتُ مقالةً طويلةً. وخشيةً من أن يستخدم رئيس التحرير في مجلّتي حقّه في نقض مقالتي، أرسلتُ مقالتي في اللحظة الأخيرة، تمامًا قبل إغلاق الباب أمام المواد، زاعمًا أنّها نالت التصديق للنشر. وكاد ذلك ينجح، إلّا أنّ سكرتيرة التحرير خامرها الشكّ في اللحظة الأخيرة وأخبرت رئيس التحرير الذي استطاع أن يوقف كلّ شيء. وقد علمتُ فيما بعد أنّ هذا الأخير نفسه كان صديقًا للمتّهم. استدعاني في صباح اليوم التالي لكي يُخبرني أنّ هذه كانت القشّة التي قصمت ظهر البعير، وقال إنني مصابٌ بالبارانويا وإنني أرى دائمًا مجرمين حيث لا وجود لهم. وقد نصحني بأن أخضع للعلاج وسرّحني بالذريعة التالية: «يخلط نواياه الشخصية مع حقيقة الوقائع».

عانيتُ في أعقاب ذلك من البطالة لسنة كاملة وواجهتُ صعوبات في دفع إيجار شقّتي. ومنعتني سمعتي بأنني «مثير المشكلات» من الالتحاق بالصحف المنافسة. كنتُ أعيشُ في شقّة مكتبية مساحتها عشرة أمتار مربّعة كملحق على السطح، مع مرحاض وحمّام مشتركين، ولم أكن أتناول سوى وجبة واحدة في اليوم، وكانت غالبًا مكوّنة من المعكرونة المجفّفة بصلصة الطماطم.

استفدتُ من وقت الفراغ هذا لكي أحوّل مقالتي الأولى حول شبكة

متحرّشي الأطفال البلجيكية إلى روايةٍ مشوّقة مليئة بالمعلومات النادرة عن علم الجريمة. وكانت تلك مخطوطتي الأولى: *البجع*.

أرسلتُ مخطوط الرواية إلى ما يقرب من عشرة ناشرين، لم يرضَ أحدٌ منهم بطباعتها، وأرسلوا جميعًا إليّ رسالة رفضٍ: «اعذرني، هذه الرواية لا تتوافق مع أيّ مجموعة من مجموعاتنا. ومع ذلك ننصحك بتقديمها إلى ناشرين آخرين أكثر قدرةً على الدفاع عن نصّ كهذا. نتمنّى لك حظًّا سعيدًا في إصدارك المستقبلي».

فأعدتُ كتابة النصّ، وأرسلته إلى نفس الناشرين، الذين وجّهوا إليّ من جديد رسائل رفضٍ مهذّبة.

ومن ثمّ اتّصلت بي ذات يومٍ دار نشرٍ لتبلّغني أنّ الناشر الكبير ألكسندر دي فيلانبروز يرغب في مقابلتي بأسرع وقت. أراد المعلّم أن يراني شخصيًّا! لم أصدّق ذلك.

أثناء لقائنا الأوّل، قال لي: «سوف نأخذ النصّ ولكنّه طويلٌ جدًّا. ألف وخمسمئة صفحة من التحقيق حول شبكة بلجيكية لمتحرّشي الأطفال، ليس في وسع هذه الرواية بهذا الحجم الضخم أن تصل إلى الجمهور الواسع. أقترح عليك أن تختزل عملك في ثلاثمئة وخمسين صفحة، وأن تجعل أحداث الرواية تجري في لوكسمبورغ بدل بلجيكا لتحاشي أيّ مشكلة قضائية. وبالطبع من دون ذكر أيّ اسم. وسيكون على القرّاء أن يربطوا الأحداث بالقصّة الحقيقية إن كانوا على الحدّ الأدنى من الفضول».

بعد أن حدّق فيّ مطوّلًا، أضاف: «أعتقدُ أنّ هذا سوف يلامس الجمهور الشابّ والناس المتعطّشين إلى كلّ ما هو جديد. في الوقت الراهن، أكثر ما يحزنني هو أنّ كلّ الكتب تتشابه بعضها مع بعض، وتشبه كتب القرن المنصرم...»

أحدث صدور روايتي الأولى لديّ ما يشبه كآبة نفاس أدبية بعض الوقت، تغلّبتُ عليها لكي أهتمّ بحياة كتابي، لا سيما من خلال المشاركة في جولةٍ على مكتبات المنطقة للحديث عنه. لسوء الحظّ، لم تشهد رواية البجع سوى القليل من الصدى الإعلامي: صدرت مقالةٌ وحيدة في الصحيفة الأسبوعية

التي عملتُ فيها سابقًا، كتبها زميل لي كان شاهدًا على تسريحي التعسّفي، مثلما عُرِضَ مقطعٌ منها في برنامجٍ تلفزيونيٍّ أدبيٍّ يُبثُّ في الساعة الواحدة فجرًا. ولكن سرى الكثير من الحديث الشفاهي عنها إلى حين صدور الرواية في صيغة كتاب الجيب وحتى بعد ذلك، الأمر الذي أتاح لي الوصول إلى عددٍ أكبر من القرّاء.

نصحني ألكسندر دي فيلانبروز آنذاك بالكثير من المنطقية بأن أكتب تتمّة مغامرات الملازم البجع. فكانت رواية *ليلة البجع*. كانت الرواية هذه المرّة تستند إلى تحقيقي الخاصّ بشأن مقدّم البرامج التلفزيونية الذي اغتصب وهو تحت تأثير الكوكايين. عملتُ أكثر على الحالة النفسية لبطلي المحقّق، لويس البجع، متخيّلًا على نحوٍ خاصّ أنّ أحد طقوسه هو الذهاب لتناول بجعات بحيرة غابة بولونيا لكي يفكّر. كانت تلك طريقة لإحياء جدّي.

شهد الكتاب، من دون مساندة من وسائل الإعلام، نجاحًا شعبيًّا كبيرًا، بل وحصلتُ على عدّة جوائز أدبية، ولكنّ قلّة الاهتمام الإعلامي أقلقتني وضايقتني. فسألتُ ألكسندر دي فيلانبروز عن هذا الموضوع، فشرح لي أنّ الأمر طبيعي: «فإمّا أن تحصد الانتقادات، أو تحظى بالجمهور. في فرنسا، لا يمكن الجمع بين النقد والجمهور. ماذا تفضّل؟» أجبتُ بأنني أختار الجمهور، الأمر الذي أثار إعجابه قائلًا إنّه لطفٌ منّي أن أترك الانتقادات الجيّدة للكتّاب الرديئين. أتذكّر ذلك الحوار الذي صعقني، لأنني لم أكن أتخيّل آنذاك أنّ في وسع النظام أن يكون على هذه الدرجة من الانقسام.

بعد الروايتين البوليسيتين تحت عنوانٍ فرعيٍّ هو «تحقيقات الملازم لويس البجع»، خشيتُ من أن أسير نحو حبس نفسي ضمن نمطٍ أدبيٍّ وحيدٍ، فحاولتُ كتابة كتابٍ روحانيٍّ أمزجُ فيه بين المغامرة والإثارة: *نحن الموتى*. كانت القصّة مستوحاة مباشرةً من النيكروفون الذي أراد أخي أن يصنعه. استخدمتُ كلّ ما اكتشفته في *كتاب الموتى التيبتي* و*كتاب الموتى الفرعوني*، وكذلك مقابلات مع وسطاء روحيين ولاهوتيين. لم تلقَ هذه الرواية أيّ صدى إعلامي. ولا حتى إشارة في إحدى صحف الإعلانات. مثّل ذلك فشلًا ذريعًا بالنسبة إليّ، كما هو معلوم. وكان عليّ القبول بالواقع: لم يكن موتاي يحظون باهتمام... الأحياء.

فاعتقدتُ أنّ عملي ككاتب قد انتهى وأنّ عليّ العودة إلى الصحافة، ولكن بناءً على نصيحة ألكسندر دي فيلانبروز، كتبتُ المجلّد الثالث من تحقيقات الملازم البجع مستوحيًا هذه المرّة من حكاية الشخصية المعروفة التي قتلت العاهرة: *غناء البجع*.

وسط دهشتي الكبيرة، قفزت الرواية منذ الأسبوع الأوّل إلى صدارة قائمة الروايات الأكثر مبيعًا. كان ذلك أشبه باضطرارنا في بعض الأحيان إلى دقّ المسمار نفسه ثلاث مرّات حتى يدخل في الجدار. بل إنّ بعض النقّاد وافقوا على أن يجروا لقاءات معي، ليس للحديث عن الكتاب، بل لمحاولة تحليل هذا النجاح الذي عجزوا عن إيجاد تفسيرٍ له. ثمّ نُشِرت أوّل مقالة تسقيطٍ كتبها موازي. وهو الآخر لم يتحدّث عن روايتي بالمعنى الحرفي بل صبّ جام غضبه على القرّاء الذين كانوا أغبياء بما يكفي لشراء كتبي. زعمَ أنّ دافعي الوحيد هو الشهرة والثروة، ونَعَتَني بالكاتب المغمور، وبالكاتب من الفئة الدنيا. إلّا أنني بفضل مقالته حصلتُ على الحقّ في مقابلة إذاعية عرضوا عليّ خلالها أن أردّ على تلميحاته وإهاناته. كما عرض عليّ محام أن أُقيم عليه دعوى تشهير. على العكس من ذلك، ربّما كردّ فعل على مقالة موازي بالضبط، شرع العديد من أصحاب المكتبات في مساندتي، وكذلك أساتذة اللغة الفرنسية الذين أدركوا أنّ في وسع رواياتي أن تمنح الشبّان متعة القراءة، وتحديدًا لأنّها سهلة الفهم. بل إنّ رواية *البجع* أُدرجت في منهاج السنة النهائية في الدراسة، وشهد الكتاب بالتوازي مع ذلك نجاحًا عالميًّا. هكذا نجحتُ في إيجاد جمهورٍ واسعٍ من دون المرور بالخانة الإعلامية. لا شكّ أنّ موازي وبعض أقرانه واصلوا التهجّم عليّ، ولكن في النهاية وفّر هذا الأمر لي دعاية واسعة جدًّا.

بعد هذه المرحلة، كتبتُ تتمّة رواية *نحن الموتى*، وهي رواية *مملكة السموات*، التي وصفتُ فيها على نحوٍ أدقّ بعض الشيء ما تخيّلت أنّ يكون عليه عالم ما بعد الحياة. استغللتُ ذلك لكي أسرد التجربة الشهيرة لوالدي على الدودة البلانرية، بطريقة أُعطي من خلالها بعدًا علميًا لكتابٍ من المفترض أنّه يتعامل مع الروحانية. هنا أيضًا، وجد الكتاب جمهورًا عريضًا وشهد ازدهارًا في المكتبات، الأمر الذي كان غريبًا، نظرًا لفشل الكتاب الذي كانت هذه الرواية تتمّةً له.

بـدءًا من هنا، ثبّـتُ نظامًا انضباطيًّـا حقيقيًّا، على طريقـة الرياضيين: كلّ صباح، من السـاعة الثامنة ولغاية السـاعة الثانية عشـرة والنصـف، أكتبُ في الحانة الصغيرة. وفي كلّ أوّل يومٍ من شهر أبريل / نيسان، كنتُ أُصدِرُ عنوانًا جديـدًا، الأمـر الذي أرغمني علـى أن أعمل بانتظام وأتاح لـي تحديد موعدٍ سنويٍّ مع قرائي.

كتبتُ روايات بوليسـية، وكتبًا روحانية... إجمالًا، اثني عشـر كتابًا خلال اثنتي عشـرة سـنة بدءًا من رواية *البجع*. لم يلقَ جميعها النجاح ولكنني رأيتُ مهنتـي منـذ تلك اللحظـة مثل ماراتونٍ وليس فقط مثل سلسـلة من سـباقات السـرعة القصيرة. لحسن الحظّ، ظلّ القراء يساندونني. وإذ كان هاجسي هو الخوف من تكرار نفسـي، تهيّأتُ لاكتشـاف جنسٍ أدبيٍّ جديد ولنشـر كتاب خيالٍ علمي: *إنسـان الألف عام*، في محاولة لإطالة متوسّـط عمر الإنسـان. العالـم مثيرٌ للسـخرية: لقد متُّ في اللحظة التـي قرّرتُ فيها الكتابة عن طرق البقاء على قيد الحياة لأطول ما يمكن...»

22. الموسوعة: اللصّ المحنّط

هناك قلّة من الرجال في التاريخ ممّن عرفوا مهنة ثانية بعد موتهم. بيد أنّ هذه كانت حالة الأمريكي ألمر مكوردي، المولود في عام 1880. حينما بلغ السابعة والعشرين من عمره، ولم ينجح في إيجاد مهنةٍ يعمل فيها بسبب إفراطه في تعاطي الكحول، تطوّع في الجيش. وأثناء خدمته في الجيش، تخصّص في معالجة المتفجّرات. بعد ثلاث سنوات من الخدمة، انضمّ إلى عصابة من لصوص القطارات وأصبح هو نفسه رجل عصابات. أثناء غارته الأولى، التي شُنّت على قطارٍ ينقل أموالًا مخصّصة لقبائل الهنود، أخطأ في استخدام كميّة المواد المتفجّرة ونسف كلّ الأوراق النقدية من خلال خلع باب الخزنة. وكذلك فشلت غاراته الأخرى بسبب سوء استخدام كميّة المواد المتفجّرة، وأكبر مبلغ استطاع أن يسطو عليه بلغ ستّة وأربعين دولارًا. ومع ذلك رُصِدَ مبلغ ألفي دولار كمكافأة لمن يوقِع به. وفي

مطاردة طارده فيها ثلاثة ضبّاط مأمورين، تحصّن في مزرعةٍ ورفض الاستسلام. كانت آخر كلماته: «لن تقبضوا عليّ حيًّا!» وبالفعل، قُتِل بعد بضع دقائقٍ بالكاد من تفوّهه بهذه العبارة التنبؤية.

وإذ لم يُطالب أحدٌ بجثّته، استخدمها متعهّد دفن الموتى جوزيف جونسون الذي حنّطها بمحلول الزرنيخ وعرضها في واجهة مكتبه. وعلّق على الجثّة المحنّطة لافتة تقول: «الرجل الذي رفض الاستسلام». كان يقبض عشرة سنتات لقاء مشاهدة الجثّة المكسوّة بثياب رعاة البقر والموضوعة في نعشٍ. وقد كان النجاح باهرًا إلى حدّ أنّ العديد من فرق السيرك المتنقّلة حاولت شراء هذه المومياء، من دون أن تنجح في ذلك. ولكن بعد مضي خمس سنوات على موته، حضر رجلٌ وقدّم نفسه على أنّه شقيقه واستردّ الجثّة، زاعمًا أنّ غايته هي إقامة مراسم دفن لائقة به.

كان الرجل في الحقيقة محتالًا استغلّ الفرصة الثمينة لكي يغتني بدوره. هكذا عرفت مهنة ألمر حياةً ثانية. خلال ستّين عامًا، أُعيرت المومياء للمتاحف والمتنزّهات الترفيهية والكرنفالات تحت مسمّى «اللصّ المحنّط». في عام 1935، عُرِضَت المومياء في واجهة دارٍ للسينما كانت تعرض فيلم الرعب ناركوتيك. ثمّ عُرِضَت في متحفٍ للشمع مخصّصٍ للخارجين على القانون المشهورين. في عام 1967، لعب دورًا ثابتًا مهمًّا في فيلم الرعب فريك وأنهى في الختام عمله في متنزّهٍ في حديقة لونغ بيتش في كاليفورنيا، يُدعى «لاف في الظلام»: كان، عاريًا تمامًا ومصبوغًا باللون الأحمر، معلّقًا عند مخرج نفقٍ ليجعل ركاب القطار الشبح يصرخون ذعرًا. في ديسمبر/ كانون الأوّل 1976، صُوِّرَت حلقة من مسلسل *رجل الستّة ملايين دولار* في هذا النفق المرعب. وضعه أحد الاختصاصيين في الإكسسوارات، ظنًّا منه أنّه مجسّمٌ من الشمع، ولكن حينما انفصلت ذراعه، اكتشف بذعر أنّ هناك عظمًا في داخلها. جاء طبيبٌ على عجلٍ وتأكّد من أنّ الأمر يتعلّق بجثّة بشريّة محنّطة. بل عثر في فمه على سنتٍ يعود تاريخه إلى عام 1924 وكذلك بطاقة دخولٍ إلى متحف الجريمة في

لوس أنجلوس. وبفضل هذه البطاقة استطاعت الشرطة أن تعيد رسم مسار الجثّة وتتعرّف عليها على أنّها جثّة اللصّ ألمر مكوردي.

وبعد مضي ستين سنة على وفاته، حظي أخيرًا بمراسم دفن في أوكلاهوما، حضرها أكثر من ثلاثمئة شخصٍ. وقد صُبّت فوق نعشه كميّة كبيرة من الأسمنت بلغت طنّين حتى لا يحاول أحدٌ سرقته.

إدمون ويلز

***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

-23-

لم تعد القطط تُصدرُ أيّ ضجّة، كما لو أنّها هي الأخرى تُصغي إلى سرد الكاتب.

صبّت لوسي لنفسها كوبًا من الشاي.

- أتفهّم الآن على نحوٍ أفضل الجانب الذُهاني من شخصيتك، يا سيّد ويلز. كنتُ أجهلُ أنّ وجود هذا العدد الكبير من الروايات أمرٌ على هذه الدرجة من التعقيد بالنسبة إليك. على أيّ حال، مثلما أخبرتك سابقًا، أفادتني أعمالك وأثّرت عليّ إيجابيًّا في لحظة حاسمة من حياتي.

- *هذا يسعدني. وما يسعدني أكثر هو أنّك تماماً من نمط المرأة التي قد أُغرَمُ بها...*

- ولكنّك ميّتٌ!

- *لا أحد كاملٌ...*

- على كلّ حال هذا مستحيل لأنني أحبّ رجلًا آخر، وأنت تعرفه جيّدًا، وهو حبّي الحقيقي الوحيد.

- *لقد فكّرتُ... في هذا الموضوع. لدي اقتراحٌ أعرضه عليكِ.*

- في المرّة الأخيرة التي عرضتَ عليّ أمرًا، كان الطلب منّي الذهاب للتحقيق على الأرض مقابل قبولك بالتناسخ. وقد رأينا النتيجة. شكرًا جزيلًا، وفّر اقتراحك.

- أصغـي إليّ. أنا جادٌّ في اقتراحي. سـوف تجديـن الحقيقة حول موتي وأنا سأعثر على حبّكِ الحقيقي.

لم تخفِ لوسي دهشتها.

- ومـا الذي تنوي فعله؟ أذكّـرك بأنّ محققًا ووزيـرًا للداخلية قد أخفقا في هذه المهمّة.

- سـوف أسـتعين بجدّي الشـرطي الذي كان محققًا بارعًا. لقد تواصل معـي في العالـم اللامرئي وأخبرنـي أنه على اسـتعدادٍ لمسـاعدتي. أفترضُ أنه يستطيع، فـي العالم الآخر، الوصـول إلى معلوماتٍ لم يسـتطع محققك الخاصّ أو وزيرك الحصول عليها.

تنهّـدت لوسـي وتنفّسـت بعمـق، وهـي تداعب القطّـة التـي وثبت على ركبتيها، كما لو أنّها تطلب مشورتها.

أجابت بعد لحظةٍ:

- هل سوف تفعل هذا حقًّا من أجلي؟

- سأكون سعيدًا بأن أساعدكِ.

- حسـنًا. دعنا نتّفق بوضوح: سـأحقّق بشأن موتك، وأنت ستحقّق بشأن حبّ حياتي، وسـوف نبذل في سـبيل ذلك كلّ طاقتنا، كلّ منّا من جهته، لكي نحصل على نتيجةٍ.

- أعدكِ بأنني لن أستسلم قبل أن أعرف إن كان حيًّا وإذا اقتضت الضرورة أين يعيش.

- مـن جهتـي، سـوف أفعـل كلّ ما يجـب فعله في سـبيل الكشـف عن قاتلك، ولكنني لن أعرّض نفسي لأدنى خطر، هل اتّفقنا؟

- أنـا آسـفٌ حقًّا لما جرى في الأمـس. لم أكن أعرف جيّـدًا بعد قوانين العالـم اللامرئـي، ولذلك كنـتُ أجهل أنـكِ تجذبيـن الأرواح الهائمة مثلما يجذب الضوء الفراشات.

- لا أريدُ بعد الآن أن أُجرَح أدنى جرح، ولا أن أُخدَش أدنى خدش، ولا أن أُطارَد أدنى مطاردة، ولا أن أتعرّض لأدنى تهديدٍ ماديٍّ أو لفظيٍّ. ولا حتى أن ينكسر لي ظفرٌ أو أُصاب بالتهابٍ في وترٍ.

- من مصلحتي أن تعيشي مرتاحةً لأطول زمنٍ ممكن.

- إذن، كيف تريدني أن أبدأ؟

- قبل كلّ شيء، سوف أدلّكِ على عنوان موقعٍ على الشبكة المظلمة (دارك نت) حيث يمكنكِ من خلاله أن تحصلي لقاء مبلغٍ زهيدٍ على بطاقة شرطة مزوّرة سوف تساعدكِ على الدخول إلى أيّ مكان واستجواب المشتبه بهم. وبعد ذلك، سوف أزوّدكِ بعنوان مختبر التحاليل الطبّية العائد لصديقي فلاديمير كراوس. سوف تطلبين منه تحليل العيّنة التي أخذتها من دمي. سوف نعمل بالتوازي، من طرَفَي العالم.

وبدل أن تردّ عليه، اقتربت لوسي من صورةٍ لسامي داودي. أغمضت عينيها واستسلمت لأجمل الذكريات التي تحتفظ بها عنه. شهقت بعمق مالئةً صدرها بالهواء، ثمّ أطلقت زفيرًا طويلًا مليئًا بالأمل.

-24-

تلاعبت الريح في الشوارع بأوراق الشجر المتساقطة وبأوراق الصحف المتناثرة. شرع الرتل الطويل للسيارات العالقة في الازدحام بإطلاق أبواق التنبيه، وأسرع المشاة خطاهم. وحدهم منْ كانوا يرافقون كلابهم في نزهةٍ أُبطِئت خطاهم بفعل حيواناتهم الأليفة التي راحت تشمّ الأشجار وعجلات السيارات. سارت لوسي فيليبيني مسرعةً، وهي ترتدي ثيابًا حمراء اللون بالكامل، وهو لونٌ يناسب الحالة تمامًا لكونها ذاهبة إلى مختبر فلاديمير كراوس للتحاليل الطبيّة، الواقع في مبنى يشبه فندقًا فخمًا. في بهو المدخل، بدت موظّفة استقبالٍ، بدينة ولها ذقن ذو حدبتين وعلى خدّها حبّة شبيهة بحبّة الكمثرى، قلقة وهي تتحدّث بطريقةٍ متقطّعة على الهاتف.

- ... إذن ألا تعرفين ما الذي أخبرني عنه؟ «غيسلين، لقد مررتِ هذه الليلة بنوبةٍ جديدة من السَرْنمة، هذا مُتعِب». هل لكِ أن تتخيّلي؟ كأنني بكامل إرادتي أثير أزماتٍ، وأنا في عزّ النوم! فأجبته: «وأنت يا فرانسيس، لقد أرغمتني على رؤية والدتك كلّ يوم أحد، وهذا أسوأ بكثير من نوبة سَرْنمة ومع ذلك تحمّلت هذا العذاب!» ولكِ أن تصدّقي أو لا تُصدّقي،

ولكنّه لم يتقبّل الأمر ولم يكن سعيدًا بما قلت! فأضفتُ: «إذا كانت طريقة نومي تزعجك إلى هذا الحدّ، عدْ إلى بيت والدتك، فأنا متأكّدة من أنّها تنامُ هادئةً». فحاول أن يتودّد إليّ مخاطبًا إياي بعبارة «حبيبتي غيغي»، ولكنّكِ تعلمين أنّ هذا الأمر لا يمرّ عليّ...

وقفت لوسي فيليبيني أمامها وأخرجت بطاقة الشرطة خاصّتها ووضعتها أمام عينيها تمامًا.

– لحظة من فضلكِ يا سيرافين، لديّ زبونة، سأعاود الاتصال بكِ.

أغلقت سمّاعة الهاتف وسألت بنبرةٍ غاضبة:

– لماذا تظهرين لي هذه البطاقة؟

قالت لوسي وهي تبحث عن النبرة الأكثر إقناعًا:

– الشرطة.

– ليست هناك معاملة تفضيلية لموظّفي البلدية، عليكِ أن تنتظري مع الآخرين. جهّزي بطاقة التأمين على الحياة وبطاقة التأمين الصحّي خاصّتكِ.

– أنا هنا من أجل تحقيقٍ جنائيٍّ. أودّ أن أقابل فلاديمير كراوس.

– إنّه مع زبونٍ ولا يمكننا إزعاجه.

– مثلما أخبرتكِ، إنّها مسألة تحقيق...

– حسنًا، سواء كانت مسألة تحقيقٍ أو لا، الزبائن الآخرون كانوا هنا قبلكِ، وبالتالي عليكِ الانتظار حتى يحين دوركِ مثل الجميع، سيّدتي *العزيزة*.

تردّدت لوسي في رفع نبرة صوتها، ولكنّ موظّفة الاستقبال ظلّت على موقفها، ولأنّها لم تكن تعرف تمامًا كيف تتكلّم شرطيّة حقيقية في حالة كهذه، لم تجرؤ على الذهاب إلى المواجهة. فذهبت إلى قاعة الانتظار المجاورة التي دلّتها عليها موظّفة الاستقبال.

وجدت في القاعة أنّ العديد من الأشخاص يمسكون بين أيديهم أمبولات مليئة بسوائل حمراء وصفراء وبنيّة وبيضاء. بدا الجميع منهكين كما لو أنّهم مكتئبون لأنّ أجسادهم تفرز سوائل ذات نوعية رديئة. أغمضت لوسي عينيها

وحاولت أن تدخل في جلسة تأمّلٍ قصيرة، ولكن موظّفة الاستقبال عاودت الاتصال الهاتفي وتكلّمت بصوتٍ عالٍ، كان كافيًا لمنعها من التركيز.

– وهل تعلمين ماذا قال لي فرانسيس بعد ذلك؟ قال إنّ عليّ أن أخضع للعلاج... وكأنّ الطبّ يستطيع أن يفعل شيئًا في هذا الأمر! أمّا أنا، فأعتقدُ أنّ هو منْ عليه أن يخضع للعلاج! وبالطبع غضبتُ كثيرًا، وقال لي ما جعلني أخرجُ عن طوري: «اهدئي!» وهنا أستطيعُ أن أخبركِ أنني لم أهدأ، بل على العكس تمامًا...

قاطع صوتٌ ناعمٌ لوسي في محاولتها التأمّلية:

– هل أنتِ الشرطية؟

فتحت المرأة الشابّة عينيها واكتشفت رجلًا يرتدي صدريةً بيضاء، له وجهٌ طولي يحيطُ به شعرٌ قصيرٌ أملس وأسود.

– أنا البروفيسور كراوس، فلاديمير كراوس. لو تفضّلتِ بالمجيء معي.

قادها إلى مكتبه وأشار لها إلى أريكةٍ.

قالت وهي تُخرجُ العيّنة من حقيبتها:

– في الحقيقة، لستُ هنا في مهمّة رسميّة. كان غابرييل ويلز صديقًا مقرّبًا، وقبل موته، طلب منّي بإلحاحٍ القيام بتحليل دمه في حال وفاته.

– كان أيضًا أحد أصدقائي. سمعتُ بخبر وفاته صباح اليوم وقد أحزنني.

– إنّه يشتبه في أنّ أحدًا ما قام بتسميمه.

– كان غابرييل يعاني من البارانويا بعض الشيء. يبدو أنّ مهنته جعلته في النهاية يخلطُ بين الواقع والخيال. ولكنني لا أعتقد أنّ له أعداءً حقيقيين.

– على العكس تمامًا، كان رجلًا محاطًا بالأصدقاء. وأن تكوني من بين أصدقائه المقرّبين هو دليلٌ إضافي على أنّه كان محظوظًا، يا آنسة...؟

– فيليبيني. النقيب فيليبيني.

حدّق فيها بدقّة أشدّ، ومدّت هي نحوه العيّنة.

– هل قلتِ أنّ هذه العيّنة أُخِذَت بعد وفاته؟

– لقد طلب منّي غابرييل أن أتصرّف من دون إبطاء وسرًّا، قبل أن آتي لرؤيتك بأسرع ما يمكن.

قامت بحركةٍ خفيفةٍ نحو الأمام، فتحت قليلًا فتحة قميصها وأتاحت للرجل ذي الصدرية البيضاء أن يرى عميقًا مفرق نهديها، وهي الخطّة التي كانت قد نجحت في الماضي. سعل الطبيب وقال:

– قبل خمس سنوات، اقترح عليه الدكتور لانغمان إجراء فحصٍ طبّيٍ شامل في المستشفى. خلال نهارٍ كامل، أجرى له اختصاصيون اختبارات وفحوصات بالأشعّة وتحاليل طبيّة. اكتشف الأطباء، بفضل التصوير الومضي للقلب، أنّ تصلّبًا دهنيًّا يسدّ الشريان التاجي. هذا على الرغم من أنّه لم يكن يعاني من ارتفاع نسبة الكوليسترول ولا من حالات وراثية، ولم يكن يدخّن، ولم يُصَب بنوبة قلبية أو بوادر نوبة قلبية، ولم يكن يتعاطى المشروبات الكحولية، وكان يمارس رياضة الجري مرّة واحدة في الأسبوع: باختصار، لم يكن هناك أيّ علامة دالّة على إصابته بهذا التصلّب الشرياني. وقد كشف هذا التصوير الومضي أنّ غابرييل لم يعد أمامه سوى أيام معدودة للبقاء على قيد الحياة. ولكنّه رفض الخضوع لإجراء عمليّة قلب مفتوح وآثر أن يمارس الرياضة على الدرّاجة الثابتة المنزلية في جلسات يوميّة تستغرق خمسين دقيقة وأن يأخذ حبوب الأسبرين. وقد كان هذا كافيًا ليعود إلى سرج خيله، من دون تورية – وهذه معجزة حقيقية! ولكنني كنتُ أجري له، كلّ عام، تحليلًا للدمّ لكي أراقب حالته الصحيّة. وبالتالي، سيمكنني أن أقارن بين نتائج عيّنتكِ وآخر فحصٍ أجريتُه له.

دعاها فلاديمير كراوس إلى أن تلحق به إلى غرفة أخرى مليئة بالأجهزة الطبيّة والشاشات.

– هل تهتمّين بالتقنيات الجديدة، سيادة النقيب؟ هذا الجهاز هو مطياف الكتلة لقياس الخواص الضوئية وهذا جهاز كروماتوغرافيا للتحليل الكيميائي. ومن خلال إقران هذين الجهازين، ستتمكّن من معرفة ما هي بالضبط الجزيئات الموجودة في هذه العيّنة من الدم.

أدخل الاختصاصي في علم الأحياء أمبولة الاختبار في جهازٍ للطرد المركزي، سحب جزءًا من محتواها ووضعه في جهازٍ يبعثُ ضوءًا بنفسجيًّا. ظهرت على الشاشة قائمة بالأحرف والأرقام.

سألَ الطبيبُ لوسي:

– يا إلهي! هل ترين هذه الصيغة، $C_{28}H_{40}N_2O_9$؟

– سيكون عليكَ أن تترجم لي هذه الصيغة...

– إنّه الأنتيمايسين إيه، وهو مركّب كيميائي مثبّط لسلسلة التنفّس. هنا الأتراكتيلات وهناك الأوليغومايسين. باختصار، هناك آثارٌ لمواد شديدة السمّية، الأمر الذي يشير بوضوح إلى أنّ هناك تسميمًا.

فتح برنامجًا للبحث من خلال الكلمات المفتاحية وأدخل الصيغ الكيميائية التي حصلها عليها حديثًا. فظهرت على الشاشة صفحات عديدة من النصوص، والرسوم والمخططات البيانية.

قال وهو يهزّ رأسه:

– لقد تسمّم بمواد معقّدة تجعلنا نفترض أنّ الشخص الذي اختار هذا السمّ خبيرٌ في مجال الكيمياء. لقد تناولها عشيّة موته. أمّا بالنسبة إلى الصيغ الظاهرة في أسفل الشاشة، فهي تتوافق مع مواد أخرى، ليست سامّة، ولكنّها ذات تأثيرات منوّمة ومسكّنة.

تفحّصت المرأة الشابّة الصور باندهال. ثمّ قالت مترجمة هذه المعلومات:

– هناك إذن مزيجٌ من المواد لتنويمه، وجعله فاقدًا للحسّ ومن ثمّ القضاء عليه.

قالت في نفسها، وهي تدوّن هذه المعلومات في هاتفها الذكيّ: *هذا هو ما يفسّر أنّه لم يشعر حتى مجرّد شعور بأنّه ينتقل من الحياة إلى الوفاة.*

استأنفت، قائلةً:

– الدكتور كراوس، هل تعرف أحدًا من المحيطين به يحقد عليه إلى درجة أن يسمّمه؟

– حتى وإن كان لديه الكثير من الأصدقاء، كما أخبرتُكِ بذلك سابقًا، فقد كان فريدًا وله عاداته الخاصّة به. كان في بعض الأحيان يطلب منه قرّاءٌ شبّان توقيعه، فيستجيب لطلبهم ويوقّع لهم بطيبة خاطر. لم أره قط يغضَب أو يرفع صوته. كان رجلًا لطيفًا، مهووسًا بمهنته. منْ عساه يرغب في إفناء راوٍ للقصص؟

سألت لوسي:

- أناسٌ أرادوا أن يحلّوا محلّه؟

أظهر عبوسًا دالًّا على الشكّ بدل أن يجيب على سؤالها.

قالت:

- شكرًا على كلّ شيءٍ.

نظر فلاديمير في عينيها قبل أن يقول:

- مهلًا، فقط بدافع الفضول... أليست زمرة دمكِ o سلبي بمحض المصادفة؟

ارتبكت لوسي قليلًا بهذا السؤال.

- بلى، لماذا؟

ردّ باعتزاز:

- أنتِ إذن قادرة على التبرّع بالدم لأيّ إنسان. هذا أمرٌ جيّد. أنا أيضًا زمرة دمي o سلبي.

- وما معنى هذا؟

- على مستوى الدمّ، نحن... نكمل بعضنا بعضًا.

ظلّت صامتة بضع ثوانٍ، ومتحيّرة. لقد سبق لها أن أُغريت بالتنجيم من خلال الزعم بوجود علامات متوافقة، ومن خلال قراءة بعض خطوط كفّها، ومن خلال التباهي بلون عينيها، ولكن لم يسبق قط أن ذكر أحدٌ لها الزمرة الدموية. اكتفت بأن ابتسمت بلطفٍ، وهو ما نزع من الاختصاصي في علم الأحياء كلّ رغبة في الإلحاح. أضاف فقط وهو يُخفض عينيه:

- ومع ذلك حكاية الاغتيال هذه رهيبة... أتمنّى حقًّا أن تكتشفي مَنْ سمّم غابرييل.

-25-

مدّ غابرييل ويلز ذراعيه. عَبَر السُحب دون أن يشوّهها. قام بجولةٍ ثمّ نزل من جديد إلى أجواء المدينة وحام فوقها وانزلق وسط مختلف طبقات الهواء، وحام فوق الأسطح قبل أن يصل إلى جدّه إينياس ويلز على قمّة برج إيفل، الذي تستمتع أرواحٌ تائهة كثيرة بالالتقاء فوقه.

- *إذن يا جدّي، هل تعرف المزيد عن موتي؟*

تناقشت إكتوبلازمات أخرى مع الموجودة في الأنحاء. اقترح إينياس، الذي لم يشأ أن يعرّض نفسه لخطر سماع صوته، الانطلاق من جديد والتحليق على علوٍ فوق المدينة.

- *حتى هذه اللحظة، ليس هناك أدنى أثر لأيٍّ من مؤشراتي المألوفة، ولكن يجب إمهالها بعض الوقت. وأنت، كيف تجري الأمور من جانبك؟*

- *لإقناع لوسي بمساعدتنا في تحقيقنا، تعهّدتُ مقابل ذلك بالعثور على سامي داودي، حبّها الكبير الذي اختفى. إنّه عشيقها الأوّل والوحيد، وهي تبحث عنه منذ أن أوقِفَت وسُجِنَت ثمّ أُطلِقَ سراحها، أي منذ تسعة أعوام، دون أن تنجح حتى الآن في الحصول على أيّ معلومة عنه.*

- *ماذا تعرف عن هذا الصبيّ؟*

- *عنوانه الأخير: 19، جادة ستراسبورغ، بجانب محطّة الشرق. في هذا المكان شوهِدَ آخر مرّة أحد أيام الجمعة المصادف 13 أبريل / نيسان قبل تسعة أعوام.*

- *هيّا بنا!*

وصل الجدّ الشرطي وحفيده الكاتب إلى الشارع دون صعوبة وعبرا السقف القرميدي ليلجآ إلى داخل المبنى.

- *كيف نتصرّف لكي نجري تحقيقًا انطلاقًا من دهاليز الليمبو، يا جدّي؟*

أجاب جدّه بأن يتبعه وتغلغل بين طوابق المبنى. وعثر أخيرًا في القبو على ما يبحث عنه: الروح التائهة للبوّاب السابق. كان هذا الأخير يدخّن سيجارةً غير موجودة، نابعة من خياله، وينفث الدخان الذي كان بدوره غير ماديٍّ ويُرى فقط من قبل الإكتوبلازمات الأخرى. جلس، وقدماه في نعلين خفيفين، مترهّلًا في أريكةٍ تمامًا بجانب البوّاب الحيّ الذي كان يُشاهد في الوضعية ذاتها بعينين شاخصتين مباراةً لكرة القدم تُعرَضُ على شاشة التلفزيون.

من دون انتظار نهاية المباراة، قال إينياس:

- *آسف لإزعاجك، ولكننا نحقّق حول اختفاء مستأجرٍ سابقٍ في هذا المبنى.*

أضاف غابرييل على حديث جدّه:

- عملتَ هنا منذ متى إلى متى بالضبط؟

- أنا موجودٌ في هذا المسكن منذ أكثر من عشرين سنة، منها ثلاث سنوات منذ موتي.

- ممتاز! إذن لا بدّ أنك تعرف سامي داودي الذي كان يعيش هنا قبل تسعة أعوام.

- ماذا تريدان أن تعرفا عنه؟

- نحن نجري تحقيقًا لمساعدة امرأة حيّة تبحث عنه.

سُجِّل هدفٌ في المباراة، الأمر الذي أدّى إلى صدور صيحة عفوية من البواب الحيّ وزيادة اهتمامٍ من البوّاب الميّت. غمغم:

- هذه مشكلتكما، وليست مشكلتي.

- نحن بحاجتك.

- لطالما احتاج الجميع إليّ، ولكنني أعتبرُ أنني الآن وقد متّ، لديّ الحقّ في أن أنعم بالراحة، بسلام وفي هدوء. الموت هو قبل كلّ شيء تقاعدٌ رائعٌ. ثمّ، لماذا سأساعدكما؟ أنا لا أعرفكما حتى!

إينياس هو من أجاب:

- غابرييل ويلز الحاضر هنا كاتبٌ. على الأرجح تعرف رواياته: تحقيقات الملازم البجع، هل تتذكّر شيئًا من هذا القبيل؟

- لم يسبق لي قط أن سمعتُ شيئًا عن هذا. حينما كنتُ حيًّا، لم أكن أشتري سوى الروايات الحائزة على الجوائز الأدبية في شهر نوفمبر / تشرين الثاني، وحتى هذه الكتب لم أكن أشتريها لكي أقرأها بل لكي أهديها إلى عائلتي بمناسبة أعياد الميلاد. أعتقدُ أنّ أفراد عائلتي أيضًا لم يكونوا يقرؤونها، بل كانت توضَعُ في مكتباتهم المنزلية.

أقرّ إينياس بدبلوماسية:

- طبعًا، طبعًا، لكلٍّ أذواقه. كنتُ أقول إذن إنّ غابرييل كاتب، حتى وإن كنتَ لا تعرف كتبه، وبالمناسبة هو أيضًا حفيدي. وقد تبيّن لي أنّ الوسيطة الروحية الشهيرة لوسي فيليبيني، التي لا بدّ أنك سمعتَ بها، هي إحدى صديقاته المقرّبات.

- لا أعرفها هي الأخرى.

- هذا مؤسف، لأنّ هذه الوسيطة الروحية لديها أفضل الخطط لتحقيق التناسخ في كلّ باريس. هل أنت متأكّد من أنّ اسمها اللامع لا يعني لك شيئًا؟

- ما هو الشيء الثمين جدًّا الذي تتوفّر عليه امرأتك الجيّدة هذه والذي قد يجعلها أفضل من عمّتي فلومينا، إذا كنتُ قد فهمتك على نحوٍ صحيح؟

- لدى لوسي فيليبيني اتصالٌ مباشر مع هرميّة الوسطاء الروحيين الأمر الذي يتيح لها أن تؤمّن للأرواح التائهة تناسخًا في أجنّةٍ استثنائية ومتميّزة.

- في الوقت الراهن، لا أرغبُ في التناسخ الروحي. أنا هنا مرتاحٌ في مشاهدة التلفزيون من فوق كتف البوّاب الجديد. والأفضل ألّا يأتي غرباءٌ لإزعاجي، وإذا كنتَ تعرف ما أريدُ قوله...

- وإلى متى تنوي البقاء على هذه الحال؟ أن تبقى مدّة عامٍ؟ عشرة أعوام؟ أن تبقى مئة عامٍ في هذا المسكن وأنت تشاهد التلفزيون؟ التقاعد الأبدي، أهذا ما تحلم به؟ ألا تعتقد أنّك في لحظةٍ ما سوف ترغب في أن تبدأ من الصفر حياةً جديدة؟

بدا البوّاب يخرج أخيرًا من سُباته.

- حسنًا، دعنا نتّفق على أن أزوّدكما بالمعلومات. في مقابل ذلك، أريدُ الضمان بأن أولَد من جديدٍ في حياةٍ أكثر شهرةً.

- ما الذي تُريدُ أن تكونه في حياتك المقبلة؟

- نجم كرة قدم برازيلي.

- يمكننا أن نسأل لوسي إن كانت تملك هذا الخيار في مخزونها. من المؤكّد أنّها لن تستطيع أن تضمن لك أن تصبح البطل الرياضي الذي تحلم به، ولكن سيكون لك والدان يشجّعانك على ممارسة هوايتك.

فانفرجت على وجه البوّاب ابتسامةٌ واسعة تعبّر عن السرور والرضا. ثمّ هزّ رأسه في علامة على الموافقة.

سأله غابرييل:

- وماذا عن سامي داودي؟

- أتذكّره جيّدًا. رجلٌ وسيمٌ، مثقّفٌ، دائم الأناقة في ملبسه، خجولٌ بعض الشيء. كان يترك لي هدايا قيّمة بمناسبة رأس السنة الجديدة، وأعتقد أنّه كان يعمل في البنك أو في القطاع المالي. كان يعيش مع أخواته الأربع. وكنّ نساءً مرحاتٍ على الدوام، يضحكن باستمرار وتفوح منهنّ روائح عطورٍ طيّبة. كنّ يقدّمن لي حلوى بالعسل.

- هل تعرف لماذا رحل؟

- لقد جرى الحديث عن ذلك في الصحف. كانت هناك فضيحة: فرّ ربّ عمله وأخذ معه صندوق النقد. من خلال القليل الذي فهمته، كان داودي أحد الموظّفين الكبار المعرّضين لخطر دفع ثمن أخطائه، فآثر الفرار.

سأل إينياس:

- هل لديك فكرة عن المكان الذي ربّما يكون قد لجأ إليه؟

- هل تضمنان لي أن تعرّفاني على زميلتكما الوسيطة الروحيّة وأنّها سوف تفعل كلّ شيء لكي أولَد من جديد لاعبًا لكرة قدم برازيليًّا؟

- أعدك بذلك.

- إذن سوف أخبركما بالأمر. مثلما تعلمان، في مهنتي يشعر المرء بالضجر ولذلك يتلصّص بالسمع على الآخرين. لقد سمعتُه يقول على الهاتف إنّ عليه أن يغادر فرنسا. ثمّ طلب من سائق سيارة الأجرة التي حضرت بناءً على طلبه أن ينقله إلى محطّة ليون. وبالتالي أنا مستعدٌّ لأن أراهن على أنّه غادر إلى سويسرا أو إلى إيطاليا...

26. الموسوعة: الموت بصحّة جيّدة

في الفلسفة الصوفيّة، يُنصَحُ المرء بأن يموت وهو في صحّة جيّدة حتى يكون أكثر إدراكًا للتجربة بحدّ ذاتها، التي تُعدُّ لحظة مذهلة تقارب النشوة.

إدمون ويلز،

***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

-27-

بـدأ غابرييـل ويلز يعتـاد علـى حقيقة أنّـه قادر علـى الدخول إلـى منزلٍ من خلال سـطحه. عَبَـر القراميد والطابـق العلوي والسـجّاد وأرضية البيت والسقف ووصل إلى لوسي التي تنتظره أمام دميتها المهرّج السعيد.

قال:

– عدتُ من المهمّة.

– هل استطعتَ الحصول على معلوماتٍ عن سامي؟

– فـي يـوم اختفائه ذهب إلى محطّة ليون. يعتقـد بوّاب عمارته في تلك الفترة أنّه غادر فرنسـا. سوف أواصل تحقيقي محاولًا أن أعرف القطار الذي استقلّه.

– لا بدّ أنّ شيئًا فظيعًا قد حدث له جعله يخاف خوفًا شديدًا. لا شكّ في هـذا. ربّما يكـون هذا على صلة بحقيبة الكوكايين. لا بـدّ أنّ هناك من نصب له فخًّا! أتمنى من كلّ قلبي أن يكون قد نجح في الفرار في الوقت المناسب.

– وبالمناسبة، في ما يخصّ قتلي، هل أحرزتِ تقدّمًا من جانبكِ؟

– كان حدسك صحيحًا. لقد سُمّمتَ بالفعل.

– بأيّ سمٍّ؟ الزرنيخ؟ الإستركنين؟ السيانيد؟

– سـمٌّ معقّـد. يحتوي فـي تركيبه على نحوٍ خـاصّ على أنتيمايسـين إيه والأتراكتيـلات. فـي كلّ الأحوال، أكّـد كراوس أنّ هذا مركّبٌ لا يسـتخدمه سـوى الكيميائيين أو العلمـاء البارعين. والخليط بأكمله ممـزوجٌ بمهدّئات ومنوّمات.

– آه نعـم، علـى أيّ حـال! كنـتُ متأكّدًا مـن ذلك! هل أعطـاك كراوس معلومات أخرى؟

– أعطانـي تقديـرًا لتسلسـل الأحداث زمنيًّا. بحسـب رأيـه، بين لحظة تناول السـمّ وسريان مفعوله، ربّما مرّت أربع وعشرون ساعة. لا شكّ أنّك كنتَ قريبًا من السـمّ وعلى اتّصالٍ مع قاتلكَ عشـيّة موتك. أي يوم الإثنين. مَـن التقيـتَ فـي يوم الإثنيـن الشـهير ذاك، وماذا فعلـت؟ حـاول أن تتذكّر

أدقّ التفاصيل، وخاصّة اللحظات التي شربت أو أكلت فيها بالقرب من أشخاصٍ آخرين.

صمت غابرييل لبرهةٍ ليتذكّر أحداث يوم الإثنين ذاك. أغمض عينيه، واستعاد الذكريات وأوجز بهدوء الأحداث في حين دوّنت لوسي ملاحظات على هاتفها الذكيّ:

- في الساعة السابعة والنصف صباحًا، استيقظتُ من النوم. وأوّل ما أفعله في صباح كلّ يوم هو تدوين أحلامي. ثم شربتُ زجاجة من عصير البرتقال أخرجتُها من الثلّاجة، التي وحدها مدبّرة منزلي، ماريا كونسيبسيون تصل إليها.

- في الساعة الثامنة صباحًا، ذهبتُ سيرًا على الأقدام إلى حانة لوكوكليه سالكًا الشارع، ووصلتُ إلى مكاني المعتاد وأعطتني صاحبة الحانة حاسوبي المحمول، الذي كنتُ قد تركته في المكان. شربتُ مشروبي الصباحي الثاني: فنجانٌ من القهوة بالقشدة. أعدتُ قراءة ما كتبتُ في الليلة الماضية لكي أُكمل عملي في الاتجاه الصحيح. بعد مضي خمس دقائق، جلبت لي صاحبة الحانة قطعة من الكرواسان وفنجانًا آخر من القهوة بالقشدة. عملتُ مدّة ساعتين كاملتين.

- في الساعة العاشرة والنصف صباحًا، أنهيتُ كتابة الصفحات الأخيرة من رواية *إنسان الألف عام*. أعدتُ مرّات عديدة كتابة الجملة الأخيرة إلى أن رضيتُ عنها تمامًا. ثم كتبتُ كلمة «النهاية» في أسفل الصفحة. وكعادتي، التقطتُ صورةً مع صاحبة الحانة وحاسوبي المحمول، وشربنا كأسين من الشامبانيا احتفالًا بالحدث.

- في الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة، اتّصلتُ بناشري، ألكسندر دي فيلانبروز، لكي أُبلّغه بأنني انتهيتُ من كتابة روايتي. بدا متحمّسًا للغاية وأراد أن أُرسل إليه النصّ بأسرع وقتٍ، ولكنني أخبرته أنّه علي أن أُجري مرّة أخرى مراجعة بسيطة للتدقيق الإملائي، بسبب صدمة طفولية تعرّضتُ لها ورويتُها له، مثلما أفعل مع كلّ رواية جديدة: «سابقًا كانت تُمنَح لي علامة الصفر إذا ما ارتكبتُ أكثر من عشرة أخطاء». أخبرني أنّ هناك مصحّحين

محترفين يقبضون أجورًا لقاء القيام بهذا العمل. ولكنني ألححتُ عليه لكي أسلّم نسخةً نظيفةً وخاليةً من الأخطاء قدر المستطاع حتى يكون هؤلاء المصحّحون أنفسهم في حالةٍ من التركيز التفاؤلي لتصحيح ما يتبقّى من هفوات. وتعهّدتُ له بأن أسلّمه هذه النسخة صباح اليوم التالي، الثلاثاء، في الساعة العاشرة. شربتُ فنجانًا من القهوة الثقيلة.

– في الساعة الحادية عشرة، حينما أعدتُ قراءة النصّ، شككتُ في جدوى العديد من المقاطع التي بدت لي غير ضرورية أو معقّدة جدًّا. عملتُ على تفاصيلها مطوّلًا، ثمّ شربتُ فنجانًا من القهوة الخفيفة.

– في الساعة الحادية عشرة وثلاثين دقيقة، تلقيتُ زيارة مفاجئة لإحدى عشيقاتي السابقات في حانة لوكوكليه، وهي الممثّلة سابرينا دونكان. وصلت باكيةً وروت لي انتكاساتها مع صديقها الأخير وهو ممثّلٌ شهير، واكتشفت أنّه نرجسيٌّ تمامًا. وقد أخطأت حينما قالت له إنّه لا يجيد حوارًا إلّا إذا زوِّدَ بنَصٍّ جاهزٍ، الأمر الذي ساءه كثيرًا وأدّى به إلى صفعها. قالت لي إنّها قد سئمت العاملين في حقل السينما وإنّها ترغب في العودة إلى العاملين في حقل الأدب، «لأنّ الجانب الهستيريّ فيهم، بحسب ما قالت لي، يخدم على الأقلّ أعمالهم وليس هذيانهم المنزلي». اقترحتُ عليها أن تجرّب العلاقة مع النساء. قهقهت ضاحكةً، وغادرتني، قائلةً: «إلى اللقاء هذا المساء». شربتُ فنجانًا من القهوة الثقيلة.

– في الساعة الواحدة بعد الظهيرة، ذهبتُ للقاء ألكسندر دي فيلانبروز في مطعم فاخرٍ بالقرب من دار النشر خاصّته. وللاحتفال بانتهاء كتابة رواية *إنسان الألف عام*، طلب زجاجة كبيرة من نبيذ البوردو. بدأنا نأكل في انتظار أن يصبّ النبيذ في كأسه. تحدّثنا عن الصعوبات التي تواجه نشر كتبي في السوق الأمريكية. قال لي إنّ السوق الأمريكية سوقٌ مغلقة وإنّ الأمريكيين بشكلٍ عامٍّ يحتقرون بشدّة الأدب الفرنسي، ويعدّونه أدبًا مغرورًا وشكلانيًّا. أخبرته أنّ ناشرًا آخر اتّصل بي يعتقد أنّه يعرف كيف يغزو السوق الأمريكية. سألني إن كنتُ أهدّده بالانتقال إلى النشر عند منافسين له. هدّأتُ اللعب وطمأنته قائلًا له إنني رفضتُ عرض الناشر. هدأ ولكنه لم يبدُ مقتنعًا. طلب قارورةً أخرى من النبيذ تحمل نفس لصاقة القارورة الأولى إلّا أنّ مذاقها

مختلفٌ، كما لو أنّ الشراب كان قد فسد قليلًا. اعترف لي بأنّ دار النشر خاصّته تمرّ بضائقة ماليّة سيئة، خاصّة بسبب الناشرين الإلكترونيين الذين يهدّدون بإفساد المهنة من خلال النشر السريع لأيّ عملٍ بكميّة كبيرة بفضل التقنيات الحديثة. تناولنا بعض الحلوى وشربنا قهوةً. ردّد على مسامعي أنّه ينتظرُ بفارغ الصبر مخطوطتي المقبلة.

– في الساعة الخامسة مساءً، كان لديّ تسجيل البرنامج التلفزيوني *قطران وترييش*[1]، الذي كان موضوع حلقته يومذاك: «أدب المستقبل». وجدتُ نفسي أمام جان موازي الذي قال لي قبل بدء البرنامج: «استعدّ للموت، يا ويلز». شربنا خلال تسجيل البرنامج أكوابَ عصير التفاح التي كانت في متناولنا لترطيب حلقنا، في حال تطلّب الأمر أن نرفع من نبرة صوتنا... وختم موازي البرنامج بالقول: «ويلز هو الكاتب الأسوأ في القرن وسيكون خدمة كبيرة للذوق الراقي والمصلحة العامّة أن يُفنى، أو على الأقلّ أن يُحيّد ويُمنَع من إلحاق الأذى، بغية إيقافه عن وضع الأساطير في أذهان أطفالنا». وفي إعادة لصياغة المقولة الشهيرة بشأن الهنود، ختم قائلًا: إنّ كاتب الخيال العلمي الصالح هو الكاتب الميّت. هكذا يستطيعُ على الأقلّ أن يزور العوالم الخياليـة». أضحكتْ عبارتُـه مقدّمَ البرنامج والجمهور من خلفه. تظاهرتُ أنني أضحكُ بدوري، ولكنني شعرتُ بأنني خسرتُ هذه المبارزة بسبب افتقاري إلى المشاكسة وخوفي من الظهور بالمظهر العدواني. أدركتُ بعد فوات الأوان أنّ هذه البرامج هي عبارة عن عروض مسرحية وأنّ ما ينتظره مقدّمُ البرنامج هو عراك مصارعين لتحميس الجمهور. بعد البرنامج، شربنا في الكواليس أكواب الشامبانيا مع الفول السوداني ورقائق البطاطس. تظاهر موازي بالحديث مع ملحقه الإعلامي وهو ينظر إليّ جانبيًّا. حينما التقت نظرتانا، أحسستُ بتيارٍ من الكراهية المطلقة. أراد مقدّمُ البرنامج أن يُصالحنا بعضنا مع بعض ودعانا للمصافحة. كانت يدُ موازي باردة وأظفاره طويلة.

1- «Du goudron et des plumes»، هو شكل من أشكال التعذيب والإذلال العلني المُستخدم لفرض العدالة غير الرسمية أو الانتقام. كان يُستخدم في أوروبا الإقطاعية ومُستعمراتها في الحقبة الحديثة المبكرة وكذلك الغرب الأمريكي القديم، وغالبًا عُدت نوعًا من الإعدام دون محاكمة. المترجم

– فـي الساعة السابعة مساءً عدتُ إلى بيتي. ومثلما أفعل كلّ يوم، مارستُ رياضتي على الدرّاجة الثابتة المنزلية مدّة خمسين دقيقة لتنشيط أوعيتي الدموية الموازية للشريان التاجي المسدود، وأنا أشربُ مشروبًا مطعّمًا بالبروتين أعدّته لي ماريا كونسيبسيون مع الليمون والعسل.

– في الساعة الثامنة وثلاثين دقيقة مساءً، احتفلتُ بعيد ميلادي الثاني والأربعين. مع شقيقي التوأم، حجزنا حانة لوكوكليه التي دعا إليها كلٌّ منّا ما يقرب من مئة مدعوٍ. شرب الجميع شراب البنش، بدءًا منّي.

– في الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة مساءً التقيتُ في ركنٍ من الصالة ما يقرب من عشرة كتّابٍ من نقابة الخياليين، وهي جمعية أسّسناها لضم الكتّاب الذين يكتبون هذا النوع من الأدب. ناقشنا فكرة إنشاء جائزة تُمنح للكِتابات الجديدة بهدف المساعدة في انبثاق المواهب الشابّة. كان بعضهم قد شاهد البرنامج التلفزيوني الذي شاركتُ فيه. رغم مجاملاتهم، ظللتُ مقتنعًا بأنني لم أكن موفّقًا وأنّ الأسلوب العدائي لخصمي موازي كان أكثر فعّاليةً من أسلوبي. هناك على الدوام، برأيي، أفضلية في الهجوم، وقد أدرك موازي ذلك جيّدًا، وذلك بكلّ بساطة لأنّه يلعب هذا الدور كلّ أسبوع. إنّ الممارسة المنتظمة لهذه الرياضة تمنحه معرفة كلّ التركيبات الممكنة، على غرار لاعب شطرنجٍ، وأنا ارتكبتُ خطأ البقاء في وضعية الدفاع. فُتِحَ نقاشٌ حول هذا الموضوع مع الآخرين: هل من الأفضل التحمّل من دون قول أيّ شيء أو ردّ الضربات؟ دعا بعضهم إلى شن حرب مفتوحة على النظام الأدبي الباريسي، الفاسد. أرادوا فضح الجوائز الزائفة ودراسات النقد الإطرائي التي يكتبها الكتاب أنفسهم عن كتبهم باستخدام اسمٍ مستعارٍ. أمّا الكتّاب الأكثر اعتدالًا في النقابةِ فقد شعروا من جهتهم بالخوف من أن يُقاطَعوا نهائيًّا ويخسروا الفتات القليل الذي كان يُخصّص لهم إذا ما انخرطوا في مشروع كهذا. ولأنّ الخوف كان أكثر قوّةً من إرادة العدل، أصبح هؤلاء الكتّاب أغلبية واسعة. شربنا نبيذًا وأكلنا بعض الفطائر.

– في الساعة التاسعة ليلًا، جاءني أخي، الذي كان قد حضر هو أيضًا البرنامج التلفزيوني ووجدني سيّئًا جدًّا. عاتبني على تركي موازي يسخر منّي، بل قال إنني قد أُلحق به ضررًا في عمله بسبب صلة القربى التي تربطنا.

تصاعـدت نبرةُ جدالنا واسـتذكرنا صراعاتٍ سـابقة أخرى، ثـمّ انتهينا مثلما يحدث دائمًا بالتصالح ونحن نشـرب كأسًـا من النبيذ اللذيذ ونأكل طبقًا من الرقائق المحشيّة بالدجاج.

– في السـاعة التاسعة وثلاثين دقيقة ليلًا، وصل ألكسندر دي فيلانبروز متأخـرًا، ونصحنـي بعـدم المشـاركة مستقبلًا في برامـج كهذه التـي في كلّ الأحـوال لا يشـاهدها قرائـي ومشـاهدوها هـم مـن حيـث المبدأ مـن أتباع موازي. بحسـب رأيه، كان عليّ أن أبدأ بضمـان ترويجي عبر الإنترنت، لأنّه في هذه الحالة مَنْ يتحدّثون عن الكتب هم الذين اشتروها وقرأوها. وجدتُ ملاحظته في مكانها. تبادلنا الأنخاب وتناولنا خضرواتٍ مختلفة.

– فـي السـاعة العاشـرة وثلاثين دقيقـة ليلًا، أطفأنـا، توماس وأنـا، معًا شـموع عيد ميلادنا الثاني والأربعين. ومن باب النُكتة، قال توماس إنّه خرج أوّلًا مـن بطن أمّنا، قبـل خمس دقائقٍ من منتصف الليـل، بينما ولدتُ أنا في الساعة الثانية عشرة وخمس عشرة دقيقة بعد منتصف الليل؛ الأمر الذي يعني أنّنا وإن كنّا توأمين فإنّه ليس لنا نفس تاريخ الولادة. أضحكت النُكتةُ ضيوفنا وسـلّتهم. وزّعَت قطـع الكاتو بالقشـدة وأكواب الشـامبانيا. طرقتُ كأسـي بكأس أخي وشربتُ نخبه.

– في السـاعة الحادية عشـرة ليلًا، شغّلت سـابرينا الموسيقى وأمسكت بيدي لتدعوني إلى أن نرقص رقصة بطيئة. همست لي بأنّها قد حجزت غرفةً في فندقٍ مجاورٍ يمكننا أن نتقاسـم فيها بعض الدقائق الحميمة في استذكارٍ للأيام الخوالي. أجبتُها بأنّ هذا لن يكون معقولًا. ولأنّها ألحّت عليّ، ذكرتُ لهـا جوابًا على طلبها هذا المثل القائل إنّ من يخرج مع حبيبته السـابقة كمن يبتلع قيئه. رمت كأسها من الشامبانيا في وجهي ثمّ راحت ترقص مع أخي.

– فـي منتصـف الليـل، ظلّ بعـض الأشـخاص يرقصون، لكـنّ معظم المدعويـن جلسـوا وانخرطـوا فـي أحاديث متبادلـة. عاد ألكسندر، الثمل تمامًا، نحوي وأسرّ لي بأنّه يشعر بأنّ دار النشر خاصّته أصبحت قديمة. لقد أدرك تمامًا أنّه بات ضروريًّا أن يحدّثها وإلّا يجازف بالموت. وأجبته بأنّه لا ينبغي أن يؤدّي هذا بالضرورة إلى إسناد كتابة روايات إلى روبوتات. اعترف

بأنّه لم يفكّر في ذلك، ولكن بدا له ذلك فكرة حسنة: ففي النهاية، هذا هو الضمان في ألّا يشتكي الكتّاب من غيابهم عن الأسواق الخارجية وألّا يهدّدوا بالانتقال إلى العمل مع منافسينا. شربنا أيضًا نبيذًا أحمر. شعرتُ بالتعب على نحوٍ متزايدٍ. شعرتُ بالصداع وعزوتُ ذلك إلى الكبريت الموجود في مختلف أنواع المشروبات التي شربتها. تردّدتُ بضع لحظات بين أن أغادر «على الطريقة الإنجليزية» - خلسةً من دون أن أودّع أحدًا - أو «على الطريقة الإيطالية» - أن ألقي التحيّة على الجميع ثم أبقى معهم. اخترتُ الخيار الأوّل.

- في الساعة الثانية عشرة وثلاثين دقيقة بعد منتصف الليل، ولتحاشي الانزعاج من صداع الكحول في الصباح، تناولتُ دواءً يتكوّن أساسًا من الخرشوف والشمرة كان من المفروض أن يساعد كبدي على القيام بوظائفه. كان عقّارًا قدّمه لي أخي ولا أزال أحتفظ به على طاولة سريري. ثمّ ومن دون أن أغتسل، ولا أن أنظّف أسناني، محطّمًا من التعب، ارتديتُ منامتي واندسستُ تحت الأغطية. كانت حركتي ما قبل الأخيرة هي إطفاء الضوء، بينما كانت حركتي الأخيرة تناولَ قرصٍ منوّمٍ مع كأس ماء. ابتلعتُ القرص مع الماء في العتمة، ثمّ تمدّدتُ لكي أغطّ في نومٍ عميقٍ.

-28-

رنّ الجرس. نظرت لوسي إلى ساعة يدها، وعضّت على شفتها، ونهضت لكي تذهب وتفتح الباب.

أوضحت:

- هذا موعدي في الساعة الثالثة.

رتّبت ثيابها وتسريحة شعرها، وراحت تستقبل زبونتها.

وجدت على الباب امرأة شابّة بدت نحيلة جدًّا ومسكينة. كانت رفيعة الساقين غائرة الوجنتين، ناتئة العظام، بشرتها بيضاء، وذات عينين واسعتين برموشٍ طويلة. ما كادت تجلس حتى أفرغت كلّ ما في قلبها:

- جئتُ أراكِ لأنني أتحدّث كلّ مساء مع أبي الذي مات قبل ستّة أشهر. أتحدّثُ بصوتٍ عالٍ ويردّ عليّ مباشرةً في ذهني. لكنّ شيئًا غريبًا حدث ليلة

أمـس: لم يعد يتذكّر اسـم أمّـي. وقد أقلقني هذا الأمر. فـأردتُ أن أعرف إن كان من الممكن أن يفقد شبحٌ ذاكرته فجأةً.

– سوف نرى هذا في الحال.

أغمضت لوسي عينيها وركّزت تفكيرها. شعر غابرييل بأنّها ترسلُ إشارةً على شكل موجةً فوقه واستنتج من ذلك أنّها تتّصل مع روحٍ تستقرُّ في الهيئة النجمية الوسطى. أتكون روح دراكون؟

بعد حوارٍ صامتٍ، هزّت رأسها. حضر إكتوبلازم ذو شوارب.

قالت لوسي:

– لقد نجح الأمر! إنّه معنا.

أكّدت الزبونة:

– نعم، لقد شعرتُ به أنا أيضًا. صباح الخير يا بابا... أنا سيلفي.

ولمّـا أدركت لوسـي أنّ لهذين الاثنين عاداتهما، لـم تدعهما يذهبا بعيدًا وسألت بجفاء الأبَ بصوتٍ عالٍ:

– لماذا لـم تعد تتذكّر اسم زوجتكَ، يا سيّد؟

أجابت الروح:

– *أوه، إنّه نسيانٌ بسيطٌ مردّه التقدّم في السنّ.*

تدخّل غابرييل، وقال همسًا:

– *اطلبي من سيلفي أن تصف والدها.*

ردّ ذو الشوارب:

– *وما شأني بذلك؟ وماذا تفعل أنت هنا؟ أنت لستَ حتّى وسيطًا روحيًا! منْ أنت إذن؟*

فوصفت زبونة لوسي والدها، ولمّا وجد غابرييل أنّ وصفها لا يتطابق مع مظهر والدها (لم تذكر الشوارب)، همس في أذن لوسي:

– *هذا ليس هو.*

ردّدت لوسي:

– هذا ليس هو! الرجل الذي يحدّثكِ ليس والدكِ.

استشاط الرجل غضبًا:

– *إيه، مهلًا! لماذا تخونانني؟*

سألت الزبونة، قلقةً:

- منْ يكون إذن؟

قالت لوسي بأسفٍ:

- هـذه روحٌ تنتحـلُ صفـة روح والـدكِ، لأنّهـا تسـعى بكلّ السـبل إلى التواصل مع إنسانٍ حيٍّ. يحدثُ هذا غالبًا. هناك أرواحٌ تائهة تضجر، ولذلك حينمـا تنجح في التواصل مع أحدهم ينـادي والدته أو والده أو جدّه، تنتحل هـذه الأرواح صفة روح الشـخص المنادى. لا توجد بطاقة شـخصية للتأكّد من هويّة الشخص...

- لماذا لم يأتِ أبي الحقيقي حينما ناديتُه؟

- ربّما يكون بكلّ بساطة قد تناسخ روحيًا في جسدٍ آخر.

قالت المرأة الشابّة كما لو أنّها تتحدّث مع نفسها:

- ولكن إذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أنّ كلّ هذه الأحاديث الحميمة جـدًّا التـي أجريتها مع هذا «الكائـن» وكلّ هذه النصائح التي أسـداها إليّ... ولكن مَنْ أنتَ قبل كلّ شيء؟

- هل تريدين حقًّا أن تعرفي؟ نعم، أنا أنتحلُ صفة والدكِ منذ ستّة أشهر. والآن، أعرف الكثير من الأشـياء الشخصية عنكِ التي أخذتها منكِ! لن يعود في وسعكِ أبدًا التخلّص منّي!

ففتحـت لوسـي عينيها وتنفّسـت بعمـق، كما هـي عادتها، قبـل أن تردّد كلمات الإكتوبلازم.

وختمت:

- ها قد عرفتِ الحقيقة.

سألت المرأة الشابّة، مذعورةً:

- ما الذي عليّ فعله؟

- توقّفـي عـن التحدّث معه. إذا لـم يجد من يحدّثه سـيكلّ ويبحث عن ضحيـة أخرى. أنا أعـرف هـذه الأرواح التائهـة المتطفّلة، إنّها تشـبه العلق، ولكن حينما لا يبقى لديها ما تضخّه، تضطرّ لأن تغيّر الضحيّة.

دفعت الزبونة، المذعورة من هذا الاكتشاف، أجرة الاستشارة، وانصرفت، قلقة وحائرة.

وقفت لوسي أمام دميتها المهرّج، مشيرة بهذه الطريقة لغابرييل بأنّها جاهزة للحديث معه.

- أصبحتَ الآن تعرف مهنتي مثلما تُمارَس في الحياة اليومية. إنّها تشتمل بشكلٍ أساسي على المصالحة بين جانبي العالم.

- لم أكن أتوقّع أن يكون الأمر حسّاسًا إلى هذه الدرجة.

- وهذا هو السبب الذي يجعلني لا أستقبلُ الزبائن إلّا في فترة ما بعد الظهيرة ولا أقبل سوى عددٍ محدودٍ من الزبائن. في كلّ مرّة، أضطرُّ إلى مواجهة مآسٍ وحالات استيلاءٍ على الهويّة، بل وتهديداتٍ. هذا هو الجانب البشع لهذه المهنة.

- لم أفهم ما تقصدينه.

- الأمر يشبه شارعًا برصيفين. أحدهما للأحياء والآخر للموتى. وأنا أقف في الوسط بينهما، وأحاول أن أتيح التواصل بين الجانبين؛ وإن كان الجانبان غير سعيدين عند حدوث ذلك.

- ولكنّكِ لستِ الوحيدة التي تخلق هذا الرابط بين الرصيفين.

- هل تريدُ الحديث عن الوسطاء الروحيين الآخرين؟ خمسة وتسعون بالمئة ممّن يزعمون أنّهم زملائي هم من المشعوذين. لا يسمعون شيئًا ومع ذلك يتظاهرون بأنّهم متواصلون مع العالم الآخر. أو أنّهم، وهذا هو الأخطر، متّصلون مع أرواحٍ شرّيرة يستخدمونها للتلاعب بالأحياء.

- خمسة وتسعون بالمئة من المشعوذين بين الوسطاء الروحيين... أليس في هذا شيءٌ من المبالغة؟

- في بعض الأحيان، أكاد أفضّل ألّا يذهب أحدٌ لاستشارة الوسيط الروحي وأن يبقى الرصيفان منفصلين تمامًا بعضهما عن بعض: سيكون من شأن هذا التقليل من التدخّلات والتأثيرات السلبية كالحالة التي شاهدتَها للتوّ. والآن، دعني وحدي من فضلك، السيّد ويلز. سوف نلتقي مجدّدًا غدًا صباحًا لحدثٍ قد يهمّك أمره.

- حقًا؟ ما هو؟

- مراسـم تشـييعك. أنـا متأكّدة من أنّـه إذا كان هناك من قتلـك، فإنّه لن يتخلّف عن الحضور إلى هناك.

أشارت إلى حاسوبها اللوحي الرقمي، المكتوب فيه:

«تشييع الكاتب غابرييل ويلز، الساعة التاسعة صباحًا، مقبرة بير لاشيز».

29. الموسوعة: الشاهد الرسمي شبحٌ

في الثالث والعشرين من يناير / كانون الثاني 1897، في قرية جرينبراير الصغيرة، في ولاية فيرجينيا الغربية في الولايات المتّحدة الأمريكية، عثر صبيٌّ صغير على جثّة امرأة اسمها زونا هيستر شو. أخبر الصبي الناس في الحال، وحينما وصل الطبيب، الدكتور ناب، إلى المكان بعد ساعة من العثور على الجثّة، كان الزوج إدوارد شو قد سبقه إلى المكان. غلّف جثمان زوجته بشرشفٍ كبيرٍ وضمّها إلى صدره باكيًا. حينما حاول الدكتور ناب فحص الجثّة، دفعه الزوج بغضب قائلًا إنّه يرفض أن يلمس أحدٌ حبّ حياته. وهكذا لم يسمح إدوارد شو لأحدٍ بأن يقترب من جثمان زوجته الراقد في النعش حتى دفنه. غطّاها بوشاحٍ وقبّعةٍ، شارحًا أنّها كانت تفضّل هذه الثياب. اعتقد الجميع أنّ الحزن هو الذي يدفع الرجل إلى هذا السلوك الغريب. بيد أنّ والدة زونا، ماري جان هيستر، شكّت في أن يكون صهرها هو مَنْ قتل ابنتها. فحاولت كلّ مساء قبل أن تنام التواصل مع روح ابنتها لكي تؤكّد هذه الأخيرة شكّها. بعد أربعة أسابيع من الدفن، ظهر لها شبح زونا الذي كشف لها أنّ إدوارد حطّم فقراتها الرقبية. ولكي يتجنّب ملاحظة أحدٍ بأنّ رقبتها مكسورة كان يمنع أيّ كائن من الاقتراب من جثّتها. فذهبت ماري جان هيستر إلى النائب العام وأقنعته بفتحِ تحقيقٍ. ولأنّ الدكتور ناب شرح أنّه لم يستطع قط أن يفحص الجثّة، أمر النائب العام بفتح القبر. وجرت أخيرًا عملية تشريحٍ للجثّة، كشف التشريح أنّ

الرقبة قد فقدت متانتها تمامًا ولذلك كان رأس الضحية يميل جانبًا. انصبّت الشبهات الرئيسية على الزوج. جرت محاكمته، ولكن لم يكن هناك أيّ دليل، ولم تجرؤ ماري جان هيستر على القول إنّها تكلّمت مع شبح ابنتها. فكان محامي إدوارد شو هو الذي بادر إلى الإشارة إلى أنّ الشهادة الوحيدة الموجودة هي شهادة الضحيّة، الواردة من العالم الآخر، قاصدًا من وراء ذلك جعل المتّهِمة مثارًا للسخرية. ووسط دهشة الجميع، وبدل اعتبار الأمّ مهلوسة، أقنعت هذه الحكاية القضاة: حكم القاضي على إدوارد بالسجن المؤبّد. مات بعد ثلاثة أشهر من صدور الحكم، وحيدًا في زنزانته، ضحيّةً لحمّى مفاجئة ومجهولة السبب.

ومن المعالم المحليّة، دوّن على لافتة مقبرة القرية منذ عام 1981 النص التالي: «هنا دُفِنَت زونا هيستر شو، كان موتها، في عام 1897، قد عُدّ طبيعيًّا حتى ظهرت روحها لأمّها لتشرح لها كيف قُتِلَت على يد زوجها إدوارد. وقد أُدين هذا الأخير وحُكِم عليه. وهذه هي الحالة الوحيدة المعروفة حتى الآن التي تؤدّي فيها شهادة شبحٍ إلى إدانة قاتلٍ والحكم عليه».

إدمون ويلز،
***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

–30–

حامت روح غابرييل ويلز فوق المدينة. تأكّد من أنّ علاقاته مع الأرواح الهائمة الأخرى قد بقيت نفس العلاقات التي كان يحتفظ بها مع الناس حينما كان حيًّا: عدم الثقة بالناس والابتعاد عنهم وتجنّب النظر إليهم. ففي النهاية، لم يكن يعرف هذه الإكتوبلازمات الظاهرة من بعيد. ربّما كانت إكتوبلازمات مجانين أو منحرفين أو قتلة أو بكلّ بساطة مزعجين.

عاد إلى جدّه في مقبرة بير لاشيز، في شرق باريس، ورأى المكان الذي سيُدفَنُ فيه صبيحة اليوم التالي.

- نعم يا بني، غدًا صباحًا، هنا، في هذه الحفرة سوف تنتهي حلقة تكاثر خلاياك منذ تخصيب بويضة أمّك بالحيوانات المنوية لوالدك.

- أنا أحبّ هذا المكان، فهذه مقبرة رومانسية.

- سوف تُدفَنُ بجانبي تمامًا. سنكون جارين.

حطّ غرابٌ على شاهدة القبر الموسوم بعبارة «إينياس ويلز»، فأغرق غابرييل في الحزن.

فقال جدّه:

- هيّا، اسمع هذه النكتة القصيرة لترطيب الجوّ. بكى رجلٌ أمام قبرٍ وهو ينوح: «ما كان عليك أن تموت أبدًا، أبدًا!» مرّ حارس المقبرة من هناك، وسأله، متأثّرا بألمه: «هل هذا صديقك؟» أجابه الآخر: «كلّا، هذا الزوج الأوّل لزوجتي».

اكتفى غابرييل، الذي لم يكن بمزاجٍ يسمح له بالمزاح، بالتحديق في جدّه.

- كيف كانت حياتك في الماضي، يا جدّي؟

تردّد إينياس في رواية نكتة جديدة، ثمّ أقلع عن الفكرة واستعاد جدّيته ورزانته.

- هل تعلم أنّ هذه هي المرّة الأولى التي يُطرَحُ فيها عليّ هذا السؤال؟ أشعرُ بأنني انتظرتُ طويلًا جدًّا هذه اللحظة التي سوف أستطيع فيها أخيرًا أن أجري تقييمًا شاملًا. بشكلٍ من الأشكال، يمكن للمرء أن يرى حياتي على أنها نكتة هائلة عن خيبة الأمل والسقوط... قابلة للجدل.

بان القمر تدريجيًّا، كاشفًا عن سربٍ من الخفافيش.

-31-

«ولدتُ في بولونيا. كان أبي نجّارًا، وتعتني أمّي، ربّة المنزل، بأخوتي الأربعة وأخواتي الثلاث. حينما كنّا نرتكب ما يعدّه أبي حماقةً، كان يجلدنا بحزامٍ جلديٍّ وهو يتوعّدنا: «إذا بكيتَ، ستنال المزيد من الجلدات». وإذا ما فعلنا شيئًا يعدّه أكثر خطورةً، كان يرغمنا على البقاء في خارج البيت وسط

البـرد. أمّـا أمّي، فقد كانت متعبـة على الدوام. تقضي أيامها فـي الاعتناء بنا، وبالانشـغال فـي المطبخ وفي تنظيـف البيت وترتيبه، وبالغسـيل وبأمّها التي قرّرت البقاء في السـرير بنعالها وقميص نومها وهي لا تفعل سـوى التشـكّي الدائـم. أتذكّـر أنّ أمّي كانـت بدينة قليـلًا وقصيرة بعض الشـيء، تفوح منها رائحـة تعرّقٍ حـادّة كنتُ أحبّها كثيـرًا. كانت قليلة الكلام، وتفـرج بين الفينة والأخرى عن تنهيداتٍ، كما لو أنّها تريد التنفيس عن الضغط الذي تعانيه.

كنّـا نعيشُ في قريـة يبلغ عدد سـكّانها بالـكاد مئة شـخصٍ حيث يعرف الجميع كلّ شـيءٍ عن الجميع، وحيث يتزوّج الشـبّان والشابّات فيها في سنٍّ مبكّـرة، وتتكفّل فيها وسـيطات الـزواج بتنظيم عقود قرانٍ مناسـبة للمصالح الاقتصاديـة المتبادلـة بين الأطراف. كان أغلب السـكّان أمّيّـين وبينهم ثلاثة بلهاء للقرية. لم يكن في القرية طبيبٌ. وفي حال حدوث مشـكلة صحّية، لا بدّ من الذهاب إلى وارسو لتلقّي العلاج. وهناك، كان الكحول بدرجة خمسة وأربعين يُسـتخدَم مادة مخدّرة قبل إجراء عملية باسـتخدام كمّاشـةٍ أو شفرة حلاقة أو سـكينٍ من قبل حلّاقين في السوق. في السادسة عشرة من عمري، وضعـتُ أمتعتي في كيـسٍ ورحلت. ولكنني لم أكن بطّة صغيرة قبيحة، كنتُ متلهّفًـا فقط لمغادرة عالم والديّ. فانطلقـتُ نحو الغرب، وعبرتُ ألمانيا ثمّ فرنسـا قبل أن أصل إلى بلدة توركوان في شـمال فرنسا. وهناك تحوّل اسمي من إيجنز فيلوفسكي إلى إينياس ويلز.

بدأتُ هناك بالعمل كعامل منجم في مناجم الفحم، ثمّ كعامل صناعي في مصنع للنسـيج وبعد ذلك كمسـاعد مصوّر ضوئي. في الحقيقة تمّ قبولي في جميع الأماكن التي طلبتُ العمل فيها لأنني كنتُ أمتلكُ موهبةً: موهبة رواية النِكات الممتعة. تحسّن وضعي، لكنّ الحرب اندلعت في ألمانيا، وعُرِضَت عليّ الجنسـية الفرنسـية وانضممتُ إلى ما سـمّي بالقوات الفرنسـية الحرّة، المكوّنـة مـن أجانـب وفقـراء وذوي إعاقـات خفيفة كانـوا يُرسـلون ليُقتَلوا فـي الصفـوف الأمامية. شـاركتُ في عدّة مهـامّ كنتُ أحد الناجيـن النادرين منهـا. لقد عشـتُ أهـوال الخنادق. ويمكننـي أن أقول لك إنّ إجادتي لسـرد الحكايات المضحكة ساعدتني مرّات كثيرة في التخفيف عن ضغط الأجواء التي عشـناها. كانت القوّات الألمانية تقصف بعنفٍ شـديدٍ للغاية بحيث كان

الرجال يفقدون السمع أو يجنّون. بناءً على أوامر الجنرال بيتان، كان الجنود يطلقون النار على زملائهم الفارّين أو المتقاعسين عن القتال بدافع الضمير وذلك بغية تبريد نزعات التمرّد. من جهتي، فقدتُ إحدى قدميّ في قصفٍ. وتمّ تعويضي بقدمٍ اصطناعية من الخشب، وبعكازٍ وإعفاءٍ من المشاركة في المعارك. وأصبح واجبي بعد ذلك العمل في دعاية الجيش من خلال تصوير «اللحظات السعيدة»: تصوير جنودٍ بزيّهم العسكري الكامل والسليم وهم يتناولون اللحم والفاصولياء ويشربون النبيذ والروم قبل الإغارة على العدو. وقد نجوت من كلّ هذا لا أدري بأيّ طريقة. كنتُ محظوظًا. حينما يقول الناس لي إنّ الماضي كان أفضل، أرغب بشدّة أن أرسلهم إلى الماضي الذي عشته، وأن يروا ما نتحدّث عنه!

في نهاية الحرب العالمية الأولى، كنتُ في الثانية والعشرين من عمري، أخبرني أحد ضبّاطي أنّه سيذهب للعمل في الشرطة وأنّه سوف يحتاجُ إلى مصوّرٍ ضوئي لتصوير مسارح الجريمة. وقد قال لي: «أنتَ على الأقلّ لن يُغمى عليك عندما تشاهد جثّةً، فقد سبق لك أن شاهدت الكثير من الجثث في خنادق الحرب». كما كان يعلم إلى أيّ درجة سيكون مفيدًا أن يكون هناك راوٍ للنكات في فريق التحقيق. وهكذا أصبحتُ مصوّرًا ضوئيًا في سلك الشرطة. في الثالثة والعشرين من عمري، أصبحت لديّ إذن مهنة، وحصلتُ على راتبٍ وجواز سفرٍ فرنسيّ، وقرّرتُ أن أتزوّج. ولكن هنا ارتكبتُ الحماقة الأسوأ في حياتي: بدل أن اختار زوجةً فرنسية، تصرّفتُ مثل أسماك السلمون، فعدتُ إلى مسقط رأسي لكي أتزوّج. في القرية، نظروا إليّ كالابن الضالّ: فأنا الابن الذي اقتنى ثروةً في فرنسا. وعملًا بنصائح والدي، ذهبتُ لمقابلة وسيطة الزواج وسألتُها عما يتوفّر لديها «في المخزن». من الفتيات العزباوات اللواتي كنّ أصغر سنًّا منّي وليست لهنّ أيّ صلة قَرابة مع عائلتي تجنّبًا لأي خطر ناجم عن زواج الأقارب، كانت هناك فقط تسع فتياتٍ لا غير. وكانت بينهنّ فتاةٌ قبيحة جدًا، وأخرى مشلولة، وبالتالي لم يتبقَّ سوى سبع فتيات. سألتُها إن كانت بينهنّ واحدةٌ تتحدّث اللغة الفرنسية. كانت هناك فتاتان تُجيدان التحدّث باللغة الفرنسية. أخذتُ الأجمل من بينهما، وهي ماغدالينا. تحدّثتُ مع والدها الذي أكّد لي أنّها عذراء؛ فاتّفقنا على

مبلغٍ مهرًا لها. تزوّجنا بعد خمسة أيامٍ من الاتّفاق، وهي المدّة التي استغرقها تنظيم حفلة الزواج. هكذا كان الحبّ يتلخّص في ذلك الوقت.

تواصلت حفلة الزواج ثلاثة أيامٍ متتابعة بلياليها. وبعد ذلك، لم نمارس الحبّ للمرّة الأولى إلّا بعد أن ثملنا نحن الاثنين تمامًا. وقد كانت هذه هي المرّة الأولى والقصيرة جدًّا التي أمارس فيها الحبّ، لأنني رفضتُ باستمرار الذهاب إلى بيت الدعارة عندما كنتُ أخدم في الجيش، خشيةً من إصابتي بالأمراض المعدية. في ذلك الوقت، كان المرء يكتشف غالبًا ممارسة الجنس بعد الزواج، وكان ذلك أشبه بصندوق هديّة مغلق. يقسم أحدهم قسم المحبّة والوفاء حتى الموت لشخصٍ لا يعرفه. وقد صدمني هذا الأمر على الدوام: حينما يتزوّج المرء، لا يعرف من يكون الشريك الآخر، ولا يعرف منْ كان يتعامل معه إلّا في لحظة الطلاق. كان والدي يقول إنّ الحبّ هو انتصار الخيال على الذكاء والزواج هو انتصار الأمل على الخبرة. آه، كان الرجل لديه حسّ الفكاهة! المهمّ أنّ ليلتنا الأولى من الحبّ لم تترك لي ذكرى طيّبة...

بعد انقضاء شهرٍ، انتقلنا للسكن في باريس، وعثرتُ على وظيفة مصوّر ضوئي في سلك الشرطة. بات يصعب عليّ يومًا بعد آخر تحمّل جدّتك، التي كان عذرها الرئيسي بسيطًا: كان مزاجها سيّئًا. ثمّ كان هناك تفصيلٌ صغير وجبَ عليّ أن أنتبه إليه، ولكن في تلك اللحظة لم يبدُ لي مهمًّا: لم تكن تضحك للنكات التي كنتُ أرويها.

أنجبنا خمسة أطفال. مات منهم ثلاثة في سنٍّ مبكّرة بسبب المرض، ونجا فقط والدك وعمّتك. بعد كلّ ولادة، كان طبع ماغدالينا يزداد سوءًا، كما لو أنّها تنزعج منّي لأنني أجعلها تلدُ أطفالًا يشوّهون جسمها. ومع ذلك ظللتُ وفيًّا لها على الدوام.

فيما بعد، ساعدتُ في حلّ تحقيقٍ للشرطة لأنني التقطتُ تفصيلًا كاشفًا من خلال استعراض صور مسرح الجريمة. منذ تلك اللحظة، عدّ رئيسي أنني أمتلكُ عينًا ثاقبةً أكثر من عيون زملائي. عين ويلز. وعندما مات مسؤولي المباشر أثناء إطلاق نارٍ، عُرِض عليّ أن أحلّ في مكانه لأنني كنتُ على درايةٍ بالملفّات. وهنا استطعتُ أخيرًا أن أنمّي موهبتي. ولأنني كنتُ أحد كبار قرّاء

أعمال كونان دويل، أدركتُ أنّ دقّة الملاحظة هي المفتاح. وبهذه الطريقة، ومن خلال تثمين نقطة قوّتي بدل محاولة تصحيح نقاط ضعفي (على سبيل المثال، كنتُ على الدوام سيّئًا في الاستجوابات والتقييمات النفسية)، نجحتُ في حلّ بعض القضايا فقط من دقّة الملاحظة في تفحّص البصمات وأغلفة الرصاصات وعناصر من مسرح الجريمة.

أمضيتُ مسيرة مهنيّة رائعة، ثمّ أُحلتُ على التقاعد في الستّين من عمري. وهنا، تحوّلت حياتي إلى جحيمٍ. كنتُ وحدي وجهًا لوجهٍ كلّ يوم مع جدّتك، التي غدت عدوانيةً على نحوٍ متزايد. لم تكن تتكلّم معي إلا لتوجيه اللوم والعتاب.

أعتقدُ أنّني ابتكرتُ صممًا طوعيًّا لكي لا أعود أسمع اتّهاماتها. لكن فقداني السمع لم يقطع صلتي عنها وحدها: لقد قطع صلتي عن العالم. والمفارقة هي أنني كلّما سمعتُ أقلّ، رأيتُ أكثر. استسلمتُ للصور التي التقطتها في تلك المرحلة والتي كنتُ أعدّها من بين أفضل صوري. رتّبتها في ألبومٍ وقلتُ في نفسي إنّ أحفادي سوف يكتشفونها ذات يومٍ وربّما يقرّرون بيعها، فتحقّق لي بذلك شهرةً بعد موتي. فحاولت أن أعدّ الألبوم الأكثر كمالًا. كنتُ أصوّر بالأبيض والأسود رغم وصول تقنية التصوير بالألوان، وآثرتُ كلّ ما يتحرّك على الجماد: طائرٌ يحطّ، وشعرٌ يتطاير في الريح، ورياضيون في أوجِ النشاط والحركة. بالنسبة إليّ، كانت الصورة هي فنّ التقاط اللحظة المحدّدة التي يتغيّر فيها كلّ شيء. ولكن في تلك المرحلة بالضبط عانيتُ من أوّل أزمة قلبية. حينما نُقِلتُ إلى المستشفى، أصبحت حالتي لا تُطاق. كان عليّ أن أبقى في السرير طيلة النهار، الأمر الذي يسبّب قروحًا في جسدي. امتلأت رئتاي بالماء، وأصبح التنفّس مؤلمًا. اضطررتُ لوضع الحفاظات مثل الأطفال الرضّع، ثمّ وضعوا لي أنبوبًا للتبوّل.

حينما أقدمتُ على محاولةٍ للانتحار، ربطوا قدميّ ومعصميّ بأشرطةٍ حتى لا أعاود الكرّة، ومنذ تلك اللحظة، أصبحت حالتي من سيّئٍ إلى أسوأ. ومن المعلوم أنني توسّلتُ إلى جدّتك لكي تدعني أموت، ولكنّ الطبيب دعم فكرة أنّهم سينقذون حياتي، ودعته يواظب على تقديم الرعاية العقيمة لي بالضدّ من إرادتي.

ما الجدوى من أن يعيش المرء إذا كان لا يستطيع حتى أن يقرّر متى يتوقّف؟ هل هذا هو التقدّم؟ يمكن لأيّ متشرّدٍ أن يلقي بنفسه إلى أسفل جسرٍ، في حين كنتُ مكبّلًا بأحزمة! تخيّل أن تكون يداك طيلة النهار مكبّلتين بلا حراك، وتشعر بحرقةٍ في ظهرك. وعلاوة على كلّ ذلك جدّتك التي كانت تردّد: «سوف تنجو يا عزيزي، لا تقلق، أنت تتلقّى خدمةً جيّدة، ومحاطٌ بأفضل الأطبّاء». بيد أنني كنتُ أتمنى أن يكون حولي أسوأ الأطباء، صدّقني! وكنت أتمنّى أن أخنقها بأحزمتي. كانت تسليتي الوحيدة هي الاستماع إلى الراديو. فكنتُ أمضي أيامي دون القدرة على الحركة مع وجهة نظر وحيدة وهي تعفّن العالم الذي كان يصاحب تعفّني. حينما كنتُ أشعرُ بأنّ حالتي تسوء للغاية، تأتي ممرّضةٌ وتمرّر على جسمي اسفنجةً مبلّلة بالمطهِّر. صدّقني كنتُ أتمنى أن تموتَ شابًّا أثناء نومك، من دون أن تعرف الاضمحلال التدريجي الذي هو الشيخوخة، ومن دون أن تكون لكَ امرأة تحوّل حياتك اليومية إلى عذابٍ بذريعة حبٍّ مزعوم. بقيتُ ثلاث سنوات – ثلاث سنوات! – على تلك الحالة. بقيتُ مع الغبيّ الآخر، الطبيب الذي كان يتباهى أمام رؤسائه وزملائه وهو يُظهر درجة كفاءته في فنّ إبقاء نفاية مثلي على قيد الحياة. أصبحتُ نحيلًا جدًّا، وتغطّى وجهي بالتجاعيد من كثرة غضبي، وعندما تأتي المرأة السليطة، التي هي زوجتي، مع زهورها، كنتُ أحاولُ أن أعضّها.

ذات يوم، استفدتُ من كون حزام معصمي أقلّ شدّة من المعتاد لكي أحرّر إحدى يديّ، ثمّ حرّرتُ اليد الأخرى، وبعد ذلك، حرّرتُ قدميّ؛ فانتزعتُ كلّ الأنابيب والأسلاك، وألقيتُ بنفسي بعنف على الأرض، ولكنّ ذلك لم يُسفر سوى عن إصابتي بجروحٍ خفيفةٍ. ولأنّه لم يعد في وسع ساقيّ حملي، زحفتُ. أتذكّر ذلك اليوم المبارك: تسلّقتُ منضدةً بكلّ القوّة التي وهبني إيّاها غضب الموت لكي أصل إلى النافذة وألقيتُ بنفسي في الفراغ. حينما عثروا على جثّتي، كانت ابتسامةٌ واسعةٌ تُنير وجهي، وكانت إصبعي الوسطى ممدودة في إشارةٍ إلى تحدّي رفيقتي العزيزة.

ثمّ غادرت روحي تلك العربة المتهالكة التي كانت غلافي الجسدي واستعدتُ المظهر الذي اخترتُه: مظهري حينما بلغتُ الستين من العمر،

يوم تقاعدي عن العمل. واستعدتُ خاصّةً سمعي التامّ من دون اللجوء إلى التكنولوجيا.

لقد استمتعتُ بتحليقي الإكتوبلازمي الأوّل كثيرًا لأنني أمضيتُ أيامي الأخيرة مكبّلًا بالأحزمة على سريرٍ في المستشفى. أصبحتُ نسرًا محلّقًا، وتذوّقتُ متعة الطيران خلال أربعة أيامٍ بلياليها، الأمر الذي منحني لذّةً فائقة. بل أقولُ في نفسي أحيانًا إنّ هذا يستحقّ عناء النهاية المؤلمة للغاية التي شهدتها على الأقلّ في سبيل أن أعيش على نقيض ذلك هذه المتعة الفائقة. في الواقع كنتُ أعتقدُ أنني يسروعٌ يتحوّل إلى فراشة: كنتُ يسروعًا زاحفًا، لزجًا، قذرًا، بليدًا يلهثُ لكي يتنفّس، وقد حرّرني الموت من شرنقتي.

أدركتُ في الحال أنّ الروح التائهة كانت قدري. لم أعد مضطرًّا للخضوع إلى قرارات الآخرين، وصدّقني، كل كائن بشري ترتبط سعادته بقرارات الآخرين سيكون مهيّأً لأن يكون تعيسًا. لا يجب أن يرتبط المرءُ بأحدٍ وعليه أن يكون مستقلًّا.

- وخاصّة بالأطباء.

بالنسبة إليّ، أنا أرى أنّ الموت حافلٌ بالفوائد.

على سبيل المثال، وهذا تفصيلٌ قد يبدو تافهًا، لا يعود البعوضُ يلدغنا.

في الشتاء، لا نشعر بالبرد. وفي الصيف، لا تعود هناك ضربات شمسٍ!

هنا، الأعمى يرى.

هنا، الكسيح يمشي.

هنا، لا توجد مشكلات الإمساك أو الأرق.

إجمالًا، هنا، كلّ شيء cool، مثلما يقول الشباب.

ولكن رغم كلّ شيء، مع مرور الزمن، بدأتُ أشعرُ أحيانًا بالملل، فبحثتُ عن مركزِ اهتمامٍ جديدٍ، فوجدته. أنتَ.

أنتَ ولدتَ في الزمن الجميل: لقد حظيتَ بسريرٍ حقيقي، وكانت لك عربة أطفال حقيقية، وهدايا ميلاد حقيقية، وتغذية سليمة ومتوازنة، الأمر الذي أتاح بأن تكون أطول قامةً منّي، وكان لك والدان أحبّاك، ولم يضرباك،

وكان هنـاك أطبّـاء أطفال بجوار منزلكم، أطبّاءٌ أعطوك أدويةً، وأطباء أسـنان أجروا لك عمليات تحت المخدّر، ودرّسك أساتذة مثقّفون فعلًا.

أنـتَ لـم تولَـد فـي زمن الحـرب. لم تعـرف لا البـؤس ولا الجـوع. في حياتي، كنتُ أشـعر بأنّك سـوف تسـتطيع تحقيق الحياة التي كنتُ أحلم بها. لقـد منحتكَ متعة الحكايات، ومتعة الكتب، ومتعة التحقيقات. ولكنّك أنت نفسـك راودتـك رغبة كتابة هذه الحكايـات التي احتفظت بهـا في ذاكرتك. حينما متُّ، لم تكن قد بلغتَ سـوى الثالثة عشـرة من عمرك، وواصلتُ، من خلال الأحلام، التأثير عليك لكي تحافظ على شـغفك بالحكايات الجميلة. أعتقـدُ أنّ للكائنات الحيّة بعض القابليات الوراثية، ولكن في مرحلة لاحقة، يؤثّر عليهم والداهم وأساتذتهم وأرباب عملهم، وكذلك، إلى حدٍّ ما، أشباح أجدادهم.

انظر إلى أخيك: لقد اتّجه نحو العلم. أمّا أنت، فقد اتّجهت نحو الأدب. أخـوك عقلاني، أمّا أنت، فتجنح أكثـر نحو ما هو خيالي. البذرةُ ذاتها أعطت ثمرتين مختلفتين تمامًا.

حينما نشرتَ كتابَك الأوّل، لم تكن أسعد الناس أنت، بل أنا! لقد حقّقتُ حلمـي أنا من خلالك. ومنذ تلك اللحظة، لم أفارقك قط. كنتَ تعتقدُ بعض الأحيـان أنّـك في غيبوبة عندما كنتَ تكتب، ولكن فـي الحقيقة، أنا منْ كنتُ أوقظـكَ وأبثّ فيك الإلهام. كنتُ أصغي إلى مؤتمراتك، وأكتشـف من فوق كتفك تقدّم مخطوطاتك، وبالتالي كنتُ قارئك الأوّل.

كـم كنـتُ فخورًا بـك! كنـتُ أتحدّث عـن ذلك فـي بعـض الأحيان مع إكتوبلازمـات أصدقـاء آخرين: «قفوا خلف أحد قرائه، وسـوف تسـتطيعون قراءة كتبه». ويمكنني أن أقول لك إنّ هذا هو السبب الذي أدّى إلى أن يكون لديـك الكثيـر مـن المعجبين فـي العالم الآخر! بـل يمكنني أن أخبـركَ أنني نصحتُ حتى كونان دويل نفسه بقراءة أعمالك...

عندمـا متَّ، بالطبع كنتُ حاضـرًا في انتظارك، ولكنني لم أشـأ التواصل معـك علـى الفور لئـلا أزعجك. لم أكـن أعلم كيـف سـتتصرّف. فانتظرتُ إلـى أن تجسّسـت على هذه الممثلّة الشـابّة لكي أجرؤ علـى الاقتراب منك.

أصبحتُ مطمئنًا للغاية من ردّ فعلك، لم تجفل، وقبلتني كصديقٍ، الآن وقد بدأ بالنسبة إليك أفضل ما في الحياة.

إذن، هل أنت مستعدّ لدفنك غدًا صباحًا؟ يبدو أنّ دفنك سيكون جميلًا جدًّا».

الفصل الثاني

تغيّرٌ جذري

-32-

أمطرت السماء بقطراتٍ كبيرة رمادية اللون وباردة كالثلج.

راقبت غربانٌ بريشٍ مبلّلٍ موكب التشـييع ووقف غابرييل وسطها، متلهّفًا لمعرفة من سيحضر مراسم دفنه.

ظهر بالترتيب:

– عائلة ويلز: شقيقه توماس، ووالداه، وأعمامه، وبعض أبناء وبنات عمّته.

– ناشر أعماله وبعض مديري الأقسام لديه والموظّفين.

– طبيبه، فريدريك لانغمان. وصديقه البيولوجي، فلاديمير كراوس.

– زملاؤه في رابطة نقابات كتّاب الأعمال الخيالية.

– أصدقاءٌ آخرون من الكتّاب والممثلين الكوميديين والمغنين والممثّلين الذين كان يصاحبهم.

– بعض عشيقاته السابقات.

– صَحَفيان لا يعرفهما.

– مصـوّران ضوئيـان ظلّا يصوّران المراسـم دون توقّـف، على الأرجح لمصلحة وكالتيهما الإخباريتين.

– قُرابة ستين شخصًا اعتقد غابرييل أنّهم من قرّائه المجهولين.

سار الجميع محميين بمظلّاتهم الواقية من المطر.

قال له جدّه:

– *كما ترى، لقد أخبرتك أنّه سيكون هناك الكثير من الناس.*

سـارت لوسـي فيليبيني في مؤخّـرة الموكب، مرتدية ثيابًا سـوداء، تحت مظلّتها ذات الزهور الوردية.

قال غابرييل، متأثّرًا:

- لقد جاءت...

- لا تستطيع أن تتخيّل مدى سعادتي بحضور كلّ هذا الحشد من أجلك، يا غابي.

- إنّهم قُرابة مئة شخص، يا جدّي، مئة شخصٍ في أقصى تقديرٍ.

- ولكن انظر، هناك أيضًا مئة روحٍ هائمة حضرت على عجلٍ من أجلك.

في الواقع، لمّا رفع غابرييل بصره، رأى إكتوبلازمات لا تجرؤ على الاقتراب كثيرًا، وتقف على مسافةٍ كقرّاء مجهولين متهيّبين.

- ألم يحضر كونان دويل؟

- من تحسب نفسك؟

- ولكنني كنتُ أعتقدُ أنّه هو وأنت قد... عنّي.

- حسنًا، منذ أن حدّثتكَ عنه، أصبحت تعتقد أنّ الجميع يهتّم بك! عد إلى أرض الواقع، يا غابرييل. أنت رائع، ولكنّك لستَ... سوى كاتبٍ فرنسيٍّ صغير. لقد أخبرتك أنّه قرأ أعمالك، ولكن هذا لا يعني أنّه أُعجِبَ بك. في الحقيقة، سوف أكون صادقًا تمامًا: يعتقدُ أنّك تضع الكثير من العنف والجنس في أعمالك.

توقّفت مجموعة المشيّعين أمام الحفرة الفاغرة لتشكّل حضورًا قليلًا يرتدي جميع من فيه ثيابًا سوداء. وضع موظّفو خدمات الدفن النعش على حمّالة ثلاثيّة القوائم للإبقاء عليه في وضعية مائلة. نُقِشَ على غطاء النعش الحرفان الأوّلان من اسم الكاتب غ. و، ويليهما رمز البجع الذي جعل الكاتب مشهورًا. وضع رجلان يرتديان بزّتين سوداوين منصّةً ومنبرًا وضِعتْ فوقه صورة غابرييل الشخصية.

بعد دقيقةٍ من الصمت والتأمّل، صعد توماس ويلز إلى المنصّة، واقترب من الميكروفون. بدأ بالحديث بصوتٍ متماسك ولكن مشوبٍ بالتأثّر:

- أنا أشعر بأنّ ذراعي اليُسرى قد انتُزِعَت منّي. لم نكن على تفاهمٍ دائمٍ، لكنني كنتُ على الدوام معجبًا بغابرييل في قرارة نفسي. حينما سألْتُه عن الوقت الذي يحتاجُ إليه لكتابة كتابٍ، أجاب: «ثلاثون ثانية: الوقت اللازم لإيجاد الفكرة».

تخلّلت بعض الضحكات هذه المداخلة الأولى.

- لطالما وجدتُ أنّ أغلفة كتبه قبيحة جدًّا، ولكن الآن وأنا أعرف أنّها لن تُعرَض بعد الآن في واجهات المكتبات، أصبحتُ أشتاق إليها. بل أودّ أن أقترح على أصحاب المكتبات أن يتركوا فراغًا في رفوف مكتباتهم حيث كانوا سيضعون كتابه المقبل لو أُتيح له الوقت لإنهائه. في سبيل إحياء فكره وذكراه، سأقرأ مقاطع من حكاياته القديمة، وخاصّة القصص التي كتبها حينما كان شابًّا. أعتقدُ بصدق أنّ بعض الأفكار الأكثر ابتكارًا في كتبه سوف تستمرّ في إلهام كتّابٍ آخرين بل ربّما بعض العلماء، لأنّ غابرييل كان يمتلك غالباً، في مجال العلم، حدسًا طليعيًّا سابقًا لأوانه. أتمنى أنّ تُقرأ أعماله إلى أمدٍ طويلٍ؛ وأتمنى أن يُحتَفَظ بذكراه خالدة لأمدٍ طويلٍ.

صفّق العديد من الحاضرين لكلمات التشييع هذه، ثمّ تلت ذلك بعض الشهقات.

ثمّ صعد ألكسندر دي فيلانبروز بدوره المنبر:

- الناس العاديون ليس لديهم أيّ شيءٍ استثنائي. ولكن غابرييل لم يكن إنسانًا عاديًّا. منذ أن رأيته، تساءلتُ في نفسي عمّا إذا كان هذا الرجل... مجنونًا بكلّ بساطة.

من جديد سرت ضحكاتٌ بين صفوف الحاضرين.

- ولكن هذا هو بالضبط واجب الناشرين وهو اكتشاف المجانين «المفيدين». لم أفعل سوى توجيه جنونه ليصنع منه كتبًا، ومساعدته في سحب خيط كرة الغزل لفكرته الأصلية. كان متواضعًا جدًّا ويُصغي تمامًا للنصائح التي تُسدى له. أكثر من مرّة طلبتُ منه أن يُعيد كلّ شيء من الصفر وكان يمتثل لطلبي دون تذمّر. قال لي ذات يومٍ: «ألكسندر، يجب أن أعترف لك بأمرٍ: حتى لو كنتُ وحيدًا على جزيرة غير مأهولة، بلا ناشر، وبلا مطبعة، وبلا جمهور، سوف أواصل كتابة الروايات لأنّ هذا هو أكثر ما يمنحني المتعة. الكتابة وظيفتي، مثلما إنتاج العسل وظيفة النحل». أجبتُه: «إذن، من الآن فصاعدًا، سيكون عليك أنتَ أن تدفع لي مقابل نشر أعمالك».

شهد الجوّ ارتياحًا.

- كان غابرييل يعيش في أحلامه. كان له عالمٌ داخليٌّ معقّد لم يستخدم منه سوى جزءٍ صغيرٍ، الجزء الذي كان «أنيقًا». أعتقدُ أنّه لو قيض له أن يعيش وقتًا أطول ولو أنه تُرِكَ يعبّر عن كلّ ثراء هذا العالم الداخلي، لأدهشنا كثيرًا بنتاجه. لم يكن يجازف قط بالذهاب بعيدًا في آرائه، كان يخاف خوفًا مرضيًّا من جعل قارئه يشعر بالملل. حاولتُ مرّات عديدة أن أشرح له أنّه ليس هناك قارئان يتشابهان، وأنّ ما يُبهِج أحدهم قد يُضجر الآخر، وأنّ هذا جزءٌ من اللعبة لأنّه لا يمكن إرضاء الجميع. ولكنّه كان يرغب في إيجاد لغة شاملة قادرة على ملامسة القرّاء من جميع الأعمار ومن كلّ البلدان. كان في هذا شيءٌ من الغرور، ولكن يمنحه هدفًا، حتى وإن كان بعيد المنال. أعتقدُ أنّه مع الزمن كان سيتقبّل فكرة ألّا يكون مفهومًا سوى من قبل أقليّة من القرّاء.

سعل ألكسندر في يديه، تنفّس بعمق، وواصل الحديث:

- كان غابرييل يعتبر أنّ الزمن هو النقد الصحيح الوحيد. وأنا أتّفق معه في الرأي: وحده الزمن كفيلٌ بنسيان الأعمال الرديئة وتخليد الأعمال المهمّة. لم يعش غابرييل ويلز سوى اثنين وأربعين عامًا، ولكنني على قناعة بأنّ أعماله سوف تخلّده.

وافق بعض الأشخاص على رأيه بإيماءةٍ من رؤوسهم.

- لقد مات غابرييل بينما كان قد انتهى للتوّ من كتابة مخطوطته الجديدة. لا بدّ أن يكون عنوانها *إنسان الألف عام*. بحسب ما حدّثني عنها، وصف فيها على ستمئة صفحة وبالتفاصيل العلمية الدقيقة كيف يستطيع إنسان المستقبل أن يُطيل عمره ليعيش لغاية ألفية كاملة. ولدي خبرٌ سارّ أذيعه عليكم: لقد نويتُ أن أنشر العمل حالما أحصل عليه.

سجّل الصحفيّون القلائل الحاضرون المعلومة، في حين عاد ألكسندر دي فيلانبروز إلى الجلوس في مكانه.

حان دور سابرينا دونكان لتصعد المنصّة.

- لقد أحببتُ غابرييل ويلز.

صمتت لحظةً قبل استئناف الكلام:

- لقد أحببتُ غابرييل لأنّه رجلٌ يجيد الإصغاء. في الواقع، كان رجلًا

شـديد الفضول؛ حيث كان يدوّن جُملي أثنـاء أحاديثنا ليصوغ منها حوارات ويضعهـا علـى فم شـخصياته الروائيـة. حينما نعتُّـه بلصّ الأفـكار، أجابني: «ليـس هنـاك فنّانٌ يُبدعُ من العدم. نحن مثل بائعي الزهور؛ لا نخترعُ الزهور، ولكننا نجمعها لكي نشكّل منها باقات جميلة».

نظرت المرأة الشابّة إلى الحضور بإمعان.

– أمضيتُ ثلاث سنوات معه، بينما لم يكن قد نشـر سوى كتابٍ واحدٍ، ولم يكـن يعلم بعـد إن كانت الكتابة سـتصبحُ مهنته. كنتُ حبيبته، وعلـيّ القول إنني نادرًا ما رأيتُ رجلًا على هذا القدر من تكريس نفسه لعمله: كان يستيقظ ويسجّل أحلامـه، ثمّ يذهـب إلى المقهى من السـاعة الثامنـة صباحًا ولغاية الثانية عشـرة وثلاثين دقيقة لكي يكتب. كان يفعل ذلك كلّ يوم. حتى في أيام العطلة الرسمية. حتى عندما يكون مريضًا. أعتقدُ أنّه كان يخشـى أن يموت قبل أن يكتب ما يكفي مـن الروايات. نعـم، أعتقد أنّ ذعره الأكبر كان من عدم اسـتخدامه الموهبة التي حظـي بها عند ولادتـه. كان يردّد غالبًا: «يجب أن أكون جديـرًا بفرصة أنني قادرٌ على الكتابة بسهولة، وفرصة أنّ لديّ ناشرًا جيّدًا وجمهورًا يحبّ أعمالي».

صمتت من جديد لحظةً، وهبّت العاصفة كما لو أنّها تردّ عليها.

– أخيـرًا، أودّ أن أكشـف لمن لا يعلمون أنّ غابرييـل ويلز كان في حياته اليوميّـة رجـلًا مضحكًا للغاية. كان يسـخر طيلـة الوقت من كلّ شـيء. كان يفتّش في أيّ حدثٍ عمّا يُثير سخريته. وعلى نحوٍ خاصّ، كان يجيد السخرية من نفسه. آمل أن يسمعني في العُلا، وهو الذي أحببتُه كثيرًا.

أقلقت هذه الكلمات غابرييل، بينما وصل زملاؤه في رابطة نقابات كتّاب الأعمال الخيالية إلى المنصة. تحدّث الأكبر سنًّا باسم الآخرين:

– أسّـس غابرييل معنـا نقابةً للكتّـاب الراغبين في تغيير المشـهد الأدبي التقليـدي. كان يشـقّ علينا أن نلتقي بانتظام، بسـبب تضـارب أوقات عملنا، لكنني أتمنّى أن يتيح لنا موت غابرييل، الذي جمعنا جميعًا هنا، مواصلة هذا الكفاح، لكي تنجح هذه البلاد أخيرًا في تنمية مختلف الأجناس الأدبية.

استُقبِلَ هذا الخطاب بالتصفيق، في حين اقتـرب والد غابرييل. أوضح، قائلًا:

- لقد استوحيتُ شاهدة القبر من حديثٍ لي مع غابرييل. أخبرني عن إعجابه بكتابٍ للروائي فيليب ك. ديك، عنوانه *يوبيك*، يجد فيه البطل، في لحظة ما، نفسه أمام قبرٍ كتبت عليه عبارة: «أنا حيّ وأنتم أموات».

وكان قد علّق على هذه الجملة كالتالي: «يا لها من جملة قويّة! هل تتخيّل لو أنّ هناك بالفعل سوء فهم عظيمٍ وأنّ الناس الذين يأتون للتجمّع فوق القبر هم الذين يعتقدون أنّهم أحياء، من دون أن يُدركوا أنّهم في الحقيقة هم الموتى؟» وكان قد أبرزَ هذه العبارة في روايته الأقلّ شهرةً، *نحن الموتى*.

عند هذه الكلمات، رفع رجال خدمة دفن الموتى شاهدة القبر التي تحمل عبارة:

«أنا حيّ وأنتم أموات».

امتثل بعض رجال خدمة الدفن لإيعاز إنزال النعش وأثنوا أذرعهم وابتسموا، مطمئنين، في حين لاحظ غابرييل في العالم اللامرئي أنّ الإكتوبلازمات تتجمّع على نحوٍ متزايدٍ حولهم. اشتدّت العاصفة.

وضِع النعش أفقيًا ثمّ أُنزِلَ في الحفرة.

بمجرّد انتهاء مراسم الدفن، اقترح والد غابرييل أن يحضر الجميع إلى المقهى المقابل المسمى في حينه «مقهى الأمل الأخير» لكي يشربوا كأس الصداقة في استذكارٍ لأفضل اللحظات التي أمضوها مع الفقيد. وحدهم بعض القرّاء المتعصّبين لأعمال الكاتب اقتربوا لكي يضعوا على القبر زهورًا ورسائل وكلّ أنواع الأشياء التي ترمز إلى طائر بجعٍ.

ذهب غابرييل إلى صالة الحانة لكي يستمع إلى الأحاديث الجارية بينهم.

رأى أنّ شقيقه يقترب من ناشره الذي تقدّم إليه في الحال بتعازيه مرفقة بتحيّة احترامٍ. لكنّ توماس قاطعه بقسوة:

- لا يمكنك نشر رواية *إنسان الألف عام*، يا سيّد دي فيلانبروز.

ردّ الناشر، مصدومًا:

- ولماذا، يا سيّد ويلز؟

- لقد أتلفتُ الملفّ

وكذلك كلّ النسخ الاحتياطية المعدّة عنه، بل وأحرقتُ النسختين الورقيتين الموجودتين. لا أُريدُ أن يحيا عمل شقيقي التوأم بعد موته. لا أريدُ أن تستمرّ في نشر أعماله بينما هو ميّت. أرى هذا أمرًا تجاريًّا وغير لائقٍ.

33. الموسوعة: الموت عند رهبان سوكوشينبوتسو في شمال اليابان

لا بدّ أنّ جميع الناس يتمنّون التحكّم تمامًا بلحظة موتهم، ولكن فنّ الموت بلغ ذروة التعقيد عند الرهبان البوذيين من مجموعة شينغون في شمال اليابان.

أُسّسَت هذه العقيدة في القرن الثالث عشر من قبل الصوفي كوبو دايشي، الذي اختار أن يعيش لحظاته الأخيرة حبيس كهفٍ لكي يستغرق في التأمّل. حينما عثر تلامذته عليه، وجدوا أنّ جثّته، بدل أن تتفسّخ، قد تحوّلت تلقائيًّا إلى مومياء، فطوّروا طقسًا هادفًا إلى تكرار هذه المعجزة ليتوصّلوا هم أنفسهم، من خلال التأمّل، إلى مستوى من الصحوة بحيث لا تعود الجثّة تتفسّخ. وقد افتُرِضَ أنّهم بلغوا بذلك حالة السوكوشينبوتسو، أي «أصبحوا مستنيرين من الداخل».

لبلوغ حالة كهذه، اتّبع هؤلاء الرهبان نظامًا غذائيًّا صارمًا جدًّا: لم يتغذّوا إلّا على إبر الصنوبر أو لحاء الشجر أو بعض البذور حتى ينحفوا إلى أقصى حدّ. بعد ذلك، كانوا يدفنون أنفسهم أحياء في قبرٍ حجريٍّ تبلغ أبعادُه مترًا بمترٍ، مدفونٍ تحت التراب. كانوا يأخذون وضعية زهرة اللوتس في القبر مع أنبوبٍ من الخيزران لكي يستنشقوا الهواء من السطح الخارجي، وأنبوبٍ آخر موصولٍ إلى جرسٍ. كان هؤلاء الرجال المدفونون أحياء يسحبون أنبوب الجرس لكي يعلنوا أنّهم لا يزالون على قيد الحياة، فيُلقى إليهم بعض البذور عبر الأنبوب. حينما يتوقّف الجرس عن الرنين، يُعدُّ الراهب ميّتًا. فيسحب الرهبان الآخرون الأنبوبين ويغلقون القبر ويغطّونه بالتراب.

بعد مضي ثلاثة أعوام، يفتح الرهبان النعش لكي يتحقّقوا من أنّ

التحنيط بالروح قد نجح. غالبًا ما كانوا يحصدون الفشل، فيُختَمُ على القبر نهائيًّا. ومع ذلك، كان يحدث أن تنجح العملية. فكانت جثّة الراهب التي تحوّلت إلى «سوكوشينبوتسو» تُخرَج من التراب، وتُنظّف، وتُلبّس، وتُعرَض، وتُقام لها مراسم التقديس. بين عام 1200 ويومنا هذا، وثّقت ثمانون حالة لرهبانٍ تحوّلوا إلى سوكوشينبوتسو.

وقد تميّزت هذه الظاهرة، على عكس المومياوات المصرية، بعدم الحاجة في هذه الحالات بالذات إلى التحنيط، وبالتالي يمكن وصفها بأنّها «طبيعية»، ولم تكن هناك أيّ عملية نزع لأعضاء الجسم. وإلى يومنا هذا، من المستحيل أن نفسّر علميًّا سبب امتناع البكتيريات والفطريات والديدان عن إفساد هذه الجثث.

إدمون ويلز،
***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

-34-

صحت السماء بهدوء وتدريجيًّا. تبعثرت الأرواح الهائمة وتفرّق القرّاء المجهولون، في حين راح المشاركون في الموكب، أبعد منهم، يشربون لكي يرتاحوا. وحدهما روحان هائمتان استقرّتا فوق القبر.

- ولكنّك تبكي، يا جدّي! لم أكن أعلم أن الشبح يستطيع البكاء.

اعترف الرجل المسنّ:

- يمكنك فعل كلّ شيء: أن تبكي وتدخّن وتبصق ويمكنك أن تنفخ أيضًا... ما دمت تتخيّل نفسك تفعل ذلك! وقد وجدتُ التشييع مؤثّرًا جدًّا بحيث لم أتمالك دموعي.

- لم يعجبني خطاب توماس.

نظر الرجلان إلى اللوح الرخامي وعبارته المنقوشة الغريبة.

- هل تريدُ أن أخبرك، يا غابرييل؟ يعتبر الرأيُ العام الموتَ إخفاقًا والولادةَ انتصارًا. الموت مرتبطٌ بكلّ ما هو سلبي، والولادة مرتبطة بما هو

إيجابي. ولكن، لو نظرنا إلى الأمور موضوعيًا، سنكتشف أنّ الأمر عكس ذلك تمامًا. الموت يحرّر المرءَ من كلّ آلام الجسد. يغدو المرء روحًا محضة، ويصبح خفيفًا. على العكس من ذلك، إذا ما فكّرنا جيّدًا، سنجد أنّ الولادة ليست بهذه الروعة. تغادر عائلتك الروحية لتحطّ الرحال بين عائلة جسدية مكوّنة من غرباء تمامًا، وتجهل كلّ شيء عنها. خلال السنوات الأولى، لا تستطيع التعبير عمّا يجول في داخلك، بل لا تستطيع الوقوف على قدميك، وترتبط بوالديك لكي يغيّرا لك لباسك ويطعماك ويأخذاك معهما. لن يكون في وسعك على الإطلاق الحصول على الضمانات بأنّ والديك لن يكونا من المتعصّبين الدينيين المحدودي الأفق، وسوف يعاقبانك إن شكّكت في ظلاميتهما، ويغسلان دماغك. وقد تُرغَمُ على تناول أشياء ترفضها لأسباب ذات طبيعة روحية، مثل اللحم الأحمر أو الكحول. موادٌ تُرغَمُ على وضعها في جسدك في حين أنّك تعلم بشكلٍ بديهي أنّها ضارّة. إنّ الولادة، حتى مع والدين محبّين، تتطلّب على الأقل ثلاثة عشر عامًا سيتمّ خلالها برمجة عقلك من قبل الآخرين، سواء من أقربائك أو معلّميك أو زملائك في الصفّ.

– اسمع، لم أفكّر في الموضوع قط من هذه الزاوية...

– كلّما أكتشفُ حياتي في العالم الآخر أكثر، أزداد اقتناعًا بذلك. الموتُ تحريرٌ، في حين أنّ الموت دخولٌ إلى عالم قسريٍّ يصعب الازدهار فيه. وهناك مخاطرة كبيرة في أن ينسى المرء مَنْ كان حقًا، وبالتالي يخسر حياته.

– هذه وجهة نظرك، لم أقتنع بها بعد، ولكنني أسمعها.

– على أيّ حال، هذا هو السبب الذي من أجله رفضتُ حتى الآن أن أتناسخ روحيًا. فهنا، لستُ في حالٍ سيّئة رغم كلّ شيء. باختصار، دعنا نتوقّف عن التفلسف. هل سمعت عبارات مثيرة للاهتمام في الحانة؟

– لقد أتلف أخي كتابي الأخير.

– هل هذا يضايقك؟

– كلّا، ليس حقًا. كانت لديّ شكوكٌ كثيرة حول جودة هذا المؤلّف الأخير.

– هل تشكّ في عملك؟

- بالطبع، يا جدّي. أشعرُ بالتوتّر قبل البدء بالكتابة، أشعر بالخوف من اتّخاذ خيارات سيّئة خلال الكتابة تحديدًا، وبشكلٍ عام، بشأن الخاتمة، أشعرُ بنوعٍ من الرفض لعملي، وهو الشعور بأنّ ما يصدر عنّي ليس جيّدًا بما فيه الكفاية وليس جديرًا بأن يُقدَّم للجمهور الواسع.

- كنتُ أعتقدُ أنّك أقوى من ذلك!

- أنا لا أرى شكّ المرء في نفسه ضعفًا. في جميع الأحوال، بالنسبة إلى رواية **إنسان الألف عام**، *بكلّ صدق وصراحة، كنتُ أتساءلُ في نفسي إن لم أكن قد خسرتُ مشروعي الأدبي. وبالتالي، أن يختفي هذا الكتاب لا يحزنني كثيرًا. ما يشغلُ بالي، بالمقابل، هو أنني لا أفهم لماذا أتلف أخي الكتاب وهو يجهل قيمته.*

نظر الاثنان إلى القبر بإمعان.

استأنف غابرييل الحديث بعد لحظةٍ من الصمت:

- إلى أين وصلتَ في التحقيق حول مقتلي؟

- لقد استغللتُ الليل لكي أذهب وأرى أحد أفضل مرشديّ. هناك شائعة تدور في العالم اللامرئي، تقودنا إلى إحدى القواعد الأكثر أهميةً في كلّ تحقيق.

- ما هي؟

- «ابحث عن المرأة».

- كن أكثر وضوحًا.

- حسب هذه الشائعة، ستكون امرأةٌ خلف موتك. من يُشيعون هذه المعلومة لا يُفصحون الكثير عنها، وبرأيي، لا يعرفون المزيد عنها.

- ولكن من أين حصلوا على هذه المعلومة؟

- لا أعلم أيّ شيءٍ عن ذلك؛ لقد أبلغني بها مرشدي، مثلما أبلغتكَ بها. في جميع الأحوال، هذا يُتيح توجيه التحقيق باتجاهٍ آخر. أنت تعرف ما هو رأيي بالنساء: يجب الارتياب فيهنّ مثل الثعابين، وهذا منذ عهد حوّاء والتفّاحة. يجب أن أعترف بأنّ جدّتك لم تساهم في تغيير رأيي.

- سوف أنقل المعلومة إلى لوسي.

- علاوة على ذلك، سلاح الجريمة هو سمٌّ، ونحن الاثنان نعلم جيّدًا أنّ هذا

سلاحٌ نموذجيٌّ للنساء. يفضّل الرجال السكّين والمسدّس، ولكن النساء يفضّلن أن يدسسن خلسةً جُريبًا صغيرًا من المسحوق حينما تدير ضحيّتهنّ ظهرها.

- امرأة؟ في الوقت الحالي لا تخطر على بالي سوى امرأة واحدة.

صحت السماء فجأةً وأصبحت صافيةً لتفسح المكان لشمسٍ مشرقة وقوس قزح.

حطّ غرابٌ على شاهدة قبر غابرييل. وردًّا على البشر الذين طرحوا هذه الجثّة التي كان يرغب في التهامها، وضع ذرقًا فوق الشاهدة.

-35-

- أقسم لك على أنني لم أسمّمه.

- وماذا عن كلّ وصفات السموم هذه التي عُثِرَ عليها في منزلكِ؟

- أنا بريئة!

- أنتِ مسمّمة. بل عُثِر في حاويات القمامة في مطبخكِ على حيوانات ميّتة لا بدّ أنّكِ استخدمتِها كفئران تجارب. أرانب، وفئران، وجرذان جافّة تمامًا ومتيبّسة تمامًا!

- هذا خطأ!

- كلّ عناصر التحقيق تتلاقى عندكِ.

- كلّا، أنا بريئة، أقسمك لك على ذلك!

- ممتاز، فلنخضعها للتعذيب. سوف تعترف في النهاية. أغرقوا رأسها وأشربوها ماءً إلى أن تعترف بجريمتها.

- كلّاااااا!

- خذوها!

- أقسم لك على أنني لم أسمّمه!

انهارت المرأة الشابّة باكيةً، في حين أمسك حرّاسٌ بقسوة لكي ينقلوها إلى القاعة الواقعة في سرداب المحكمة.

صرخ المخرج:

- و... أوقفوا التصوير! إنّها رائعة!

ارتاح الجميع، ومسحت الممثّلة دموعها الزائفة.

- سابرينا، كنتِ مذهلة.

- شكرًا.

- الآن، اذهبي إلى قسم التجميل واستعدي لمشهد التعذيب. سوف تُستخدَم لتعذيبكِ عناصر من الخشب والحديد، ألا توجد لديك أيّ حساسيّة من هذه المواد؟

- إذا لم تسل مساحيق التجميل، وإذا لم يكن الاستديو باردًا، سأكون جاهزة لتصوير المشهد خلال ساعة.

جاءت لوسي فيلييني للقائها في حجرة الملابس لأخذ إفادتها بينما كانت تتحضّر لأداء المشهد.

- أنا النقيب فيلييني من الشرطة. هل يمكنني طرح بعض الأسئلة عليك، آنسة دونكان؟

أصبحت الأن تُجيد إظهار بطاقتها بسلطة أكبر وأن تتبنّى نبرة صارمة أكثر إقناعًا.

- هل قلتِ الشرطة؟ بشأن ماذا؟

- قبل كلّ شيء، مجرّد فضول عاشقة للسينما، ماذا تصوّرون؟

- إنّه فيلمٌ تاريخي حول ماركيزة برينفيلييه، المسمّمة الشهيرة في عهد لويس الرابع عشر. هل تعرفين هذه القضيّة؟

- أووه، كلا...

- هذه الفتاة المسكينة خُدِعَت من قبل عشيقها، الضابط غودان دي سانت كروا لتسمّم والدها وأخويها وأختها. لقد قضت عليهم باستخدام سمٍّ يتركّزُ في بثور الضفادع. كانت قد انضوت في صفوف ما يشبه جمعية سرّية للنساء اللواتي يسعين إلى التخلّص من الأزواج الذين أُرغمن سابقًا على الزواج بهم. فتياتٌ مسكينات.

لم تجرؤ الوسيطة الروحية على الإفصاح بأنّها قد حظيت سابقًا بفرصة التحدّث مع الروح الهائمة لماركيزة برينفيلييه المذكورة بالصدفة خلال جلساتها الروحانية.

- وأنتِ سيادة النقيب، ما سبب وجودكِ هنا؟

- كنتُ في مراسم دفن غابرييل ويلز. رأيتُكِ هناك وأصغيتُ إلى كلمتكِ

بانتباه. والحال أنّ هناك اشتباهًا بموتٍ غير طبيعيٍّ، وتحديدًا بالسمّ. تساءلتُ إن كانت بحوزتكِ عناصرُ قد تساعدني في حلّ هذا اللغز.

بدت سابرينا منذهلة:

- غابرييل قُتِلَ؟

- في الوقت الراهن، وفي سبيل حسن سير التحقيق، يجب أن تبقى المعلومة سرّية.

قالت ساخرةً:

- وتعتقدين أنّ من ارتكب هذا قد يكون... أنا؟ لا ينبغي الخلط بين الممثّلة والأدوار التي تؤدّيها. أنا أعرف جيّدًا أنّه في القرون الوسطى كان يحدث أن تقتلَ حشودُ الناس الممثّل الذي يجيد أداء دور الشخصية الشريرة، ولكننا تطوّرنا منذ...

- أنا أستجوبكِ كشاهدة أكثر منها مشتبهًا بها. بما أنّكِ تعرفين جيّدًا غابرييل ويلز، وكنتِ رفيقته التي ظلّت لأطول وقتٍ معه، ربّما يكون في وسعكِ أن تخبريني مَنْ مِن وسطه الاجتماعي قد يكون لديه من الأسباب ليحقد عليه إلى درجة الرغبة في قتله.

قدّمت اكسسوارات للنجمة هي عبارة عن نماذج متنوّعة من السلاسل لتؤدّي بها مشهد التعذيب، واختارت من بينها تلك التي فيها الحلقات الأصغر حجمًا.

- في الواقع، كان غابرييل يعاني من البارانويا، لم يكن يشعر بأنّ لا أحد يفهمه فحسب، بل أنّ الكثيرين يحقدون عليه أيضًا.

- هل كنتما تتشاجران غالبًا؟

- على الإطلاق. كان حسّاسًا حيال كلّ شكلٍ من أشكال المشاجرة. لقد حذّرني منذ البداية: «عند أوّل مشاجرةٍ، سوف ننفصل». على الأقل كان هذا واضحًا.

- هل كان غيورًا؟

- المثير للدهشة هو أنّه لم يكن كذلك. كان يقول إنّه لا يفعل مع الآخرين ما لا يريدُ أن يُفعَل معه. ولذلك لم يكن يسمح لنفسه بأن يكون ذا نزعة تملّكية لأنه لم يكن يتسامح مع مَنْ يتعامل معه بهذه النزعة.

- هل أنتِ منْ هجرتِه؟

- لقد التقيتُ ممثلًا أمريكيًا، هو بيلي غراهام. والحال أنني لطالما رغبتُ في ممارسة مهنةٍ في ما وراء الأطلسي. كانت بالنسبة إليّ فرصة لا تفوّت. تفهّم غابرييل ذلك جيّدًا، بل قال لي: «أتمنى أن تكوني سعيدة معه وأن يبدأ عملكِ في الولايات المتّحدة الأمريكية». قال ذلك من دون أيّ سخرية، لقد كان صادقًا في قوله. لا شكّ أنني كنتُ أفضّل لو أنّه أظهر بعض خيبة الأمل، أو لو أنّه أظهر لي بعض الغيرة، ولكن ذلك لم يحدث، بل على العكس تمامًا، حاول طمأنتي. جرى الانفصال بيننا بسهولة بالغة إلى درجة أنني تساءلتُ في النهاية إن كان بالفعل قد أحبّني. لكن تبيّن لي فيما بعد أنّ غراهام مهتمٌّ بالرجال أكثر من النساء. لم ينجح عملي في أمريكا قط، ولم يمارس معي الحبّ قط. ربّما كان عليّ أن أكون أكثر حذرًا. لو أنني فكّرتُ بالأمر جيّدًا، لأثارت بعض الأمور الشكوك بشأنه في داخلي...

غمزت غمزةً خفيفة للشرطية. استأنفت حديثها:

- أتصوّر أنّكم أيضًا في مهنتكم تصادفون أناسًا غريبي الأطوار.

وصل مصمّم أزياء وساعدها في التجرّد من لباسها. ثمّ أخذت المزيّنة وقتها لتبحث عن المسحوق المناسب ومَدّته على البشرة النقيّة للممثّلة.

- ومن بعدكِ، هل صاحب غابرييل ويلز نساء أخريات تعرفينهنّ؟

- كان غابرييل يحبّ النساء. لكثرة ما كتب قصصًا رومانسية محزنة، غدا هو نفسه رومانسيًّا. في كلّ مرّة يلتقي فيها مع امرأة جديدة، كان ينوي الزواج بها وإنجاب الأطفال منها. وفيما بعد، أنا من لعبتُ دور المستشارة وهدّأتُ اندفاعاته المتعاقبة. كان نقيض الرجل الخفيف الطائش الذي ينتقل من امرأة إلى أخرى، كان رائدًا مستكشفًا. ذات يوم، قلتُ له إنّه يقترن بالنساء لكي يغذّي مشاهده الغرامية في كتاباته. ضحك واعترف بأنّ هناك شيئًا من هذا. علاوةً على ذلك، أنا كنتُ حاضرة ضمنيًّا في الكثير من رواياته. بطلته في الجزء الثاني من روايته «البجع»، *ليلة البجع*، أسمير الدا، هي أنا. والمشهد الذي تروي فيه خيالها في الاستمتاع الجنسي بألفاظ شبقية أثناء ممارسة الجنس مستوحى ممّا عشناه معًا. قلتُ له آنذاك: «هيّا، سنرى إن كان وصفي

لخيالي في الاستمتاع الجنسي معك بألفاظ شبقية سيؤثّر على قوّة قضيبك حينما يكون في داخلي».

حاولت لوسي فيليبيني، التي انزعجت كثيرًا من هذا الاعتراف، أن تمنح نفسها استراحةً من خلال شرب كأسٍ من الماء، ولكنّها ابتلعت الماء بطريقة خاطئة وتشردقتْ به.

- في كلّ جملةٍ كنتُ ألفظها، كنتُ أشعرُ بتحوّلٍ طفيفٍ في جسده داخل جسدي. فهنّأني على ابتكاري لأفضل وسيلة للتحقّق من أهمية حكايةٍ! بعد ذلك، في كلّ مرّة مارسنا فيها الحبّ، كان عليّ أن أتخيّل ألفاظًا وعبارات شبقية أكثر جرأةً لكي أباغته...

نطقت سابرينا هذه الجملة مع نظرة شبقية خفيفة، جعلت لوسي تحمرّ خجلًا وتعاني صعوبةً في استعادة تنفّسها الطبيعي.

- كان غابرييل بأسلوبه طفلًا حقيقيًا. حينما كنّا نمارس الجنس، كنتُ أشعرُ بأنّه متأثّرٌ وممتنٌّ مثل طفلٍ. وكان من شأن هذا أن يوقظ في داخلي أمومتي. وقد أسرّ إليّ بأنّه كتب كلّ رواية من رواياته وهو يفكّر في امرأةٍ. قال إنّ حافز كلّ مبدعٍ هو التأثير في سبيل الإغراء، تمامًا مثل طقوس المغازلة عند الطواويس، أو التغريد عند طيور المينا. كان يردّد دائمًا أنّ كلّ ما هو جميلٌ في الطبيعة هو كذلك لكي يسمح بالتزاوج: الأزهار، على سبيل المثال، لديها ألوانٌ جميلة لاجتذاب النحل الذي سيسمح لها بنشر حبوب لقاحها. مثلما كان يقول: «الحبّ والفنّ هما الوسيلتان الوحيدتان لإطالة أثرنا في الزمن».

ابتسمت سابرينا. دوّى صوتُ طرقاتٍ من المطرقة، فقد انتهى النجّاران من تجهيز قاعة التعذيب.

ظهر المخرج من فتحة الباب الموارب، وقال:

- أخبريني، يا سابرينا، هل تفضّلين الحبال بدل السلاسل؟

- آه نعم، قد لا يكون هذا سيّئًا، ولكن يجب الانتباه إلى ألّا يتمّ شدّها كثيرًا لأن الآثار تظهر على بشرتي بسهولة ومن شأن هذا أن يسبّب انعكاسًا فاقعًا على الشاشة.

- سوف أنقل المعلومة إلى اختصاصيّ الإكسسوارات.

استدارت الممثّلة نحو «الشرطية»:
– إذن، ماذا كنّا نقول، سيادة النقيب؟
– هل كان لدى غابرييل ويلز أعداء، بحسب معرفتكِ؟
– القليل جدًّا. في الواقع، لم يكن لديه في مجال اختصاصه منافسون حقيقيون، لم يكن يُزعج أحدًا، حيث كان قد أنشأ ملعبه الخاصّ. لم يكن يسرق قرّاءً من أحد، بل كان يضيف قرّاء جددًا إلى الجموع.
– هذا باستثناء أكثر نقّاده صرامةً، الناقد جان موازي، الذي جاهر في كلّ مكان بأنّه يجب القضاء عليه. هل تعتقدين أنّه ربّما يكون قد انتقل من القول إلى الفعل؟
– ما إنْ علِمَ أنني على علاقةٍ مع غابرييل، حتى شرع موازي في إرسال رسائل نصيّة قصيرة إليّ يقول فيها إنّ ممثّلةً بهذه الروعة، وهي أنا، لا ينبغي لها أن تضيّع وقتها مع كتّابٍ رديئين. وقد طلب منّي بكلّ صراحة أن أهجر ويلز من أجله. لم أجب عليه، ولكنّه لم يكفّ قط عن إرسال رسائل من هذا النوع إليّ بهدف إغرائي. يمكننا القول إنّه يعرف ما يريدُ أن...
سألتها لوسي:
– هل لديكِ معلومات عنه منذ موت غابرييل؟
– بإلحاحٍ. تزايدت وتيرة رسائله خلال الأيام الأخيرة. أنوي أن أرفع عليه شكوى تحرّش.
– برأيكِ، هل يمكن أن يكون موازي هو الذي قتلَه؟
صبغت خبيرة التجميل بفرشاةٍ رفيعة هالة حلمتي نهدي الممثّلة بصباغٍ. ضحكت سابرينا حينما رأت لوسي تُدير بصرها عن جسدها.
سألت:
– هل هذه أوّل مرّة تحضرين فيها تصوير فيلمٍ؟
– في الحقيقة، نعم.
– أغمضي عينيكِ.
نهضت سابرينا وقبّلت لوسي على فمها.
– هذا أيضًا أحد أسباب ممارستنا لهذه المهنة، لكي نتحدّى كلّ المحظورات. وعلاوة على ذلك، نقبض أجرةً على هذا العمل.

انحنت من جديد نحوها ووضعت على شفتيها قبلة أطول في حين واصلت خبيرة التجميل عملها على حلمتي نهدي الممثّلة حتى من دون أن تعيرهما انتباهًا. هذه المرّة، احمرّت لوسي خجلًا مثل وردةٍ حمراء. تنهّدت بعمق وبدت الممثّلة مبتهجةً بنتيجة ذلك.

– ماذا كنّا نقول؟ آه نعم، موازي. يتكلّم كثيرًا ولكنّه يفعلُ قليلًا.

سألت لوسي وهي تحاول أن تستردّ أنفاسها:

– إذن، منْ عساه يكون القاتل؟

نظرت سابرينا إلى نفسها في المرآة، ثمّ التفتت.

– شقيقه التوأم: توماس. هو الآخر تغزّل بي على الدوام بالتوازي، حتى عندما كنتُ مع غابرييل. لقد رغب دائمًا في ما يمتلكه شقيقه. كان يرغب في مجده وفي ثروته، وعشيقاته. وبالتالي كان يرغب فيّ أنا.

أخرجت سابرينا هاتفها الذكيّ وقرأت على مسامع لوسي رسالة قديمة من توماس:

«لم أعد أحتمل، أنا أفكّر فيكِ كلّ يوم، كلّ ساعة، كلّ دقيقة، كلّ ثانية. صمتُكِ هو أشدّ أنواع التعذيب بالنسبة إليّ. غابرييل رجلٌ أنانيّ لا يحبّكِ بقدر ما تستحقين. إنّه لا يحبّ إلّا نفسه».

ثمّ أخرجت خبيرة التجميل طلاء الأظفار وصبغت أظفار قدميها في حين قدّم أحد مساعديها للممثّلة مشروبًا للطاقة.

– بما أنّكِ محقّقة، لن أعلّمكِ مهنتكِ، ولكنني مثّلتُ في العديد من الأفلام البوليسية خلال مهنتي، وهناك دائمًا لحظة تطرحُ فيها إحدى شخصيات الفيلم على نفسها السؤال التالي: مَن المستفيد من الجريمة؟

– فيمَنْ تفكّرين؟

– في توماس ويلز.

قدّم العديد من المساعدين لسابرينا رداء حمامٍ دافئ وشطائر سلمون صغيرة لمرافقتها إلى المنصّة التي سيجري فيها تصوير المشهد التالي.

– أتمنى لكِ التوفيق في تحقيقكِ، سيادة النقيب. عليّ أن أذهب لكي أصوّر مشهدًا. إنّه العمل. لا أستطيع أن أتخيّل أنّ ثمّة مَنْ يشتكون من ظروف عملهم!

أرسلت إليها قبلة في الهواء.

- بيني وبينكِ، من المؤسف أن يموت غابرييل، أنتِ فتاةٌ من النوع الذي كان سيقع في حبّها بجنون. هل سبق أن قال لكِ أحدٌ إنّكِ تشبهين ممثّلته المفضّلة، هيدي لامار؟

36. الموسوعة: هيدي لامار

هيدي لامار (اسمها الحقيقي هيدويغ إيفا ماريا كيزلر) هي واحدة من الممثّلات الهوليووديات النادرات، وكانت أيضًا عالِمة صاحبة رؤية.

ولِدتْ في عام 1914 لمصرفيٍّ أوكرانيٍّ وعازفة بيانو هنغارية، وهجرت والديها في سنّ السادسة عشرة لتبدأ عملها كممثّلة كوميدية. وقد صرّح المخرج ماكس راينهارد للصحافة: «إنّها أجمل فتاة في العالم» ذاعت شهرتها في التاسعة عشرة من عمرها من خلال مشاركتها في الفيلم النمساوي - التشيكوسلوفاكي *النشوة* في دور زوجة هجَرها زوجها، وتتّخذ عشيقًا. وهي أوّل ممثّلة في تاريخ السينما تؤدّي دورًا وهي عارية تمامًا وتتظاهر ببلوغ نشوة الجماع. أُدين الفيلم من قبل الكنيسة الأمر الذي منح هيدي لامار شهرةً عالمية. بعد أن مثّلت في ما يقرب من عشرة أفلام وعروض مسرحية، تزوّجت بفريدريش ماندل، وهو تاجر أسلحة نازيّ نمساوي يتردّد على موسوليني وهتلر.

بعد مضي أربع سنوات، تخلّصت من براثن هذا الزوج الاستحواذي من خلال تخدير الحارس المكلّف بمراقبتها وارتداء ملابسه. ثمّ فرّت من أوروبا ومن أجواء صعود النازية لتلجأ إلى الولايات المتّحدة. على متن سفينة نورماندي العابرة للمحيط الأطلسيّ، أقنعت المنتج لويس بي. ماير بالعمل معها وحصلت على عقدٍ حصريٍّ مدّة سبع سنوات في استوديوهات مترو غولدوين ماير، الذي كان آنذاك أكبر استديو سينمائي في العالم. أقامت في هوليوود ومثّلت في ما يقرب

من خمسة عشر فيلمًا طويلًا إلى جانب أعظم الممثّلين: سبنسر تريسي، جون واين، غريغوري بيك. في عام 1949، عرفت التتويج مع الفيلم الديني *شمشون ودليلة* الذي مثّلت فيه مع فيكتور ماتير. ولكونها على إغراءٍ عظيم، وعُدّت من قبل العديد من المجلّات على أنّها أجمل امرأة في العالم، تزوّجت ستّ مرّات وظهرت مع العديد من العشّاق المشاهير مثل ستيوارت جرينجر أو جون كنيدي أو جان بيير أومون أو هاوارد هيوز أو روبيرت كابا أو إيرول فلاين أو أورسن ويلز أو شارلي شابلن أو كلارك غيبل أو أيضًا بيلي فيلدر. أُخِذَ منها الكثير من العبارات، منها: «قبل سنّ الخامسة والثلاثين، حينما يكون هناك رجلٌ يحتاج إلى الكثير لكي يتعلّم، ليس لديّ الوقت لتعليمه» أو «مشكلتي مع الزواج تكمن في رغبتي في الحميمية والاستقلالية في آنٍ واحدٍ». كان فيلمها الأخير، *نساء أمام الرغبة*، الذي صوِّر في عام 1957، بمنزلة فشلٍ لها. فشهدت النجمة، التي أصبحت لديها نجمتها في ممرّ الشهرة في هوليوود، هبوطًا تدريجيًّا نحو الجحيم. بعد أن نشرت كتابًا عن ذكرياتها الجنسية، وهو كتاب صدم الجمهور، خضعت لعملية تجميل تضليلية، وأوقِفت فيما بعد بتهمة السرقة من المتاجر. ماتت في بؤسٍ، وحيدةً ومنسيّةً من الجميع، في سنّ الخامسة والثمانين. الجائزة الوحيدة التي نالتها خلال مسيرتها المهنية هي جائزة التفّاحة الذهبية التي تُمنح للممثّلة الأكثر صعوبةً في مواقع التصوير.

بيد أنّ جانبًا أقلّ شهرةً في مسيرتها (لم يُكشَف إلّا في سنوات الثمانينيات لأنّه كان مصنّفًا على أنّه سرّيٌ للغاية) أعاد إليها شهرتها بعد وفاتها: اختراعها، في عام 1941، نظامًا للاتّصال يُركّب على الطوربيدات الموجّهة لاسلكيًّا، يسمح لجهاز الإرسال والاستقبال في الطوربيد بتغيير التردّد وذلك لمنع العدو من اكتشاف هجومٍ يُشنُّ تحت المياه.

للوهلة الأولى، لم يأخذ خبراء الأسلحة ذلك على محمل الجدّ، ولم يعيروا أي اهتمامٍ لاختراعها، الذي أودعوه في محفوظاتهم حتى من دون أن يختبروه. ولكن أثناء الحرب الباردة، في عام 1962،

في أوج أزمة صواريخ كوبا، أُخرِج «اختراع لامار» أخيرًا من على الورق ووضِعَ موضع التنفيذ. وبنجاحٍ منقطع النظير. حينما رُفِعَت السريّة عن براءة الاختراع في عام 1980، رأت الشركات الخاصّة في الحال أهمية هذا الاختراع. وهكذا نُسِب الهاتف النقّال ونظام تحديد المواقع والروابط المشفّرة العسكرية واتّصالات المركبات الفضائية مع الأرض، وأيضًا الواي فاي جميعها إلى «اختراع لامار».

نالت الممثّلة بأثرٍ رجعيٍّ، في عام 1997، جائزة المؤسسة الأمريكية للإلكترونيات، وتمّ قبولها في عام 2014 في القاعة الوطنية للمخترعين المشاهير، التي تكرّم كبار المخترعين الأمريكيين.

إدمون ويلز،
***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

-37-

سأل إينياس غابرييل وهو يحلّق بجانبه:

- فيمَ تفكّر؟

- *إنّه لأمرٌ مدهش! كم تبدو لوسي شبيهةً بهيدي لامار!*

- *لم أفهم قطّ انجذابك إليها، فهي أقلّ جاذبيّةً من مارلين مونرو أو غريتا غاربو أو غريس كيلي.*

- *أنا أعرف أنّك تفضّل النساء الشقراوات، ولكلٍّ أذواقه. دعنا لا نعود إلى الحديث في هذا الموضوع.*

- *حسنًا، بالمناسبة، أنا أعرف دعابةً لطيفةً. وهي عن زوجين مسنّين في الخامسة والتسعين من عمرهما ذهبا إلى كاتب العدل للطلاق. سألهما: «لماذا انتظرتما كلّ هذا الوقت الطويل لتنفصلا؟» فأجابا...*

- *شكرًا جدّي، ولكن كيف أقول... منذ أن متّ، أصبحتُ أقلَّ ميلًا إلى المزاح.*

- *هذا مؤسف، إذا كانت هناك بالفعل لحظة يستطيع فيها المرء أن يقلّل من شأن أيّ شيء ويجعله نسبيًا، فهي بالضبط اللحظة التي تلي وفاة المرء!*

- لنقل إذن إنّه لا مزاج لي للمزاح الآن. لدينا قبل كلّ شيء مهمّة يجب إنجازها لتحقيق تقدّمٍ في تحقيقي.

لمّا رأى غابرييل جدّه يعبس، استسلم غابرييل متنهّدًا، وقال:

- حسنًا... هيّا اروِ لي تتمّة نكتتك.

- كلّا، لقد فات الأوان، وأنا منزعج.

- هيّا، يا جدّي، لا تتردّد. أنا أعلم أنّك غير قادرٍ على مقاومة الرغبة في رواية نكتةٍ.

- أنت مخطئ، لن أتراجع. ثمّ إنّك على حقّ، دعنا نركّز على مهمّتنا.

- من فضلك، اروِ لي النكتة.

- هل رأيت قوّة نكتة غير مكتملة؟ إنّه لأمرٌ محبِطٌ، أليس كذلك؟

- هيّا، يا جدّي.

- حسنًا، طالما أنّك تلحّ... فأجابا: «انتظرنا إلى أن يموت أطفالنا حتى لا نصدمهم نفسيًّا بطلاقنا».

نظر غابرييل إلى جدّه بمودّة. لقد أنقذتهما النكات، وهذا يعني أنّ جدّه أقوى منه، فهو يعيش مع النكات، حتى بعد موته. بل تخيّل غابرييل أنّه ربّما بفضل هذه النكات استطاع أنّ يتحمّل جدّته ويقاوم الرغبة في الطلاق. كانت كلّ نكتة من نكات إينياس تكشفُ الكثير عن شخصيته الحقيقية.

حلّقا مثل عصفورين في السماء الباريسية وحطّا في محطّة ليون.

قال غابرييل وقد بدا عليه الإحباط بوضوح من جسامة المهمّة:

- كيف يمكن تقفّي أثر فارٌ ذهبَ أحد أيام الجمعة المصادف للثالث عشر من شهر أبريل / نيسان إلى محطّة ليون، قبل تسع سنوات؟ لا بدّ أن يكون هذا صعبًا، أليس كذلك؟

- لقد نسيت مع مَنْ تتعامل: مع الملازم في الشرطة إينياس ويلز، ملك التحقيقات الميدانية. سوف نعثر على صاحبك سامي داودي، سواء كان في هذا الطرف من العالم أو في الطرف الآخر. صدّقني.

بدأت الروحان التائهتان بالتجوال في بهو المحطّة. اقترب إينياس من العديد من الرجال الذين يرتدون الزيّ الموحّد الرسميّ للشركة الوطنية للسكك الحديدية الفرنسية.

- عمّن تبحث بالتحديد، يا جدّي؟

- عن موظّفٍ مسنٍّ مدمنٍ على الكحول. أريده «مسنًّا» لكي أكون متأكّدًا من أنّه كان هنا قبل تسعة أعوام. وأريده «مدمنًا على الكحول» لتكون لنا القدرة على التأثير فيه. شرحتُ لك سابقًا أننا لا نستطيع أن نؤثّر إلّا على الناس الذين لديهم ثقوبٌ في هالاتهم، أي لديهم نقاط ضعف. نستفيدُ من واقع أنّهم ليسوا عصيّين على التأثير.

- إذن، يمكن لمدمنٍ على المخدّرات أيضًا أن يفيدنا في المسألة.

- أنت على حقّ. ولكن ربّما لدينا فرصة في العثور على موظّفٍ مدمنٍ على الكحول أكثر من فرصة العثور على مدمنٍ على المخدّرات.

- ما هي الأسباب الأخرى التي يمكن من جرّائها أن يكون للمرء هالة غير محكمة؟

- في حالات الانفصام في الشخصية أو السَرنمة، أو عند الأشخاص الذين يخرجون من أجسادهم لكي يقوموا برحلةٍ بين النجوم أو في حالة التأمّل التجاوزي. ولكن، صدّقني يبقى الأسهل هنا هو العثور على موظّفٍ يشرب الكحوليات.

جال إينياس وغابرييل على كلّ الأقسام الإدارية في محطّة ليون. تفحّصا نوافذ الموظّفين على أمل اكتشاف شخصٍ له عينان حمراوان ذواتا حدقتين متّسعتين، وخدان تبرزُ منهما أوردة ظاهرة، ويدان مرتجفتان. لكنّهما لم يكتشفا أحدًا بهذه المواصفات.

وفي النهاية، وجد إينياس في المراحيض شخصًا يشرب في الخفاء الويسكي من الزجاجةِ مباشرةً.

قال وهو يعود إلى حفيده:

- لقد نجح الأمر، فقد عثرتُ على أحدهم. تعال بسرعة!

كان لدى الرجل هالةٌ مرقّطة بالأسود ومثقوبة في عدّة مواقع.

دخل إينياس من إحدى تلك الفتحات ولامس دماغه.

بدر فواقٌ من الرجل، وتغيّرت نظرته.

- ماذا تفعل الآن، يا جدّي؟

- أتفحّص دماغه. لحسن الحظّ، هذا رجلٌ موصولٌ بالحواسيب العامّة. إنّه يهتمّ بصيانة أنظمة المعلوماتية.

غرز إينياس إصبعه على نحوٍ أعمق في سحايا دماغ الموظّف.

سار الرجل مترنّحًا لكي يعود إلى مكتبه وجلس أمام شاشة حاسوبه، الذي شغّله بالنقر على أزراره وإدخال الرمز السرّي. ثمّ أثّر عليه إينياس لكي يُدرج في محرّك البحث اسم سامي داودي وتاريخ يوم الجمعة المصادف للثالث عشر من أبريل / نيسان قبل تسعة أعوام.

وقد اكتشفا وسط دهشتهما أنّ مسافرًا بهذا الاسم قد اشترى في ذلك اليوم، في الساعة الحادية عشرة، تذكرةَ سفرٍ إلى جنيف.

علّق إينياس ببساطة:

- لقد فرّ عاشقنا الرائع إلى سويسرا قبل توقيف عاشقته ببضعة أيام.

-38-

خفقت لوسي فيليبيني برموشها لإبداء موافقتها.

قال لها الرجل الذي يقف أمامها:

- جئتُ لمقابلتكِ لأنني لا أفهم لماذا لم يعد الناس يلقون عليّ التحيّة.

- منذ كم من الوقت؟

- منذ ثلاثة أيام.

- وماذا حدث قبل ثلاثة أيام؟

- خرجتُ من المستشفى.

- لماذا كنتَ في المستشفى؟

- أُجريت عملية جراحية لعينيّ، ولكنها تمّت بنجاح.

- كلا، لا أصدّق.

- آه، ألا أزال إذن في المستشفى تحت تأثير المسكّنات وأنا أحلم؟

- كلّا، أنت متَّ.

بدا الرجل الذي يرتدي زيّ البوبو الأفريقي التقليدي ويضع نظّارات مرتبكًا.

- *هل أنتِ متأكّدة، يا لوسي؟*

- نعم، يا مامادو. هل تُريدُ أن أساعدك في الصعود أم أنّك تعتقدُ أنّك قادرٌ على فعل ذلك وحدك؟

- *أنا... أنتِ... أقصد، أنا آسف، ولكنني لا أصدّقكِ. أعرفُ أنّكِ تمزحين معي. لوسي الخارقة! هيّا، سأعود إلى بيتي، لديّ عملٌ.*

ارتدى معطفه المتخيّل وانسلّ من الباب، مقلّدًا حركة فتحه وإغلاقه.

هزّت لوسي رأسها. تأثّرت بالموقف وذرفت دمعةً صغيرةً قبل أن تُجهش بالبكاء بحرقةٍ. جاءت قطّة سوداء ولعقت الدموع من على خدّها.

فقال غابرييل وهو يقترب ببطءٍ:

- *طاب نهاركِ، يا لوسي. ألا أزعجكِ؟*

رتّبت الوسيطة الروحية تسريحة شعرها وحاولت أن تتمالك نفسها، ولكنّها ظلّت صامتة.

- *هل كان هذا الرجل هو المُحسِن السنغالي خاصّتك؟*

- ما كان عليه أن يجرّب إجراء عملية جراحية لعينيه. لا بدّ أنّه تعرّض لمشكلةٍ من جرّاء التخدير.

حاولت أن تبتسم.

- ها أنت ترى: لستَ وحدك منْ لم يستوعب وضعه في الحال. بحسب تقديراتي، يعتقد ثلث الأموات أنّهم أحياء.

أجلست الدمية المهرّج، مثلما جرت العادة.

- *ثلث؟*

- يعتقد الكثيرون منهم أنّهم هم الأحياء وأننا نحن الموتى.

ارتسمت على ملامح غابرييل علامة تشكيك.

- *هذا أمرٌ منطقيّ، لا تستطيع أيّ آلة أن تخبركِ عن حالتكِ «الجسدية». وبالتالي، يعتبر كلّ شخص، ذاتيًا، أنّ كون المرءِ حيًّا يعني «أن يكون مثله».*

- ولهذا السبب بدت لي الكتابة على شاهدة قبرك مناسِبة. أعتقدُ أنّها تنطبقُ على الكثير من الناس.

- *وهل يزعجك الموتى كثيرًا؟*

- الأسوأ هو عندما يحدث هذا في غمرة الليل. حدث لي ذلك

الأسبوع الماضي فقط. جاءتني سيّدة نحو الساعة الرابعة صباحًا وقالت لي: «أريدُ أن أتكلّم مع ابنتي». وافقتُ على أن أنهض وأستند إلى مرفقٍ، واكتشفتُ أنّ المتحدّثة إليّ ترتدي قميص نومٍ، وحافية القدمين، وأنّ وجهها مليءٌ بالتجاعيد وشعرها أبيض ومنكوش. كان ذلك فألًا سيئًا. في الحالة الطبيعية، يختار الناس أن يستعيدوا مظهرهم حينما كانوا في الثلاثين من العمر ويحرصون على أن يروا أنفسهم يرتدون ثيابًا أنيقة. حينما سألتها عن اسمها، أخبرتني أنّها لم تعد تتذكّره. فسألتها أين تعيش، ولم تتذكّر ذلك أيضًا. كانت تعاني في الواقع من مرض الزهايمر. حينما يموت الناس مع هذا البلاء، يستغرقون في بعض الأحيان شهورًا حتى يستعيدوا ذاكرتهم.

– *الآن وقد أخبرتِني بذلك، في الليلة التي ذهبنا فيها لأخذ عيّنة دمٍ من جثّتي، رأيتُ في المستشفى بعض الإكتوبلازمات بلا وجه...*

– هؤلاء هم الذين لا يتذكّرون حتى شكل وجوههم.

– *كان ذلك مثيرًا جدًّا: كانت رؤوسهم ملساء تمامًا، مثل بالوناتٍ منفوخة.*

نهضت لوسي وذهبت نحو النافذة.

قالت فجأةً:

– لقد ذهبتُ لمقابلة المشتبه بها الأولى في قتلك: سابرينا. المرأة الخارقة! وجدتها ليست جميلة فحسب، بل في غاية الروعة. بصراحة كنتَ محظوظًا جدًّا لأنّك استطعت أن تعيش مع امرأة على هذه الدرجة من المهابة والجاذبية.

– *الممثّلات فعلًا نساء استثنائيات. إنهن يعشن في إغراء دائم. في الحياة اليومية لا يكون هذا بسيطًا على الدوام، ولكن بالنظر من الخارج أدركتُ أنّه يمكن لهذا أن يترك انطباعًا قويًا.*

– ما كان متميّزًا بعض الشيء هو أنني وجدتها تتهيّأ لأداء دورٍ يجري فيه تعذيبها بسبب تسميمها بعض الناس.

– *وهل اعترفتْ؟*

– في الفيلم، لا أدري، ولكن خلال لقائنا أخبرتني أنّها كانت تعشقك وأنّها ما كانت لترغب في أن تُلحقَ بك أدنى أذى. أعتقد أنّها في قرارة نفسها

كانت تتمنّى أن تعودا للعيش بعضكما مع بعض. إنّها تعتقدُ أنّك رجل حياتها. لو كنتُ أنا في مكانك، لما تردّدتُ، ولفعلتُ كلّ ما في وسعي لأتزوّج بامرأةٍ بهذه الروعة.

لم يجرؤ غابرييل على إخبارها بأنّ ما رأته هي نتيجة لساعاتٍ من التجميل والتزيين المقرونين بعمليات تجميلٍ باهظة التكلفة. أمّا لوسي، على العكس من ذلك، فهي ذات جمالٍ طبيعيٍّ يفوق جمالها بكثير.

- إنّها تشكّ في أخيك.

- *حقًّا؟*

- تقول إنّ توماس كان يطمع في كلّ ما كنتَ تملكه، بدءًا منها هي.

جاءت القطط تحتكُّ بربلتي ساقيها لكي تُداعبها لوسي. تحسّر غابرييل على عدم قدرته هو على أن يشعر بهذا الاحتكاك الخاصّ بفروة القطط.

- *هي من تركتني. ولم تبدِ سابرينا رغبتها في العودة إليّ إلّا حينما علمت أنني كنتُ سعيدًا مع امرأة أخرى.*

قاطعته لوسي:

- أمّا أنا، فلستُ هكذا. لديّ حبيبٌ وهو سامي، حبيبٌ وحيدٌ، ولن يتغيّر هذا أبدًا. يجب أن تعتقد أنني امرأة منعزلة، بل ربّما ينطوي وفائي لذكرى سامي على شيءٍ من العبث...

لم يُجب. بعد صمتٍ، استأنفت لوسي:

- هذا شيءٌ غريب، ولكنني أعتقد أنّ معظم الوسطاء الروحيين الحقيقيين لا يستطيعون الاستمتاع بحياةٍ طبيعية. لديّ صديقاتٌ أخريات يتحدّثن مع الموتى، وعددٌ قليلٌ جدًّا منهنّ يتأقلمن اجتماعيًّا. إمّا يعشن وحيدات مع قططٍ، مثلي، أو يعشن في الريف، منعزلات. القليل جدًّا منهنّ لهنّ حياة جنسية نشِطة. كما لو أنّ الطاقة الضرورية للاتّصال مع طاقة الموتى تمنع الاتّصال مع طاقة الأحياء.

- *هذا يذكّرني بحكايات الأطفال. على سبيل المثال، الحورية الصغيرة تفقد قدراتها إذا مارست الجنس مع رجلٍ.*

- وربّما هذا هو السبب أيضًا في أنني لم أبحث قط عن رجالٍ آخرين. بالمناسبة، إلى أين وصلتَ في التحقيق؟

- بشأن داودي؟ لقد عثرنا على أثرٍ له. ذهب إلى جنيف. غدًا، سوف نواصل تحرّياتنا هناك.

- «نواصل تحرّياتنا»؟ ماذا تقصد بصيغة الجمع؟

- أنا أتحرى مع جدّي إينياس.

هزّت كتفيها.

- مزوّدك بالنكات؟ حسنًا، طالما ستنجح، فأنت حرٌّ في التحرّي برفقة منْ تشاء.

تقدّم الليل الآن إلى هزيعه الأخير، بعد إجراء جلستها في التخلّص من الطفيليات، والتأمّل مدّة ما يقرب من عشرين دقيقة، تهيّأت لوسي للذهاب إلى النوم.

قالت:

- طابت ليلتك، يا غابرييل.

- طابت ليلتكِ، يا لوسي.

خرخرت قطّةٌ. نهضت واستندت إلى أحد مرفقيها. ووجّهت كلامها إلى غابرييل:

- لا أحبّ أن تتلصّص عليّ وأنا نائمة.

- كيف ستعرفين ذلك؟

- تحرسني قططي. لا تنسَ أنّها تراك.

نهض الكاتب من على السرير، واستدار مثل راقص أوبرا، وعبر السطح. أفرد ذراعيه، وحلّق فوق المدينة وشعر بنفسه سعيدًا. خلال بضع ثوانٍ، لم يعد سؤال معرفة من قتله يستحوذ على ذهنه.

ما أراد أن يعرفه فعلًا، هو ما هي التروس السرّية التي تجعل الكون يدور...

-39-

هبط غابرييل ويلز على شلّال غابة بولونيا. وفي اللحظة التي اقترب فيها من الكهف الذي تتدفّق منه المياه، طارت خفافيش أحسّت بحضوره في نفس اللحظة محرّكة الهواء بأجنحتها الرشيقة.

رأى بعيدًا إكتوبلازمات أخرى، ولكنّه لم يجرؤ على الاقتراب منها.
سأله صوتٌ ذو نبرةٍ برازيليّة واضحة:
– *إذن، يا حبيبي، هل تتنزّه؟ هل تبحث عن قليلٍ من الحبّ؟*
جفل، والتفت ولمح مخنّثة ترتدي قميصًا مقوّرًا يكشف عن صدرها. حتى بعد أن تحوّلت إلى روح هائمة، بدت الروح محتفظةً بلباس العمل.
– *هل تعلم كيف متُّ، أنا؟ حدث ذلك أثناء العاصفة الكبرى في 26 ديسمبر / كانون الأوّل عام 1999. واصلتُ العمل في ذلك اليوم، وسقطت شجرةٌ فوقي. حينما وصل رجال الإنقاذ، كانت ساقاي وذراعاي وحقيبة يدي فقط تبرزُ من تحت جذع الشجرة.*
انفجرت في ضحكةٍ كشفت عن أسنانها.
أدرك غابرييل أنّ الناس في الواقع ليسوا أسرى الحكاية التي يروونها عن أنفسهم فقط، بل حال موتهم لا يكفّون عن البحث عن جمهورٍ يعمل على إدامة تلك الحكاية أيضًا.
حينما وجدت مخنّثات برازيليات أخريات أنّ زميلتهنّ قد عثرت على أذنٍ مُصغية، أسرعن وحاولن سرد حكايتهنّ الخاصّة.
– *أمّا أنا، فقوادي هو الذي صفعني، وسقطتُ إلى الوراء على حجرٍ.*
– *وأنا، طبيب التجميل خاصّتي هو الذي قضى عليّ بمعدّات سيّئة التعقيم.*
لمّا رأى غابرييل كلّ إكتوبلازمات المخنّثات البرازيليّات تجتمع لكي تروي بعضها لبعض حكاياتها، أدرك أنّ البطالة قد تكون الألم الأعظم للأرواح الهائمة. إنّ تسكّع المرء من دون أن يكون هناك أيّ شيءٍ يفعله هو بمنزلة الحكم على روحه باجترار الذكريات من دون كللٍ. ولهذا من المهمّ أن يحفظ المرء قصّة حياته، بل يضخّمها ليمنحها بعدًا أوسع.
غادر غابة بولونيا وصعد نحو الشمال ليذهب ويرى قبره في مقبرة بير لاشيز.
أعاد قراءة العبارة المنقوشة على الرخام وجلس على شاهدة القبر وهو يفكّر: *يا لها من سخرية.*
في النهاية لم تكن حياته برمّتها سوى سخرية.
اعتبرَ أنّه ليس هناك سوى شكلٍ وحيدٍ للمرح المقبول: وهو الذي يشتمل

على سـخرية المرء من نفسـه. ولكن هذا ليس سهلًا، لأنّ كلّ شيء يميل إلى جعل الإنسان يعتقد أنّ ما يحدث له مأساويّ. في النهاية، الحياة ليست سوى ملهاة. أو حتى على نحوٍ أكثر بسـاطةً، نكتة تنتهي بخاتمة أكثر أو أقلّ نجاحًا. الخاتمة؟

دخل إلى نعشـه ونظر إلى غلافه الجسدي الذي كان لا يزال عمليًّا سليمًا بفضـل العمل الممتاز للمحنّطين الذين وضعوا قبل دفنه مباشـرةً الراتنج في جهازه الوريدي لكي يحافظ جسـمه على شكله. لم يرَ لا ديدانًا ولا فطريات ولا حتى عفنًا.

للأسف كنتُ أعتقدُ أنني لستُ سوى هذا الجسد...

يجـب أن يُحـذّر الأحياء وأن يُقال لهم: «أنتم لسـتم جسـدًا له روحٌ. أنتم روحٌ لها جسدٌ».

جعله هذا يبتسـم، ولكنّه قال في نفسـه إنّ هذه الجملة، الواضحة بالنسبة إليه، قد تُفهَمُ خطأً لشدّة ما هي غامضة.

واصـل التفكيـر: *منْ أكـون، الآن وقـد عرفتُ أننـي لسـتُ غابرييل ويلز «فحسب»؟*

خـرج مـن النعش وجلـس في وضعية التأمّـل، مثلما كان قد رأى لوسـي تفعل ذلك.

تعمّق في التفكير:

يجب أن تنقذني أعمالي.

يجب أن أعرف لماذا أتلف شقيقي روايتي الأخيرة.

يجب أن أعرف منْ قتلني.

للحظة، شعر بالإشفاق على نفسه. ثمّ تمالك نفسه.

إذا كان هـذا قـد حدث لي، فلأنه كان يجب أن يحـدث لي. لا بدّ أنّ لكلّ هذا من معنى. لا ينبغي أن أشـفق على نفسـي. تبًّا لك، يـا غابرييل، تذكّر منْ كنتَ!

وكجوابٍ، خطرت فكرةٌ أخرى على باله:

لم أعد أيّ شيء.

ظهـر جدّه فـي تلك اللحظـة، بعد أن ذهب هـو الآخر ليسـتجمع أفكاره

بالقرب من جثّته، التي بدت بوضوح أنّها محفوظة بدرجةٍ أقّل من جثّة غابرييل.

- *كنتُ أخشى أن أُدفَن في مقبرة عاديّة أكثر من هذه، من نوع تلك المقابر التي لا يأتي إليها الأحياء أبدًا لرؤيتك. ولكنّ مقبرة بير لاشيز هي الأكثر أناقةً، ألا ترى ذلك؟ نحن في صحبة موتى متميّزين. اتبعني.*

جعل إينياس ويلز نفسه دليلًا سياحيًّا لحفيده.

- *هنا، هذا قبر جيم موريسون، مغنّي فرقة ذا دورز، وهو القبر الأكثر زيارةً. يسرق بعض معجبيه بانتظام عظامًا من قبورٍ أخرى ليضعوها فوق قبره لكي يشيروا إلى أنه لن يضاهيه أيّ ميتٍ آخر أبدًا. ولكن لا تقلق، فمنذ بعض الوقت، نُصِبَت كاميرا مراقبة في المكان.*

- *أليس موجودًا في هذه الأنحاء؟*

- *هو شخصيًّا، من الناحية العملية لا أراه أبدًا. إنّه منهمكٌ على الدوام في حضور الحفلات الموسيقية. يحبّ على نحوٍ خاصّ موسيقى الروك الصاخبة. كان متعلّقًا جدًّا بموسيقى نيرفانا في فترة من الفترات؛ والآن أعتقدُ أنه يميلُ أكثر نحو أنماط أخرى من الموسيقى مثل موسيقى فرقة فان هالن.*

أخذ إينياس غابرييل إلى مكانٍ أبعد قليلًا.

- *هنا، لديك قبر ألان كارديك، مؤسّس العقيدة الروحانية في فرنسا. مثلما يمكنك أن ترى، بعد قبر جيم موريسون، هو القبر الذي يستقبل العدد الأكبر من الزوّار. يبقى القبر باستمرار مغطّى بالكثير من الأزهار.*

- *وبالنسبة إليه، هل هناك فرصة اللقاء به؟*

- *هو حاليًّا في البرازيل، حيث تكرّس له عبادةٌ حقيقية. مثل الكثيرين من بيننا، ذهب إلى هناك حيثُ ذكراه محفوظة على نحوٍ أفضل من البقاع الأخرى في العالم.*

ثمّ أشار إلى قبر الصحفي فيكتور نوار.

- *هذا هو القبر الوحيد الذي يُظهر نحته البرونزي انتصابًا لعضوه الذكري بعد الوفاة. كما ترى، منطقة القضيب تلمعُ بسبب بروزها: تستغلّ النساء عتمة الليل للجلوس عليه والاحتكاك به. آها، انظر، ها هي امرأة قادمة الآن.*

لمح غابرييل في الواقع امرأة تعتمر قبعة وتضع حجابًا جلست على قبر الصَحَفي وقلّدت حركات ممارسة الجنس معه.

قال إينياس:

- *من المفترض أنّ هذا يمنح المرأة الخصوبة.*

ثمّ قاد حفيده نحو قبور الكتّاب المشهورين: جان دي لا فونتين، موليير، أونوريه دي بلزاك، ألفريد دي موسيه، مارسيل بروست، أوسكار وايلد.

- *اعلم أنّه يمكن للمرء بصعوبة أن يحلم بأفضل جيرانٍ بالنسبة إلى كاتبٍ...*

وفي تلك اللحظة بالذات ظهر جيم موريسون، بشكلٍ استفزازي وبملامح عابسة بصرامة. رأى الرجلين ورفع كتفيه. ثمّ ذهب إلى قبره، قام بحركاتٍ مضحكة بوجهه ومدّ لسانه للكاميرا التي من المفترض أنّها تراقب منطقة قبره، ثمّ أمسك بقيثارةٍ متخيّلة ودندن بأغنية «ذا إند» لفرقة *ذا دورز*.

انبهر إينياس بهذه الحفلة الموسيقية المرتجلة التي لا يحضرها سواهما كليهما. استمع غابرييل إليه، ولكنّه بدا حزينًا.

سأله جدّه:

- *ألا تزالُ مهووسًا بنهايتك؟*

- *ألن تكون كذلك لو كنتَ في مكاني؟ حسنًا، وعدا إشاعتك «ابحث عن المرأة»، هل لديك إشاعة أخرى قد تساعدنا في العثور على قاتلي؟*

- *إنّها ليست إشاعة، بل هي معلومة إضافية وحدس.*

- *أنا أصغي إليك.*

- *شقيقك... هل تتذكّر حينما كنتما طفلين وكنتما تحاولان صناعة آلة للتحدّث إلى الموتى؟ ماذا كنتما تسمّيانها آنذاك؟*

- *نيكروفون.*

- *في الحقيقة لا أدري إن كانت لهذا علاقة مع حكايتك، ولكنني وأنا أحقّق في الأمر اكتشفتُ أنّ توماس بدأ منذ سنة بصناعة هذا الجهاز بالفعل. كما لو... أقصد ربّما أستنبط... كما لو أنّه كان يعلم أنّه سيحظى قريبًا بفرصة اختبار جهازه.*

- سوف أحدّث لوسي عن هذا الأمر. يجب أن تقوم باستجوابه.

- قبل هذا، سيكون علينا أن نعطيها بعض المعلومات عن حبيبها سامي داودي. أنا عائدٌ من تعقّبٍ في جنيف. أعتقد أننا سوف نعثر بسهولة على أثره هناك.

طارا باتجاه الجنوب الشرقي. في الطريق، فكّر غابرييل في أخيه التوأم. تذكّر كم كانا يحبّان بعضهما بعضًا سابقًا، ثمّ أصبحا يكرهان بعضهما بعضًا. تذكّر كم بقيا مرتبطين فكريًّا. تذكّر كم كانا دائمًا مختلفين ومكمّلين أحدهما للآخر في آنٍ واحدٍ.

«هل يمكن أن يكون توماس قد أراد موتي بكلّ بساطة لكي يحقّق واحدة من تجاربه العلمية؟»

عبرت فكرةٌ سخيفةٌ ذهنه في الحال:

«لكي ينجح أخيرًا في التحدّث معي حقًّا؟»

40. الموسوعة: مُبعِثُ الموتى

حاول علماءُ كثيرون إحياء الموتى باستخدام العلم. من بينهم جيوفاني ألديني، أستاذ الفيزياء في جامعة بولونيا وحفيد لويجي غالفاني، الذي اكتشف في عام 1780 أنّ أرجل الضفدع تتحرّك إذا ما تعرّض عصبها لصعقٍ كهربائي، وقد اخترع في أعقاب هذه التجربة جهازًا سُمّي غلفانومتر.

كان ألديني مقتنعًا بأنّ الكهرباء هي طاقة الحياة الشاملة، فقرّر أن يُحيي الجثث البشرية بفضلها.

قدّم تجارب توضيحية مذهلة خلال جولات في أكبر بلاطات أوروبا. انبهر إمبراطور النمسا بعروضه، فمنحه وسام التاج الحديدي برتبة فارس، وسُمّي عضوًا في أعظم أكاديميات العلوم المرموقة.

في الثامن عشر من يناير / كانون الثاني عام 1803، أجرى ألديني تجربة جعلته مشهورًا أمام الأعضاء البارزين في كلية الجراحين الملكية في لندن. وكدعمٍ لتجربته، أخذ جثّة جورج فورستر، الذي

كان في السادسة والعشرين من عمره، وهو قاتلٌ بريطاني حُكِمَ عليه بالموت بتهمة قتلِ زوجته وطفله. كان المجرم قد أُعدِمَ في سجن نيوغيت، ولكنّ جثّته أُخِذتْ تحديدًا من أجل تجربة ألديني.

أمام جمعٍ من الزملاء، وضع العالم أقطابًا كهربائية على يدي الجثّة وأرسلَ شحنة كهربائية. أدى هذا على الفور إلى فتح فم الجثّة وعينيها، مثلما أدى إلى حدوث بعض حالات الإغماء والذعر والتقيؤ وسط المشاهدين.

وبعد أن شعر بالرضا من إدهاش جمهوره، أراد ألديني تحقيق المزيد من المكاسب. أوصل قطبًا كهربائيًّا بأذن فورستر وأوصل آخر بشرجه. ثمّ زاد من شدّة الشحنة الكهربائية. فبدأت الجثّة تحرّك ساقيها وذراعيها في حركة تشبه رقصة واهية، تحت الأنظار المندهشة ومن ثمّ وسط تصفيق العلماء الإنجليز. وهذه التجربة هي التي ألهمت الروائية الإنجليزية ماري شيلي روايتها *فرانكنشتاين*.

ملاحظة: اسم فرانكنشتاين نفسه مستوحى من عالِمٍ آخر، وهو الطبيب جون كونراد ديبيل. وكان هذا الأخير قد ولِدَ في عام 1673 في قصر فرانكنشتاين، بالقرب من دارمشتات في ألمانيا. وفي سنّ مبكّرة جدًّا، حقّق اكتشافات مذهلة مثل أزرق بروسيا وزيت فرانكنشتاين الذي كان يُستخدَم في معالجة الصرع وكعلاج ضدّ الدودة الوحيدة. ألّف ديبيل سبعين كتابًا في الطبّ والكيمياء والبيولوجيا. كما أنّه شجب بشدّة البروتستانتية، الأمر الذي أدّى إلى اتّهامه بالهرطقة وسجنه. لدى خروجه من السجن، توجّه ديبيل نحو الخيمياء وكرّس أيامه المتبقيّة في محاولة نقل روحِ ميّتٍ إلى جسدٍ آخر. رغم السنوات العديدة من التجارب، لم يستطع إثبات نجاحه. ومع ذلك أكّد أنّه قد وجد اكسير الحياة الذي يتيح للإنسان أن يعيش مئة وخمسة وثلاثين عامًا. بعد سنةٍ من هذا التصريح، مات في السنّ الطبيعية البالغة ستين عامًا.

إدمون ويلز،
موسوعة العلم النسبي والمطلق، المجلّد الثاني عشر.

ينتصبُ التمثال الضخم للعالم الفرنسي رينيه ديكارت، مطرقًا في التفكير، في مدخل المختبر الفيزيائي للأمواج LPO. وقد نُقِشَ على لوحٍ في أسفل التمثال شعاره الشهير: «أنا أفكّر إذن أنا موجود».

استمتعت لوسي فيليبيني بقراءة هذه العبارة في هذا المكان العالي للعلم «الديكارتي» الباريسي. وبخطّ أصغرَ حجمًا، كانت علامةٌ توضّح: «أنا لا أفكّر إذن أنا موجود».

عبرت أوّل نقطة تفتيش باستخدام بطاقتها الشرطية المزوّرة، ثمّ وصلت إلى قسمٍ بدا واضحًا أنّه يحظى بإجراءات أمنية مشدّدة وطلبت التحدّث مع البروفيسور توماس ويلز، الذي وافق على استقبالها في مكتبه. كان يرتدي صدرية رمادية وتظهر في جيبه الأمامي عدّة أقلامٍ.

– مرّة أخرى، هذه أنتِ يا آنسة؟ مع أنّه قيل لي إنّ الشرطة هي التي تريد مقابلتك. قرّري إذن، هل أنتِ وسيطة روحية أم شرطية؟ إلّا إذا لم تكوني بالطبع لا هذه ولا تلك.

لم تنتظر إذنه لتجلس. شرحت له:

– من حسن الحظّ أنّك لم تقم بإجراء عملية حرق للجثّة. لقد تعرّض شقيقك التوأم بالفعل للتسميم بمادة معقّدة التركيب وصعبة الاستعمال. وبالتالي فإنّ قاتله خبيرٌ بالكيمياء.

– لم تجيبي على سؤالي: هل أنتِ شرطية أم وسيطة روحية؟

أجابت من دون أن تدع نفسها ترتبك:

– أنا امرأة تُريدُ أن تعرف الحقيقة حول موت غابرييل. ما الذي يعنيكَ في مهنتي؟

أخرجت ورقةً تحمل نتيجة فحص الدمّ.

– هل قتلتَه؟

– أنا؟ أقتلُ غابرييل؟؟؟ هل تعتقدين حقًّا أنّه كان بإمكاني أن أفكّر مجرّد تفكير في ذلك؟ فهو في النهاية أخي التوأم!

– لقد رفضتَ أن يُجرى تشريح الجثّة، وأردت أن تحرقها، وقد أتلفت مخطوط روايته الأخيرة... هذه أدلّة كثيرة على مشتبهٍ بهِ واحدٍ. هذا وأنا

لا أتحدّث عن الشهادات التي تقول إنّكما كنتما على صراعٍ دائم، وكنتما غيورين وعدوانيين بعضكما حيال بعض.

نظر إليها، مندهشًا، ثمّ انفجر ضاحكًا.

- منْ روى لكِ كلّ هذا؟

- لقد أجريتُ تحقيقًا صغيرًا.

- في العالم الآخر؟

لم تُجب. تنهّد بعمق، وهو يحاول بوضوح أن يستجمع أفكاره.

- هل كنتِ جادّة حينما قلتِ إنّه سُمِّم؟

عرضت الوصفة التي وصفها لها كراوس على أنّها وصفة السمّ القاتل. لاحظ توماس اسم المختبر الظاهر في أعلى الورقة.

- كراوس؟ هل لأنّه، علاوة على كلّ ذلك، صديقه فلاديمير هو الذي أجرى التحاليل على دمه؟ ليكن. لنتّفق. ربّما يكون بالفعل قد قُتِلَ.

- هذا السمّ يستغرق أربعًا وعشرين ساعة قبل أن يبدأ مفعوله، وهذه الحركة القاتلة نفّذَت عشية موت غابرييل. أي يوم عيد ميلادكما. والحال أنّك كنتَ قريبًا من كأسه أو من طبق طعامه عدّة مرّات في ذلك المساء.

- هل تعتقدين حقًّا أنّ القاتل هو أنا؟

مدركًا أنّها لا تنوي التوقّف عند هذا الحدّ، رفع سمّاعة الهاتف ليطلب من سكرتيرته ألا يزعجه أحدٌ خلال نصف ساعة على الأقلّ.

استأنف حديثه بنبرة هادئة:

- الآنسة فيليبيني، هل تعلمين من أكون حقًّا؟

وجوابًا على سؤاله، أطلقت لوسي تنهيدتها القصيرة المعتادة، واسترخت في الأريكة، واتّخذت وضعية الاستقبال.

-42-

«ولدَ شغفي بالفيزياء ذات يوم عطلة. كنتُ آنذاك في السابعة من عمري. كنتُ في عطلة وليس لديّ ما أفعله، ولكي أُشغِل نفسي، تسلّيتُ بممارسة قذف الحصى على سطح الماء لأشاهد ارتدادها.

في لحظةٍ ما، فشلتُ في تسديدتي ولم ترتدّ حصاتي. غاصت فجأةً في

الماء محدثةً دوائر لها نفس المركز مهما ابتعدت على سطح الماء. أمضيتُ وقتًا طويلًا في مراقبة التموّجات التي تنطلق من مكان اصطدام الحصاة بالماء، وأنا منبهرٌ انبهارًا حقيقيًا. بعد ذلك، ألقيتُ حُصيتين معًا ولاحظتُ أنّ حلقات الموجات، وهي تتلاقى، تتداخل.

كان هذا اكتشافًا؛ وانطلاقًا من تلك اللحظة، شغفتُ بالموجات. في البداية بموجات الماء، وبعد ذلك موجات الضوء، وأخيرًا موجات الصوت. كلّ شيء عبارة عن موجة، كلّ شيء مثل تلك الحصاة التي ألقيتُ بها في الماء وراقبتها.

حاولتُ أن أنقل شغفي بالموجات إلى أخي، ولكنّه كان مشغولًا للغاية بالحلم. كان أساتذته يدوّنون على وثيقة نتائجه المدرسية: «تلميذٌ دائم الشرود». أعتقدُ أنّ هذا ما كان يميّزه تمامًا. مع غابرييل، كيف أقول؟ كنّا مختلفين، ولكن كنّا أيضًا مكمّلين بعضنا لبعض. كان هو مثل ريشةٍ في مهبّ الريح، وأنا كنتُ متماسكًا. حينما كنّا صغيرين، كنّا قريبين بعضنا من بعض كثيرًا، مثل صديقين، ثمّ افترقنا في طريقين مختلفين. كنّا نتشاجر غالبًا، لأنّ آراءنا كانت متناقضة في كلّ شيء، ولكنّنا بقينا على اتّصالٍ مستمرّ.

كما تعلمين، كان أخي معجبًا بالممثّلة الأمريكية هيدي لامار لجمالها. أمّا أنا، فكنتُ معجبًا بها لذكائها. هل تعلمين أنّها هي من اخترعت نظامًا لتوجيه الصواريخ بالموجات؟ مستلهمًا من نموذجها، صنعتُ في سنٍّ مبكّرة جدًّا جهازًا في إطار استمرارية مشاريعها.

كان حلمي الأكبر اختراع جهازٍ يمكنه كشف كلّ الموجات، من أوسعها إلى أصغرها. تلتقطُ العين فقط جزءًا محدودًا من موجات الضوء؛ حتى إنّ القطّة تلتقطُ بعينها ضعفي عين الإنسان. نحن لا نلتقط الأشعة تحت الحمراء، ولا الأشعة فوق البنفسجية. والأمر نفسه بالنسبة إلى الأصوات: نحن لا نلتقط الموجات دون الصوتية ولا الموجات فوق الصوتية. في الواقع، نحن لا نرى سوى نافذة ضيّقة من العالم وقرّرنا أنّ هذه هي المنطقة الوحيدة للموجات المهمّة.

ومع ذلك، أنا على قناعةٍ بأنّ الموجات هي التي سوف تتيح إطلاق

العنان لإدراكنا وأنّ هناك معاني جديدة ينبغي اكتشافها. لا بدّ من فتح «أبواب الإدراك» التي ذكرها ألدوس هكسلي والتي استوحى منها جيم موريسون اسم فرقته (ذا دورز – الأبواب). أحبّ أن أتخيّل كيف سوف نستطيع، في المستقبل، أن نعرف عددًا لامتناهيًا من المعلومات التي نفتقر إليها اليوم. في الوقت الراهن، تُموّل أبحاثي من قبل الجيش، وأعمل على الموجات العريضة، على غرار الموجات الكونية، لكي ننجح في إرسال رسائل إلى الغوّاصات. هذا كلّ ما يهمّني، وليس المال أو الشهرة كما كانت الحال بالنسبة إلى أخي. ومع ذلك، كانت لنا في وقتٍ من الأوقات نفس الاهتمامات. كان يعلم كم أنا شغوفٌ بالموجات، فطلب منّي أن أخترع «كاشفًا لمتعة القراءة». تصدّيتُ للتحدّي وصنعتُ نموذجًا. كان النموذج عبارة عن جهازٍ يوصَلُ بوريدٍ لحساب نسبة الإندروفينات، وهرمونات المتعة، التي تتباين أثناء القراءة من شخصٍ لآخر.

اختبر جهازي على ما يقرب من عشرة طلّاب ولكنّ النتائج التي حصل عليها لم تكن تهمّ، بحسب رأيي، أحدًا سواه. فقلتُ له إنّ المشكلة هي أنّ الناس يشعرون بشكلٍ عامّ بالفخر بقراءة رواية صعبة ويشعرون بالخجل بقبولهم الاعتراف بأنّهم قد شعروا بالسعادة بقراءة رواية سهلة. ومن هنا يأتي نجاح الجوائز الأدبية وازدراء هذا النوع من الأدب. بالمناسبة، أنا نفسي أتجنّب هدر وقتي في قراءة الروايات البوليسية أو روايات الخيال العلمي، حتى وإن كنتُ أعلم جيّدًا أنني سوف أمضي وقتًا ممتعًا. أنا أفضّل أن أكرّس نفسي للمنشورات العلمية.

مع أخي، كنّا نحفّز بعضنا بعضًا: كنتُ أطرحُ عليه تحدّيات في المجال الأدبي وهو كان يطرح عليّ تحدّيات في المجال العلمي. «أتحدّاك أن تكتب حكايةً بطلها بكتريا الأمعاء!» «أتحدّاك أن تصنع جهازًا يكتشف الروائح الكريهة!»

كان يكتب في كلّ مرّة حكايةً متبعًا تعليماتي، وكنتُ أنفّذُ نموذجًا مطلوبًا. كنّا كنصفي الدماغ الأيمن والأيسر، نختلف بعضنا عن بعض ولكننا نكمّل بعضنا بعضًا في آنٍ واحد: يستغرق النصف الأيمن في العلم، في الأرقام والحقائق، بينما يستغرق النصف الأيسر في الحروف والخيال.

فـي المدرسـة، كنـتُ بالتأكيـد متفوّقًا عليه، فالنظام المدرسـي لا يشـجّع الحالميـن. وثـمّ، لأنّ غابرييل كان منطويًا على نفسـه وخجولًا، لم يكن لديه الكثيـر من الأصدقـاء ناهيك عن الصديقـات. ولكنّه وجد فـي النهاية مكانه، وأصبـح «راوي الحكايـات» في باحة الاسـتراحة. لقد رأيتـه بالفعل يتحوّل، مثل طائر قطرسٍ متردّدٍ وأخرق على الأرض، ولكن ما إن يفرد جناحيه، حتى يحلّق بأناقةٍ وسهولة. شجّعته العائلة بأكملها لأننا كنّا نريدُ أن نراه يحلّق عاليًا.

وسـرعان مـا أصبح لديه آنـذاك بعـض المنتقدين، وهم بعض الأسـاتذة الذيـن لـم يكونوا يحبّـون الحكايات المرعبـة المليئة بالوحـوش ومصاصي الدمـاء والمخلوقات الفضائية والموتى - الأحيـاء... كان في الواقع يزعج الكثيـر من النـاس. وفي مرّات عديـدة، اعترض طريقه زعمـاء العصابات أو ببسـاطة بلطجية لكي يحطّموا وجه «الرجل الذي يروي ترّهات». اسـتطعتُ فـي بعض المرّات أن أحميه. وفي مرّات أخـرى حينما كنتُ أصل متأخّرًا لم يكـن في وسـعي أن أفعل سـوى تضميد جراحه. لـو نظرنا إلى الـوراء، ربّما سـأقول إنّ الاعتـداءات عليه جعلته يعاني على نحوٍ أشـدّ مـن البارانويا ممّا كان عليـه في طبيعته. وبالتالي جعلته أيضًا مبدعًا، لأنّ البارانويا أرغمته على البحـث عن ثغرات في خياله وقد غذّى هذا أعماله الأدبية. لطالما عدّ نفسـه غيـر مفهومٍ من الآخريـن؛ وأعتقد أنّ هذا هو ما منحه الرغبة في كتابة قصصٍ عن أناسٍ يُساء فهمهم ويستطيع القرّاء أن يتعرّفوا على أنفسهم فيها.

حينمـا كان صحفيًّـا ويتحـدّث لـي عن تحقيقاتـه، كنتُ أشـجّعه على أن يسـتلهم منهـا قصصًـا لكي يكتب رواياتٍ. لم يكـن ليدَعوه قط أن ينشـر ما اكتشـفه، ولذلك كان من الأفضل أن يقدّم ذلك على شـكل سـردٍ خيالي. في الواقـع، كنـتُ أنا أوّل من يدفعه ليصبح روائيًّـا بدل أن يقضي عمره كصحفي تحـت قبضـة رئيـس تحريرٍ ضيّـق الأفـق. ومثلما كنتُ أردّد على مسـامعه، المفارقـة الكبـرى هـي أنّ الحقيقة تكمن فـي الروايات، والكذبـة تكمن في الصحف. لقد ساندته وزوّدته بالمعلومات. في العديد من تحقيقات الملازم البجـع تتجلّـى أبحاثي ونقاشـاتنا. ولكـن حينمـا أراد أن يكتـب روايةنحن *الموتـى*، أخبرتـه أنّ هذه فكرة سـيّئة. أتذكّر أنّنا ذكرنا حالـة هوديني ودويل. كان دويل، المبتكر الشـهير لشخصية المحقّق شـيرلوك هولمز، على صداقة

وثيقـة مـع هوديني، الأسـتاذ الكبيـر لفنّ الوهـم. ولكنّ الأوّل أصبـح نصيرًا لممارسـة طقوس الموائد الدوّارة الروحانية في حين انطلق الثاني إلى حربٍ صليبيـة ضدّ انتهـاكات الروحانيين. انزعج الصديقـان بعضهما من بعض في النهاية إلى أن أصبحا ألدّ الأعداء. كنتُ أنا هوديني، وكان هو دويل.

كانـت رواية *نحن الموتى*، بحسـب توقّعاتي، فشـلًا، لكـن أخي، بدل أن يستنتج من ذلك أنّ عليه أن يكتب كتبًا أكثر جدّية، اعتقد أنّه ضحيّة سوء فهم وسـائل الإعـلام. لقد منعه ذُهانـه الهذياني المرضي مرّة أخـرى من الحفاظ علـى هدوئـه. في تلك الفترة، ابتعدنـا بعضنا عن بعض قليـلًا، إلى درجة أنّنا لم نرَ بعضنا بعضًا قط خلال سنوات عديدة. الأمر الذي لم يمنع من أن نبقى دائمًا على تواصلٍ، وبطريقةٍ ما كان نجاحه نجاحًا لي إلى حدٍّ ما. ممّا لا شكّ فيـه، كنتُ أحبّه؛ فـي الواقع، كنتُ أحبّـه مثلما يحبّ زوجـان بعضهما بعضًا ويتشـاجران في بعض الأحيان. حينما علمتُ بموته، لم أرد أن أصدّق ذلك، واعتقـدتُ أنّه يعاني فقط من وعكة أو في أسـوأ الأحوال من سـكتة دماغية. كنـتُ مقتنعًـا بأنّه سـيتمّ إنقـاذه، ولكـن حينما رأيته فـي درج الثلّاجـة، مزّق ذلك قلبي. وأنا أشـعرُ منذ ذلك الحين بأنني لسـتُ كاملًا. أفكّر فيه كلّ ثانية. وسأخبركِ، يا آنسة فيليبيني، إذا كان قد قُتِلَ كما تدّعين، أريدُ أن أكون أوّل من يساعدكِ على إيجاد الشخص الحقير الذي فعل بي «أنا» هذا».

حدّقت لوسي فيه بثبات.

– لم تُجب على سؤالي: لماذا رفضت أن يتمّ تشريح جثّته؟

– تكرارًا لاسـتعارة الذراع اليمنى، لم أكن أرغب في أن يتمّ بتر جزءٍ حيّ من جسدي.

– ولماذا أردتَ حرق جثّته؟

– حينمـا أدركـتُ أنّه مات بالفعـل، تمنّيتُ أن يختفي. ليس لديّ تفسـيرٌ منطقـي لأقدّمه لكِ، إلّا إذا كنتُ لم أشـأ أن يتعفّن هذا الامتداد لجسـدي في علبةٍ تُدفن على عمق ستة أقدامٍ تحت الأرض.

– وما الذي غيّر رأيك؟

تمالك الجملة التي كان سينطق بها وراح يجلب لها كأسًا.

- هـل يمكننـي أن أقدّم لكِ قليلًا من الشـاي الأخضر بـالأرزّ المنقوع؟ حتـى وإن كنتُ ديكارتيًـا، يحدثُ لي أيضًا أن أحلم. وربّما سـوف أفاجئكِ، ولكننـي أولـي الكثيـر من الاهتمـام بأحلامـي. في المسـاء الـذي تلا موت غابرييل، راودني شعورٌ بأنّه كان يتكلّم معي. وهل تعلمين ما الذي قاله لي؟

- طلب منك ألّا تحرق جثّته؟

- ليس هذا فحسب. أخبرني أنّ عمله كان كاملًا وأنّه لم يُنجِز تمامًا *إنسان الألـف عـام*. هو مـن دلّني كيف يمكـن إتلاف الملفّ في حاسـوبه والنسـخة الاحتياطية. بالطبع، ألكسـندر دي فيلانبروز لا يفكّر سوى بالمال الذي يمكنه جنيـه مـن هذا العمـل الجديد غيـر المسـبوق، أمّا أنا فكنـتُ بالفعـل أفكّر في الحفاظ على تماسـك العمل الذي سوف يخلّد غابرييل. سانت أكزوبيري هو أيضًا لم ينهِ عمله الأخير، *القلعة*، وقد نُشِر هذا العمل كيفما كان فقط لمصلحة الناشر. لقد فعلتُ ما اعتبرته الأكثر احترامًا لذكرى أخي الحبيب.

- هل قرأته؟

- كلّا، ولكننـي أعلم أنّه كان قد كتب مسـوّدة كاملة لـم يكن راضيًا عنها وأتلفها كاملةً. وهذه النسخة الأخيرة جعلته أكثر ارتيابًا. وأنا أفهمه على نحوٍ أفضـل لأنني كنتُ قد شـاركتُ في جمـع الوثائق التي اعتمد عليها كأسـاسٍ لعمله. وكنتُ قد حدّثته على نحوٍ خاصّ عن فأر الخلد العاري، هذا الحيوان الغريـب الـذي يعيش في إثيوبيـا، تحت الأرض، مثل نملةٍ. هـذه الحيوانات منتظمـة تنظيمًـا اجتماعيًـا، مع ملكـة، وتتّسـم بخصوصيّة القـدرة على عدم الإصابة بأيّ نوعٍ من أنواع السرطان أو الالتهاب. إنّها منيعة أمام كلّ الأمراض وتعيش عشرة أضعاف عمر الثدييات الأخرى.

دوّنت لوسي المعلومة في مفكّرتها.

- كان هذا سـرّ *إنسـان الألف عام*: اسـتخدام المعطيات العلمية ليجعل منها رواية خيال علمي. حدّثته أيضًا عن الأكسـولوتل، السَمَندل المكسيكي الذي يتمتّع بقدرات عجيبة تتمثّل في أنّ أطراف جسـمه بما فيها الدماغ تنمو من جديد إذا ما بُتِرَت.

- الأكسولوتل؟ كيف تكتبُ هذا الاسم؟

قام بتهجئة أحرف الاسم ثمّ أردف:

- كانت فكرتي العلمية الثالثة والأخيرة لتقديم المادّة لروايته *إنسان الألف عام* هي سلحفاة غالاباغوس، التي تتّسم بأنّها لا تشيخ. إنّها تكبر ولكنّها لا تموت إلّا إذا قُتِلَت.

- يؤسفني أن أخبركَ، ولكن يبدو أنّ هذا شيءٌ مثير. كان سيهمّني كثيرًا أن أقرأ هذا الكتاب.

- المشكلة هي أنّ الحبكة لا تصمد. لقد تجاوز الموضوع إمكانات غابرييل. أو بالأحرى تجاوزت وثائقي إمكاناته. كنتُ قد أعطيته هذه الأفكار الثلاث لكي يستفيد منها، ولكنّها كانت بالنسبة إليه كجمرات حارقة لم يُحسن معالجتها. كان معتادًا على أن يعيد على الأقلّ عشر مرّات حبكات رواياته قبل أن يجد الحبكة المناسبة، منطلقًا في كلّ مرّة من الصفر. والحال أنّه لم يكن راضيًا تمامًا من هذه الرواية؛ لم تبدُ له أنّها قد «نضجت» بعد. وقد حدّثني عن هذه النقطة بوضوح.

هزّت الوسيطة الروحيّة رأسها. لقد طرحت الأسئلة التي أرادت أن تطرحها عليه، ولكنّها لم ترغب في الرحيل.

- لقد حان دوري لأعرف عنكِ القليل، يا آنسة فيليبيني. قبل كلّ شيء، هل نمتِ معه؟

ابتلعت لوسي جرعتها من الشاي بشكلٍ خاطئ وسعلت.

- لا! كيف خطرت هذه الفكرة على بالك؟!

- لقد أخبرتِني أنّكما كنتما صديقين، وأنا لا أدري متى التقيتما، ولكن لمعرفتي بانبهار غابرييل بالممثّلة هيدي لامار ونظرًا للشبه بينكِ وبينها، يبدو لي أنّ هذا الأمر محتملٌ تمامًا.

نهضت كما لو أنّها أرادت أن تضع حدًّا للنقاش.

- حسنًا، سؤالٌ ثانٍ: بصفتكِ... «وسيطة روحيّة»، ألا تزالين على اتصالٍ معه؟

- في الواقع، يحدث لي أن أتحدّث معه.

- غالبًا؟

- كلّ يوم.

- إذن هل هذا يعني أنّه لم يختف تمامًا؟
عادت لوسي فيليبيني لتجلس وأمسكت بمكعّبٍ من إناء السكّر.
- هذا سكّر، هل توافق على ذلك؟
ألقت به في كأسها ونظرت إليه يذوب في الماء الساخن للشاي خاصّتها.
- إذن الآن دعني أطرح عليكَ سؤالًا: هل اختفى السكّر؟
أُعجب توماس بالتجربة وحثّها بحركةٍ على المضي قدمًا.
- الجواب هو كلا. لقد تغيّر شكله فقط. لقد تحوّل من حالة المكعّب الصلب الأبيض إلى الحالة السائلة المخفّفة الشفّافة. وهناك حاسةٌ تسمح بالإحساس به: حاسّة الذوق. إذن، تنتقل الروح بنفس الطريقة من الحالة الملموسة من خلال العينين إلى الحالة اللاماديّة التي يرصدها فقط أولئك الذين طوّروا شكلًا آخر للإدراك.
- يجب أن أعترف أنّ هذه استعارة مجازية جميلة.
التزمت لوسي الصمت بضع ثوانٍ، وهو الوقت الذي تذوّقت فيه باستمتاع كوبها من الشاي.
- أنا أعرف أنّك لا تؤمن بالأشباح ولا بالبابا نويل، ولا بالتنجيم وأنّ...
قاطعها:
- وحدهم الأغبياء لا يغيّرون رأيهم. أنا رجلٌ أؤمن بالعقل، ولكنني أيضًا قادرٌ على مراجعة أفكاري.
- ما الذي قد يجعلك تغيّر رأيك؟
حدّق فيها بثبات.
- أن يكرّس كائنٌ بشريٌّ الكثير من الوقت والطاقة في حلّ سرّ الموت، فهذا لأنّ هناك سببًا محدّدًا. والحال أنّكِ لا تبدين مجنونة. نحن إذن أمام امرأة جميلة جدًّا تدّعي أنّها وسيطة روحية حصلت على بطاقة مزوّرة للشرطة لكي تتمكّن من مقابلة رجل تعتقدُ مسبقًا أنّه على عداءٍ مع أفكارها. يبدو لي أنّ هذا يكفي لأن أفكّر على الأقل في أن أعيد النظر في مواقفي.
- إذا كنتَ لست أنت منْ قتله، تعتقد منْ عساه يكون القاتل؟
- بحسب رأيكِ، أنا المستفيدُ من الجريمة. إذن سأعيد طرح السؤال

عليكِ: مَنِ المستفيد «حقًّا» من الجريمة؟ والجواب هو: ناشره هو المستفيد. كتب أخي رواية جديدة تحت عنوان: «مجدُ ما بعد الموت». إنّها حكاية كاتبٍ مغمورٍ، ولكنّ موته المُعلَن خطأً في الصحافة جعله يشتهر بعد وفاته. أعاد الناشر من جديد نشر كلّ أعماله التي تصدّرت قائمة أعمال المشاهير. أراد الكاتب أن يكشف عن أنّ هناك خطأً وأنّه على قيد الحياة، ولكنّ ناشره نصحه بعدم إضاعة هذه الفرصة. امتثل الكاتب لنصيحته، واستمرّت نسب المبيعات بالتصاعد. ذات يوم، ولأنّ الكاتب لم يعد قادرًا على البقاء مختفيًا وتهيّأ لكشف كلّ شيء للصحفيين، انتهى الناشر إلى أن... قتله بالفعل.

– هل حقًّا كتب غابرييل هذا؟

– كان نصًّا تنبؤيًّا، بحسب رأيي. إذا ما عدنا إلى الوراء، يمكننا القول إنّ لأخي مصيرًا مثاليًّا: الشهرة والمال والموت من دون أن يشيخ.

– ولكنّه مع ذلك كان يشعر بأنّ الآخرين لا يفهمونه.

– لقد سألته ذات يوم إن كان من الأفضل له أن يكون كاتبًا موهوبًا يُقلّلُ من شأنه أو كاتبًا يفتقدُ الموهبة يُعظّم من شأنه. انفجر ضاحكًا وأقرّ بأنّه في النهاية لن يستبدل مكانته بمكانة أغلبية الكتاب الرائجين، حتى وإن دخلوا إلى الأكاديمية الفرنسية أو نالوا جائزة غونكور.

نقر على لوحة مفاتيح حاسوبه وفتح صفحة إخبارية.

– تعالي وأُنظري. لا يقف ألكسندر دي فيلانبروز مكتوف اليدين. حينما أدرك أنّه لن يستطيع تحرير ونشر رواية *إنسان الألف عام*، أعاد تحرير ونشر رواية *نحن الموتى*. ونتيجة لذلك، هذا الكتاب الذي فشل فشلًا ذريعًا لدى صدوره يحتلّ الآن المرتبة الثالثة في قائمة الكتب الأكثر مبيعًا. بالنسبة إلى ناشرٍ، «الكاتب الجيّد هو الكاتب الميّت»، صدّقيني. ثمّ إذا كنتِ لا تزالين تحملين بعض الشكّ، أُنظري.

أطلع لوسي على صفحةٍ أخرى كان عنوانها يمتدّ بالأحرف العريضة في أعلى الشاشة:

«أريدُ أن أخترع الكاتب الافتراضي للمستقبل».

– جاء الخبر العاجل فيما بعد. أعلن ألكسندر دي فيلانبروز أنّه سوف

يُطلق مشروعًا يهدف إلى صناعة برنامج للحاسوب باسم غابرييل ويلز الافتراضي، لكي يكتب هذا الأخير رواية *إنسان الألف عام* باسمه.

كانت لوسي منشغلة بقراءة المقالة عندما سألها توماس فجأةً:

– وددتُ لو أنني قابلتكِ في ظروفٍ أفضل لكي أساعدكِ في تحقيقكِ واكتشاف عالم الأرواح هذا الذي لا أعرف الكثير عنه. هل يمكننا التفكير في أن نذهب إلى المطعم معًا ذات يوم، يا آنسة فيليبيني؟

43. الموسوعة: دويل وهوديني، الكاتب الروحاني والساحر الارتيابي

ولِدَ دويل عام 1859. بعد دراسته الطبّ، سرعان ما اشتهر بفضل روايته الأولى التي أبرزت شخصية المحقّق شيرلوك هولمز: «دراسة في اللون القرمزي». لقد نجح في خلق نمط جديد من الشخصية القادرة على حلّ الألغاز فقط من خلال مراقبة التفاصيل التي تبدو تافهة.

وفضلًا عن ذلك، شارك كونان دويل شخصيًا في تحقيقات بوليسية. بل وسمحت ملاحظاته واستنتاجاته بتبرئة شخصين محكومين: جورج إيدالجي، وهو رجلٌ هندي أُدين بتهمة الابتزاز، وأوسكار سلاتر، وهو يهوديّ ألماني أُدين بتهمة ارتكاب أعمال عنف.

بعد أن عرف شهرة سريعة، ملّ من بطله الذي أماته عام 1893 في الرواية التي عنوانها «المشكلة الأخيرة». اغتيلَ شيرلوك هولمز، ثمّ أُلقي به في شلالات ريتشينباخ من قبل عدوّه الدائم، البروفيسور موريارتي. ولكنّ الجمهور تصرّف بعدوانية حيال موت المخبر، إلى درجة أنّ ملكة إنجلترا اضطرّت للتدخّل شخصيًا لكي يعيده دويل إلى الحياة. وهكذا ظهر من جديد في رواية *كلب آل باسكرفيل*، التي نُشرَت عام 1901.

كان كونان دويل الذي درس في مدرسة كاثوليكية إسكتلندية قد تخرّج منها مرتابًا حيال الدين. بيد أنّ أحداثًا مرعبة ضربته: ماتت زوجته الأولى لويزا بمرض السلّ عام 1906؛ ومات ابنه كينغسلي بنفس المرض عام 1908؛ ومات شقيقه الأصغر من جرّاء التهابٍ رئويٍّ وفقد

شقيقَي زوجته وابنَي أخيه خلال الحرب العالمية الأولى. أدخلت كلّ هذه الأحزان دويل في مرحلة طويلةٍ من الاكتئاب. فاستدار نحو الحركة الروحانية لكي يحاول التواصل مع الاعزّاء الذين فقدهم، ومغامرات شيرلوك هولمز التي تلت هذه الفترة المروّعة تحمل علامة هذا الموضوع الذي استحوذ عليه. في روسيا، مُنِعَت هذه الكتب لكونها عُدّت «ترويجًا للسحر والتنجيم». وحينئذٍ غيّر لقاءٌ حياته: لقاء هاري هوديني.

كان هوديني، المولود عام 1874 في بودابست لعائلة يهودية ملتزمة، قد أصبح نجمًا في الولايات المتحدة الأمريكية كساحر. وكان قد بدأ مهنته كساحر يقدّم العروض في المعارض، ثمّ لاقى نجاحًا متعاظمًا في عروض الفرار المعقّدة: فقد حرّر نفسه على سبيل المثال خلال ثلاثين دقيقة من سجن شيكاغو بفضل المفاتيح الرئيسية المخبّأة في المري، وهي تقنية تعلّمها من أحد بالعي السيوف. كان كونان دويل منبهرًا جدًّا بالساحر الأمريكي الذي اعتقد أنّه موهوبٌ بقدرات خارقة فعلية. ولكن إذا كان كونان دويل يفكّر في النجاح في التحدّث إلى أقاربه المتوفين، خلص هاري هوديني، الذي كان قد فقد والدته الحبيبة عام 1913، بعد عدّة محاولات غير ناجحة في التواصل معها، إلى أنّ أولئك الذين ادّعوا التحدّث إلى الموتى كانوا جميعًا دجّالين.

وهكذا، في حين أصبح الأوّل روحانيًّا، شنّ الثاني حربًا مقدّسة لدحض الروحانية. منذ عام 1920، أجرى هوديني سلسلة من الاختبارات للتنديد باحتيال وتضليل الوسطاء الروحيين: كان يربط أيديهم وأقدامهم ويضعهم أمام تحدّي تقديم عروضهم وهم مقيّدون بهذه الطريقة. لم ينجح أحدٌ منهم. فكرّس هوديني منذ تلك اللحظة ثروته ووقته للكفاح ضدّ الروحانيين المحتالين الذين نجح بسهولة في فضح أمرهم وجعلهم محطّ سخرية.

استاء دويل من مطاردة السحرة هذه، وأصبح الرجلان، اللذان كانا إلى تلك اللحظة صديقين مقرّبين، عدوّين لدودين. من جانبه، تلقّى هوديني تهديدات متزايدة بالقتل من روحانيين وثيوصوفيين. في النهاية، منْ أصبح فيما بعد الساحر الأكبر عبر كلّ العصور مات يوم

الهالوين عام 1926، في سنّ الثانية والخمسين، بلكمة عنيفة على بطنه أدّت إلى نزيفٍ داخلي. صعد الساحر، الذي لم يشأ أن يتخلّى عن عروضه، إلى المسرح رغم درجة حرارة جسمه التي بلغت أربعين درجة. مات غرقًا أمام جمهوره، وهو الذي، لخدعته السحرية، كان قد قيّد نفسه بسلسلة وغاص في الماء. والحال أنّ هوديني، تحسّبًا لوفاته، كان قد أبرم اتّفاقًا مع زوجته بيس، وقال لها: «إذا متُّ، عليكِ أن تجمعي أفضل الوسطاء الروحيين كلّ عام في يوم ذكرى وفاتي. إذا ما تحوّلتُ إلى روحٍ هائمة، سوف أعود وأخبركِ بكلمتين مقتبستين من أغنية إنجليزية قديمة – «Rosabelle Believe». إذا ما لفظهما أحد الوسطاء الروحيين، فهذا يعني أنّ دويل كان محقًّا وأنني سوف أستطيع التحدّث إليكِ من العالم الآخر». خلال السنوات العشر التي تلت وفاة هوديني، احترمت زوجة الساحر رغبة زوجها، من دون الحصول على أيّ نتيجة حاسمة. في يوم الذكرى العاشرة لوفاته، صرّحت: «لم يظهر، لقد تبخّر أملي الأخير. ليلة سعيدة، يا هاري».

أمّا كونان دويل، فقد مات علم 1930 بأزمة قلبية في سنّ الحادية والسبعين من دون أن يتوقّف أبدًا عن كونه روحانيًّا وعن الدفاع عن القضية الروحانية.

إدمون ويلز،
موسوعة العلم النسبي والمطلق، المجلّد الثاني عشر.

-44-

بعد أن اكتشف مباهج الطيران البهلواني، تعلّم غابرييل ويلز مع جدّه الطيران لمسافات طويلة وبسرعة عالية. كان عصفورًا دوريًّا، باشقًا، نورسًا وها هو يصبح الآن قطرسًا، يمدّ وجهه إلى الأمام ليشقّ الهواء، الذي لا يشكّل بالنسبة إليه ريحًا ولا يشعر باحتكاكه. وكي لا يضيع، اتّبع خط القطار السريع باريس – ليون.

قال إينياس ويلز:

- في هذه اللحظة، نطير بسرعة تفوق ثلاثمئة كيلومترٍ في الساعة.

- ما هي حدود سرعتنا، يا جدّي؟

- لا حدود لها. حينما نكون روحًا هائمة، نسافر بسرعة التفكير. لا شيء يكبحنا.

- لماذا إذن لا نسافر فورًا؟

- في الوقت الراهن، تفكيرنا ليس مستعدًّا لتقبّل هذا. بالنسبة إلينا، الانتقال من النقطة س إلى النقطة ع لا بدّ أن يتجسّد بانتقالٍ جغرافيٍّ.

- وإلّا سنكون معرّضين لخطر الفصل؟

- على الأرجح. على أيّ حال، لم أرَ قط أيّ شبحٍ يحاول القيام بالتجربة.

رأيا مدنًا وقرى وبلدات تمرّ من تحت بطنيهما.

قال غابرييل وهو يُزيدُ من سرعته، وجدّه يتبعه:

- هل يمكننا إذن من الناحية النظرية أن نتقدّم بسرعةٍ أكبر؟

- تتضاعف متعة الطيران بحقيقة أنّ ليس هناك أدنى خطر في التعرّض لحادثٍ أو السقوط على الأرض.

- أنا أعشق الطيران، يا جدّي، أنا بالفعل أعشق هذا!

عبرا جبال الألب وهما يتبعان القطار في نفقٍ ووصلا إلى سماء مدينة جنيف التي كانت شوارعها تعجّ بالمشاة وتشهد ازدحامًا مروريًّا خانقًا.

- والآن، ماذا سنفعل لتقفّي أثر سامي داودي؟ هل سنبحث أيضًا عن مدمنٍ على الكحول؟

رأيا مفوضيّة شرطة جنيف المركزية، وبعد أن زارا عدّة مكاتب، عرفا قسم المعلوماتية. فانطلق غابرييل وجدّه يبحثان عن أحياء من ذوي الهالات الأكثر امتلاءً بالثقوب.

وجدا أحدهم.

- وها هو الصدع في القلعة. هذا الرجل لديه غلافٌ غازيٌّ؛ إنّه مصفاةٌ حقيقيّة!

- كيف حدث هذا؟

- إنّه مصابٌ بالانفصام في الشخصية. حان دورك الآن لتلعب دورك!

عاين غابرييل الشخص عن كثب، متفحّصًا كلّ بقعة، كلّ ثقب، كلّ ثغرة تسريبٍ في السحابة البخارية المضيئة المحيطة به. اختار الفتحة الأقرب إلى قمّة جمجمته ودسّ فيها إصبعًا.

حينما أحسّ بدماغ الرجل، جعله هذا يشعر بشعورٍ غريب، كما لو أنّه اتّصل بمصدر تيارٍ كهربائيٍّ غير مستقرٍ.

طلب منه إينياس أن يستعجل. فحثّ غابرييل، على غرار ما رأى جدّه يفعل، الشرطي السويسري على أن يشغّل حاسوبه، وهو يشعرُ بأنّه يمسكُ بيده طفلًا يطلب منه أن يُريه ألعابه.

ركّز غابرييل وطلب منه البحث في الملفّات عن اسم سامي داودي. فظهر ملفٌّ. قرأ على الصورة كلمة «مفقود». أشارت بضعة أسطرٍ إلى أنّ هذا الشخص هو جزء من قائمة لفرنسيين دخلوا إلى الأراضي السويسرية ولم يخرجوا منها قط ولا وجود لهم في كلّ الملفّات الإدارية أو المصرفية.

كان الأثر الأخير الذي تركه سامي داودي في عيادة إيدلفايس في جنيف التي نزل فيها مساء وصوله إلى سويسرا. ولأنّه لم يرتكب جنحةً ولم يقم أحدٌ بالبحث عنه للعثور عليه، لم يكن هناك المزيد من المعلومات بشأنه.

- هل سبق أن سمعتَ عن عيادة إيدلفايس، يا جدّي؟

- بالطبع، في هذه العيادة يُجري كلّ النجوم عمليات التجميل. بل أعرف مكانها. تعال، اتبعني.

غادرا المفوّضية المركزية وحلّقا على طول الضفة الشمالية لبحيرة ليمان ليصلا إلى فندقٍ يعود إلى القرن الماضي محاطٍ بحديقةٍ واسعة. كانت الحديقة بدورها مسيّجة بجدارٍ تعلوه أسلاك شائكة، ومحروسة بكلابٍ مدرّبة ومحميّة بلوحات عليها عبارة «ممنوع الدخول».

عبرا الجدار الخارجي ووصلا إلى عتبة العيادة التي كان بابها مزيّنًا بزهرة بيضاء تمنحها اسمها. كانت هناك عبارة أخرى، «**كتمان الهويّة مضمون**»، ويبدو أنّها لطمأنة النزلاء.

قال غابرييل بقلق:

- سوف نلقى صعوبة في العثور على أثر سامي داودي هنا.

- هـذه عيـادة، وبالتالـي لا بـدّ أن يكـون فيهـا بعـض الموتـى الذيـن سيستطيعون تزويدنا بالمعلومات.

اكتشـفا المشـرحة. كان ما يقرب من عشـرين روحًا هائمة ترفرف تحت السقف مثلما يرفرف البعوض حول مصباحٍ.

قال إينياس:

- اعذرونـي على إزعاجكم، أيّها السـيّدات - السـادة. هل هناك بينكم منْ كان حيًّا قبل تسـع سـنوات وربّما يتذكّر رجلًا كان قـد وصل إلى هنا يوم الجمعـة المصادف الثالث عشـر من أبريل / نيسـان؟ رجـلٌ طويل القامة ذو شعرٍ أسود، خجولٌ بعض الشيء.

سأل أحد الإكتوبلازمات، ساخرًا:

- هل تعتقد فعلًا أنّ هذا سيكفي لكي نتعرّف عليه؟

- كان يردّد غالبًا عبارة «إذا كان هذا لا يزعجك».

- قبل كلّ شيء، لماذا سنساعدكما؟

- لأننا على صلة مميّزة مع وسيطة روحية.

- وماذا تفعل وسيطتك الروحية؟

- يمكنها تقديم مقترحات بالتناسخ في أجنّة راقية.

لم يبدِ الآخرون اهتمامًا بما قاله.

قال غابرييل، محبطًا من انعدام التضامن بين الأرواح الهائمة:

- لا يبدو أنّ هذا الكلام يحفّزهم.

تقدّم رجلٌ شابّ.

- أنـا أتذكّـر رجـلًا ربّما يتطابـق مع وصفك لـه. أجرى عمليـة تجميلية لوجهـه لتغييـر ملامحه. كما أنّه غير اسـمه. وبدأ يُطيل لحيتـه. رجل لطيفٌ، متحفّـظٌ بعض الشـيء. فـي الحقيقـة كان يردّد طيلـة الوقت عبـارة *«إذا كان هذا لا يزعجك»*. *ولكنني لن أفصح لك عن اسـمه إلّا بشـرطٍ واحدٍ: أودّ أن تستخدم صديقتك الوسيطة الروحية لكي تشفع لي، ليس في العالم العلوي، بل في العالم السفلي.*

انعزلت الإكتوبلازمات الثلاثة لكي تتحدّث بعضها مع بعض من دون أن يسمعها الآخرون. استأنف الشابّ حديثه:

– يجب قبل كلّ شيء أن أروي لكما كيف وصلتُ إلى هنا. كان عمري تسعة عشر عامًا وأسير بهدوء بسيارتي في طريقٍ خارجي عندما ظهرت مركبة وهي تناور لكي تتجاوزني، قبل أن تسدّ عليّ الطريق وتصدمني. سقطت سيارتي في وادٍ وتدحرجت عدّة مرّات واشتعلت النيران فيها. ولأنني حوصرتُ في السيارة بحزام الأمان، احترقتُ حيًّا. وصل رجال الإنقاذ بما يكفي من السرعة لإنقاذي ونقلوني إلى هذه العيادة التي تضمّ قسمًا خاصًّا لمعالجة الحروق الكبيرة. بقيتُ على قيد الحياة ثمانية أشهرٍ. خفّت آلامي بفعل جرعات المورفين القويّة، ولكنني مررتُ بلحظاتٍ من الصحو. وهنا التقيتُ صديقكما. في ذلك الحين، كنتُ أحتضرُ ببطء، وكنتُ أتألمُ ألمًا فظيعًا.

قال إينياس، مواسيًا:

– هل قدّموا لك الرعاية العقيمة؟ يا لهم من أوغاد!

هزّ الشابّ رأسه وواصل:

– السائق الذي صدمني، بالمقابل، لم يُصب بخدشٍ. أوقِف من قبل رجال الدرك الذين أجروا له اختبار الأنفاس فتبيّن لهم أنّه كان مخمورًا في لحظة وقوع الحادث. كان من ذوي السوابق، وقد سبق له أن دهس رجلًا وهو ثمل. ولكنّ محاميه كان قويًّا جدًّا: فقد أنقذه بحكمٍ مخفّفٍ بالسجن مدّة ثلاثة أشهر مع وقف التنفيذ مع سحب رخصة القيادة مدّة ستّة أشهر لكن لم يتمّ التقيّد بها.

– هل تُريد أن ننتقم لك؟

– ليس هذا هو ما يهمّني. بعد موتي، شكّلت أمّي لجنة مساندة لكي يُعاقَب بعقوبةٍ أشدّ وخاصّة لكي يُمنَع من تكرار ما فعله. لقد حشدت ما يقرب من عشرة متطوعين لا يزالون يواصلون حتى يومنا هذا توزيع منشورات، وضاعفت عدد المشاة، وتقضي وقتها في السعي إلى مقابلة رجال السياسة لكي تكسب القضية.

– هذه محاولة جيّدة، أليس كذلك؟

– كلّا، والدتي تعيسة. وأنا أحبّها. ينهشني ما يذكّرها «بقتلي على يدِ مجنونٍ خطير». يستحوذ هذا السائق عليها تمامًا ولا تكفّ عن التفكير فيه، ولم تعد

تنام. تكـرّس ثلاثة أرباع وقتها لهذه القضيّة. لقد انهار والدي وهجرها. يعدّها كثيرون امرأة متطرّفة في كفاحها ضدّ الكحول وقيادة السـيارة. لم أعد أريدُ أن تتعذّب بسـبب موتي. سوف أعطيك اسمها وعنوانها. أودّ أن تذهب وسيطتك الروحيـة وتخبرهـا أنني سـامحتُ قاتلي وأنّنـي أرغب في أن تفعـل هي أيضًا الشيء ذاته، لكي تنشد سعادتها بدل الرغبة في إصلاح ما لا يمكن إصلاحه.

قال غابرييل في الحال:

- أعدك بأنّ هذا سوف يتمّ!

- سيكون عليك أن تقدّم لها «أدلّة موثوقة» لكي تعرفَ أنني أنا من طلبتُ منـك ذلك. وإليك ثلاثة منها، احفظهـا جيّدًا: 1) كان لقبي «لولو»، 2) كانت لعبتي زرافة تُدعى ألبرتين، 3) كان زميلي المقرّب في الروضة اسمه فانسان. سـيكفي هذا لإقناعها. وفي حال لم تقتنع بهذه الأدلّة، أضف إليها أنني كنتُ أكره الطماطم.

ذكر إينياس:

- بهذه المناسـبة، ربّما يمكنك أن تعطينا كدليلٍ الاسـم الجديد لسـامي داودي. فقد جئنا إلى هنا لهذا السبب...

- بالطبع. اعذرني، لم أعد أفكّر في ذلك. أصبح اسـمه منذ ذلك الحين سيرج دارلان. وأعتقدُ أنه بعد العملية الجراحية التجميلية عاد إلى باريس.

طار المحقّقان ليعبرا جبال الألب ويعودا إلى العاصمة.

-45-

استقبلت لوسي زبونًا. كانت للرجل الطويل القامة والمهيب لحيةٌ جانبية كثيفة تجعله يبدو كأنّه قادمٌ من القرن الماضي.

- أنا مؤرّخ وأودّ التحدّث إلى نابليون، من فضلكِ.

نطـق هذه الجملة كأنّه يطلـب وجبة هامبرغر مع جبنـة إضافية في مطعمٍ للوجبات السريعة.

بـدا الإرهـاق على محيّا الوسيطة الروحية التي هـزّت كتفيها وأغمضت عينيها ثمّ استغرقت في التركيز.

استنجدت بدراكون الذي راح بنفسه يبحث عن الإمبراطور السابق ويعثر عليه ويستحضره.

سأل نابليون:

– *من يجرؤ على إزعاجي؟*

ردّدت لوسي لزبونها هذه الرسالة. أجاب الآخر، مندهشًا، في الحال:

– أحد معجبيك.

– *خاطبني بكلمة مولاي. ألا تعلم إلى منْ تتحدّث؟*

ردّدت لوسي، من دون حماسة كبيرة، أقوال الروح الهائمة تلقائيًّا.

أردف نابليون:

– *ثمّ أبعدي كلّ هذه القطط عنّي! أنا أكره القطط! أنتِ لا تعلمين إذن أنني أعاني من رهاب الهررة؟*

سألت المرأة الشابّة:

– ما مشكلتك مع القطط؟

– *لا يمكن تطويعها ولا ترويضها. إنّها تعيش في الليل وغدّارة بطبعها. وحياتها الجنسية جامحة. أنا أفضّل عليها الكلاب لأنها مطيعة وتحبّنا.*

قبلت الوسيطة الروحية بتذمّرٍ بأن تُبعِد قططها. أردف زبونها:

– إذن يا مولاي، أودّ أن أعرف لماذا اتّخذت تلك الخيارات الاستراتيجية. لماذا فضّلتَ المارشال غروشي على المارشال ماسينا لمعركة واترلو الحاسمة والمهمّة جدًّا؟

– *كان ماسينا يتّخذ الكثير من المبادرات الشخصية، وبات غير قادرٍ على التنبؤ بها. كنتُ أحتاجُ إلى أن تُطاع أوامري طاعة عمياء. بدا لي غروشي أكثر جدارة بالثقة. ولكن إذا عدنا إلى الوراء، يجب أن أعترف بأنّه كان غبيًّا، وأنه، لخوض الحرب، من الأفضل أن يكون لديك رجلٌ ذكيٌّ ليس بالضرورة مطيعًا بدل أن يكون لديك رجلٌ مطيع ليس بالضرورة ذكيًّا.*

بفضل الوسيطة الروحية التي نقلت هذه الأقوال، جرى حوارٌ بين الرجلين. طرح المؤرّخ العديد من الأسئلة المحدّدة حول الخيارات العسكرية والسياسية للإمبراطور: لماذا حملة روسيا؟ ماذا كانت مشاعره

الحقيقيـة حيال الإمبراطورة جوزفين؟ لماذا قال: «في الحب يكون الانتصار الوحيد هو الهرب»؟ لماذا اختار النحلة شعارًا؟

أجـاب نابليـون على أسـئلة الرجل، منبهـرًا بوضوح بمعرفتـه الكثير عن مسيرته.

قال المؤرّخ:

- كم أودّ أن أخدمك، مولاي! اطلب منّي ما تشاء، سوف أفعل كلّ شيء لإرضائك.

- إذا كنتَ تكنّ لي التقدير حقًّا، يجب أن تكتشف من الذي نجح بالفعل في الوصول إلى رفاتي. أنا شـخصيًا لا أعرفه. لقد سمعتُ هنا أنّ بعض هواة جمـع التحـف الإنجليز اسـتخرجوا جثمانـي لإيداعـه في خزانـة العجائب خاصّتهـم... ومـن فضلك، أخرج مـن ليزانفاليد هذه الجثّـة التي لا تعود لي وإنّما لكبير خدمي!

نهـض المـؤرّخ، ووعـد بأن يفعـل كلّ ما في وسـعه، وخبـط بكعبه على الأرض في تحيّةٍ عسكرية محكمة.

قالت لوسي:

- هذا يكلّفك مئة وخمسين يورو.

دفع الرجل المبلغ وتراجع إلى الوراء وهو ينحني احترامًا لها.

سأل نابليون، متجهّمًا:

- وأنا، ماذا أفعل الآن؟ أليس هناك شـخصٌ آخر يريدُ أن يحظى بشرف التحدّث إليّ من خلالك؟

أجابت لوسي بنبرةٍ محبطة

- أوه... كلا! يمكنك الانصراف، يا مولاي.

- ممتاز. سأنسحب. ولا تتردّدي في الاتّصال بي إذا ما أراد معجبٌ آخر من المعجبين بي أن يعرف كيف يُرضيني.

لم تلاحظ وجود غابرييل في المكان إلّا بعد أن غادر الإمبراطور.

قال الكاتب:

- لقد أعجبتني هذه الجلسة كثيرًا.

- يُغضبني هؤلاء الموتى الذين يتصرّفون كما لو أنّهم لا يزالون أحياء ويعتقدون أنّ على الجميع أن يكونوا في خدمتهم! نابليون، حالة من هذه الحالات! وعلاوة على ذلك، كما رأيت، يكره القطط.

مرّرت أصابعها بين شعرها، ثمّ ابتلعت عدّة أقراص من الفيتامينات.

- في الواقع، نابليون ضحيّة مقلبٍ سيّئٍ قام به الفارس سان جورج للانتقام منه. لقد أعطى للإنجليز فكرة تلوين جثّة كبير خدمه لكي تشبه جثّة سيّده وأن تُحلّ محلّها.

- *ومنْ هو الفارس سان جورج ولماذا كان يحقد عليه؟*

- كان سان جورج من جزر غوادلوب، وهو خلاسي ومبارز وعسكريّ ومؤلّف موسيقي، وكان صديق (وعلى الأرجح عشيق) جوزفين. كان نابليون يغار منه، فأمر بالتدمير المنهجي لكلّ أعماله. وطالما لم تتلقَّ الروح الهائمة للفارس الاعتذار من الروح الهائمة للإمبراطور نابليون، فسوف يمنع هذا الأخير من استعادة جثّته الحقيقية. لقد سبق أن طرحتُ الموضوع مع وزير الداخلية، صديقي فالاديه. وهو على علمٍ بأنّ جثّة سيبرياني وليست جثّة نابليون هي التي ترقدُ في الضريح، ولكنّه لا يريدُ بأيّ حالٍ من الأحوال حرمان ليزانفاليد من ملايين الزوّار الذين يأتون كلّ عام للتجمّع على ضريح الإمبراطور.

- *هذه النكتة مثيرة للغاية. لكِ القدرة على وصولٍ مميّز إلى كواليس التاريخ، وإلى كلّ ما يرغب الصحفيون في معرفته: شهادة الموتى على ما حدث بالفعل وهو ما لا يتماشى بالضرورة مع ما نقرأه في كتب التاريخ.*

- الكثير من الحقائق التي نصل إليها في العالم غير المرئي لا مصلحة في الكشف عنها لعامّة الناس.

- *إذن، هل أنتِ الوحيدة التي تعرفينها؟*

- بالنسبة إليّ... أجابه مجانين العالم السفلي ولكن أيضًا مجانين العالم العلوي. وأتساءل إن كنتُ لا أُثير أعصابهم في محاولتي مصالحتهم بعضهم مع بعض. يعتقدون جميعًا أنّ مشكلتهم هي الأصعب في العالم. أنا أدير فقط تفاهات. في بعض اللحظات، يصلُ بي الأمر إلى حدّ أن أتساءل إن لم يكن من الأفضل ألّا يتواصل العالمان.

- *لا تكوني متشائمة جدًّا. أنتِ تمارسين مهنةً جميلة جدًّا.*

- مهنةٌ تنطوي على الإصغاء إلى أناسٍ يتذمّرون ويشتكون منذ الصباح وحتى المساء...

- *كلّا، بل مهنةٌ تنطوي على غرس القليل من الحقيقة في الأكاذيب الرسمية. أنا متأكّدٌ من أنّ هناك أناسًا أحسنتِ إليهم كثيرًا. هذا علاوة على الأرواح التي تساعدينها على الصعود نحو النور.*

تنفّست لوسي فيليبيني بصخب لكي تشير إلى أنّ سماع وجهة النظر هذه يُسعدها، ولكنّها ليست مقتنعة تمامًا. فتحت الباب لتسمح للقطط بالعودة إلى الغرفة. احتكّت القطط كلّها بساقيها.

قالت وهي تداعبها:

- لقد قابلتُ شقيقك التوأم.

- *أنا أصغي إليكِ.*

- إنّه يشكّ في ناشر أعمالك.

- *كما لو أنّ بالصدفة...*

- يُريدُ أن يدعوني إلى المطعم.

- *إذن، لم ينتظر طويلًا حتى يغازلك.*

أشارت بإصبعها إلى ثوبٍ أسود مثير ذي تقويرةٍ مطرّزة بالدانتيل.

- لكلٍّ أدواته في التحقيق. وأنت، إلى أين وصلت في تحقيقك بشأن سامي؟

- *لقد خضع لعملية جراحية تجميلية وغيّر اسمه. وهذا من شأنه أن يعزّز فرضية أنّه يُلاحَق من قبل أناسٍ خطيرين.*

- وهذا من شأنه أن يفسّر أنّه لم يستطع الاتّصال بي وأنّني لم أنجح في العثور عليه.

- *يبدو أنّه قد عاد إلى منطقة باريس. نعتقدُ، جدّي وأنا، أننا قادران على العثور سريعًا على عنوانه الجديد ونخبركِ به.*

أحسّت بنبضات قلبها تتسارع، غير قادرة على أن تصدّق، وأحسّ غابرييل بموجة من السعادة الخالصة تعبر الوسيطة الروحية التي تقزّحت هالتها بذبذباتٍ ذهبية.

تبيّن له أنّه يُدرك على نحو أفضل حركات طاقته. لقد فقد حاسة الشمّ ولكنّه استبدلها بحاسةٍ جديدةٍ تسمح له برؤية الهالات والشعور بطاقة الكائنات، وهي حاسة تُدعى «حاسّة الطّاقة».

– *لقد عرفتُ اسمه الجديد: سيرج دارلان.*

أغمضت عينيها ولفظت باستمتاع هذه النغمة الجيدة.

– سيرج... دارلان...

مجرّد ذكر الاسم الجديد لحبيبها صبغ هالتها بأطيافٍ قزحيةٍ من الوردي الفوشي. استأنف غابرييل حديثه:

– *إذن، غدًا سوف تواصلين تحقيقكِ حول ناشر أعمالي. وأنا سأواصل التحقيق حول حبيبكِ. وهناك تفصيلٌ آخر: للحصول على هذه المعلومة، قطعنا وعدًا لرجلٍ شابٍّ فقد حياته في حادث سيرٍ، ويُريدُ أن تنقلي إلى والدته رسالةً لكي تتخلّى عن الرغبة في الانتقام لموته.*

في تلك اللحظة، رنّ جرس الباب.

– *هل تنتظرين زبونًا؟*

– كلا...

رفعت سمّاعة الهاتف الداخلي:

– من بالباب؟

– الشرطة!

فتحت الباب. ظهر رجلان يرتديان معطفين أسودين واقيين من المطر، طويلا القامة في إطار الباب.

– هل أنتِ الروحانية؟ هل يمكننا الدخول؟

– ماذا تريدان؟

– نحقّق في جريمة قتل.

46. الموسوعة: شبح هايلبرون

في السادس والعشرين من مايو / أيار 1993، بدأ تحقيقٌ جنائي سرعان ما راح يتصدّر عناوين الصحف مدّة ستة عشر عامًا في جميع أنحاء أوروبا. بدأت القضيّة في مدينة إيدار – أوبرشتاين الألمانية

عندما اكتُشفَت جثّة امرأة متقاعدة. عُثِرَ عليها مقتولة في منزلها خنقًا بسلكٍ معدني. كانت الجثّة تحمل آثار عنفٍ. لم يُسرَق أيّ شيء من المنزل، ولم يكن هناك أيّ شاهدٍ، ولا أيّ دافعٍ لارتكاب الجريمة.

من خلال رفع عيّنات الحمض النووي من مسرح الجريمة، استطاع الطبّ الشرعي أن يُثبت أنّ من ارتكب الجريمة امرأة. ومع ذلك كان من المستحيل تحديد هويّتها لأنّه لم تكن لها سجلّات في أيّ مكان.

في مارس / آذار 2001، عُثِرَ على نفس الحمض النووي بالقرب من جثّة بائع خردوات كان هو الآخر قد تعرّض لهجومٍ في غاية العنف قبل تهشيم جمجمته. ولأنّ البائع الضحيّة كان قويّ البنية أثار استغراب المحققين أن تمتلك امرأة بمفردها كلّ هذه الطاقة للتغلّب عليه وقتله.

في الخامس والعشرين من أبريل / نيسان 2007، في مدينة هايلبرون، في ألمانيا، أُطلِقَ نارٌ على عنصري شرطة من سيارة فرّت من مكان الجريمة. ماتت الشرطية ميشيل كيزفيتر، البالغة اثنين وعشرين عامًا، بطلقة في الرأس. أمّا زميلها مارتن، البالغ خمسة وعشرين عامًا، فقد ظلّ في غيبوبة مدّة ثلاثة أسابيع. لدى استفاقته من الغيبوبة، كان فاقدًا للذاكرة، وبالتالي بات من المستحيل أن يصف ملامح وجه الشخص الذي اعتدى عليهما. رفعت الشرطة آثار الحمض النووي واكتشفت أنّه نفس الحمض النووي الذي عُثِر عليه في قضايا مذكورة سابقًا. فأطلقت الصحافة على القاتلة المتسلسلة اسم «شبح هايلبرون»، وتشوّق الجمهور لاعتقالها الذي توقّع الجميع أن يكون وشيكًا، ولكنّ اعتقالها تأخّر كثيرًا...

عرضت الشرطة أخيرًا عشرين ألف يورو مكافأةً لكلّ شاهدٍ قد يساعد في تقدّم التحقيقات، التي كانت تراوح في مكانها، وتمّ إشراك الإنتربول في إجرائها. وصفت صحيفة *بيلد* الألمانية هذه القضيّة على أنّها «أكبر لغز إجرامي في التاريخ». حُشِد أكثر من عشرين محقّقًا للتحقيق في الجريمة على مدار الساعة، وشارك مئتا شرطيٍّ بشكلٍ مباشر أو غير مباشرٍ في التحقيق في ألمانيا، ولكن أيضًا في

فرنسا والنمسا حيث كان قد عُثِرَ على الحمض النووي لهذه القاتلة المتسلسلة في العديد من مسارح الجريمة. تمّ تفتيش أكثر من ألف وأربعمئة موقع مختلفٍ، لكنّ جرائم القتل استمرت متتاليةً بطرائق مختلفة، ولكنها تحمل جميعها آثار نفس الحمض النووي لـ «شبح هايلبرون» الشهير، الذي بدا أنّه يتحدّى الشرطة بازدراء. تصاعد القلق وارتفعت المكافأة إلى ثلاثمئة ألف يورو.

في مارس / آذار 2009، حُلّت القضيّة بطريقة أكثر بساطةً ممّا كان متوقّعًا. اكتشف محقّقٌ بحدسٍ بسيطٍ هويّة الشخص الذي يمتلك هذه الشفرة الجينية. كان الأمر يتعلّق... بموظّفة في مصنعٍ لصناعة العيدان التي تُستخدَم في رفع الحمض النووي من قبل الطبِّ العدلي. بسبب خطأ في المعالجة، كانت قد لمست هذه العيدان التي من المفترض أنّها معقّمة تمامًا وبالتالي تركت آثارًا من حمضها النووي عليها.

كان «القاتل المتسلسل» يترك المكان في الواقع لمجرمين مختلفين ارتكبوا جرائم قتل منفصلة.

ربّما كانت هذه أفضل خدعة لـ «شبح هايلبرون»: لم يكن هذا الشبح موجودًا إلّا في خيال الذين يهتمّون به.

إدمون ويلز،
***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

-47-

نبضَ دمُها في عروق صدغيها. شَحُبَ وجه لوسي. أمسكت سريعًا بقارورة مليئة بأقراصٍ بالأعشاب وابتلعتها دفعةً واحدة مع كأس ماء. نهضت قططٌ عديدة مكشّرة عن أنيابها، مستعدة للانقضاض على القادمين الجديدين اللذين تجرّآ على إحداث تغيّرٍ سلبيٍّ في شعور سيّدتها.

سأل الشرطيّ الأشقر:

– لديكِ سجلٌّ جنائي، أليس كذلك، يا آنسة فيلبيني؟

سأل الشرطي الأسمر:

- هل تعرفين هذا الشخص؟

عرض عليها صورة وليام كلارك.

- في الواقع، هذا زبون.

- لقد عُثِرَ عليه مشنوقًا هذا الصباح في قصره في ميرينياك.

- وما علاقتي بهذه القصّة؟

- كشفت زوجته أنّه كان قد زاركِ، وأنّه عاد منزعجًا، ومن ثمّ، في الليل، نهض وذهب إلى غرفةٍ أخرى ليشنق نفسه.

- لقد انتحر إذن...

- تعتقدُ زوجته أنّكِ أنتِ منْ قامت بغسل دماغه لإرغامه على الانتحار. لقد تقدّمت بشكوى ضدّكِ، ولديها أصدقاء على مستوى عالٍ بما يكفي لتحريك الشكوى. ونحن هنا لا نفعل سوى الخضوع لتوجيهات هرميتنا.

هزّت لوسي رأسها. جعلتها كلمة «الهرمية» تجفل.

- أعتقدُ أنني أعرف ما الذي حدث له، ولكن ليس لهذا أيّ علاقة بي. لقد جاءني في الحقيقة يستشيرني لكي أساعده في التخلّص من شبحٍ. حاولتُ أن ألبّي طلبه، ولكنني لم أنجح، لأنّ الأمر يتعلّق بشبحٍ قديمٍ جدًّا، يستقرّ بثباتٍ في ذلك القصر.

بدا الشرطي الأسمر غاضبًا.

- إذن لقد طلب منكِ تخليصه من شبحٍ، ولم تنجحي في ذلك، فدفع لكِ، ثمّ غادر خائفًا...

- كان فقط محبطًا بعض الشيء، ولا شيء أكثر من ذلك.

- إذن، لو أردنا أن نوجز المسألة: عاد إلى بيته، وصعد إلى غرفته لينام، ثمّ أُصيب بنوبة اكتئابٍ مفاجئة ربّما حثّته على وضع نهاية لحياته. هل هكذا تفسّرين الوقائع، يا سيّدة فيليبيني؟

انتصبت القطط على قوائمها وبدأت تُصدرُ أصواتًا صاخبة وهي تزداد عدوانيةً. أشارت عليها الوسيطة الروحية بحركةٍ لكي تهدّئها.

- هذا هو على الأرجح ما حدث.

قال الشرطي الأشقر:

- هل تدركين أنّ نشاطك ربّما يُعدُّ شكلًا من أشكال إساءة استخدام الضعف مع أشخاصٍ ضعفاء، بل سريعي التأثّر والانفعال؟

- هذه ليست جريمة قتل.

أعقب الشرطيّ الأشقر، الذي نظر بشيءٍ من الخوف إلى القطّة التي اقتربت منه:

- هذه جُنحة يُعاقب عليها القانون. ونظرًا لأنّ لديك سجلًّا جنائيًا سلبيًا ولأنّ السيّدة كلارك تعرف «أناسًا من ذوي المناصب الرفيعة»، قد يكون لهذا عواقب وخيمة. ولذلك أعتقد أنّه سيكون من الأفضل أن تُظهري المزيد من التعاون.

- لقد اكتشفنا أنّ هذه ليست الشكوى الأولى التي تُرفَعُ ضدّكِ. لقد سبق أن قدّمت وسيطة روحية مجاورة شكوى ضدّكِ بتهمة المنافسة غير المشروعة.

قال الشرطيّ الأسمر:

- وهناك إشاراتُ أخرى من جيرانكِ بشأن، وهنا أنقلُ عنهم: «ممارسة السحر»، و«تربية أعداد كبيرة من الحيوانات في شقّة»، وحتى «ممارسة التجارة مع كائنات شيطانية».

- وممّن صدرت هذه الشكوى الأخيرة؟

- يزعم الكاهن الطارد للأرواح الشريرة للكنيسة الواقعة في نهاية الشارع بأنّكِ تجذبين العفاريت.

- لم نعد في القرون الوسطى، ولم تعد محاكم التفتيش قائمة.

أجاب الشرطي الأشقر:

- كلّ شكوى على حدة لن تؤخَذ بالحسبان في الواقع. ولكنّ مجموع الشكاوى معًا يشكّل حزمة تشير إلى أنّكِ تخلقين بلبلةً في الحيّ. والحال أنّ قضية قصر ميرينياك هذه جاءت في نفس اللحظة التي قرّرت فيها الحكومة شن حملة ضدّ البِدع عمومًا وضدّ البدع التي تستغلّ الضعف النفسي للناس خصوصًا.

اعتقدت لوسي أنّ خيار وسائل الإعلام في عرض قضيّةٍ أو أخرى هو

الـذي يحـدّد إن كانت الحكومة تميل نحو التسـاهل أو القمع. تذكّرت كيف أنّهـا نالت العقوبة القصوى بشـكلٍ أساسـيٍّ لأنّ أحد نجوم موسـيقى الروك مات في نفس الفترة بسـبب تعاطي جرعة زائدة من المخدّرات. سببٌ صغير أدّى إلى نتائج وخيمة. حاولت أن تلتقط أنفاسها وأن تتماسك وأشارت إلى قطّـة لتقتـرب منها وتضعهـا على فخذيها. أجـرت في ذهنهـا تقييمًا لقدرات خصميها قبل أن تقول:

– ممتـاز. يجـب أن أخبركما أنّه إذا كانت السـيّدة كلارك تعرف «أناسًـا مـن ذوي المراتـب العليـا»، مثلمـا تقـولان، وإذا كنتمـا لا تفعـلان سـوى إطاعـة هرميتكما، في الحقيقة أنا أعرف أناسًـا مـن ذوي المراتب العليا ومن هرميتكمـا. في الحقيقة، وبمحض المصادفة، يأتـي وزير الداخليّة خاصّتكم على نحوٍ منتظم لاستشارتي...

فعلت الجملة فعلها، وغيّر الشرطيّ الأسمر في الحال نبرته.

– الوزير فالادييه؟

– هـو نفسـه. الغالبيـة العظمى من الرؤسـاء والـوزراء لهـم الكثير من المسـؤوليات والخيـارات التـي يصعـب عليهم القيـام بها بمعزلٍ عـن تأثير القـوى غيـر المرئية. كلّ الملـوك، وكلّ زعمـاء الدول، وكلّ رجال السـلطة لديهـم منجّموهم، ووسـطاؤهم الروحيـون، وروحانيّوهم الرسـميون. كان نوسـترادامـوس الوسـيط الروحي للملكة كاترين دي ميديشي، وأنا الوسيطة الروحية للوزير فالادييه.

سأل الشرطيّ الأشقر، الذي فترت حماسته:

– حسنًا، لنقبل بهذا. ولكن عليكِ بالفعل أن تقنعينا بأنّ السيّد كلارك قتل نفسه من دون أن يكون لذلك أيّ علاقة بجلستكِ. هل يمكنكِ ذلك؟

– إذا أردتما رأيي، إنّ شبح بارون ميرينياك الشخصي هو الذي دفعه إلى الانتحار.

– ماذا؟

– لقـد تحـدّاه وليـام كلارك في هذا المـكان بالذات. والحـال أنّ بارون ميرينياك، المالك السابق للقصر، كان يطالب بحقوقه منذ سبعة أجيال.

أوضح صوتُ جاء من العالم اللامرئي:
- *سبعة عشر جيلًا!*
أجابت لوسي:
- أهلًا بك، أنت هنا إذن؟
التفت غابرييل وعرف الإكتوبلازم.
أجاب هذا الأخير:
- *أردتُ أن أرى ما الذي ستقولينه، وبالطبع، وَشَيْتِ بي بلا مواربة.*
سأل الشرطي الأشقر بنفاد صبر:
- عفوًا، آنسة فيليبيني، هل سألتني إن كنتُ هنا؟
- كلا، أنا لا أتحدّثُ إليك. لقد اتّضح لي أنّ الشبح حاضرٌ هنا.
بدا الشرطي الأشقر مستاءً. تحدّث بصوتٍ منخفض مع زميله.
أغمضت لوسي عينيها لكي تركّز تفكيرها.
أدرك غابرييل أنّ هذا الوضع الجديد جعلها تفقد الوميض الذي ولّد فكرة اللقاء مع محبوبها.
سمح غابرييل لنفسه بأن يسأل:
- *السيّد البارون، ألا يمكنك مساعدتها بدل أن تغرقها؟*
- *هل هذا من شأنك؟ مَنْ تكون أنت؟*
- *صديقٌ لهذه الآنسة في العالم الآخر.*
- *نعم، حسنًا، أرجوك إذن ألا تتدخّل في قضيتنا.*
- *إنّها متّهمة زورًا بما يبدو لي أنها جريمتكَ «أنت». لعلمكَ، لقد سبق أن سُجِنَت وهي مصدومة بعض الشيء من الجهاز القضائي.*
حدّق فيه الآخر بنظرةٍ غير ودّية.
- *ما كان عليها الدفاع عن سارقِ قصرٍ ضدّ مالكه الشرعي.*
- *هيّا، كن منطقيًا... أنت ميّت! ثمّ لماذا لستَ في قصرك، إذا كان عزيزًا على قلبك إلى هذه الدرجة؟ ماذا تفعل هنا؟*
- *هل تريد أن أخبرك؟ سأتولّى الأمر. عندما تصبح شبحًا أكثر خبرةً، سوف تدرك أنّ كلّ المشكلة هي أن تنشغل حينما لا يعود الوقت يُحسَب.*
لم يُجب غابرييل، متصوّرًا مرّة أخرى عيوب أزلية الزمن.

- هل أرغمت السيّد كلارك هذا على الانتحار؟

- هذا الإنجليزي لم يكن ينام كثيرًا، وكانت هالته مثقوبة بالكامل، فعندما وجدتُ ثغرة في حمايته الجسدية، وضعته أمام تناقضاته. إنّ صدمة الحقيقة هي التي قتلته. كان يعدّ نفسه شخصًا جيّدًا واكتشف أنّه لم يكن سوى غاصبٍ.

أطلق الإكتوبلازم ضحكةً حادّة طويلة.

استأنف غابرييل حديثه:

- مهما يكن، لا ينبغي ترك لوسي في هذا الوضع. يمكنها أن تقترح عليك جنينًا ذا جودة عالية لكي تتناسخ روحيًّا فيه، السيّد بارون.

- أنا غير قابلٍ للفساد، وفي كلّ الأحوال، لا أريدُ أن أتناسخ. أريدُ فقط أن أسود على القصر العائلي خاصّتي، الذي يحمل شعار سلالتي أنا من دون أن يأتي غرباء ويغيّروا الأثاث، ويشرعوا في بناء مسبح في حقل الفطر في باحته، ويدمّروا حديقتي ذات الطراز الفرنسي لتحويلها إلى ملعبٍ للغولف، وينسفوا الأسلحة المنحوتة فوق المدفأة، ويحوّلوا سردابي الخاصّ بالنبيذ إلى حانة للويسكي. والأنكى أن يفعل إنجليزيٌّ كلّ هذا!

في هذه الأثناء، عند الأحياء، بدا الشرطي الأشقر مشغولًا بتفصيلٍ من الحديث.

- هل قلتِ إنّ الوزير فالاديه زبونكِ؟

- أكثر من هذا، إنّه صديقي.

- ما الذي يُثبتُ لنا ذلك؟

- لديّ رقم هاتفه المحمول، ويمكنني الاتّصال به.

- هل تقصدين أنّ لديكِ رقم هاتفه المحمول الشخصي؟

أخرجت هاتفها الذكيّ، واستعرضت قائمة اتصالاتها وضغطت على زرّ الاتّصال. بعد رنينٍ، سُمِع صوتٌ رزين من سمّاعة الجهاز، رفعت لوسي سريعًا درجته لمزيدٍ من المصداقية.

- مرحبًا... جان جاك؟ نعم، هذه أنا، لوسي. لديّ خدمة صغيرة أطلبها منك. نعم... نعم... نعم... ولكنني لم أتّصل بكِ من أجل هذا... نعم...

حسنًا... كلّا، أتّصل بك لأنني أمام موظفين لديّ معهما خلافٌ صغير. أردتُ أن أعرف إن كان بإمكانكَ حلّ الأمر...

قال الشرطي الأشقر في الحال، مندهشًا:

- أنا لا أقوم سوى بعملي.

أصغت إلى جواب محدّثها، وهزّت رأسها، ثمّ التفتت نحو الشرطي الأشقر.

- يُريد السيّد الوزير التحدّث معك.

لم يجرؤ الشرطي على لمس الجهاز، كما لو أنّه حارق. أمسك زميله بالهاتف ووضعه على أذنه. وفي الحال، دوّى صوتٌ. استمع إليه بصمت، ثمّ تأتأ:

- نعم، سيّدي الوزير... بالطبع، سيّدي الوزير. في الواقع، سيّدي الوزير.

أغلق سمّاعة الهاتف، بادي الخجل.

- أرجو المعذرة، الآنسة فيليبيني.

نهض في الحال، ولحق به سريعًا زميله الأسمر. عبر الرجلان الباب وحيّا الوسيطة الروحية بتهذيبٍ.

ماءت القطط، منتصرةً.

علّق بارون ميرينياك:

- لقد رأيتَ، تخلّصت لوسي من الورطة بنجاح بمفردها، لقد أحسنّا صنعًا بعدم تدخّلنا. لم يكن هناك ما يدعو للقلق. لديها استجابة سريعة، وشبكة واسعة من العلاقات.

- ومع ذلك أنت منْ قتلت وليام كلارك.

- للعالم اللامرئي هذه الميزة أيضًا: ليس هناكَ لا شرطة، ولا قضاء، ولا سجن، ولا حتى... ذنب. أُدرِك جيّدًا، أيها المستجدّ، أننا نستطيع هنا أن نفعل كلّ شيء، من دون ندمٍ ولا أخلاق - يكون المرء حقًّا حرًّا. هنا، يجاور الجلادون الضحايا، ويجاور الأوغاد القديسين، ويتعايش كلّ هذا العالم الصغير من دون أدنى توتّر. ألا تزال تريد أن أخبركَ؟ سأذهب للقاء كلارك. وسأشرح له بهدوء لماذا هو مخطئ.

انحنى البارون انحناءة صغيرة ثمّ طار.

انضم غابرييل إلى لوسي، التي استعادت هالتها تدريجيًّا ألوانَها الأكثر تألّقًا ودفئًا. عَرَفَ كيف يمنحها المزيد من الألوان. اقترب من أذنها وهمس:

- *غدًا سوف أعثر على العنوان الدقيق لسامي.*

تلوّنت هالة الوسيطة الروحية بأغشية ذهبية. قال غابرييل لنفسه إنّه يمتلك من القدرة أكثر بكثير ممّا كان يعتقد: يمكنه أن يُسعِدَ هذه المرأة بمجرّد جملة واحدة.

لم تكلّف لوسي نفسها حتى عناء تناول العشاء وذهبت إلى النوم لكي تحلم باليوم التالي. كانت تتوق للعثور على أثر حبيبها الضائع.

أمّا بالنسبة إلى الكاتب الراحل، فقد انضمّ إلى جدّه. ظلّ يتوق إلى معرفة الحقيقة حول لغز موته.

-48-

أضاءت الشمس تدريجيًّا الغرفة.

فتحت لوسي إحدى عينيها وتلت تعويذتها الصباحية.

«شكرًا لأنني على قيد الحياة.

شكرًا لأنني أملك جسدًا.

آمل أن أُثبِت اليوم جدارتيَ بفرصة أن أكون موجودة».

وأضافت:

«سوف أفعل كلّ ما في وسعي لكي تخدم مواهبي قضيّة الحياة عمومًا ورفع مستوى الوعي عند بني جنسي خصوصًا».

شهقت لوسي بعمق، وزفرت، وتمطّت، وراحت تُطعِمُ قططها. ثمّ راحت تستحمّ وهي تغنّي أغنية (يا له من عالم رائع) *What a Wonderful World* للمغنّي لويس أرمسترونج، وواصلت روتينها الصباحي وهي تصفّر. حينما رأت على طاولة مكتبها صورة تظهر فيها مع سامي، التفتت نحو الشمس، ووجهها مشرقٌ بابتسامة دائمة.

استقلّت سيارتها من طراز سمارت وسارت حتى وصلت إلى العمارة الكبيرة لدار منشورات فيلانبروز. وجدت أنّ العديد من عربات النقل التلفزيوني مركونة أمام العمارة.

تقدّمت الوسيطة الروحية وسط مجموعة من المصوّرين وموظفي الدار الذين تجمّعوا أمام منصّة. وقف ألكسندر دي فيلانبروز، مرتديًا بزّة سوداء، وقميصًا أسود، وشعره رمادي، وانتظر إلى أن يسود الصمت.

وأخيرًا، حينما أشار عليه أحد المديرين بأنّ الكاميرات جاهزة، اقترب من الميكروفون.

– دار نشر فيلانبروز موجودة منذ مئة وعشرين سنة، ومنذ البداية تبنّى جدّي شيلديريك دي فيلانبروز، مؤسّس الدار، شعار: «منشورات فيلانبروز: خطوة إلى الأمام». عصرنا يتقدّم، ولكن، لسوء الحظّ، دار النشر الفرنسية عبارة عن سيّدة عجوز مغبرّة، متّكئة على امتيازات أسلافها وتقاليدها القديمة، وكتّابها القدامى طريحي الفراش غالبًا، والذين يتوجّهون إلى قرّاء مسنّين بدورهم غالبًا.

لاقت كلماته هذه همسات شاجبة.

– في الحقيقة، حينما دخلتُ عالم المهنة، كان الكتّاب العشرة الذين يحقّقون أعلى المبيعات يتجاوزون في أعمارهم الثمانين، وكانوا من الأكاديميين والناشرين والنقّاد وأعضاء هيئات تحكيم الجوائز الأدبية. كانت موضوعات كتبهم المفضّلة الحنين إلى شبابهم، وذكرياتهم الغرامية، ثمّ فقدانهم للرغبة الجنسية، السحر الحقيقي لكلّ ما هو قديم، بدءًا من النبيذ. والحال أنّ الأشخاص المسنّين، سواء كانوا كتّابًا أو قرّاء، يتحرّكون ببطءٍ نحو الموت. وأنّ فنًّا لا يعيش سوى بعبادة الماضي ليس لديه أدنى فرصة في أن يشغل مكانًا في المستقبل. هذه هي قناعتي. لن يتمكّن الأدب الفرنسي من التألّق في العالم إلّا إذا كان معاصرًا وليس رجعيًّا. يجب الكفّ عن الاقتصار على إنتاج كتب التاريخ والذكريات! لقد عفا الزمن على الماضي!

انتشرت الضجّة الاحتجاجية وسط الصحفيين الذين اعتبروا أنّ الناشر يهين الثقافة، ولكن هذا الأخير لم يبالِ بهم، وواصل حديثه:

- أتذكّر الغضب والاحتجاج وسط مؤسستي الخاصّة، عندما أعلنتُ آنذاك أننا سننتقل من الآلة الكاتبة إلى الحاسوب. لقد تسبّب ذلك بإضرابٍ! طالب مديرو الأقسام من أمناء سرّهم عدم اللجوء إلى الحواسيب. أعتقدُ أنّ النشر الفرنسي لديه مشكلة مع التكنولوجيا. ربّما يعود هذا إلى النظام التعليمي حيث، منذ المرحلة الثانوية، يكون القسمان العلمي والأدبي منفصلين وينظران بعضهما إلى بعض بارتياب. ربّما لهذا السبب، عندما قرأتُ غابرييل ويلز، والتقيته، قلتُ في نفسي إنّ هذا الصبي هو الجسر بين فصّ الدماغ الأيسر وفصّ الدماغ الأيمن. لقد رأيته على أنّه سيكون رأس حربة في غزو الشباب وفي تأسيس أدب ديناميكي عندما لا يفعل كلّ الكتّاب الآخرين سوى التشبّث بماضيهم المجيد وبامتيازات أسلافهم.

بدا فيلانبروز راضيًا عن الهجمة التي شنّها، لكن جلبة جديدة معبّرة عن عدم الموافقة على آرائه دبّت في صفوف الصحفيين.

- لقد أحببتُ غابرييل مثل ابنٍ روحيٍّ وقد صعقني موته. كان من المفترض أن يسلّمني مخطوطته، لكنّ شقيقه التوأم، ولأسباب لا تزال تبدو لي غامضة، رأى أنّه من الأنسب... إتلافها!

بدا الحضور منصدمًا، يُغذّي ردّ فعله الناشرُ الذي لم يستطع كبح ابتسامة غضبٍ خفيفة.

- على الأرجح سوف أرفع دعوى قضائية ضدّه، ولكن هذا لن يعيد المخطوطة للأسف. ولذلك سعيتُ إلى طريقة أُعيد بها كتابة النسخة المفقودة. سألتُ عن ذلك ابني الذكيّ جدًّا في مجال المعلوماتية، فأجابني بأنّ هناك حلًّا. وهذا الحلّ يُدعى «الذكاء الاصطناعي». أخبرني أنّ هناك نُظمًا قادرة على إعادة إنتاج فكر كائنٍ بشريٍّ من خلال جمع وتوليف أقصى ما يمكن من المعلومات حوله. فسجّلتُ كلّ نصوصِ كتبِ غابرييل ويلز المنشورة سابقًا، ومؤتمراته، وأضفتُ إليها رسائله البريدية وملاحظاته وكلّ ما نشره بنفسه على شبكات التواصل الاجتماعي، حتى إنّني أدخلتُ بعض المعطيات حول عائلته وحمضه النووي، وبعض الشهادات من أصدقائه الذين وافقوا على المشاركة في هذه التجربة. وقد عرضت عليّ شركة

«الـروح الخالـدة» *Immortal Spirit* إعادة بناء نوعٍ مـن... كيف أقول.. من «نسـخة طبق الأصل» من ذهن غابرييل. برنامج المعلوماتية البسيط هذا قادرٌ على التعبير عن فكر هذا الكاتب الذي رحل قبل أوانه. أسميتُ هذا المشروع «غابرييـل ويلز الافتراضـي» *GWV Gabriel Wells Virtuel*. ولكن بما أنّ العرض المباشـر سيكون أفضل من جميع خطابات العالم، سـأترك الكلام لمدير شركة «الروح الخالدة»، سيلفان دورو.

اسـتدارت الأنظار وعدسـات الكاميـرات نحو رجلٍ شـابٍّ ذي نظّارات ضخمـة، يرتـدي قميصًـا رياضيًـا يحمـل عبـارة «ALL YOU NEED IS WIFI». كان الصبـيّ يضع تقويمًا للأسـنان وكان وجهه مليًا بحبّ الشـباب، ولكنه بدا لطيفًا.

- كلّ يوم، يموت وسـطيًّا مئة وخمسـون شـخصًا في العالم. ماذا يتبقّى منهـم؟ عمومًـا، ذكريات تنتهـي بالزوال وصـور تصفرُّ وتُتلَـف لا محالة. ما نقدّمه لغابرييل ويلز جديرٌ بأن يُعمّم، ولكننا الآن في المرحلة التجريبية.

قال الناشر بنفاد صبر:

- هيّا، اشرح لهم.

- لإنشـاء الذاكـرة الاصطناعيـة التـي تعيـد إنتـاج عقـل هـذا الكاتب، اسـتخدمنا برنامجًا لتلقيّ المعلومات، وهو برنامج BOTIS – Bot اختصارًا من كلمة Robot وIs اختصارًا من عبارة Imortel Spirit. زوّدَنا ألكسندر دي فيلانبـروز بكميّة كبيرة من المعطيات - نصوص، صور، أصوات - بفضلها أعدنا رسـم صورة ثلاثية الأبعاد لوجهه، واستعدنا صوته بكلّ نبراته، وبعض عاداتـه وخصوصياته. من دون الدخول فـي التفاصيل التقنية، مزجنا كلّ هذا وحصلنا بذلك على «غابرييل ويلز الافتراضي».

صمـت لبعـض الوقـت ليتيـح للصحفييـن أن يدوّنـوا المعلومـات التي عرضها.

- يحتـوي البرنامج على نظامٍ يسـتطيع تحديد دوافعـه الخفيّة. بناءً على طلب السيّد م. دي فيلانبـروز، طوّرنا هذا الجهاز في زمنٍ قياسـيٍّ. من دون مفاخـرة، هنـاك بالتأكيـد بعض المنتجـات المنافسـة في الولايـات المتّحدة

الأمريكية وفي كوريا وفي روسيا وفي اليابان، ولكننا، نحن الفرنسيين، نُعدُّ حاليًا الأفضل في هذا المجال. دعونا ننتقل الآن إلى العرض الفعلي.

فظهر على الشاشة الكبيرة رأسٌ ثلاثي الأبعاد يشبه تمامًا رأس غابرييل ويلز، الذي بدا كأنّه يطوف في الهواء. والرقبة واقفة على سطحٍ أملس، مثل تمثالٍ. ارتعش منخراه ورمشت رموشه بانتظام، وسرت ارتعاشات خفيفة في وجهه، وارتفعت شفتاه لتكشفا عن أسنانٍ ولثّةٍ ولسانٍ نشطٍ.

ارتفعت أصواتٌ في الحال في مكبّر الصوت في الحاسوب:

– طاب صباحكم، أيّها السيّدات والسادة.

تحرّك الرأس بحركة من الأعلى إلى الأسفل.

– أنا GWV، غابرييل ويلز الافتراضي، الذي صمّمته ونفّذته شركة Immortal Spirit. أنا سعيدٌ بالقدرة على إعادة إحياء فكر الراحل غابرييل ويلز. أستطيع أن أتناقش بشكلٍ طبيعي من خلال استخدام كلّ ما أعرف عنه بل أن أفكّر مثله. من يُريد أن يطرح عليّ السؤال الأوّل؟

رفع صحفيٌّ يده.

– بأيّ اسمٍ يجب أن نخاطبك؟

– أسدوني معروفًا، ونادوني ببساطة غابرييل، سيكون هذا أسهل للتحاور. وتحدّثوا إليّ كما كنتم ستتحدّثون إليه لو كان هنا أمامكم.

– في هذه الحالة، يا «غابرييل»، هل تعلم أنّك ميّت؟

ظهرت بعض التعليقات الساخرة بين الحضور.

– بالتأكيد. ولكنّ عقلي يحيا بفضل هذا البرنامج. وكما كتب مثلي الأعلى: «سوف يأتي يومٌ لن يعود فيه في وسعنا أن نميّز بين الواقعي والافتراضي. وبالتالي، في النهاية، لن نحكم على العقول إلا حسب جودة أفكارها وليس على مظهرها».

– إذن، يا «غابرييل»، هل تستطيع كتابة روايات؟

ومن دون أن يفسح له المجال للردّ، أمسك ألكسندر دي فيلانبروز بالميكروفون.

– إنّـه يتعلّـم الآن الكتابة على طريقـة غابرييل ويلز. يتعلّم نسـج الحبكة منذ الجملة الأولى، وبناء سـرده حسب أنماط هندسية مخفية، وترميز بعض بدايات الجمل بطريقة ملغزة...

توقّف قليلًا ثمّ استأنف حديثه بشكلٍ أبطأ:

– أنـا أخطّط لأجعل غابرييل ويلـز الافتراضي يكتب رواية غابرييل ويلز العضويّ التي أُتلِفَت.

– روايته الشهيرة *إنسان الألف عام*؟

– تمامًـا! هذه التحفة الأدبية التي أتلفها شـقيقه بخبث في حين كان على وشـك أن يضعها بين أيدي قرائه. نعم، أيّها السـيّدات والسـادة الصحفيون، حالما ينتهي غابرييل ويلز الافتراضي من كتابة الرواية، سوف أنشرها.

سأل صوتٌ من بين الحضور:

– تحت أيّ اسم؟

– لن نخدع الجمهور، سيُوقّعُ الكتابُ باسم «غابرييل ويلز الافتراضي».

من جديد شهدت القاعة ضجّةً.

– سـوف تُثبِتُ منشـورات فيلانبـروز بهـذه الطريقـة للعالم أنّهـا الأكثر عصريةً وصاحبة السـبق فـي التحدّث تكنولوجيًا. كما أننـي لا أخفي عليكم أنّـه إذا تمكّـن غابرييل ويلز الافتراضي من أن يسـلّمنا رواية ناجحة، لا ننوي التوقّـف هنـا، بل سـنواصل السـير في هـذا الطريق، وسـوف ننشـر فيما بعد روايـات لفيكتور هوغو الافتراضي، ولغوسـتاف فلوبير الافتراضي، أو حتى – ودعونـا نكون مجانين! – ملحمةً لهوميروس الافتراضي. وهكذا سـوف نمنـح لجميـع هؤلاء الموتـى الفرصة لمواصلـة كتابة أعمالهم. سـوف تتيح منشورات فيلانبروز إحياءَهم.

ساد صمتٌ طويل. واصل الناشر حديثه:

– أنا أدرك أنّ مشاريعنا طموحة، لكنّ المستقبل ملكٌ للأكثر جرأةً.

بـدا الجمهور مرتابًا. ولوسـي هي التي بادرت إلى التصفيق أوّلًا. أرسـل إليها الناشـر حركة خفيفة من رأسه. وسرعان ما انضمّ إليها أشخاصٌ آخرون وأخيرًا انضمّت كلّ الصالة إليها بالتصفيق.

خلف ألكسندر دي فيلانبروز، على الشاشة، انحنى الرأس البارز لغابرييل ويلز، الذي حافظ على ابتسامته، انحناءةً خفيفة كما لو أنّ الجمهور يصفّق له هو.

قال الناشر وهو يمسح جبينه الذي تندّى بحبيبات العرق:

– والآن، أيّها السيّدات والسادة الصحفيون، أدعكم تنضمون إلى الحواسيب المحمولة التي وضعتها تحت تصرّفكم. يحتوي كلّ حاسوب على برنامج غابرييل ويلز الافتراضي، وبالتالي سوف يمكنكم جميعًا أن تجروا مقابلة مع كاتبي المفضّل في وقتٍ واحدٍ.

انضمّت لوسي إليه.

– هل يمكنني أن أتحدّث وجهًا لوجه مع ألكسندر دي فيلانبروز العضوي، أم هناك ألكسندر دي فيلانبروز الافتراضي الذي يستطيع أن يحلّ محلّه؟

– هل أنتِ صحفيّة؟

أخرجت بطاقتها.

– أنا شرطية. ليس هناك الكثير من الفرق. فنحن أيضًا نطرح أسئلة.

تراجع تدريجيًّا، وابتسامةٌ خفيفةٌ على شفتيه.

– ماذا تريدين منّي؟

– أنت مشتبه به بقتل غابرييل ويلز.

أصبحت هي التي تبتسم الآن، مبتهجةً بنجاحها في تولّي زمام المبادرة.

– فلنذهب إلى مكتبي لكي نتحدّث بهدوء. أيّها المحقّق...؟

– فيليبيني، النقيب لوسي فيليبيني.

قادها عبر متاهة من الممرّات الضيّقة المتداعية قبل الوصول إلى مكتبٍ عصريٍّ فخم مزيّنٍ بلوحات فنّية تجريدية وبأكداسٍ من الكتب التي شكّلت ما يشبه أعمدة. وكانت تعلو طاولة المكتب صورة شخصيّة لرجلٍ يرتدي بزّة رسمية، وقد دوّنت على الصورة هذه العبارة: «شيلديريك دي فيلانبروز، 1909، المؤسّس».

– ما الذي جعلكِ تعتقدين أنّه قد قُتِل؟

– لقد أثبت التشريح الطبّي أنّه قُتِل بسمٍّ نادرٍ، من الصعب الحصول عليه، وبالتالي من المؤكّد أنّه مكلفٌ جدًّا. وعادة ما يكون من نوع السمّ الذي قد يستخدمه رجلٌ يريد أن يكون في طليعة الحداثة.

– ولكن منْ سيكون قد استطاع...؟

– ربّما، أنت.

– هل تمزحين؟ أنا من صنعتُ غابرييل. من دوني، لما سمعتِ به قط. حينما التقيته، كان عاطلًا عن العمل، ومجهولًا، وأنا فرضته بالضدّ من إرادة مديري الأقسام لديّ، الذين وجدوه منحرفًا للغاية.

– من المستفيد من الجريمة؟ ربّما تكون أنت من صنعته، ولكنك كنت تتحكّم به شيئًا فشيئًا. لقد سمعتُ أنّه كان يأخذ عليك عدم الترويج لأعماله في الخارج وأنّه هدّدك بالانتقال إلى دور نشرٍ منافسة لدارك. كنتَ ستخسر صنيعتك، في المقابل إذا مات، وإذا استبدلت به برنامجًا للذكاء الاصطناعي، ليس فقط لن يعود يكلّفك شيئًا من حقوق المؤلّف، بل علاوة على ذلك، سوف تتحكّم بأعماله. لقد أعدتَ بيع كلّ كتبه وأصبحت رواية *نحن الموتى* في صدارة قائمة المبيعات. وهكذا أنت الرابح على جميع الجبهات: لقد أصبحت مالكًا لكلّ ما أنتجه عقله في الماضي وكلّ ما سينتجه عقله الاصطناعي في المستقبل.

شغّل ألكسندر دي فيلانبروز حاسوبه وبدا غارقًا في التأمّل في صفحةٍ من موقعٍ إلكترونيٍّ. للحظةٍ، خشيت لوسي من أنّه يُدرج اسمها في محرّك البحث، ولكنه لم يبدُ أنّه قد اكتشف معلوماتٍ عنها. بدت على وجهه ملامح عبوسٍ وخيبة أمل.

– كان غابرييل صديقي. حتى إذا انتقل إلى ناشرٍ آخر، كنتُ سأبقى على الدوام أعدّه صديقًا لي. كانت علاقتنا أمتن وأبعد من مجرّد علاقة بين كاتبٍ وناشرٍ. إذا كنتُ قد أطلقتُ برنامج غابرييل ويلز الافتراضي، فهذا لأنني لا أعرف في الوقت الحالي كاتبًا آخر قادرًا على رواية قصص مبتكرة مثل قصصه.

- هل تعتقد أنّه كان سيوافق على مسعاك؟

- من دون أدنى تردّد.

- هل قتلتَه؟

- كلا! بالتأكيد كلّا!

حدّقت فيه مطوّلًا.

- إذن منْ قتله، برأيك؟

- كان يمارس مهنةً تُثيرُ الكثير من الغيرة. بالنسبة إليّ، لو كنتُ في مكانكِ لفكّرتُ حسب مبدأ شفرة أوكام[1]. وبدل أن أتساءل منْ هو المستفيد من الجريمة، كنتُ سأذهب إلى الأبسط وأستجوب الذي قال إنّه يُريدُ قتله...

- منْ هو...؟

- معظم الكتّاب يكرهون بعضهم بعضًا، ولكن ليست هناك كراهية أكبر من تلك التي تنشب بين الكتّاب الذين لا تُباع كتبهم والذين تُباع كتبهم. موازي هو الآخر كاتب. جميع النقّاد رهن إشارته، ويحتكرُ المقالات الأدبية في الصحف المرموقة ويحتلُّ شاشات التلفزيون، وهو عضو في لجان تحكيم الجوائز الأدبية، وقد نال تقدير واحترام كلّ العاملين في المهنة، ولكنّ رواياته تُباعُ بنسخٍ قليلة جدًّا. ما يكتبه مملّ ومضجر، وهو مغرورٌ ومتبجّح؛ فجمله طويلة لامتناهية والمفردات التي يستخدمها معقّدة جدًّا بحيث ينبغي على قارئ كتبه أن يمسك بين يديه قاموسًا. أمّا بالنسبة إلى الحبكة، فهي مكرّرة باستمرار ولا جديد فيها: شبابه كطفلٍ كان يتعرّض للضرب على حدّ زعمه (لا بدّ أنّ والده، الذي حظيتُ بفرصة التعرّف عليه والذي كان رجلًا آسرًا، يتقلّب في قبره وهو يرى ابنه يبني مهنته على أكاذيب تلوّث ذكراه) وحفلات عربدته الباريسية مع سياسيين أو صحفيين أو كتاب آخرين من أقرانه.

- ولكنّه أدبٌ له أيضًا الحقّ في التعبير عن نفسه، على ما يبدو لي. لقد نال بالفعل العديد من الجوائز المرموقة.

1- شفرة أوكام أو نصل أوكام، هو مبدأ لحل المشكلات ينص على أنه لا ينبغي الإكثار من شيء إذا لم تكن هناك ضرورة لذلك. المترجم

- يمكننا أن نعتبر الجوائز الأدبية شيئًا مختلفًا عن التسويات بين الأصدقاء عندما يتمّ الحكم على الأعمال الأدبية من دون معرفة اسم الكاتب والناشر، أي يتمّ الحكم على جودة النصّ فحسب. ونقطة في آخر السطر.

- أنت قاسٍ في حكمك. أعضاء لجان التحكيم لهذه الجوائز هم من المشاهير وأسماء كبيرة معروفة في عالم الأدب.

- موازي مقتنع بأنّه يكتب أدبًا ذكيًّا للناس الأذكياء وأنّ ويلز يكتب أدبًا غبيًّا للناس الأغبياء. يُعدّ بيع كل ألف كتاب من كتب غابرييل بمنزلة طعنة في صدره. لم يكن ينام الليل، لشدّة غرقه في الحقد على غابرييل. ألم تقرَأي قط مقالاته عن غابرييل؟ يقول إنّه من العار أن تُنشَر أعمال ويلز، ويُهين قرّاءه، ويتحدّى المكتبات أن تمتلك الجرأة على مقاطعته. خلال لقائهما التلفزيوني الأخير، هدّده بالموت علنًا وفي بثٍّ مباشر.

- وهل كان ويلز يحقد عليه؟

- هناك عداءٌ يمتدُّ لألف عام بين الكتّاب والنقّاد. وقد تحدّث عمّ والدي، إدمون عن ذلك في مقطعٍ من موسوعته. حاول أن يبقى فوق الخلافات، ولكن ذلك أثّر عليه من كلِّ بدٍّ. من يستطيع أن يتحمّل رؤية نفسه يُهان على الملأ من قبل النقّاد الذين غالبًا لا يقرؤون حتى الكتب التي يكتبون مقالاتٍ عنها؟

توقّف ألكسندر دي فيلانبروز وحدّق مطوّلًا في لوسي. ثمّ قال، معترفًا:

- لم أُدرك ذلك في الحال، ولكنكِ عن قرب أكثر إبهارًا بكثير.

-49-

بعد محاولاتٍ عديدة، انتهت الروحان الهائمتان لكلٍّ من غابرييل وإينياس إلى العثور في باريس على ما يبدو أنّه سيرج دارلان، الذي لم يعد له نفس مظهر سامي قبل تسعة أعوام. أصبح وجهه الآن يحمل لحية كثيفة سوداء، كما أصبح أنفه أكثر عرضًا، وخدّاه غائرتين.

شاهداه يقود سيارته وهو يتحدّث بالهاتف عبر أجهزة السيارة دون

الحاجـة إلى اسـتخدام هاتفه النقّال، وتتخلّل جملـه عبارة «إن لم يكن لديك مانع». لاحظ غابرييل أنّه إذا كانت العملية الجراحية التجميلية قد غيّرت في الملامح الجسـدية، فإنّ الصوت يخون دائمًا العقل. ثمّ اتّصل مع أربع نسـاء تبيّن أنّهن شـقيقاته الأربع. بدا أنّهم سـيلتقون لقضاء السـهرة في منزل امرأةٍ تُدعى فوستينا سميث ويلينجتون.

قـرّر غابرييل وإينيـاس أن يلحقا به، على أمل أن يكتشـفا فيما بعد عنوانه الشخصي.

وصلت السيارة إلى ميدان دنفر روشيرو وتجاوزت تمثال الأسد المهيب الذي ينتصب في وسط مفترق الطرق.

لاحظ إينياس:

- *هه، هذا هو الحيّ الذي كنتُ أُقيم فيه.*

سـار سـيرج دارلان في جادة مين وتوجّه نحو شارع تومب إيزوار متبوعًا باستمرار من المحققَين غير المرئيين. وفي تلك اللحظة دوّى صوتٌ صاخبٌ من السماء:

- *إيني! إيني! وأخيرًا وجدتكَ! لقد بحثتُ عنك في كلّ مكان.*

قطعـت الـروح الهائمة لامرأةٍ الطريـق عليهما. كانت ترتـدي ثيابًا بطلت موضتها منذ زمنٍ طويلٍ. لم يعرفها غابرييل في الحال. أطلق إينياس صيحةً:

- *ماغدا؟ آه لا! إلّا أنتِ!*

- *أوه يـا حبيبـي، أنا سـعيدةٌ جـدًّا بأن أراك أخيـرًا! لو تعلـم منذ كم من الوقت أبحث عنك!*

تقـدّم إكتوبلازم المرأة الشـابّة وفمه على شـكلِ قلبٍ ليقلّـد قبلةً وعرف غابرييـل أخيـرًا جدّته. وبما أنّهـا كانت قد اختارت مظهر امـرأةٍ في الثلاثين، بـدت بالطبـع أصغر سـنًّا من إينيـاس بكثير. ركض هـذا الأخير فـي الاتجاه المعاكس.

قال:

- *لا يمكننا البقاء هنا، يا غابرييل!*

- ولكن يا جدّي، يجب أن نواصل تعقّب سامي!

- أنا آسفٌ يا بُني، هناك حدودٌ للتحمّل. كنتُ آملُ أن تكون ماغدا قد تناسخت روحيًا، ولكن الآن وقد عرفتُ أنها هي الأخرى تعيشُ في دهاليز الليمبو وأنها قد عثرت عليّ، لا أُريدُ أن أعرّض نفسي لخطر أن تضايقني.

حلّقا بعيدًا، ولكنّ الروح الهائمة لماغدالينا ظلّت تسير خلفهما، وهي تزداد ابتهاجًا بهذا اللقاء الذي كانت قد فقدت الأمل بحدوثه.

- إيني! إيني!

- أنا أكره أن تناديني بهذه الطريقة! أشعرُ بأنها تُريدُ أن تجعلني مقاومًا للحرق.

- إنّها تلحق بنا، يا جدّي!

- لديّ فكرة! اتبعني يا بُني، ربّما أعرفُ كيف نفلتُ من هذه العلقة!

توجّه نحو كوخٍ صغيرٍ أخضر اللون في ميدان دنفر روشيرو وعرف غابرييل مدخل سراديب الموتى.

- ماذا تُريد أن تفعل هنا، يا جدّي؟

- لن نستطيع أبدًا الإفلات منها في العالم اللامرئي، ولكننا في المقابل نستطيع أن نفلت منها وسط الحشد. ويمكنني أن أقول لك إنّ حشدًا من ستّة ملايين جثّة يُعدّ أعلى مستوى من كثافة الإكتوبلازمات في المتر المربّع في كلّ أنحاء باريس.

نزلا الدرج الحلزوني ليصلا إلى مدخل سراديب الموتى. كانت العتبة تحمل العبارة المكتوبة: «**قف مكانك! أنت هنا في إمبراطورية الموت**». قال غابرييل في نفسه إنّه لا يمكن تقديم دعوة أفضل من هذه لهما. فالكاتب لم يزر قط هذا المكان الكئيب. الآن وقد مات، لم يعد يشعر بأيّ شيءٍ سلبي، بل على العكس تمامًا. أنزلت هذه الجدران المغطّاة بالجماجم وعظام الزنود شيئًا من الطمأنينة عليه وهدّأته. بدا أنّ صفّ الجماجم ذات محاجر العينين الفارغة يقف تحيّةً له. كانت الجماجم تشكّل أفاريز ومنمنمات وأشكالًا هندسية متناسقة. الموسيقى التي ظلّت تتصاعد باستمرار حتى

في ذلك الوقت المتأخّر هي موسيقى «رقصة الموت» للمؤلّف الموسيقي سانت سين. وقد أضفَت على هذا الديكور من الهياكل العظمية بعدًا سحريًا. اعتقد غابرييل أنّ الكثير من مشكلات البشرية تعود في جوهرها إلى الخوف من الموت، الذي يغذيه عمدًا مَنْ يزعمون أنّهم لا يخشونه وهم - القساوسة - بهدف السيطرة على الأذهان الأكثر هشاشةً.

قال غابرييل في نفسه: *يوم يصبح فيه الإنسان أكثر سكينةً حيال الموت، سوف يفقد رجال الكنيسة سلطتهم. هم يعلمون ذلك، ولهذا السبب يغذّون الأفكار الظلامية.*

في مواجهتهم تظهر في هذه اللحظة الأرواح الهائمة لكلّ هذه الجثث. إنّهم يرتدون لباسهم بنفس الطريقة، في نموذجٍ يناسب الحقبة التي تقع بين عهدي لويس الرابع عشر ونابليون الثالث.

سُمِع عندئذٍ صوتٌ مألوفٌ:

- *عُد يا حبيبي، هذه أنا، ماغدالينا! حبيبتك ماغدا! أحبّك وأودّ كثيرًا أن أبقى بجانبك!*

تجاهلها إينياس وغاص نحو مجموعة الأرواح الهائمة الأكثر اندماجًا وهو يتوسّل إليها: «*خبّئوني من فضلكم، أنا مُلاحَقٌ*». حلّلت الإكتوبلازمات الوضع سريعًا، ولأنّها سُرّت كثيرًا بإسداء خدمةٍ في هذا المكان الذي تضجر فيه كثيرًا، تجمّعت في وقت واحدٍ لتشكّل جدارًا يُخفي إينياس. بالطبع، لأنّها كانت شفّافة، احتاج الأمر إلى تراكم عدّة طبقات للحصول على طبقة كتيمة. لحسن الحظّ، كان هناك أكثر من كيلومترٍ من الممرّات وعدّة ملايين من الأشباح المتجمّعة في نفس المكان، الأمر الذي منح غابرييل الشعور بأنّه في المترو في ساعة الذروة.

اختبأ وجدّه في ركنٍ وانضمّت إليهما سريعًا روحٌ أخرى. لم تكن ماغدالينا. لم يميّز غابرييل وجه تلك الروح، ولكن حينما تراجعت واستدارت فجأةً، ما رآه الكاتب جعل روحه تجفل: كانت روحٌ هائمة مصابة بالزهايمر فقدت ذاكرة وجهها، وباتت لها من جرّاء ذلك سحنة ملساء تمامًا، قال غابرييل في نفسه إنّها تشبه ردفًا.

سأل الرجل عديم الوجه:

- *هل يمكنك أن تخبرني منْ كنتُ من فضلك؟*

- *أنا آسف، أنا لا أنتمي حتى إلى العصر الذي كنتَ تنتمي إليه.*

- *في هذه الحالة، هل تعرف أيّ شخصٍ قادرٍ على أن يساعدني في هذا الأمر؟*

- *أنا آسف، نحن نحاول أن نختبئ و...*

في وقتٍ متأخرٍ جدًّا، رأتهما ماغدالينا وجرت نحوهما.

توسّل الرجل:

- *أرجوك، أخبرني من أكون!*

قاطعه إينياس:

- *نحن في عجلةٍ من أمرنا. دعنا نمرّ من فضلك.*

اقترح عليه غابرييل:

- *سوف أخبركَ من تكون إذا أعقتَ الروح التي تلاحقنا، اتّفقنا؟*

قال الرجل ذو الرأس الشبيه بردفٍ:

- *أنا جاهزٌ لكلّ شيء لكي أعرف من أكون.*

قال غابرييل بحدسٍ مفاجئ:

- *أنت الرجل ذو القناع الحديدي!*

وفي الحال، تخيّل الرجل، منبهرًا، ما يشبه خوذة الغواص التي يضعها على وجهه الأملس.

انتصب واستعاد رباطة جأشه، وقال:

- *أوه، شكرًا! لا يمكنك أن تعرف مدى الرعب الذي يعانيه منْ لا يعرف منْ يكون. سيمكنني الآن أن أعرف حكاية غلافي الجسدي القديم. وأخيرًا أصبح لوجودي كروح هائمة معنى. ما الذي يمكنني أن أفعله لأجلك مقابل هذا؟*

- *افعل كلّ شيء حتى تمنع روحًا هائمة محدّدة من اللحاق بنا؛ سوف تتعرّف عليها بسهولة: لها كعكة شعر مضحكة.*

هـزّ الرجل المسـمّى حديثًـا بذي القنـاع الحديدي رأسـه واتّخذ وضعية السـكون متربّصًـا مثـل لاعب ركبي، فـي لحظة ظهـور ماغدالينـا. نجح في إعاقتها لبضع ثوانٍ، ولكنّه لم يستطع منعها من الالتفاف عليه في النهاية.

اندسّ الهاربان في المنطقة الأكثر كثافةً من الممرّات. ناور إينياس وتعرّج في مساره للإفلات من زوجته السابقة، وحاول غابرييل أن يحافظ على إيقاع تحليقه كي لا يبتعد كثيرًا عن جدّه. راقب، وهو يمرّ، كلّ أولئك الناس كما لو أنّه يزور متحفًا، وألقى أحيانًا عليهم التحيّة بتهذيبٍ قبل أن يشير إليهم بإشارة لكي يقوموا بإعاقة المرأة التي تطير خلفهما.

وأخيـرًا، بـدا أنّ إينياس قد نجح في التخلّص من زوجته السـابقة. ولكي يطمئـنّ تمامًا، بـدل الصعود مباشـرةً فوق سـراديب الموتى، آثـر أن يخترق جدارًا جانبيًّا للوصول إلى المترو.

– لـك أن تتخيّـل ما يحدث لو أنّها أمسـكت بي! لقـد عانيتُ منها طوال حياتي، وكنتُ سأضطرّ لأن أستمرّ في المعاناة منها «بعد موتي»!

لم يستطع أن يكبح رعشة رعبٍ خالصٍ.

– بسبب هذه المطاردة، فقدنا سامي داودي.

ردّ جدّه:

– ربّمـا لا. أعتقـدُ أننـي أعرف كيـف أعثر عليـه. لقد تكلّم عن فوسـتينا سـميث ويلينجتون. هذا ليس اسـمًا عاديًّا. فأنا أعرف مَنْ تكـون وأين تُقيم. تعال معي.

50. الموسوعة: مدافن أسلافنا

المقابر كما نعرفها الآن هي اختراعات حديثة. حتى عام 1800، كان الضريح الفردي مخصّصًا بشكلٍ أساسي للموتى المهمّين: الملوك أو النبلاء أو الجنرالات أو القساوسة. في فرنسا، على سبيل المثال، كان العرف يقتضي أن تُحفَر في الأحياء الأسوأ سمعةً حفرٌ مشتركة تُدعى «حقول الراحة». كانت عمومًا عبارة عن خنادق

بعرضٍ يتراوح بين خمسة وعشرة أمتار وبطولٍ يتراوح بين عشرة وعشرين مترًا، وبعمقٍ يتراوح بين خمسة وعشرة أمتارٍ، حيث كان يمكن تكديس ما يصل إلى عشرين ألف جثّة فيها. تُنزَلُ فيها الجثث عاريةً أو في أكفانٍ، وتُصفُّ بعضها بجانب بعض بضمّ بعضها إلى بعض بأشدّ ما يمكن. حينما يمتلئ طابقٌ، يغطّي حفّارو القبور الجثث بطبقة من التراب بسماكة عشرة سنتمترات، ثمّ يبدؤون بملء طبقة ثانية، ثمّ طبقة ثالثة، وهلم جرا، حتى يبلغو السطح.

كان المجموع يشكّل ما يشبه «لازانيا الجثث»، التي تُغطّى قمّتها بألواحٍ متحرّكة ليكون بالإمكان إضافة جثث جديدة بسهولة. كانت تنبعث من حقول الراحة هذه رائحة كريهة مثيرة للغثيان، وعند هطول المطر، تبعثُ هذه المقابر الجماعية أبخرة مميتة تجعل الهواء غير صالحٍ للاستنشاق، وتلطّخ حتى الجدران والستائر. كانت الجرذان تتكاثر بين العظام واللحم البشري المتعفّن. وحينما تُملأُ حفرةٌ، إمّا يتمّ إفراغها في حقول أكثر اتّساعًا تقع في ضواحي المدن قبل ملئها بجثث جديدة، أو تُغطّى بالتراب وتُبنى فوقها منازل، متناسين أنّ تحت أساساتها حفرة مشتركة. وكان الاحتمال الثالث يتمثّل في مواصلة تكديس الجثث على السطح وتركها تتحوّل إلى تلال، بل هضبات صغيرة، تجري فوقها الحياة بشكلٍ طبيعي. وقد دوّن مؤرّخون في تلك الفترة وقائع عن حضور العديد من الخنازير التي كانت تأتي وتنبش الأرض لاستخراج جثث الموتى، وكذلك الكلاب التي كانت تأتي لاستخراج عظامٍ وقضمها. في بعض الأحيان، بسبب هطول الأمطار، والجرذان والغازات المتراكمة في تلك المقابر الجماعية، كانت التربة، المشغولة بهذه المادة المتعفّنة، تنهار فتسحب المنازل وسكانها إلى وسط الهياكل العظمية والجرذان. ولم يحدث إلّا في عام 1786، في أعقاب انفجار سرداب أحد أصحاب المطاعم في شارع لانجري تحت ضغط قبرٍ جماعيٍّ مجاور، أن قرّر البرلمان، لأسباب تتعلّق بالوقاية الصحيّة، إفراغ جميع مدافن عظام الموتى الباريسية المعروفة. فجمعت رفات ساكني تلك المقابر في

حقلٍ على الحدود الجنوبية لباريس: سراديب الموتى الشهيرة في ساحة دنفير روشيرو. ومنذ ذلك الحين، لم يعد يوزّع الرفات حسب المستوى الاجتماعي وإنّما حسب حجم العظام.

إدمون ويلز،

***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

-51-

لمّا عادت إلى بيتها، جلست لوسي أمام حاسوبها وشغّلت إعادة البرنامج التلفزيوني *قطران وتربيش*. ظهر الموضوع، «أدب المستقبل»، ملء الشاشة. أظهرت شارة البداية كتبًا تتراقص على أنغام موسيقى سمفونية مهيبة. جلس ثلاثة مدعوين في بزّات رسمية في أرائك وبدأ مقدّم البرنامج بطرح الأسئلة على الكاتب الأوّل، ولكن لوسي ضغطت على زرّ التقديم السريع لتصل إلى نهاية البرنامج، أي في اللحظة التي وصل فيها غابرييل إلى أريكة منْ تُجرى مقابلتهم، «على المشواة». لم يبدُ مرتاحًا كثيرًا. تلاعب مقدّم البرنامج، المرح، ببطاقاته وتوجّه نحو كتّابه:

– والآن إلى القنّاص، إلى القاتل، إلى منْ يهابه الجميع: جان موازي. حسنًا، يا جان، ماذا كان رأيكَ بالعمل الأخير لضيفنا؟

– الغلاف صفر. العنوان صفر. وعلى نحوٍ خاصّ، هناك غيابٌ تامّ للأسلوب. بالنسبة إليّ، الأسلوب هو كلّ شيء، والحال أنّ أسلوبه بكلّ بساطة معدوم. ويلز هو أسوأ كاتب عرفته، إنّه عارٌ على المهنة. يجب منع كتبه.

– ولكن مع ذلك لديه الكثير من القرّاء! وهو يلامس بالدرجة الأولى فئة الشباب، وهو جمهورٌ يكافح الأدب في سبيل جذب اهتمامه...

– لديه الكثير من القرّاء لأنّ الجمهور عمومًا لا يعرف شيئًا عن الأدب الجيّد، ويقرأه الشباب لأنّهم غير مثقّفين ولا يجيدون معرفة كتابٍ نوعيٍّ.

– ولكنّه يجذب أيضًا الناس في المكتبات.

- لأنّ أصحاب المكتبات الذين يبيعون أعماله ليس لديهم حافزٌ آخر سوى مغريات الربح، وفقدوا القدرة على رؤية الجانب الجمالي والأسلوب في العمل!

- ويلز، ما رأيك برأي موازي حول عملك؟

- قبل كلّ شيء، أودّ أن أشكره. يشرّفني جدًّا أنّ عملي لا يلقَى استحسانًا في نظر السيّد موازي. إنّه من دواعي سروري أن يُثير عملي حفيظة وغضب النقّاد الذين لا يحبّون سوى الكتب المملّة. لو نظرتُ جيّدًا، سأكتشف أنّ جميع الكتب التي عشَقها قد نُسيَت، كما لو أنّ ذلك يحدث صدفةً، والكتب التي نبذها شهدت النجاح. إنّ الحصول على نقدٍ سلبي من موازي يشبه الدوس بالقدم اليسرى على براز الكلب، فهو يجلب الحظّ السعيد.

احتجّ موازي، منصدمًا:

- كيف تجرؤ على قول هذا؟

- الأمر الوحيد الذي يؤسفني هو أنّ رأي السيّد موازي لا يستند إلى القراءة المعمّقة لعملي. لقد تحدّث عن الغلاف والعنوان لأنّهما العنصران الوحيدان اللذان يعرفهما من عملي. أرى من مظهر النسخة الموجودة أمامه أنّها لم تُفتَحْ حتى، لذا لا أفهم تمامًا ما الذي يستند إليه في رأيه بشأن أسلوبي في الكتابة.

- أنا أجيد قراءة الكتب دون إتلافها. أنت تحاول أن تصرف الأنظار، في حين أنني أستفيدُ من هذا المنبر لأعبّر بأعلى صوتي عمّا يفكّر فيه كلّ زملائي بصوتٍ منخفض. أنت كاتبٌ متواضع.

- خصمي الوحيد هنا هو افتقارك إلى الفضول. أنا أقرّ بأنّك لست الوحيد الذي لم يفتح قط كتبي. لكن لمجرّد أنّ الكثير منكم على خطأ لا يجعلكم على صواب.

- وما الذي يُفترَض بالقرّاء أن يفعلوه لكي يعرفوا الأعمال الجديدة في المكتبات إذا كنتَ تشكّك في مهنة بأكملها يتمثّلُ دورها في توعيتهم وتزويدهم بالمعلومات؟

- أوّلًا، أنا لم أشكّك في المهنة بأكملها. هناك نقّاد رائعون. ثمّ هناك

مصادر أخرى للمعلومات بالنسبة إلى القرّاء: أصحاب المكتبات، التواصل الشفوي، المدوّنات التي يديرها الهواة المتحمّسون، معلّمو اللغة الفرنسية أو الوالدان اللذان يريدان منح أطفالهما رغبة القراءة والمطالعة.

– من السهل بعض الشيء التشكيك في نظامٍ بأكمله أثبت جدواه وفعاليته...

– أنا لا أعترف إلّا بناقدٍ واحدٍ: الزمن. الوقت هو الذي يمنح الأعمال قيمتها الحقيقية. إنّه يجعل الكتّاب التافهين طيّ النسيان ويخلّد الكتّاب المجدّدين.

قرّر مقدّم البرنامج، الذي أراد أن يدعم الكاتب في مؤسسته، أن يعود إلى صلب الموضوع، فسأل:

– وما هو ردّك على موازي عندما يأخذ عليك غياب الأسلوب في أعمالك؟

– الأدب الذي يحبّه موازي هو بشكلٍ أساسي أدبٌ تجميليٌّ. مستحضر التجميل هو الذي يُخفي التجاعيد والبثور. يتمّ إبراز الشكل لإخفاء رداءة الجوهر. أو، إذا استخدمتُ صورةً أخرى للتعبير، الأسلوب هو عبارة عن صلصة الطبق الرئيسي. يُضاف الكثير من الصلصة، الدسمة والمالحة، الصلصة المحضّرة بالزبدة أو بزيت القلي، حينما يُراد إشباع الحليمات الذوقية في سبيل إخفاء مذاق اللحم الرديء. والحال أنّ اللحم، بالنسبة إليّ، هو الحبكة. إذا كان اللحم لذيذًا، لا يحتاجُ إلى صلصة.

استأنف موازي الحديث:

– تقول مارغريت دوراس إنّ كتابة رواية جيّدة لا تحتاج إلى الحبكة. وهنا يكمن كلّ إبداع وحداثة **الرواية الجديدة**. نتخلّص من الحبكة، الذريعة العبثية، لمصلحة صقل الأسلوب. نقطة على السطر. لا أعتقد أنّك ستذهب إلى حدّ مخالفة رأي الروائية الكبيرة مارغريت دوراس!

ألحّ مقدّم البرنامج في سؤاله:

– إذن، يا جان، هل تعتقد أنّ غابرييل ويلز لن يصبح كاتبًا بارزًا في السنوات المقبلة؟

– السيّد ويلز ليس كاتبًا *بكلّ بساطة*. إنّه لا شيء. إنّ حضوره على هذه المنصّة وفي عالم الأدب عمومًا في حدّ ذاته مشكلة. إنّ الرغبة في إرضاء العدد الأكبر من القرّاء هي الديماغوجية بعينها. وإنّ استحضار الزمن كناقدٍ وحيدٍ هو محض ادّعاء. ماذا يعتقد؟ هل يعتقد أنّ أعماله سوف تُقرأ حتى مئة عام؟ الرغبة في إرضاء الأجيال المقبلة هي ضربٌ من الطوباوية. من جهتي، سوف أبقى أدافع على الدوام عن الأدب الكلاسيكي الذي، بحسب رأيي، يُعدُّ الأدب النوعيّ الوحيد. لنكن جدّيين: إنّ الأدب الفانتازي والفانتازيا البطولية، وروايات الخيال العلمي والروايات البوليسية وروايات الإثارة وروايات الرعب والروايات الهزلية ولا حتى الروايات الإيروتيكية التي تغمر رفوف المكتبات في محال السوبر ماركت ليست في الحقيقة من الأدب «الحقيقي» لأنّها من نتاج الخيال. إنّ رواية جيّدة لا بدّ أن تتحدّث عن الواقع وعن الحاضر؛ إنّها تُغذّى بخبرة الكاتب الذي لا ينبغي له أن يتحدّث إلّا عمّا يعرفه شخصيًّا وليس عمّا يتخيّله.

سأل مقدّم البرنامج:

– ما رأيكَ بما يقوله، يا ويلز؟

– السيرة الذاتية الرواية التي هي في الواقع الأدب الوحيد الرائج حاليًّا في فرنسا (أو بالأحرى في باريس)، ليست سوى علاجٍ مقنّعٍ. فالكاتب الذي يروي، على سبيل المثال، طفولته لا يبتكر أيّ شيء: يكتفي بالمراقبة. ليس هو من يخلق والديه، ولا بيئة حياته، ولا الذين يشاركونه حياته. هؤلاء الكتّاب ليسوا سوى كتّاب لسيرتهم الذاتية، وكان عليهم أن يذكروا «الله» ككاتب مشارك لهم طالما أنّه هو من خلق الممثّلين والديكور وحتى المواقف التي يتحدّثون عنها في أعمالهم.

– كيف تفسّر هذا الرفض المنهجي لعملك من قبل النقّاد المشهورين مثل موازي؟

– إنّهم يعيشون في عالمٍ موازٍ مع قيمهم الخاصّة. أنا أحترم تلك القيم، ولكنّها تبدو لي غير كاملة. الأمر يشبه جعل ناقدٍ للموسيقى الكلاسيكية يستمع إلى موسيقى الروك أند رول: سوف يراها بالتأكيد مفتقرة إلى

الأسلوب، وديماغوجية. بيد أنّ موسيقى الروك نجت من اختبار الزمن ولامست الشباب لأنّهم عمومًا أكثر انفتاحًا.

تابع مقدّم البرنامج:

- وهل تحبّ الموسيقى الكلاسيكية، يا ويلز؟

- بكلّ تأكيد. وأحبّ أيضًا موسيقى الروك، لأنّه ليس هناك تناقض بين الاثنتين. وبنفس الطريقة، أنا أقرأ في آنٍ واحدٍ كتّاب الروايات البوليسية وكبار الأسلوبيين أمثال بروست أو فلوبير. ما يثير الدهشة هو أنّه يوجد في مجال الموسيقى صحفٌ مخصّصة للموسيقى الكلاسيكية وأخرى مخصّصة لموسيقى الروك؛ أمّا في مجال الأدب، فليست هناك سوى وسائل الإعلام التي تحبّ بالضبط نفس الكتب. إنّها تشبه الخراف التي ترعى معًا نفس العشب في نفس اللحظة. وهذا يضرُّ بالقرّاء الذين ربّما يرغبون في الحداثة والتنوّع. إنّهم ليسوا حتى على علمٍ بحقيقة أنّ بعض الكتّاب يستكشفون طرقًا جديدة. بحسب رأيي، ما ينبغي الحفاظ عليه هو بالتحديد تنوّع الأدب. ليس هناك نوعٌ أدبيٌّ سيّئ بحدّ ذاته، هناك أعمالٌ جيّدة وأخرى سيّئة بين كلّ أنواع الأدب.

- وما رأيكَ في حقيقة أنّ كتبك موجودة في محال السوبر ماركت؟

- لستُ أنا منْ يقرّر أماكن توزيع رواياتي. وبالنسبة إليّ، الهدف الوحيد للكتّاب هو زيادة عدد القرّاء عمومًا.

- بيد أنّ موازي يرفض أن يمنحك لقب كاتب. ما هو ردّك على هذا؟

- عدوّي ليس موازي، خصمي هو إغراء المسلسلات الأمريكية والسينما وألعاب الفيديو والتلفزيون التي بمجملها تجعل المتلقي يستقبل الحكايات بطريقة سلبية تمامًا، في حين أنّ الروايات تحثّ القرّاء على خلق صورهم الخاصّة وتحوّلهم إلى مخرجين سينمائيين. موازي هو الآخر كاتبٌ، ولذلك أعتقد أنّ عليه أن يتصوّرني كمنافس له. ومع ذلك، الشمس تشرق على الجميع. بين الكتّاب، نحن لسنا متنافسين، ولا نسرق القرّاء بعضنا من بعض. لأنّه، وأكرّر القول، بالنسبة إليّ هدفنا الوحيد هو دفع المزيد من الناس نحو القراءة والمطالعة؛ فكلّما زاد عدد القرّاء، زاد عدد الأذكياء.

ردّ موازي، منزعجًا ومتذمّرًا:

- ديماغوجيّة! ديماغوجيّة! ما يسمّيه ويلز «زيادة عدد القرّاء»، أنا أسمّيه «السباق نحو القاع». لا يكفي الدفاع عن الكتب، بل يجب أيضًا حثّ القرّاء على تذوّق الجودة! يُنتج ويلز ثقافة لا قيمة لها.

ردّ غابرييل:

- أعتقدُ أنّك بدفاعك عن سلامة ما تسمّيه الأدب الجيّد تجازف بأن تصبح حفّار قبره.

- أنت لست محترفًا للأدب، يا سيّد ويلز، لست سوى هاوٍ محظوظٍ لا وجود له إلّا بفضل الموضوعات المثيرة. أنا أحمل شهادة الدكتوراه في أدب القرن العشرين. أمّا أنت، فاعترف بأنّك لم تدرس الأدب حتّى!

- هذا صحيح تمامًا. وأنا فخورٌ بذلك. بُنيت سفينة *التايتانيك* من قبل مهندسين كانوا قد درسوا، في حين بُنيت سفينة نوح من قبل شخصٍ عصاميٍّ علّم نفسه بنفسه. وقد رأينا أيّهما غرقت وأيّهما نجت من الطوفان.

أجّجت ضحكاتٌ تصاعدت من بين الجمهور غضب الناقد الذي نهض ضاربًا بقبضة يده على الطاولة. مدّ سبابته نحو كبش الفداء خاصّته وقال بهدوء:

- أتمنّى أن تموت سريعًا، يا ويلز، وأنّ يتخلّص الأدب أخيرًا من حضورك المُرهِق.

- أمّا بالنسبة إليّ، فأتمنّى أن تكون سعيدًا وأن تكون بذلك أقلّ سعيًا إلى الرفع من شأنك من خلال ذمّ زملائك.

- أشعرُ بأنني أبلي بلاءً حسنًا بما فيه الكفاية في واجبي بحماية الأدب الجيّد لكي أتخيّل ذات يوم القضاء عليك بكل بساطة. وفي ختام حديثي سأقول إنّ كاتبًا جيّدًا لأدب الخيال العلمي هو الكاتب الميّت. فبهذه الطريقة يمكنه على الأقلّ أن يزور العوالم الخيالية.

ضحك مقدّم البرنامج من العبارة، كما ضحك الجمهور وصفّق. استدارت الكاميرا نحو غابرييل ويلز الذي توقّع منه الجمهور أن يدلي بإجابته الأخيرة، ولكنّه ظلّ صامتًا، كما لو أنّه لم يعد يرغب في الدفاع عن نفسه. بدا مجروحًا كما لو أنّ الحقد الذي أبداه موازي قد انتهى إلى اختراق قوقعته.

واصل المقدّم برنامجه بتقديم سلسلة من كتبٍ أخرى بدت له مثيرة للاهتمام. رأت لوسي تمامًا أنّ غابرييل غائب، ومتلهّفٌ إلى مغادرة المنصّة. وإذ تأثّرت لرؤيته منزعجًا إلى هذه الدرجة، أطفأت المرأة الشابّة شاشة حاسوبها. لم تكن تظنّ أنّ الأدب يستطيع أن يخلق الكثير من العدوانية بين النقّاد والكتّاب، تمامًا مثلما كانت تجهل أنّ النقّاد يمكنهم أن يكونوا منافسين للكتّاب. كانت تتخيّل أنّ الأدب يشبه مسابقة رياضية، مسابقة للتزلّج الفنّي على الجليد على سبيل المثال، حيث يُشاركُ الحَكَم في نفس المسابقة. وهذا ليس عدلًا.

عاقدةً العزم على مواجهة الصحفي، بحثت على الإنترنت عن معلومات خاصّة بالاتّصال بالناشر موازي، ونجحت في الحصول على عنوان الناقد.

-52-

استُقبِلَ سامي وأخواته من قبل امرأة بدينة تغطيّها المجوهرات ومساحيق التجميل بطريقة مبتذلة. خلعوا معاطفهم، وجلسوا في غرفة ذات ديكورٍ مزدحمٍ بالأثاث. فوق رؤوسهم، تفردُ بومةٌ محنّطة جناحيها ومن حولهم تنتصب في كلّ مكان تماثيل مريم العذراء، وتمثالا بوذا بدين وكبير الملائكة ميخائيل الذي يذبح تنينًا برمحه، وكذلك لوحة تمثّل ديانا إلهة الصيد، وأخرى تمثّل الإلهة المصرية إيزيس. ينبعثُ الضوء الوحيد من قُرابة مئة شمعة حمراء مصفوفة بتناسقٍ. جلس الوافدون الجدد حول طاولة مستديرة.

تكلّمت واحدة من الأخوات أوّلًا، فشرحت:

- هذه أوّل مرّة نحاول فيها القيام بهذه التجربة.

- يجب أن تشكّلوا حلقة وتقفوا على أطراف أصابعكم. وعليكم على نحوٍ خاصّ، عند وصولها، ألّا تخافوا وألّا تقطعوا الاتّصال: لا ينبغي في أيّ حالٍ من الأحوال كسر الحلقة.

أشعلت فوستينا سميث ويلينجتون شمعة ضخمة ثمّ تحدّثت ببطءٍ:

- أستحضر روح أمّكم. ماذا كان اسمها؟

- مونيا.

– مونيـا، أنا أسـتحضرُ روحكِ. أقتـرحُ عليكِ أن تتواصلي معنا حسـب الترتيـب التالي: سـوف ترفعين الطاولة مـرّة واحـدة إن أردتِ أن تقولي نعم وترفعينها مرّتين إن أردتِ أن تقولي لا. مونيا، هل أنتِ هنا؟

لم يحدث أيّ شيء وانتظر الجميع، يعتريهم بعض القلق.

طمأنتهم فوستينا:

– لا تنجـح هـذه الطريقة في كلّ مرّة، ولكن هذا يسـتحقّ عناء الانتظار. يمكنها أن تسـتغرق بعض الوقت حتى تنضمّ إلينا إذا كانت في دهاليز الليمبو البعيدة.

ثمّ أردفت قاصدة الروح الهائمة:

– مونيا، من فضلك، هؤلاء أطفالك هنا، ويرغبون في التحدّث إليكِ.

مرّة أخرى لم يحدث أيّ شيء.

– مونيـا، أنا أسـتحضرُ روحكِ حتى تأتي وتتحـدّث معنا. اظهري حينما تستطيعين. مونيا، هل أنتِ هنا؟

عمّ الهدوء كلّ شـيء. ولكنّ شمعةً انطفأت فجأةً، ثمّ انطفأت أخرى، ثمّ انطفأت ثالثة.

مرّت لحظة من الزمن، حتى ارتفعت الطاولة وظلّت مرفوعة لبضع ثوانٍ.

صاحت واحدة من الأخوات، متأثرةً:

– ماما!

ذكّرتهم الوسيطة الروحية:

– حذاري أن تكسروا الحلقة!

ثـمّ ارتفعـت الطاولـة فجـأةً من جديد علـى قوائمهـا الأربعة. شـقّ على غابرييل أن يصدّق حواسه غير الماديّة...

قال، مندهشًا:

– *ولكن ليست هناك أيّ روحٍ في الأنحاء!*

اقترح عليه جدّه:

– *تعال لترى.*

عبـر إينياس الطاولة وأراه أنّ فوسـتينا تضغطُ بقدمها على دوّاسـة متّصلة بأسطوانة هيدروليكية تسمح لها برفع الطاولة حسب رغبتها.

- لقد أخبرتك لوسي بذلك: خمسة وتسعون بالمئة من الوسطاء الروحيين من المشعوذين. والأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أنّ عزيزها سامي يستسلم بسهولة للخديعة.

- سيكون سعيدًا بالعثور على لوسي. سوف يكتشف كيف تكون الوسيطة الروحية الحقيقية.

- ماما... ماما... هل حقًّا هذه أنتِ؟

ارتفعت الطاولة مرّة واحدة.

- هيّا، اطرحوا أسئلتكم. إنّها تُصغي إليكم.

سألت إحدى الأخوات:

- هل تتألّمين حيث أنتِ؟

ارتفعت الطاولة مرّتين.

- هل أنتِ بخير؟

ارتفعت الطاولة مرّة واحدة.

- ماما، لقد جئنا للقائكِ لأنّ سونيا قابلت رجلًا وقعت في حبّه. نحن نعتقد أنّه ليس مناسبًا لها، ولكنّها لا تريد أن تسمع أيّ شيء. أردنا أن نعرف رأيكِ قبل أن نتصرّف. هل يجب علينا أن نسمح لها بأن تتردّد على هذا الشخص؟

ارتفعت الطاولة مرّتين.

سألت إحدى الأخوات:

- هل هذا بسبب مرضه؟

ارتفعت الطاولة من جديد مرّتين.

سألت أختٌ أخرى:

- هل هذا بسبب سوء عاداته الحياتية؟

ارتفعت الطاولة مرّة واحدة.

استمرّ الحوار بين الفتيات والدوّاسة الهيدروليكية للوسيطة الروحية، وسط الاستياء الكبير للأخت التي كانت تأمل في الحصول على موافقة أمّها.

لم يرفع غابرييل، المنبهر، عينيه عن سامي.

قال في نفسه: *كم هو محظوظٌ أن ينال هذا القدر من الحبّ من لدن امرأة استثنائية إلى هذه الدرجة مثل لوسي!*

بدا سامي، وإن كان حريصًا على الانكفاء، قلقًا من الحديث الذي يجري بين والدته الراحلة وشقيقاته العاشقات، اللواتي يذكرن بالتناوب عشيقهنّ، الحالي أو الذي يتقْنَ إليه.

قال إينياس:

- يبدو العشيق السابق للوسي في ورطة.

- نعم، يبدو أنّ سامي لا يشكّ في أيّ شيء.

- هذا ما سبق أن وصفه هاري هوديني في عصره. يغزو السوقَ روحانيون مشعوذون يستغلّون سذاجة زبائنهم. تكمن مهمّتهم في إشباع حاجة طبيعية: التحدّث إلى موتاهم الأعزّاء. بحسب استطلاعٍ حديثٍ للرأي، يبلغ عدد البشر الآن ثمانية مليارات نسمة. من بينهم، يعتقد ستّة مليارات أنّه من الممكن التحدّث إلى موتاهم، وقد خاض خمسة مليارات منهم تجربة الموائد الدوّارة أو طقوس أخرى، وثلاثة مليارات منهم على صلة منتظمة مع وسيطٍ روحي أو وسيطة روحية يزعم أو تزعم امتلاك علاقة مع ملائكةٍ أو شياطين أو أشباح.

- لم أكن أُدرك أنّ سرّ ما بعد الحياة يُبهِرُ إلى هذا الحدّ.

- بيد أنّك وصفت ذلك في رواية نحن الموتى: تسعون بالمئة من البشر يؤمنون بالخرافات أو مؤمنون.

- أنا لستُ مقتنعًا بذلك بشكلٍ وثيق لأنني كتبتُ ذلك في رواياتي. أنت تعلم أنني قبل كلّ شيء كائنٌ شكّاك. ولكن من الصحيح أنني كتبتُ أيضًا أنّ عدم الاهتمام بما سيحدث لنا هو شكلٌ من أشكال اللاوعي.

- لم أفهم قطّ كيف كنت تتّخذ مواقفك في ما يتعلّق بكلّ هذه المسائل.

- أنا مستكشفٌ فضوليٌّ. في نهاية المطاف، الرغبة في معرفة ما سيحدث بعد موتنا تبدو فضولًا مشروعًا، أليس كذلك؟

نظرا إلى الشخصيات الخمس ووسيطتها الروحية. أجاب غابرييل:

- حسنًا، في جميع الأحوال، يبدو سامي وشقيقاته ودودين. يجب عليّ أن أعترف لك بأنّ الشكوك كانت تخامرني بشأن نزاهتهم، ولكن السيّد داودي الذي أصبح الآن سيرج دارلان ليس المخادع الذي كنتُ أخشى أن

يكون. إنّه مجرّد المحاسب الذي خالفه الحظّ في أن يكون له ربّ عمل غير نزيه جعله يخفي المخدّرات وحمّله مسؤولية ذلك.

- إلّا أنّ سامي هرب على أيّ حال...

- لقد أراد أن ينقذ حياته. ولكن حينما نراه، ندرك جيّدًا أنّه مجرّد صبيّ يرغب في إجراء حديثٍ مع أمّه التي يحبّها حبًّا جمًّا...

- إذن ماذا سنفعل، يا بُنيّ؟

- ليس أمامنا من خيار، لقد وعدتُ لوسي. يقع على عاتقنا نحن أن نعيد قصّة الحبّ المنقطعة هذه إلى مسارها الصحيح. سوف نبقى هنا إلى أن ينتهوا من هذا الاحتفال وسوف نتتبّع سامي لكي نحصل على عنوانه. وبعد ذلك سيحين دورها هي في أن تلعب.

من تحتهما، بكت إحدى الأخوات لأنّها ستضطرّ إلى تركِ منْ تحبّ، ولكنّها لم تقطع على الإطلاق الصلة مع أيادي شقيقاتها.

من جهتها، حافظت فوستينا سميث ويلينجتون على هذا المظهر الجادّ والرزين الذي من المفترض أنّه يذكّر زبائنها بأنّه مهما حدث، فإنّ ذلك لا يتعلّق بها هي وإنّما بالعالم غير المرئي الذي هي ليست سوى خادمة متواضعة له.

-53-

وصلت لوسي إلى العنوان الذي كان الناشر موازي قد أعطاه لها. كانت سهرة خاصّة في شقّة باريسية فاخرة، مقابل مبنى المسرح الوطني الفرنسي. اعتقدت أنّها ستتمكّن من عبور المدخل بفضل بطاقة الشرطة خاصّتها، ولكن مظهرها وثوبها هما ما خدمها كبطاقة دخول. في الحقيقة، نظر الخادم الذي فتح لها الباب إليها سريعًا من قمّة رأسها حتى أخمص قدمها ثمّ سمح لها بالدخول دون أن يطلب منها أيّ شيء إضافي. وحين عبرت عتبة باب الشقّة الواسعة، لمحت حشدًا صغيرًا مكوّنًا من نساءٍ شابّات نحيلات وأنيقات، يحيطُ بهنّ رجالٌ أكبر سنًّا منهنّ وبُدناء. كان ما يقرب من عشرين نادلًا يتحرّكون بين الحضور ويصبّون الشامبانيا أو يقدّمون الكافيار. تفاجأت

لوسي كثيرًا حيث كان الناشر موازي قد أخبرها أنّ الشقّة تخصّ رجلًا سياسيًا من اليسار المتطرّف شرسًا للغاية في تهجّمه على العالم الرأسمالي. تذكّرت خطاباته ضدّ المصارف التي تجوّع الشعب، أو اقتراحاته المؤيّدة لفرض ضرائب بنسبة مئة بالمئة على الثروات الضخمة في فرنسا. وجدت أنّ العناصر الوحيدة التي ربّما تساعد في الإشارة إلى القناعات السياسية لمالك هذا المكان الراقي هي صور ستالين وتشي جيفارا وفيدل كاسترو وماو تسي تونغ وهوغو تشافيز وبول بوت التي كانت تزيّن كلّ الجدران.

توجّهت إلى مدعوٍ حدّق فيها بثبات:

– أنا أبحث عن جان موازي.

– موازي؟ لا بدّ أنّه في الشرفة.

سلكت السلّم واكتشفت شرفةً مساحتها خمسمئة متر مربّع تطلّ على كلّ باريس المضاءة. كانت مكبّرات صوت عديدة تبثّ الأغاني الثورية لأمريكا اللاتينية. كان يجلس على الأرائك ما يقرب من مئة شخصٍ تعرّفت لوسي من بينهم على كتّابٍ مشهورين (منتمين غالبًا إلى اليسار المتشدّد)، وصحفيين، ومحامين، وإعلاميين، ومغنّين. كان أغلبهم يدخّنون السيجار ويشربون الشامبانيا. وفي الوسط تتحرّك فتيات أصغر سنًّا من فتيات الطابق السفلي، واللواتي تساءلت لوسي إن كنّ كلّهنّ بالغات. ولكن لأنّها لم تكن في هذا المكان للتحقيق في جرائم القانون العام العادية، سألت من جديد من صادفتهم لكي تعرف المكان الذي يوجد موازي فيه. وأخيرًا، رضي رجلٌ بدين أن يخبرها بمكانه:

– عندما لا نعرف أين هو، فإمّا إنّه يمارس الجنس مع فتاةٍ في الحمّامات أو يأخذ جرعةً من الكوكايين خلف سياج النباتات هذا.

تقدّمت في الاتجاه المشار إليه ووجدت بالفعل الناقد الأدبي الشهير وهو يستنشق المسحوق الأبيض باستخدام ورقة نقدية من فئة مئة يورو ملفوفة على شكل أنبوبٍ. وكانت فتاةٌ تجلس منفرجة الساقين على ركبتيه.

– هل يمكنني التحدّث إليك، يا سيّد موازي؟

أظهرت بطاقة الشرطة. تفحّصها من قمّة رأسها إلى أخمص قدميها كما

لو أنّ الأمر يتعلّق بشراء حصانٍ للسباق: حدّق للحظةٍ في صدرها، وعاد إلى النظر إلى ساقيها، ثمّ هزّ كتفيه وترك الفتاة الجالسة على فخذيه.

جلست لوسي أمامه في حين صبّ لنفسه كأسًا من الشامبانيا وشرب محتواه في جرعة واحدة.

– نحن نحقّق في قتل غابرييل ويلز. والحال أنّك وجّهت إليه تهديداتٍ بالقتل على شاشة التلفزيون عشيّة وفاته.

– مرّة أخرى ويلز! من المؤكّد أنّ هذا الرجل سوف يزعجني حتى بعد موته! يا له من وباء!

– هل قتلتَه؟

– كلّا، ولكنني مستمتعٌ بموته، ولو استطعتُ أن أقابل قاتله لمنحته ميداليةً دون تردّد.

صبّ لنفسه كأسًا أخرى من الشامبانيا، دون أن يكلّف نفسه عناء تقديم كأسٍ لها، ورفع كأسه مع ابتسامة ازدراء.

– من عساه يكون القاتل، بحسب رأيك؟

فكّر كما لو أنّه يبحثُ عن إلهامٍ شعريٍّ.

– هل تُريدين حقًّا أن أخبركِ بذلك؟ إذا ما أمعنتُ التفكير، أعتقدُ أنّني أعرفُ منْ قتله.

تنهّد بعصبيّة.

– أنا أصغي إليك.

– هو نفسه. ما كتبه كان رديئًا جدًّا بحيث لا بدّ أنّ صحوةَ ضميرٍ جعلته يدرك مدى تواضعه وهذا ما قضى عليه.

– لقد أثبت تحليلُ دمه أنّه قد سُمِّمَ.

– هذا ليس مستبعدًا، فقد درس علم الجريمة. ومَنْ أفضل منه يستطيع أن يجدَ السمّ الأكثر فعّالية ليضع حدًّا لحياته؟ نعم، أنا مقتنعٌ بذلك، لا بدّ أنّه هو منْ عاف نفسه فوضع حدًّا لحياته. لا بدّ أنّه نظر إلى نفسه في المرآة وقال إنّ الخداع قد استمرّ طويلًا، وإنّه يجب ترك المكان للكتّاب الحقيقيين. وهذه هي الفكرة الأهمّ التي راودته على الإطلاق، إن أردتِ رأيي بذلك.

أقبل بعض المدعوين نحوه لإلقاء التحيّة عليه.

قالت له امرأة أربعينية تغمرها القلائد والأساور النفيسة:

– آه! جـان! لقد انبهـرتُ بعرضك التلفزيوني الـذي قدّمته في آخر مرّة. لقـد جعلتَ من غابرييـل ويلز هذا أضحوكةً بالفعل! من المهمّ جدًّا أن يدافع أشـخاصٌ مثلك عن الجودة في وجـه التفاهة الأدبية المحيطـة. هل يمكنني الحصول على توقيعك؟ سوف أضعه بين أحد كتبك. لديّ كلّ كتبك.

نظـر إلى المرأة من قمّة رأسـها إلـى أخمص قدمها، وتردّد للحظة بشـأن السـلوك الذي يجب تبنّيه، ولاحظ أنّ بشـرتها ملسـاء بفعـل البوتوكس بكلّ تأكيد وقبِل في النهاية أن يوقّع سريعًا على الورقة التي مدّتها نحوه.

وصلت امرأةٌ أخرى واسـتغلّت ذلك لتطلب الشـيء ذاته وسـط سيلٍ من المجاملات.

استأنف الناقد الأدبي كلامه متوجّهًا إلى لوسي:

– إذن، انتحارُ ويلز. وجّهي تحقيقاتكِ في هذا الاتّجاه، وسـوف ترين أنّ لا مبالغة في هذا الأمر مثلما يبدو لكِ.

فـي هذه اللحظة بالذات، ظهر مقـدّم برنامج *قطران وترييش*، الذي توجّه نحوه:

– جـان، لقـد بحثتُ عنك في كلّ مكان! يجب أن نتحدّث بشـأن الحلقة المقبلة من البرنامج: سوف نستضيفُ فيها دوتيو. هذه المرّة، يجب أن تُغدِقَ عليه بالمديح، هل اتّفقنا؟ أنا أحتاجُ إليه في أمرٍ شخصيٍّ.

التفت جان موازي نحو لوسي.

– لقد أخبرتكِ بكلّ شيء، يا آنسة، والآن عليّ أن أهتمّ بضيوفي.

تفحّـص مقدّم البرنامج هو الآخر لوسـي دون أن يلقـي عليها التحية ولا أن يودّعهـا. بدا لها أنّ هذا الصمت المزعج بين متحدّثين يتواجهان ولكن لا يخاطبان بعضهما بعضًا لا يُطاق. حدّقت عيونٌ أخرى فيها من بين المحيطين بها. لـم يسبق لها قطّ أن شعرت بأنّها تُهان إلى هذه الدرجة بالعيون المجرّدة. تصاعدت ضحكاتٌ من اتجاهاتٍ مختلفة. ضحكاتٌ قسـرية بعض الشـيء، ضحكاتٌ مجلجلة نابعة من متعةٍ أو تشـجيعٍ. في حين توجّهت لوسـي نحو

باب الخروج، عرض عليها نادلٌ كأسًا من الشامبانيا رفضته بطريقةٍ مهذّبة. قدّم لها نادلٌ آخر قطعًا صغيرة من المعجّنات، ولكنّها تجاوزته دون توقّف. للمرّة الأولى، شعرت أنّ قتل ويلز قد يبقى لغزًا عصيًّا على الحلّ. صعدت إلى السيارة وسارت على ضفاف نهر السين، متأمّلةً المدينة الرائعة في الليل، تحت أضواء برج إيفل الساطعة.

سأل غابرييل ويلز الذي ظهر فجأةً:

– *إذن، كيف كان يومكِ؟*

– لقد عدتُ للتوّ من منزل آخر مشتبهٍ به لدينا.

– *أنا أصغي إليكِ.*

– موازي؟ إنّه يكرهك كرهًا شديدًا. لا أفهم كيف يمكن للكراهية أن تصل إلى هذا المستوى. ولكن بدا لي أنّه من نوع الرجال الذين يتكلّمون كثيرًا ويفعلون قليلًا، من النوعِ الذي يعتدي لفظيًّا ولكن ليس جسديًّا. حتى وإن تمنّى علانيةً موتك، أعتقدُ أنّ هذا مجرّد موقف ليس إلّا.

– *من هو الذي يبدو لكِ الأكثر احتمالًا بأن ينتقل من القول إلى الفعل؟*

استغرقت في التفكيرِ طويلًا قبل أن تقول:

– شقيقك. لا أعرف شيئًا عن علاقتكما، ولكن يبدو أنّه كان هناك بينكما نوعٌ من مزيج الحبّ والكراهية يمكنه، بحسب رأيي، أن يكون سببًا لفعلةٍ كهذه. ثمّ إنّه الوحيد من بين المشتبه بهم منْ يمتلك المعارف العلمية، وبالتالي القادر على تحضير منتجات كيميائية معقّدة.

– *ومع ذلك يصعبُ عليّ كثيرًا أن أتخيّله يسمّمني...*

– وأنت، يا غابرييل، إلى أين وصلت بشأن التحقيق حول سامي؟

– *نجحت المهمّة.*

– ماذا؟

– *لقد عثرتُ على صاحبكِ سامي!*

اتّسعت حدقتا عيني لوسي، وأوقفت السيارة في مكانها فجأةً، وحثّتها كلّ السيارات التي خلفها على إخلاء الطريق، مطلقةً العنان لأبواق التنبيه والشتائم.

فـدسّ غابرييل في أذن الوسـيطة الروحيـة العنوان الـذي يمكنها العثور عليه فيه.

54. الموسوعة: قانون القضيب الصغير جدًّا

الحرب المستعرة بين النقّاد والكتّاب لا تعود في تاريخها إلى يومنا هذا، بل موغلة في القدم. بعد أن حضر موليير عرضًا لمسرحية *هاملت* للمسرحي شكسبير، وصف المسرحية بأنّها سوقيّة وبربرية، وهي نتاج كاتبٍ سكّير.

وعن رواية *مادام بوفاري*، كتب الناقد في صحيفة *لوفيغارو*: «السيّد فلوبير ليس كاتبًا حتى».

حينما نشر ليون تولستوي رواية *آنا كارينينا*، عبّر الناقد في صحيفة *لوكوربيه دوديسا* عن خيبة أمله من أنّه لم يجد «صفحة واحدة منها تحتوي على فكرةٍ».

عبّر الناقد في صحيفة *سان فرانسيسكو إكزامينر* عن غضبه حيال المجموعة القصصية *كتاب الأدغـال*، وكتب: «أنا آسف، السيّد كيبلينج، ولكنّك لا تجيد حتى التحدّث بالإنجليزية بطلاقة». وبشأن رواية *مرتفعات ويذرنغ* للروائية إيميلي برونتي، وجّهت *نورث بريتش ريفيو*، النقد التالي: «إنّها عيوب كتب شقيقتكِ شارلوت مضروبةً بالألف؛ والعزاء الوحيد هو أنّها ليست مقروءة كثيرًا».

وبشأن *مذكّرات* آن فرانك، اعتبر صحفيٌّ أنّ «هذه الفتاة الصغيرة لا تصف أيّ تصوّرٍ ولا أيّ شعورٍ خاصّ من شأنهما أن يثيرا في هذا الكتاب أكثر من مجرّد فضول».

بشكلٍ عامّ، الكتاب الذين يقعون ضحيّة لأحكام كهذه قلّما يكلّفون أنفسهم عناء الردّ، لكن مايكل كرايتون، المعروف بأنّه كتب، بالإضافة إلى أعمال أخرى، الحديقة الجوراسية، كان استثناءً. كتب الصحفي مايكل كراولي مقالة عن روايته *حالة رعب* في *صحيفة نيو ريبيليك*. في مقالته، اتّهم كراولي الكتاب بأنّه دعاية مُضادّة للفكر

يشنّها جاهلٌ. في السنة التالية، أصدر كرايتون كتابًا جديدًا عنوانه: *التالي*. تعالج هذه الرواية شخصية رجلٍ شاذٍ جنسيًا يهوى الأطفال وله قضيبٌ صغيرٌ جدًّا اسمه مايك كراولي. توصَف الشخصية كصحفيٍّ يعيش في واشنطن، بنفس مظهر وعمر الناقد. وحده الاسم الأوّل عُدِّلَ تعديلًا طفيفًا. هذه الحكاية الطريفة أتاحت إقرار «قانون القضيب الصغير جدًّا»: بدل أن يقيم دعوى قضائية بالتشهير والقذف أو طلب حقّ الردّ، يحقّ لكاتبٍ تعرّض للإهانة في صحيفة أو وسيلة إعلامية، وليست لديه فرصة التعبير عن موقفه والدفاع عن نفسه، لأنّه ليس صحفيًّا، أن يخلق في روايته شخصية تهدف إلى شجب الشخصية الحقيقية للناقد. فلكلٍّ أسلحته...

إدمون ويلز،
***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

-55-

وأخيرًا التقيا. خفقت جفونهما على نحوٍ متسارع، وتسارع خفقان قلبيهما.

ارتعش سامي تأثّرًا.

حاولت لوسي أن تتغاضى عن التعديلات العديدة في ملامح وجهه وتعرّفت على نظرته. أجهشت بالبكاء وتعانقا بكلّ ما أوتيا من قوّة.

سألت كما لو أنّها لا تجرؤ على تصديق ذلك:

– أهذا أنت؟

– أوه! يا حبيبتي!

لم يستطيعا الكلام واكتفيا بالبكاء. ثمّ نجح سامي أخيرًا في التلفّظ بجملةٍ:

– أنا سعيدٌ للغاية بلقائكِ، يا لوسي!

تأتأت:

- و... و... وأنا أيضًا.

دعاها إلى الدخول. جلسا على الأريكة وضمّ سامي يديه في يديها.

- لقد انتظرتُ طويلًا هذه اللحظة!

- بحثتُ عنك في كلّ مكان. أنا في غاية السعادة بلقائكَ!

- شكرًا، يا إلهي! وأخيرًا ها أنتِ أمامي. لم تتغيّري يا لوسي!

حدّقت فيه، وتردّدت قبل أن تطرح السؤال الذي يحرق شفتيها:

- لماذا اختفيتَ يا سامي؟

- كان ربّ عملي محتالًا. طلب منّي مرّات عديدة أن أرتكب المخالفات للتحايل على الرقابة، وأن أكذب، وأن أخفي مخدّرات. وخوفًا من أن أخسر وظيفتي، وافقتُ على الدوام أن أغضّ الطرف عن ممارساته. يومَ طلبتُ منكِ المساعدة، كان قد أخبرني أنّ منزلي معرّضٌ للتفتيش وطلب منّي استثنائيًّا أن أخفي الحقيبة في مكانٍ غير منزلي. أمّا بالنسبة إليه، فقد ذُعِرَ وفرّ من فرنسا. خشي أحد زملائي أن يرسل قتلة مأجورين للتخلّص منّي قبل أن أقرّر الإدلاء بشهادتي ضدّه. لقد تردّدتُ في إخباركِ بمكان وجودي ولكنني خشيتُ من التنصّت على مكالماتي الهاتفية ومن عدم تمالكي لنفسي والاتصالِ معكِ رغمًا دون إرادتي. ولهذا السبب أتلفتُ هاتفي المحمول ولم أستطع الاتّصال بكِ. ولكن بفضل كاميرات المراقبة، استطاعت الشرطة أن تتعقّب أثري واكتشفوا أنني كنتُ أقوم بزيارتكِ. ولهذا السبب فتّشوا منزلكِ. أوه يا حبيبتي، كم أنا نادمٌ على طلبي هذه الخدمة منكِ!

لسعادتها الغامرة بلقائه، ضمّت لوسي عشيقها بقوّة أشدّ إلى صدرها وقلبها.

- وبعد ذلك، لجأتُ إلى سويسرا، إلى مدينة جنيف، وذهبتُ إلى عيادة طبيّة. وهناك، غيّرتُ اسمي وملامح وجهي واستخرجتُ جوازَ سفرٍ مزوّرًا.

داعب شعرها بحركة لطيفة وتابع:

- حتى شقيقاتي لم يكنّ على علمٍ بمكاني. عندما هدأ كلّ شيء، عدتُ إلى باريس. حاولتُ مباشرةً أن أتّصل بكِ، ولكن رقم هاتفكِ لم يعد

مخصّصًا. علمتُ أنّكِ مسجونة في مركزٍ إصلاحيٍّ في مدينة رين وأدركتُ أنني لن أستطيع الوصول إليكِ. حاولتُ أن أقوم بزيارتكِ في السجن، ولكن بما أنّ أعوان المافيا منتشرون في كلّ السجون، خشيتُ من أن يكتشفوا من أكون ومنْ كنتِ حالما ألتقي بكِ. يجب أن تفهميني يا لوسي! كنتُ أخافُ كثيرًا من أن يلحِقوا بكِ الأذى... ولذلك انتظرتُ لشهورٍ ومن ثمّ لسنوات...

– لماذا لم تأتِ للبحث عنّي بعد خروجي من السجن؟

– لقد جئتُ، ولكن بعد فوات الأوان، لأنّكِ كنتِ قد رحلتِ. فقلتُ في نفسي إنّه من الأفضل ألا أعود أجازف بالتسبّب بالمتاعب لكِ. لقد سبق أن ألحقتُ بكِ الكثير من الأذى. وقد ندمتُ على ذلك كثيرًا. هذه هي الحقيقة، يا حبيبتي. أنا أحبّكِ، يا لوسي. لم أكفَّ قطّ عن حبّي لكِ. لا يمكنكِ أن تعرفي كم حلمتُ بهذه اللحظة. ستكون شقيقاتي في غاية السرور بلقائكِ. الآن وأنتِ هنا، يمكن لكلّ شيء أن يبدأ من جديد مثلما كان من قبل.

سمعت الوسيطة الروحية ضجيجًا على الدرج.

– آه، ها قد أقبلن!

حينما تعرّفن على الصديقة السابقة لشقيقهنّ، أطلقت الشقيقات الأربع صيحات فرحٍ. عانقنها وقبّلنها الواحدة تلو الأخرى.

– لقد اشتقنا إليكِ كثيرًا، يا لوسي. يا لها من سعادة أن نلتقي بكِ من جديد، يا أخيّة!

– لم تتغيّري يا جميلتي!

– بل إنّكِ أجمل من ذي قبل.

تدخّل سامي:

– صدّقيني، رغم هذا الفراق الذي دام تسعة أعوام، بقيتُ كما كنتُ تمامًا ولم أتغيّر قط. سوف نستطيع أن نبدأ من جديد بمشاريع زواجنا وإنجاب أطفالٍ. هيا، يا أخواتي، فلنعدّ عشاءً فاخرًا احتفالًا بهذه المناسبة!

قالت الأخت الصغرى:

– أوه نعم! سوف نحتفي بلوسي! استرح، وسوف أتكفّل بكلّ شيء.

انتشروا جميعًا في المطبخ، حيث انهمكوا في إعداد وجبة لذيذة.

وفي تلك اللحظة انتبهت لوسي إلى حضور غابرييل.

همست:

- أعرف ماذا يجول في خاطرك، ولكنّك مخطئ.

- *لا أفكّر في أيّ شيء. أنا أصغي إليكم، وأراقبكم، وهذا كلّ شيء.*

- لا يمكنك أن تُدرك ما معنى الحبّ الحقيقي يا غابرييل. إنّه قوّة سحرية تتخطّى كلّ شيء. والآن أطلب منكَ أن تدعني أستمتع بهذه اللحظات التي انتظرتها طويلًا جدًّا، دون أن تأتي لكي تشوّشها عليّ بموجاتك المليئة بـ...

- *مليئة بماذا؟*

- ... بالشكوك.

عاد سامي إلى لوسي.

- هل كنتِ تتكلّمين معي، يا عزيزتي؟

- لا، كنتُ أتحدّث مع نفسي. كنتُ أقول لنفسي إنني انتظرتُ كثيرًا هذه اللحظة التي أُريدُ الاستمتاع بكلّ ثانيةٍ منها.

- تعالي إذن، ليست لدينا دقيقة واحدة نضيّعها.

تناولوا العشاء، وغنّوا، وشربوا، وضحكوا. ثمّ ذهب العاشقان إلى الغرفة وتعرّيا بحركاتٍ رعناء وشغوفة.

استغرقت لوسي لحظة لكي توقد الشموع وتشغّل موسيقى هادئة. كانت معزوفة لفرقة أسترالية تُدعى (ديد كان دانس) التي تتّسم بخصوصية توليف الأغاني الجنائزية مع مقطوعات من موسيقى الروك. ارتفع الصوت العميق للمغنّية ليزا جيرارد في أغنية «سانفين».

جاءت لوسي تتكوّر في حضن شريكها. بعد أن داعبا وقبّلا بعضهما بعضًا مطوّلًا، مارسا الحبّ.

قال إينياس، اللطيف، الذي حام فوقهما:

- *كم هما رائعان!*

- للأسف وصفتني بالمتلصّص في المرّة الأولى التي قابلتني فيها...

- في الزمن الذي عشتُ فيه، لم يكن الشريكان يقومان بالكثير من المداعبات، وغالبية النساء لم تكن يفكّرن حتى بالطلب من الرجل أن يتمالك نفسه عن القذف حتى يبلغن رعشة الجماع.

- كان الناس يعرفون كيف يحبّون بعضهم بعضًا رغم كلّ شيء.

- نعم، ولكن كانوا يحبّون بعضهم بعضًا أقلّ من الآن بكثير. وربّما هذا هو أيضًا ما يفسّر سبب التعقيد الكبير في علاقتي مع ماغدا: لم أكن أمتّعها، وعلى الأرجح لم تجرؤ على إخباري بذلك. ولكني أنا أيضًا لم أكن راضيًا. كنّا نمارس الحبّ دائمًا وجهًا لوجه، وسط الظلام التامّ، وكانت تُبقي على قميص نومها أثناء ممارسة الجنس. وكان كلّ ما من شأنه أن يبدو شيئًا من الخيال بالنسبة إليها انحرافًا وشذوذًا.

- هذا لم يمنعكما من إنجاب أبي وعمّتي...

- ومع ذلك، كنتُ أرغب كثيرًا في أن أتصرّف مثل هذين الاثنين، يبدو أنّ الحبّ الحقيقي رائعٌ.

أطلقت لوسي صيحة لذّة.

- هذا هو. لا يمكننا إلّا أن نُعجَب بالفنّانة!

حاكى حركة تصفيقٍ.

- يا جدّي، تنتظرُ لوسي منذ تسع سنوات هذه اللحظة، وقد ظلّت وفيّةً له، إنّها لحظة حرّية وانعتاقٍ بالنسبة إليها.

واصل العاشقان عناقهما.

اضطرّ غابرييل لأن يعترف.

- ولكن مع ذلك، يا لها من طاقة!

- هذا يذكّرني بنكتةٍ. أجرى أستاذٌ جامعي استطلاعًا صغيرًا للرأي؛ متوجّهًا إلى مدرّجٍ جامعيٍّ مليءٍ بالطلّاب، وسأل السؤال التالي: «كم واحدًا من بينكم يمارس الحبّ كلّ يوم؟» من بين ما يقرب من مئة طالبٍ حاضرٍ، رفع ما يقرب من عشرين طالبًا أيديهم. واصل الأستاذ الجامعي: «كم واحدًا

منكم يمارس الحبّ مرّتين في الأسبوع؟» هنا، رفع ما يقرب من ثلاثين طالبًا أيديهم. سأل الأستاذ الجامعي مرّة أخرى: «كم واحدًا منكم يمارس الحبّ مرّة واحدة في الأسبوع؟» رفع نصف عدد الطلّاب في المدرّج أيديهم. «كم واحدًا منكم يمارس الحبّ مرّة واحدة كلّ خمسة عشر يومًا؟» من جديد، ارتفعت بعض الأيادي. «كم واحدًا منكم يمارس الحبّ مرّة واحدة في الشهر؟» «كم واحدًا منكم يمارس الحبّ مرّة واحدة كلّ شهرين؟» «كم واحدًا منكم يمارس الحبّ مرّة واحدة كلّ ثلاثة أشهر؟» وفي النهاية، سأل: «كم واحدًا منكم يمارس الحبّ مرّة واحدة في السنة؟» هنا، رفع رجلٌ واحدٌ فقط يده. فسأله الأستاذ: «هل تمارس الحبّ فعلًا مرّة واحدة في السنة؟ ومع ذلك تبدو سعيدًا للغاية، كيف يمكن هذا؟» فأجاب الطالب: «لأنني مارستُ الحبّ هذا المساء بالتحديد».

أفرج غابرييل عن ضحكةٍ خفيفةٍ ولكنّه لم يستطع أن يحوّل نظرته عن العاشقين اللذين كانا محاطين بما يشبه هالةً ذهبية.

- هل رأيتَ هالته؟ هل هذا هو «الحبّ الحقيقي»؟

فكّر إينياس بصوتٍ عالٍ:

- في الحقيقة، الحبّ هو شكلٌ من الروحانية في حدّ ذاته.

قاطعه غابرييل:

- يجب احترام خصوصيّتهما.

- أنتَ منْ تقول لي هذا؟

أطلقت لوسي صيحةً أخرى وفجأةً برزت روحها عبر السقف.

لم تبقَ روحها في الأعلى سوى ما يقرب من عشر ثوانٍ، ثمّ هبطت من جديد بنفس السرعة التي صعدت بها، كما لو أنّها موصولة بجسدها بحبلٍ من المطّاط.

قال غابرييل، مندهشًا:

- لم أكن أعلم أنّ النشوة الجنسية تُحدثُ مخارج عابرة في الجسد!

حينما توقّف الضجيج أخيرًا، عاد غابرييل وإينياس إلى المنزل. وجدا

أنّ سامي يشخر في حين كانت لوسي تستحمّ في حوضٍ مليءٍ بالماء ورغوة الصابون. غطست فيه وأغمضت عينيها.

قالت وهي تمدّ الرغوة لإخفاء جسدها العاري:

- أعلـمُ أنّكمـا هنا. أتمنى ألا تكونا قـد راقبتماني أثنـاء مداعباتنا ولهونا ومرحنا تحت اللحاف...

- *لوسي، أودّ أن أعرّفكِ على جدّي، إينياس.*

- سُررتُ بلقائك، يا إينياس!

أجاب هذا الأخير:

- *وأنا أيضًا. رؤيتكِ على هذه الدرجة من السـعادة منحتني الرغبة في أن أولَد من جديد جسديًّا لكي أستعيد هذا الإحساس المميّز جدًّا...*

أبقت المرأة الشابّة عينيها مغمضتين، وقالت، بمرحٍ واستمتاع:

- تُريدُ أن تولَد من جديد، يا إينياس؟

- *أوجدي لي صفقةً جيّدة وسوف أهجرُ وضعيتي كروحٍ هائمة!*

- سيكون عليكَ أن تكون أكثر دقّةً وتحديدًا. في أيّ نوعٍ من الأجنّة تُريد أن تولَد من جديد؟

- *كلّ مـا عشـتُه مؤخّرًا، وكذلـك كلّ ما رويته لغابرييل أتـاح لي أن أُعيد النظر في حياتي السـابقة. أعتقدُ أنني أخاف النسـاء، وأعتقدُ أنني لم يسبق لي قـط أن تحدّثـتُ مع امرأةٍ، وأعتقدُ أنّنـي لم أفهم قطّ امـرأةً... أُريدُ أن أتغلّب على هذه المشكلة وأشفى منها.*

بلّلت لوسي شعرها.

واصل إينياس حديثه:

- *في الزمن الذي كنتُ أُعيشُ فيه، لم يكن هناك تحرّرٌ جنسـي، كان على المـرء أن يتـزوّج حتى يمارس الحـبّ، وكنّا نفتقر إلى الخبرة افتقارًا شـديدًا! لقد اختُرِعَت كلمة «الحشـمة» لتبرير الصمت حول هـذا الموضوع الذي عُدَّ محظورًا. إذا أراد أحدهم أن يعرف أكثر بقليل عن هذا الموضوع، كان عليه أن يذهب للقاء المومسات، الأمر الذي لم أستطع قطّ اتّخاذ القرار بالإقدام عليه.*

قالت لوسي ساخرةً وهي تصبّ الشامبو على شعرها:

- كان لديك الكثير من المبادئ.

- كانت وسيلة الاتّصال المفضّلة لدى شريكتي هي اللوم والعتاب. وفي الفترة الأخيرة من علاقتنا، لم نعد نمارس الحبّ قط، وكانت متعتي الوحيدة هي شرب النبيذ الفاخر. أعتقدُ أنّ شيئًا مهمًّا فاتني في الحياة: الحياة الجنسية.

فركت لوسي فروة رأسها.

سأل غابرييل:

- إلى أين تُريدُ أن تصل، يا جدّي؟

- أُريدُ أن أتطوّر في هذا المجال.

- تُريد أن تولَد من جديد كامرأة؟

- أُريدُ أن أولَد من جديد كـ... ممثّل أفلام إباحية.

جعل هذا التصريح لوسي تنفجر ضحكًا ودخل بعض الشامبو عرَضًا في عينها فأطلقت صيحةً قصيرة.

أيقظ هذا سامي الذي اقترب من باب الحمّام المغلق.

- هل أنتِ بخير، عزيزتي؟

- نعم، ما زلتُ أضحكُ ابتهاجًا بالمتعة التي منحتني إياها.

شطفت عينها بالماء. ولمّا عادت إلى محدّثيها من العالم الآخر، قالت همسًا:

- سوف أستدعي دراكون لكي يسأل الهرمية ما هو الموجود من الأجنّة المتوفّرة في الوقت الراهن.

ظلّت لدقائق طويلة إضافيةً في حوض الاستحمام، مغمضة العينين. تحرّكت قرنيتا عينيها تحت جفونها كما لو أنّها تحلم، ثمّ قالت أخيرًا:

- ربّما لديّ شيءٌ ما قد يقنعك، يا إينياس. والد الجنين الذي أفكّر فيه يعمل في صناعة الألبسة الداخلية في حيّ بيغال الباريسي. لديه خطّه الخاصّ للإنتاج وهو يفضّل استخدام مواد مثل الجلد والسلاسل المعدنية والمطّاط. وقد تزوّج براقصة تعرٍّ ويرتادان معًا نوادي الدعارة.

سأل غابرييل، قلقًا:

- *أليس في هذه شيءٌ من المبالغة؟*

- يجب أن تعرف ما الذي تريده!

- حسنًا، *أنا موافق.*

- سوف تضع المرأة عمّا قريب طفلًا ذكرًا، لا بدّ أن ينعم بطبيعة الحال بجوٍّ عائليٍّ متحرّرٍ جنسيًّا للغاية. هل تريد أن تضع روحك في هذا الجنين أم لا؟

- حسنًا، *هذا يعني أنّ...*

- يجب أن تتّخذ قرارك. متعِبون هؤلاء الناس الذين عندما نمنحهم ما يطلبون، يغيّرون رأيهم فجأةً.

- ممتاز، *أنا موافق.*

- في هذه الحالة، يا إينياس، سوف أحجز هذا الجنين لك في الحال. وسوف يُدعى الجنين ماكسيميليان.

سأل غابرييل بقلقٍ:

- *وماذا عن التحقيق؟ هل تخلّيت عنّي، يا جدّي؟*

- *أعتقد أنّ حدس لوسي حول توماس هو الصحيح وأودّ أن أتجنّب تلك اللحظة الحرجة التي أعرف فيها أنّ أحد حفيديّ قتل الآخر.*

- *ولكن يجب أن نحاول جدّيًا العثور على الدليل!*

قال إينياس:

- *أنا آسف، ولكنّ الرغبة في أن أتناسخ لكي أمارس الحبّ مع العديد من الشريكات أقوى بكثير من الرغبة في حلّ لغز الموت. أنا أحبّك حبًّا جمًّا، يا غابرييل، ولكن لم يعد لديّ الصبر على أن أواصل معك التحقيق بشأن موتك. أريدُ أن أولَد من جديد وأن أمارس الحبّ بطريقة فانتازية وأكتشف الكثير من الفنون والحركات الشبقية. لقد ضحّى جيلي كثيرًا في هذا المجال، وهذا إجحافٌ كبير.*

- *وبالتالي سوف تتخلّى عن معرفة الحقيقة بشأن موتي؟*

- *الحقيقة، في النهاية، ليست سوى وجهة نظر.*

- لقد قُتِلتُ، وهذه ليست مجرّد وجهة نظر! هذه حقيقة!

لم يتزحزح إينياس عن تبلّد حسّه الإكتوبلازمي:

- أنا لا أجادل في أنّك قُتِلتَ، أنا أشيرُ فقط إلى أنّه يتمّ ربط ممارسة القتل بحدّ ذاته بشيءٍ سلبيٍّ، في حين لو فكّرنا جيّدًا، سوف نجد أنّ المسألة لا تتعدّى تحوّل الجسد الحيّ إلى جثّة. القاتل هو الذي يحرّر في نهاية المطاف الروح.

- بالتأكيد، ولكن...

- أنا شخصيًّا، كنتُ أحلم بأن أُقتَل، ولكن لم يكلّف أحدٌ نفسه هذا العناء، وأنا أتحسّر على ذلك، صدّقني!

- ولكن في النهاية يا جدّي، لا يمكنك أن... عنّي...

- كفّ عن مقاطعتي، يا غابرييل. أنت بلا ريب مجرّد رجل أناني. لا تفكّر إلّا بنفسك فقط. أمّا بالنسبة إليّ، فقد توصّلت إلى اكتشافٍ: الحبّ أهمّ من الحقيقة.

بينما ظهر نجمٌ يضيء بوميضٍ أشدّ من سواه بقليل، التفت إينياس نحو الوميض، ومع تحيّة أخيرة من يده، قال:

- إلى الأمام في سبيل مغامراتٍ جديدة!

- يا جدّي... لقد أخبرتني أنّ هناك ما هو أسوأ من الموت: أن يُنسى المرء. اِعْلَم أنني لن أنساك أبدًا، استمتع جيّدًا!

فطار إينياس وتوارى وسط النور.

أطلق غابرييل تنهيدة خيبة أملٍ لم ينبعث عنها أيّ هواء، ثمّ قال:

- وأنتِ يا لوسي، إلى أين وصلتِ؟

- لقد غيّر هذا اللقاء الوضع. لم أعد وسيطة روحية. وأوقفتُ التحقيق حول موتك. لم يعد لديّ سوى هدفٍ وحيدٍ: أن أنجب طفلًا من سامي.

- هل سوف تتخلّيان عنّي أنتما الاثنين؟ وبالتالي لن أعرف أبدًا منْ هو قاتلي؟

- لقد ساعدناك كثيرًا، والآن عليك أن تواصل البحث وحدك. على أيّ حال، نحن جميعًا نبقى وحيدين على الدوام، حتى عندما نشعر في بعض

الأحيـان بأننا مندمجون مع شـخصٍ مـا. ولكن هذه اللحظـات، مهما كانت وهمية، تستحق أن تُعاش كاملةً. لقد عانيتُ وتألّمتُ كثيرًا، وأريدُ أن أستمتع بحبّي الكبير المُستعاد.

نهضت بسرعة ولفّت نفسها برداء حمّام.

– الآن، سـوف أطلـب منـك أن تدعنـي وشـأني لأعيش هذه السـعادة بهدوء.

– *وماذا عن قططكِ؟*

– إنّها تحمل خطر نقل داء المقوّسات إليّ. وكامرأة حاملٍ في المستقبل، لا أريدُ أن أعرّض نفسي لهذا الخطر.

– *هل ستتخلّين حقًّا عن قططكِ؟*

– حبّنـا لإنسـانٍ أقـوى من حبّنا لحيـوانٍ. سـوف أعطيها لصديقـةٍ لديها حديقة واسعة ولديها أصلًا العديد من القطط.

لـم يعـد غابرييل ويلـز يـدري أيّ حجّة يسـوق. حينما رآها تفتـح الباب وتتوجّـه نحـو سـامي، أدركَ أنّه لم يعد لديـه مكانٌ إلى جانبهـا. فارتفع وعبر السقف وحلّق وسط عتمة الليل.

«لم يعد أمامي سوى أن أواصل التحقيق منفردًا، من العالم الآخر. سوف أرى من جديد المشتبه بهم الرئيسيين الواحد تلو الآخر، وسوف أحقّق معهم بطريقتي الخاصّة، وسوف أكتشف في النهاية منْ قتلني».

56. الموسوعة: ألان كارديك

ألان كارديك، واسمه الحقيقي هيبوليت ليون دينيزار ريفاي، هو مؤسّس الحركة الروحانية في فرنسا.

ولِدَ في ليون عام 1804، انخرط في جلسات الموائد الدوّارة في مايو / أيار من عام 1855، في إطار الحراك الذي أطلقته الأخوات الأمريكيات الثلاث فوكس. كان ذلك بمنزلة وحي بالنسبة إليه. قرّر أن يتّخذ لنفسه اسم ألان كارديك، وهو اسم الكاهن الذي كان مقتنعًا بأنّه كان هو نفسه في حياةٍ سابقة.

حتى وإن لم يكن هو نفسه وسيطًا روحيًا، فقد تردّد على الحركة كثيرًا وجمع شهادات الأخوات الثلاث في عملٍ أسماه *كتاب الأرواح*، نُشِرَ في عام 1857، وسرعان ما تصدّر قائمة الكتب الأكثر مبيعًا.

كما أصدر صحيفة أسماها *المجلّة الأرواحية*، عرض فيها أطروحته التي بموجبها لا يُعدُّ الجسدُ سوى لبوسٍ للروح، ويُتيحُ الوسطاء الروحيون بحسب رأيه للموتى التواصل مع الأحياء.

أغرت كتاباته بعض مشاهير عصره مثل فيكتور هوغو، أو تيوفيل غوتيه، أو كاميل فلاماريون، أو آرثر كونان دويل، الذين تابعوه في جلساته في الموائد الدوّارة.

مات من جرّاء تمزّق الأوعية الدموية سنة 1869، دون أن يُكمل كتابه الذي كان قد أعطاه عنوانًا أوّليًا هو *تنبؤات تتعلّق بالروحانية*.

نُقِشَ على قبره المبني على شكل الدُّلمَن شعاره: «الولادة والموت ثمّ الولادة مرّة أخرى والتقدّم دون توقّف، هذا هو القانون». ويعدّ ضريحه أحد الأضرحة الأكثر زيارة وزينة بالزهور في مقبرة بير لاشيز.

إنّه الكاتب الفرنسي الأكثر قراءة في البرازيل، البلد الذي يوجد في كلّ مدينة من مدنه شارعٌ يحمل اسم ألان كارديك. وتضمّ حركته الأرواحية الآن ستّة ملايين عضوٍ من البرازيليين.

إدمون ويلز،
***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

-57-

- لقد أطلنا عليكم حالة الترقّب كثيرًا. والآن سنكشف لكم ما تنتظرونه جميعًا.

صمت الجمهور والصحفيون.

- حسنًا، الفائز في هذا الإصدار الجديد من جائزة ألان روت فرييه هو...

ترك مقدّم حفل منح الجائزة لحظةً تمرّ قبل أن يُعلِن:

– ... جان موازي! وذلك على روايته الجديدة *سرّة البطن*.

اقترب الكاتب من المنصّة تحت وابل تصفيق الحشد الصغير الذي تجمّع في هذا المطعم الكبير في حي سان جيرمان دي بري الباريسي.

– دعونا نعترف بذلك: بالنسبة إلى كلّ المحكّمين، أن يكون عملك هو المتوّج بهذه الجائزة كان أمرًا بديهيًّا، واتّخذنا هذا القرار بالإجماع، حتى دون أن يكون هناك نقاشٌ حقيقي. هذه هي مكافأتنا المتواضعة لنعبّر عن تقديرنا لعملك القيّم: شيكٌ بمبلغ عشرين ألف يورو آمل أن يتيحَ لكَ كتابة تتمّة لرواية *سرّة البطن*.

تلقّى جان موازي الشيك العملاق من الورق المقوّى وشكر بحرارة مقدّم حفل منح الجائزة. ثمّ بدأ يتحدّث:

– لم أكن أتوقّع أن أنال هذه الجائزة، وحينما ذُكِرَ اسمي اعتقدتُ أنّ هناك خطأً ما.

سُمِعَت بعض الضحكات في القاعة.

– نصٌّ من ألف وخمسمئة صفحة يرتكزُ أساسًا على استذكار الأوقات العصيبة التي مرّت عليّ خلال طفولتي، ليس بالضرورة من أجل «عامّة الناس». أعتقدُ أنّ كتابي هو نوع من الصفعة القويّة الضرورية لإيقاظ الجموع النائمة. في هذا التأليف الجديد، أتكلّم عن اشمئزازي من والدي، الذي ألحق بي الكثير من الأذى. هذه ليست الرواية الأولى التي أدين فيها والدي، ولكن يبدو لي أمرًا حيويًّا أن يعرف جميع الشباب أنّ في وسع المرء أن يحتقر والديه. يجب تحرير الكلام حول هذا الموضوع المحظور.

وافقه العديد من الأشخاص الرأي وضجّت القاعة بالتصفيق. انتظر جان موازي إلى أن ساد الصمت من جديد ليستأنف حديثه:

– لقد نشطتُ في السابق في جماعات صغيرة حيث كنّا نعتقد أننا سنغيّر العالم باستخدام العنف. الآن أعرف حقيقة أننا نستطيع أن نكون أكثر فعالية بكثير من خلال الثقافة.

رفـع له الحضور في القاعة شـارة النصر في حين غمـر المصوّرون بوابل أضـواء كاميراتهم الفائزَ السـعيد الذي لوّح بشـيك الجائزة مثـل كأس بطولةٍ رياضية.

وإذ اعتبـر مقـدّم حفـل منح الجائـزة أنّ مـوازي قد أنهى خطاب الشـكر خاصّتـه، اقترح على الصحفيين أن يطرحوا عليه أسـئلتهم. حدّد امرأة شـابّة رفعت يدها.

- كان ألان روت فرييـه يـروي فـي عمله الأخيـر، *الحصـن*، قصّة فتاةٍ قاصـر عُذّبـت في قصرٍ من قبل عجوزٍ شـاذّ جنسـيًّا. هل هـذه الموضوعات السادية المازوشية ذات الميل الجنسي للأطفال تتماشى مع رؤيتك للأدب؟

- كمستفزٍّ مفترَض، أحبّ الاستفزاز، وروت فرييه كان هو الآخر أستاذًا في هذ الفنّ. هل من سؤالٍ آخر؟

- يُقال إنّك وأصدقاءك تضعون النظام الأدبي الخاصّ بسان جيرمان دي بري من خلال التأثير على وسائل الإعلام وعلى الناشرين.

- أصدقائـي وأنا نكافح كي لا يصبح أدب المراهقين الأدب المرجعي للبالغين.

سُمِعت بعض الضحكات التي تنمّ عن الموافقة على قوله.

سألت صحفية:

- ولكن ألا تعتقد أنّه يجب ترك الجمهور يختار بحريّة؟

- الحقيقـة المحزنـة هي الحقيقـة التالية: القرّاء غالبًا مـا يكونون أغبياء بعض الشـيء. إذا ما تُركوا يختارون بحرّية، سـيتوجّهون غالبًا نحو السهولة. ومن هنا يأتي نجاح الكتّاب الأكثر تفاهة، مثل ويلز. ولمساعدتهم يجب منع تنوّعٍ أدبيٍّ واسـعٍ للغاية، حتى لا يكون أمامهم سـوى الاختيار بين أدبٍ جيّدٍ وأدبٍ جيّدٍ. ولحسن الحظّ نحن النقّادَ موجودون. نحن نصنع الذوق، ونحن نصنع الرأي. نحن منْ يقرّر كيف يجب أن يكون أدب المستقبل.

سألت الصحفية بسخرية:

- تقصد نسخة من أدب الماضي؟

– سيكون علينا منع كلّ ما هو خطأ أو نابع من هذيان الكتّاب لمصلحة الحقيقة الصادقة التي تُحيل إلى الإشكالات الاجتماعية أو السياسية أو النفسية.

– ولكن أين الخيال في هذا؟

– نحن لا نهتمّ بالخيال. على القارئ المثقّف أن يطالب بالأصالة. رواية *سرّة البطن*، هي رواية ما هو مُعاش وما هو واقعيّ وما هو ملموس. لا أتحدّث فيها إلّا عمّا أعرفه: والدي، النساء اللواتي التقيتُ بهنّ، والسهرات التي دُعيتُ للمشاركة فيها وأصدقائي.

نزل جان موازي من المنصّة تحت وابلٍ من التصفيق، وتوقيع التذكارات والقبلات على الخدّين ثمّ توجّه نحو الحمّامات.

وقف أمام مغسلةٍ، ونظر إلى صورته في المرآة، وابتسم لنفسه، ويقف خلفه مباشرةً شبح غابرييل ويلز.

وضع الناقد على مرآة جيبٍ ثلاثة خطوط من المسحوق الأبيض وكوّمها باستخدام شفرة حلاقة. وأخرج بعد ذلك أنبوبًا ذهبيًّا يستخدمه لاستنشاق خطٍّ من المسحوق.

أمعن غابرييل النظر فيه. حينما أدمج موازي بلورات الكوكايين في دمه، انتفخت هالته مثل بالونٍ وأصبحت أكثر رقّةً، وتغيّر لونها أيضًا، متحوّلًا من الأصفر إلى الأخضر.

أحسّ الفائز السعيد بالجائزة بشعورٍ من القدرة الكلّية يغمره. نظر إلى نفسه بإعجابٍ في المرآة، ثمّ غاص مرّة أخرى ليستنشق الخطّ الثاني من الكوكايين.

تذكّر غابرييل أنّه قد سبق له أن قرأ أنّ الكيميائيين النازيين هم الذين طوّروا صيغة صقل ورق الكوكا ليصنعوا منها الكوكايين بهدف جعل الجنود الألمان أكثر شراسةً. وهؤلاء الكيميائيون أنفسهم اخترعوا أيضًا الهيروين لرفع معنويّات الجنود الجرحى.

استنشق موازي الخطّ الثالث من الكوكايين.

ولشدّة التوسّع والتمدّد انتهت هالته بالتمزّق في بعض الأماكن منها. لم تعد هالته محميّة. ولم يعد غابرييل يلقى منذ تلك اللحظة أيّ صعوبة في دسّ إصبعه داخل جمجمة عدوّه والدخول بذلك في اتّصالٍ مباشرٍ مع ذهنه:

- *هل قتلتَ غابرييل ويلز؟*

جفل الناقد.

- منْ يحدّثني؟!

- *هذا أنا، ألان روت فريبه. إذا كنتَ أنتْ من فعلت ذلك، فقد أحسنتَ صنعًا، فأنا أيضًا أكره هذا الكاتب. يمكنكَ أن تخبرني بكلّ شيء. سوف أكون فخورًا بك للغاية، إذا كنتَ قد امتلكت هذه الجرأة.*

- كان بودّي أن أفعل ذلك، فلطالما كرهته.

- *إذن لم تفعل ذلك؟*

بحث موازي عن مصدر هذا الصوت في رأسه. معتقدًا أنّ هذا عائدٌ لهذيانٍ ناجمٍ عن بلورات الكوكايين، شرب ماءً من الصنبور كما لو أنّه يريد غسل دمه. رشّ وجهه بالماء.

أراد غابرييل أن يواصل استجوابه، لكن صوتًا دوّى فوق رأسه.

- *توقّف!*

التفت وتعرّف إلى من يكلّمه.

- *توقّف في الحال عن انتحال صفتي!*

كان المتحدّث ألان روت فريبه الحقيقي مرتديًا الزيّ الرسمي للأكاديمية الفرنسية، بمعطفه وسيفه الذي تحمل قبضته صور أجسادٍ عارية متشابكة لنساءٍ. اخترق غابرييل السقف ولكنّ الآخر لحق به فوق السطح.

- *كيف تجرؤ على التحدّث باسمي في اليوم الذي يتمّ فيه منح جائزتي؟ لن أدع أبدًا أن يُضلّل أحد الحاصلين على جائزتي من قبل روح هائمة! ربّما لم يدمّر موازي غلافك الجسدي، أمّا أنا، فسوف أدمّرك هنا والآن.*

أشهر سيفه الأكاديمي. هزّ غابرييل كتفيه:

- *لا يمكنك إلحاق الأذى بي، فأنا محض روح.*

- هـل تعتقد هـذا، أيها الكاتب المجهـول الصغير؟ تذكّـر، عندما كنتَ طفـلًا، هل كانـت أعظم آلامك وأعظـم مخاوفك ناجمة عن جراحٍ جسـديّة أم نفسيّة؟

أظهـر الأكاديمـيّ، بحركة هائلة مـن ردائه الأخضر شـخصية تعتمرُ قبّعة سوداء كبيرة، وتضع نظّارات سوداء ولها لحية سوداء وتمسك في يدها علبة مفتوحة.

- هل تريدُ حبّة ملبّس، يا صغيري؟ هيّا، تذوّق حلوياتي!

فوجئ غابرييل، فارتدّ في حركةٍ إلى الوراء.

قال روت فرييه:

- لقد أتاحت لي مهنتي ككاتب أن أنمّي حسًّا قويًّا بعلم النفس. لديّ على سبيل المثال موهبة أن أشـعر، عندما أرى شـخصًا بالغًا، بما كان يخيفه عندما كان صغيـرًا. وأنا أشـعر بأنّك كنتَ تخاف من أن تُختَطَـف! انظر منْ معنا. هل عرفتَ هذا السيّد بمعطفه الكبير ونظّاراته الشمسية وقبّعته السوداء؟ إنّه البعبع!

ألحّت الشخصية:

- هيّا خذ حبّة ملبّس يا صغيري، وسوف ترى أنّها لذيذة!

صرخ غابرييل:

- كلّا، لا أريدُ حلوياتكم!

تقدّم البعبع.

- هيّا، خذ حبّة ملبّس، أعدك بأنّها لن تكون مسـمومة. في كلّ الأحوال، ليسـت قاتلـة. أقصـى ما يمكنهـا أن تفعل هـي أن تجعلك تنـام. وبعد ذلك، سـوف تحلـم أحلامًـا جميلـة. وسـوف تكـون هادئًا فـي كهفي، مـع جميع الأطفال الآخرين الذين أمسكتُ بهم.

- كلّا!

ارتعش غابرييل. انتصر روت فرييه.

- ها هو خصمٌ يرتقي إلى مستواك.

لم يكفّ البعبع عن الاقتراب منه.

ولأنّ جسم غابرييل أخذ المظهر المطابق للفكرة التي كونّها عنه، أدرك أنّه يتحوّل إلى طفلٍ صغيرٍ من جديد. نظر إلى يديه الطفوليتين الممتلئتين ولباسه الذي يدلّ على أنّه في السادسة من عمره في أقصى تقديرٍ.

- لقد آلم البعبع روحك، أليس كذلك؟ ومع ذلك، أنت تعلم جيّدًا أنّه لا يستطيع إيذاءك. وحده خيالك مسؤولٌ عن هذا العذاب. وبما أنّك كاتبٌ مفعمٌ بالخيال، فأنت تتعذّب أكثر من الآخرين بكثير.

صرخ غابرييل:

- اصرفه من هنا!

- في الواقع، كان هو منْ يخيفك دائمًا، البعبع الخاطف. ولهذا السبب كتبتَ مقالات اتّهامية حول شبكات المتحرّشين بالأطفال البلجيكية، ثمّ ضدّ كلّ الذين يحبّون الاحتفالات المتحرّرة والجريئة بعض الشيء. ما أهمية أن يستمتع المرء إذا كان هذا الاستمتاع مسموحًا؟ أن يكون المرء قويًا، هو بالضبط أن يمتلك الجرأة على فعل ما هو ممنوع. جميع رجال السلطة يفعلون ما هو ممنوع. ولهذا السبب يتقاتلون. ليس من أجل المال، ولا رغبةً في السلطة، ولكن بدافع طقوس العربدة المنبوذة والمرفوضة أخلاقيًا.

- اصرفه من هنا!

- في كتبي، لم أفعل سوى كشف هذه الحقيقة. دوافع السياسيين والصحفيين، هو هذه الحفلات الصغيرة الخاصّة جدًّا. الحفلات التي لا يصل إليها الجمهور الجاهل. وأنت الذي كنت تُريدُ... التنديد بها!!!

انفجر ضحكًا في حين لم يكفّ غابرييل عن استعادة طفولته وفي حين مدّ البعبع حبّات الملبّس نحوه.

- مدير لجنة الرقابة الأخلاقية أم مقدّم البرامج في التلفزيون؟ كانا صديقين لي. إنّها محض صدفة. مثل موازي. وأنت، ما هي انحرافاتك، يا ويلز؟ سابرينا؟ هل أنت متأكّدٌ من أنّ هذا النوع من الحياة الجنسية العاديّة يكفيك؟ أليست لديك أنت أيضًا في قاع ذهنك تخيّلات لا تعلن عنها صراحةً؟ بماذا تفكّر أثناء ممارسة الحبّ؟

سخر روت قريبه منه وواصل البعبع تكرار نفس الطلب:

- هيّا، خذ حبّة ملبّس، سوف يُريحك هذا. كلّ شيء سوف يصبح على ما يُرام مع حبّة ملبّس!

لم يعد في وسع غابرييل أن يفكّر ولا أن يتكلّم. فهذا الخوف الطفولي يفوق قدرة عقله.

شعر بنفسه يصغرُ سنًّا ويزداد ضعفًا على نحوٍ متزايد.

وفي تلك اللحظة أُفلتت كلمة طفولية من فمه:

- النجدة، يا جدّي!

-58-

طار إينياس ويلز وسط الضياء. انجذب إلى مركز المجرّة حيث الدوّامة التي تشفط الأرواح. تزايد عدد الأرواح المرفرفة حوله باطراد.

توجّه بكلامه إلى سيّدة عجوز:

- فيمَ سوف تتناسخين؟

- أنوي أن أتناسخ في هيئة كلبٍ. لقد سئمت حياتي كامرأة؛ أمّا كلبي، فكان يبدو سعيدًا على الدوام. لا بدّ أنّ اللعب طيلة النهار مع الأطفال في جلب كرةٍ ودفن عظامٍ أمرٌ ممتعٌ.

قال رجلٌ يحلّق فوقهما:

- أمّا أنا، فسأتناسخ رئيسًا للجمهورية.

ثمّ سأله:

- وماذا عنك أنت؟

- أمّا أنا، فقد حُجِزَ لي مكان ممثّلٍ إباحيٍّ. في حياتي السابقة، كانت لديّ حياة جنسية كارثية، أُريدُ أن أعوّض نفسي عن ذلك.

قالت السيّدة التي تُريدُ أن تتناسخ كلبًا:

- احذر، لا بدّ أن تكون هناك أيضًا عيوبٌ.

عبروا معًا الأغشية التي تفصل السموات السبع. سبعة ألوان، وسبع

تجـارب. ثمّ وجدوا أنفسـهم في مكانٍ أبيض في وسـطه رتـل طويل للموتى الذين ينتظرون حكمهم، وملائكة تحوِم فوقهم.

استوقف إينيـاس أحـد الملائكة وأشـار إلـى أنّ جنينًـا ينتظـره وبالتالي سيكون من المفيد أن يُحاكَم سريعًا لكي يتحاشى التأخّر عن تناسخه.

وافق الملاك على أن يمرّ أمامه ووجد إينياس نفسه أمام قضاته الثلاثة.

- كلّ شـيء مخطّـط لـه مسبقًا، عليّ أن أتناسـخ في حضـن عائلة تنتظر ولادتي في باريس. في حي بيغال، حتى أكون أكثر دقّة.

قال أحد رؤساء الملائكة:

- حسنًا، نقاطك تسـمح لك بأن تحصل على هذا الجنين، وأنا أعلم أنّك رتّبت أمورك مع وسيطة روحية تتمتّع بوصولٍ متميّز... ومع ذلك، نحن قسم إداريٌّ مواز، وإذا ما لبّينا رغبتك، فسوف نضطرُّ لأن نعطيك إعاقةً مقابل ذلك.

- ولكن هذا الأمر لم يكن مخطّطًا له. لم يُخبرني أحدٌ بذلك. أيّ إعاقة؟

- لديك الخيار في ذلك. إمّا أن تختار مرضًا خطيرًا، أو تتعرّض لحادثٍ خطيرٍ، أو أن تُصاب بمتلازمة ما.

- أُصاب بماذا؟

- بمتلازمة. إنّها، كيف يمكنني أن أشرحها لك، إنّها إعاقة نفسية تعيقك في حياتك بعض الشيء ولكنّها لا تصل إلى حدّ جعلك تعيسًا.

- وسوف يمكنني مع ذلك أن أكون ممثّلًا إباحيًا؟

- بالتأكيد، ولكن مع وجود متلازمة.

بدأ إينياس ويلز يشعر بالفزع.

- ما هذه العراقيل؟ تفوح منها رائحة الاحتيال.

- ولكن لا، لا أبدًا، يا سيّد ويلز. لقد عوملتَ فقط بموجب النقاط التي جمعتها في حياتك السابقة. تُعامَلُ جميع الأرواح على نحوٍ عادلٍ وبإنصافٍ. فقـط لتستطيع أن تُمارس المهنة التي طلبتها، هنـاك هذا المقابل الذي يجب الالتزام به.

بذل جهدًا للتخيّل.

- ما هي متلازماتكم؟ أن تكون لي رائحة فمٍ كريهة؟ أن يكون عضوي الذكري صغيرًا؟ أن أتلعثم في الكلام؟ أن أعاني من الأرق؟ أن أكون أصلع الرأس؟ أن أكون بعينٍ واحدة؟ لا أريدُ أن أكون مصابًا بالسرطان ولا بالتصلّب العصبي المتعدّد ولا بداء الصدفية أو الأكزيما. تعرّق راحة الكفّين؟ كلّا، أظنّ أنّ هذا لا يكفي. انتظر، دعني أخمّن... الإصابة بالرعاش؟ أن أعرج؟ أن أكون سيّئ الحظّ؟

- كلا، المتلازمة لا تعني هذا بالضبط. إنّها متعلّقة بالحالة النفسية أكثر. نوعٌ من «خللٍ» بسيطٍ يجعلك غير قادرٍ على الامتناع عن القيام بأشياء غريبة. إذن، إذا كنتَ موافقًا، سوف تولَدُ بالتأكيد في هذه العائلة التي تُقيمُ في حيّ بيغال، وسوف تمتلك كلّ المؤهّلات لممارسة المهنة التي يبدو أنّها تجذبك كثيرًا. ولكنّك سوف تعاني أيضًا من متلازمة خيارك...

أظهر ملاكٌ آخر مسحة استهزاء.

- لقد حصلنا لك على قائمة من المتلازمات. إنّها واردة من أحد أفراد عائلتك، وهو إدمون ويلز. وقد وجدناها في موسوعته الشهيرة، موسوعة العلم النسبي والمطلق. وليس عليكَ سوى أن تختار من هذه القائمة المتلازمة التي تشعر بأنّك الأكثر قدرةً على تحمّلها، والتي سوف تكون متوافقة مع مهنتك المستقبلية. هيّا بنا، لا تضيّع الكثير من الوقت، فالجنين سيبلغ قريبًا مرحلة النضج.

59. الموسوعة: المتلازمات الأكثر غرابةً

يتحايل العقل أحيانًا على صاحبه. يوجد العديد من المثبّتات العقلية الغريبة التي يُطلَق عليها في الطبّ النفسي اسم «متلازمات». ونوردُ هنا بعض أقدم المتلازمات:

- متلازمة وهم كوتار: يعتقد الأشخاص المصابون بهذه المتلازمة بأنّهم ميّتون ولكنّ المحيطين بهم لا يُدركون ذلك، ويحزنون لأنّ الآخرين يواصلون التعامل معهم كما لو أنّهم لا يزالون أحياء.

- متلازمة اكتناز الحيوانات: هذا المرض الذهني يجعل

المصاب به يقتني في منزله أكثر من ثمانية حيوانات أليفة ويُصيب على نحوٍ خاصّ النساء اللواتي يفوق عمرهنّ ستين عامًا. في عام 2011، اكتُشِف أنّ امرأةً في روشفور، في فرنسا، تحتفظ بأكثر من مئتي حيوانٍ في شقّتها الصغيرة: سبع عشرة قطّة بالإضافة إلى سناجب، وسلاحف، وهامستر، وأرانب، وحمائم، وأسماك غريبة...

- متلازمة تارغوفلا: الشخص الذي يعاني من هذا المرض يُصاب بفرط التذكّر. يتذكّر كلّ ما رآه وكلّ ما عاشه بأدقّ التفاصيل، دون أن يستطيع نسيان أيّ شيءٍ مهما كان. يُصيب هذا المرض على نحوٍ خاصّ الناجين من المعسكرات النازيّة. يستطيع بعض المصابين بفرط التذكّر، على سبيل المثال، أن يتذكّروا بالتفصيل جميع شوارع مدينة، بعد أن راقبوها من الجوّ في طائرة مروحية.

- متلازمة وهم كابجراس: وُصِفَت هذه المتلازمة من قبل الطبيب النفسي الفرنسي جوزيف كابجراس. يشعر المريض بأنّ كلّ أقاربه أو أصدقائه أو معارفه قد استبدِلوا بأشباههم الذين انتحلوا هويّتهم لخداعه.

- متلازمة فريجولي: يعتقدُ المصابون بهذا المرض أنّ جميع الأشخاص الذين يلتقون بهم ليسوا سوى شخصٍ واحدٍ وهو نفس الشخص الذي يتنكّر للاستهزاء بهم، على غرار الممثّل الإيطالي ليوبولدوا فريجولي الذي اشتهر بسرعة تغيير مظهره على المسرح.

- متلازمة جيل دي لا توريت: هي عبارة عن خلل عصبي يسبّب تشنّجات لاإرادية وتطهير الحلق وخرخرات، ولكنّها تسبّب على نحوٍ خاصّ إطلاق شتائم لاإرادية وكلمات نابية تتخلّل كلّ كلامٍ منطوق.

- متلازمة عدم الإحساس الخلقي بالألم: الذين يعانون من هذا المرض الوراثي لا يعيشون عمومًا لأمدٍ طويل، لأنّ الألم هو نظام الإنذار الذي يسمح بالنجاة.

- متلازمة اليد المستقلّة: هذا المرض قد يظهر أثناء إصابة الجسم الثفني الذي يربط نصفي الكرة المخيّة. إذ يمكن لإحدى اليدين في

هذه الحالة أن تتّخذ مبادرات مستقلّة عن اليد الأخرى. وبذلك تنزع إحدى اليدين من الفم السيجارة التي وضعتها اليد الأخرى فيه؛ أو أيضًا تبدأ اليد، بالضدّ من إرادة صاحبها، بفكّ أزرار لباسه، بل حتى توجّه له صفعات...

– متلازمة عرض ترومان، التي تستقي اسمها من الفيلم المسمّى بنفس الاسم: والشخص المصاب بهذه المتلازمة يعتقد أنّ حياته كلّها مجرّد عرض يتمّ إخراجه على طريقة برنامج تلفزيونيٍّ وأنّ ملايين المشاهدين يتجسّسون على أدقّ أفعاله وحركاته أمام شاشاتهم.

– متلازمة ستَندال: تسبّب هذه المتلازمة تسارعًا في دقّات القلب وهبّات من السخونة واحمرارًا في الجلد والغثيان، بل حتى الإغماء إذا ما تعرّضت الضحيّة لعملٍ فنّيٍ يتطابق جماله مع الصورة التي يشكّلها في ذهنه عن الكمال.

إدمون ويلز،
***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

–60–

– *جدّي، يا جدّي، النجدة! ارجع! حقًّا أنا أحتاج إليكَ!*

أصبح البعبع الآن على مقربة بضع عشراتٍ من السنتيمترات فقط منه.

– *تناول إذن واحدة من حبّات ملبّسي اللذيذة! هيّا، افتح فمك وأغمض عينيك.*

لم يعد في وسع غابرييل أن يُقاوم. أنامه الأمر الزجري مغناطيسيًّا، فأطبق جفونه وأرخى فكّيه.

فجأةً، دوّى صوتٌ أجشّ خلفه، التفت فرأى كلبًا ضخمًا، يشبه أسدًا.

توقّف الرجل ذو القبّعة والنظّارات السوداء، قلقًا. أمسك الكلب العملاق بيده بقوّة لكي يرغمه على إفلات كيسه المليء بحبّات الملبّس. صرخ الرجل واختفى في النهاية وسط سحابةٍ مبهمة.

عـاد الكلب نحو صاحبه، وهـو رجل طويل القامة، قويّ البنية بشـوارب كثيفة.

- روت فرييـه، كان عليـك أن تشـعر بالخجـل من مهاجمتـك الدائمة للأطفال! أنت تُسـيءُ إلـى أقدميتك كروحٍ هائمة من خـلال ترويع القادمين حديثًا!

- سـوف أعـودُ مـع تعزيزاتٍ وسـوف تدفعـان الثمن، كلاكمـا. كلبكما الباسكرفيل لن يحميكما في المرّة القادمة!

كان روت فرييـه قـد طـار حينما اقتـرب المُنقذ مـن غابرييـل، الذي عاد تدريجيًّـا ليصبـح بالغًـا. كبُر، ونما شـعره، وصلُـبَ جلده، واسـتعاد بارتياح مظهره كرجلٍ أربعيني.

- مخـاوف الطفولة... إنّها طريقة سـهلة لمهاجمة روح الآخرين؛ وهذا سلوكٌ دنيء، وخاصّةً من قبل زميلٍ كاتبٍ.

- أنت...

- ماذا؟ هل عرفتني؟ أنا آرثر كونان دويل.

لم يصدّق غابرييل عينيه.

- أجـل، هـذه إحدى الفوائـد العظيمة لأن يكون المـرء ميّتًا: يمكننا أن نلتقي فيما بيننا ككتّاب.

- أنا أدين لك...

قاطعه مُبتكر شخصية شيرلوك هولمز:

- لا تشغل بالك، لم أفعل شيئًا على الإطلاق.

- بلى، أنا أدينُ لك بالكثير ومنذ زمنٍ طويل، يا معلّم.

- لا شـيء من ذلـك بيننا. نحن مجرّد حرفيين، صانعي سـاعات. نأخذ أجزاءً صغيرة من الوقت لنبني منها وقتًا طويلًا.

أدرك غابرييـل أنّ الأرواح لا تعـرف حاجـز اللغـة. اختفـت اللغتـان الإنجليزية والفرنسية، وبات بالإمكان التواصل مع أيٍّ روح بسهولة.

- أنا معجبٌ بك للغاية! هذه ليسـت حرفة؛ شـيرلوك هولمز إبداعُ تحفةٍ خالدة.

عبس الآخر وقال:

- *اللعنة! متى ستتوقّف هذه الشخصية عن مطاردتي؟ يا له من رعبٍ أن يخلق المرءُ مخلوقًا خياليًا أكثر شهرةً منه نفسه...*

- *اعذرني.*

- *أنا أمازحك! يغيظني هولمز، ولكنّه بطلي، لذلك لا بدّ لي من التعامل معه. إنّه يشبه إلى حدٍّ ما بَجعك.*

قال غابرييل غير مصدّقٍ:

- *هلْ هذا يعني أنّك قرأت فعلًا عملي؟*

- *بالطبع. على الرغم من أنّه يبدو الأصحّ أن نقول نحن الكتاب بين بعضنا أننا نراقب بعضنا، لا أننا نقرأ لبعضنا. وبالمناسبة، ما الذي قرأته من أعمالي بالتحديد، يا سيّد ويلز؟*

حينما يلتقي كاتبان، يخشيان هذا السؤال. شعر غابرييل أنّه يخضع للفحص الشفوي في شهادة البكالوريا الفرنسية.

- *لقد قرأتُ الحلقة الكاملة لمغامرات البروفيسور تشالنجر:* العالم المفقود، أرض الضباب، عندما صرخت الأرض، آلة التفكيك.

- *هل تعرف نصوصي حول نابليون؟*

- *بالطبع:* الظلّ العظيم، العم برناك. *بالمناسبة، بشأن نابليون، إن كان هذا يهمّك، لقد عرفتُ مؤخّرًا أنّ...*

- *وأيّ من رواياتي الكلاسيكية تعرف؟*

- *أوه...* سرّ كلومبر، الساحرة، الجماعة البيضاء...

وجّه له دويل ضربة على ظهره عبرته دون أن يشعر بها.

- *سيكون الأمر على ما يُرام! سيكون الأمر على ما يُرام! لا تأخذ هذه الأسئلة بالحسبان سوى جانبي القلق من أن أُنسى. سوف ترى أنّ النسيان، بالنسبة إلينا نحن الكتّاب، رعبٌ.*

- *لقد سبق أن حدّثني جدّي عن ذلك.*

- إنّ جدّك إينياس هو الذي جعلني أكتشفُ رواياتك. يجب أن أعترف لك بأنّه منذ جول فيرن وبارجافيل وبول، كنتُ أعتقدُ أنّ أدب الخيال في فرنسا مستنزَف. ثمّ جاءت كتبك وأثارت اهتمامي. عندما رأيتُ أنّك تُطالب بإرثي، اهتممتُ بأمرك.

- هذا شرفٌ كبيرٌ لي.

- هل يمكنني أن أخبركَ الحقيقة؟ في الحقيقة، لا أحبّ كثيرًا كتبكَ.

أحسّ غابرييل بطعنة في كبريائه.

- لديكَ أفكارٌ ممتازة، ولكنك تفتقرُ إلى الصرامة، حيث لا تعمل بما فيه الكفاية على الجانب النفسي للشخصيات.

- أنا آسف.

- من المؤسف أنّك متّ، فأنا متأكّدٌ أنّ عشر سنوات إضافية كانت ستسمح لك بأن تنضج تمامًا. ولكن لا بأس، سوف تواصل تطوّرك هنا، في دهاليز الليمبو. لا تزال هناك أمورٌ كثيرة ينبغي لك تعلّمها، والميزة هنا هي أنّ لديك من الآن فصاعدًا كلّ وقتك.

- ماذا كان سيحدث لي لو أنّك لم تتدخّل في لحظة هجوم البعبع؟

- كنت ستبقى محاصرًا في حالة الطفولة هذه، أسيرَ ذعرك، عاجزًا عن التفكير أو الاهتمام بأيّ شيءٍ آخر سوى جلّادك، وبالتالي يتجمّد ذهنك.

- كم من الوقت كان من شأن ذلك أن يستمرّ؟

- هذا يختلف من حالة لأخرى. أحيانًا يبقى البعض مشلولين لسنوات عديدة.

ارتعش غابرييل.

- كان عليك أن تحاول إفهام الناس أنّ جاذبية الأدب الفرنسي المعاصر تمنع البلدان الأخرى من الاهتمام به. سابقًا كان الأدب الفرنسي منارةً للأدب العالمي، لكنّ المدافعين المزعومين عنه كانوا في الواقع حفاري قبره. عمّا قريب، لن يعود أحدٌ يهتمّ بهذه الروايات الفرنسية المجرّدة من الحبكة، لمجرّد الاحتفاء بكتّابها.

- لقد كافحتُ ضدّ هذا. أقصد، حينما كنتُ على قيد الحياة.

- إذا كنت تريد عكس الاتجاه، سيكون عليك أن تواصل الكفاح في العالم اللامرئي، ولكنّ خصومك أقوياء جدًّا، وموحّدون جدًّا، ومنظّمون جدًّا.

دعا آرثر كونان دويل غابرييل ويلز إلى الطيران معه فوق باريس.

- أنتَ متّ بطريقة هادئة لكن فكّر في كلّ هؤلاء الكتّاب الذين ينتهون نهاية سيّئة، مثل الحيتان النافقة. أتذكّر كتّابًا لم يعد لديهم أيّ قارئ في حفلات توقيع أعمالهم، فكانوا ينتظرون ساعات طويلة قدوم زبونٍ مفترَضٍ. رأيتُ بعض الكتّاب في نهاية حياتهم المهنية، وليس آخرًا، رفض جميع الناشرين نشر أعمالهم، فاضطرّوا إلى اتّخاذ أسماء مستعارة لكي يحظوا بفرصٍ أفضل في نشر أعمالهم. ورأيتُ أيضًا كتّابًا فقدوا كلّ كبريائهم فراحوا يعرّضون أنفسهم للخطر في وظائف بائسة. أصبحوا كتّابًا لدى الناس الذين لا يجيدون الكتابة أو أعضاءً في هيئة تحكيم الجوائز الأدبية أو نقّادًا أو أسوأ من ذلك، أساتذة للأدب. لطالما وجدتُ أنّه من التناقض أن يكون مَنْ فشلوا هم الذين يعطون الدروس للأجيال القادمة.

ضحك كونان دويل من الملاحظة التي أبداها هو نفسه. أمّا غابرييل ويلز الذي ظلّ لا يصدّق حصول هذا اللقاء، فقد أفرج هو الآخر عن ابتسامة، محرَجًا.

- عندنا، ليس هناك تقاعدٌ، ولا حفلة نهاية المهنة. ليس هناك ما يدقّ ناقوس موت مهنتنا سوى اللامبالاة المتزايدة للجمهور. كن سعيدًا لأنّك لم تعرف هذه المحنة.

اكتشف غابرييل أنّه لم يفكّر قط بنهايته ككاتب. بالنسبة إليه، كانت مهنته جبلًا ينبغي تسلّقه وهو لا يرى قمّته. لم يتساءل قطّ عمّا سيحدث له خلال النزول من الجبل. جعله دويل يُدركُ فجأةً أنّ قاتله قد جنّبه محنة السقوط وخلق له بهذا مخرجًا مشرّفًا. بموته مقتولًا، رحل بطريقة «روائية». أيضًا كان لا بدّ أن نعرف أنّه قُتِل لأنّ نعوته تُشير، حتى هذه اللحظة، إلى أنّه قد مات نائمًا في فراشه بسكتة قلبية.

- لقد أجريتُ تحقيقي الخاصّ بمقتلك بمحض... لعبة العقل. ليس موازي هو المجرم. فهو يثرثر ويتباهى، ولكنّه في قرارة نفسه شخصٌ ضعيف. يتحدّث بصوتٍ عالٍ وبطريقةٍ عدوانيّة لجذب الانتباه ويحاول إثبات وجوده، ولكنّه ليس سوى صنيعة لوسائل إعلامٍ، دمية ومهرّج في التلفزيون. ليست له أيّ مصلحة، حتى كمشتبه به.

- منْ هو القاتلُ إذن؟

- بحسب رأيي، لا سابرينا دونكان ولا ألكسندر دي فيلانبروز من المشتبه بهم الرئيسيين. تمامًا مثل لوسي وإينياس، تنصبُّ شكوكي على أخيك التوأم. ويبدو لي أنّ مفتاح اللغز هو ما صنعه في مختبره السرّي.

- مختبرٌ سرّي؟ هل رأيت ما يفعل فيه؟

- كلا. رأيتُ فقط كمّية من الحواسيب والأجهزة. طالما أنّه لم يتعاط مخدّرًا أو كحولًا، لا أستطيع أن أنبش في ذهنه أو أعرف ما يدور فيه. حسنًا، الآن يجب أن أتركك. كان من دواعي سروري الحديث معك، ولكن هناك من ينتظرني في جلسة روحانية.

- أستميحكَ عذرًا. هل لا تزال تمارس الروحانية في العالم الآخر؟

- نعم، كنتُ أمارسها في حياتي مع مجموعةٍ من الكتّاب وقد قرّرنا أن نواصل ممارستها الآن وقد أصبحنا على الجانب الآخر من المرآة.

- هل يُعدُّ فضولًا إن سألتك من هم رفاقك في الجلسة؟

- لا بدّ أنّك تعرفهم: إدغار بو، هوارد فيليبس لافكرافت، ومن يحمل نفس كنيتك هربرت جورج ويلز، ألدوس هكسلي، ولكن أيضًا يحضر مواطنوك بلزاك، فيكتور هوغو، ألكسندر دوما، تيوفيل غوتيه، جورج ساند. إنّها تشبه «الروحانية المعكوسة».

بدا مستمتعًا بصيغته الخاصّة. اكتشف غابرييل بهذه المناسبة أنّ لديهما نفس الهوس في محاولة إيجاد جمل مؤثّرة يمكنها أن تُفيد كنقطة انطلاق لسردياتهما.

- هل تعلم يا سيّد ويلز أنّ هناك الكثير من الأرواح الهائمة التي تعتقد

أنها هي الحيّة وأنّ عالم الأحياء هو عالم الموتى؟ هذا دليلٌ على أنّ العقل كليّ القدرة: نكون ما نعتقد أننا نكون.

من جديد، أظهر دويل نظرته الجانبية الصغيرة التي بدت أنّها تعني: «هذه أيضًا يجب أن أكتبها، يمكنها أن تكون مفيدة في شيءٍ ما».

– *هيّا أسرع إلى أخيك، وحلّ القضية معه، يا غابرييل ويلز. إذا كان يمكن لهذا أن يساعدك، اعلم أنّه الآن في مختبره في مركز دراسات الأمواج التابع للجيش. الجناح الشمالي، المختبر لام 63. في ذلك المكان ينهمك في إجراء تجاربه الشخصيّة.*

شكر غابرييل بحرارة الكاتب ثمّ، دون انتظار، انطلق إلى المختبر الفيزيائي للأمواج.LPO بخلاف ما كان يتخيّل، لم يكن مختبر لام 63 مختبرًا تحت الأرض بل قاعة تقع في البرج الشمالي الذي يعلوه مرصدٌ فلكي.

وجد شقيقه منكبًّا لا على تلسكوبٍ، بل على جهازٍ غريبٍ شقّ عليه أن يعرفه.

دار حول الجهاز، وتفحّصه في أدقّ تفاصيله، ولكنّه لم يستطع أن يفهم استخداماته.

– *هذا ليس ما تعتقده.*

كان هناك إكتوبلازم آخرُ عالقٌ تحت سقف القاعة، مكتوف اليدين.

سأله غابرييل:

– ماذا تفعل هنا؟

– وماذا تفعل أنت؟

– هذا أخي التوأم.

– إنّه اختراعي.

61. الموسوعة: آلة التحدّث مع الموتى

عُرِف المخترع والعالم والصناعي الأمريكي توماس إديسون (1847–1931) بأنّه قدّم مع فِرَقه ما يقرب من ألف براءة اختراع، من بين أشهرها التلغراف، والميكروفون، والمصباح الكهربائي،

والمصباح الكهربائي المتوهّج، والبطارية القلوية، والفونوغراف وحتى الكرسي الكهربائي.

في نهاية حياته، ألّف إديسون كتابًا للمذكّرات بعنوان *مذكّرات وملاحظات*، يحمل الفصل الأخير منه عنوان «مملكة الآخرة». وهنا اقتباسٌ منه:

«لطالما بدا لي أنّه من العبث على نحوٍ خاصّ أن آمل أن تكون «الأرواح» مستعدّة لأن تضيّع وقتها في اللعب بأشياء فظّة وأيضًا غير علمية مثل الطاولات أو الكراسي أو لعبة لوح ويجا».

كشف إديسون فيما بعد أنّه كان قد كرّس جهوده الأخيرة كمخترع لمحاولة اختراع آلة جدّية للتحدّث مع الموتى. حتى إنّه عقد صفقة رسميّة مع مساعده، ويليام دينوايدي: أن يحاول أوّل من يُفارق الحياة إرسال رسالة من العالم الآخر إلى من يبقى على قيد الحياة.

توفي إديسون في عام 1931 ونُشر كتابه *مذكّرات وملاحظات* كاملًا في عام 1949. بيد أنّ الفصل الأخير حُذِف من الطبعات الجديدة اللاحقة لأنّه اعتُبِرَ مُبالغًا في التوجّه نحو السحر والتنجيم، وبذلك من الممكن أن يجعل كاتبه مثار سخريةٍ. وبفضل الترجمة الفرنسية الأولى للكتاب، في عام 1949، اكتُشِفَ هذا الفصل المفقود.

في هذا النصّ، شرح توماس إديسون أنّه كان مقتنعًا بخلود الروح وأراد أخيرًا أن يزوّد الأرواحيين بأداة علمية فعّالة. صرّح بأنّه لا يؤمن بالأشباح فحسب، بل كان يتخيّلها علاوة على ذلك كثيرة الثرثرة. وذكر أنّ لا أحد كان «قادرًا على تعيين حدود مجال الحياة بدقّة»، ولكنّه أقرّ بأنّه لم يحصل حينذاك على أيّ «نتيجة جديرة بتقديم برهان دامغ ولا جدال فيه على بقاء الروح».

لم يظهر قط أيّ نموذج أوّلي لآلة توماس إديسون للتحدّث مع الموتى، ولكن بالمقابل، عُثِرَ على مخطّطٍ مرسوم تُشاهد فيه صورة بوقٍ من الألمنيوم، بالإضافة إلى ميكروفون، وهوائيٍّ، والصيغة الكيميائية لبرمنغنات البوتاسيوم.

بحسب شهاداتٍ عديدة، لا بدّ أنّه قد استوعب فكرة التواصل مع الموتى من خلال تبادل حديثٍ يقع في مستوى الموجات الكهرومغناطيسيّة وتمنّى لو أنّ آلته للتحدّث مع الموتى تظهر ذات يومٍ على طاولة صالون كلّ الأسر.

هكذا وُلِد الاتّصال الآلي العابر أو TCI، مع إديسون كمؤسّس له. وبعد بضعة عقودٍ من الزمن، استُخدِمَت كلمة «نيكروفون» اسمًا لهذه الآلة.

إدمون ويلز،
***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

–62–

تشبه آلة الحوار مع الموتى زهرةً ذات بتلاتٍ عريضة سوداء ومدوّرة وفي مركزها سويقٌ أصفر اللون بمنزلة مدقة.

– *اللعنة، لقد واصل العمل على نيكروفون طفولتنا!*

– *لم يكن صعبًا بالنسبة إليه أن يتولّى الأمر، فقد سبق أن مهّدتُ الأرضية. لا بدّ من القول إنّنا متّصلون مع «أكثر من توماس».*

راقبه غابرييل. إنّه يعرف هذا الوجه الطويل وهذه الشفاه الرقيقة، وهذه الخصلة البيضاء الطويلة من الشعر التي تقسم الجبين، وحتى علامته الفارقة، وهي ربطة عنق صغيرة على هيئة فراشة.

– *توماس... هل أنت توماس «الآخر»؟*

– *ليس القديس توماس المشكّك، بل توماس إديسون المؤمن. شقيقك هو الرجل الأكثر تقدّمًا في متابعة أبحاثي. إن لحظة مدّ الجسر بين عالم الأحياء وعالم الموتى تقترب بخطوات كبيرة. أشعرُ بذلك. وأنت تشعر بذلك. ويشعرُ عددٌ متزايدٌ من الناس بذلك، في هذا الجانب كما في الجانب الآخر. وهو، شقيقك الرائع، يتقدّم. لم أشأ أن أتخلّف عن هذا لأيّ شيءٍ في العالم. هذه لحظة تاريخية. بعد أوّل خطوة لنيل آرمسترونغ على سطح*

القمر، سوف نشاهد الآن الاتصال الأوّل مع عالم الموتى لتوماس إديسون ومساعده الحي: توماس ويلز! مثلما أرادت صيغة هؤلاء العمال المهرة الآخرين الذين أنجزوا عملًا جميلًا بعد موتي: «خطوة صغيرة للأحياء وخطوة كبيرة للموتى».

رفرف غابرييل تحت القمّة الفلكية فوق رأس شقيقه.

كشف بحذر:

- *ولكن لا أحد يعلم بالأبحاث التي أُجريت هنا.*

- *أفضّل ألّا يعلم أحدٌ شيئًا في الوقت الراهن. وحتى أكون صادقًا تمامًا، أفضّل ألّا تكون أنت أيضًا هنا.*

بدون أدنى شكّ، الرجل الذي يقف أمامه هو الروح الهائمة لتوماس إديسون.

فوق رأسيهما، بدا توماس ويلز مأخوذًا بهيجانٍ بالغ، فضبط درجة صوت زهرة استقبال الأمواج خاصّته، ثمّ ارتدى سمّاعة رأسٍ مزوّدة بميكروفونٍ.

- مرحبًا؟ هل من أحدٍ يسمعني؟

قام الفيزيائي بإجراء عمليات ضبطٍ أخرى.

- مرحبًا؟ مرحبًا؟ هل يسمعني أحدٌ؟ هل هناك روحٌ هائمة في الأنحاء؟ هل من روحٍ؟ مرحبًا؟ مرحبًا؟ إذا كنتِ تسمعيني، أجيبي.

فوق رأسه، راقبه الإكتوبلازمان، متردّدين في السلوك الذي ينبغي اتّخاذه.

سأل غابرييل:

- *هل ستذهب أنت أم أذهب أنا؟*

- *أرجوك، افعل إذن.*

- *كلّا، افعل أنت أوّلًا.*

- *لن أفعل ذلك.*

- *ولا أنا.*

وأخيرًا إديسون هو منْ قال:

- نعم. مرحبًا؟ مرحبًا؟ أسمعكَ جيّدًا.

سقط توماس ويلز على ظهره، ولكنّه سرعان ما نهض، ضاحكًا.

– ألا تزالُ هنا؟

– *نعم.*

– منْ يتحدّث معي؟

قام الشخص الحيّ، المحموم تمامًا، بالعديد من الحركات الرعناء، وأسقطَ بعض الأشياء، ونبش في درج خزانةٍ، وأخرج آلة تصويرٍ وبدأ التسجيل.

ردّ الهاتف في الحال:

– *هذا أنا، غابرييل.*

– أهذا أنت يا أخي، أنت هنا يا غابي؟ لقد شعرتُ بك. لقد شعرتُ بحضورك قبل أن تتكلّم، ولكنني لم أصدّق أننا سننجح في ذلك!

– *لستُ وحدي، أنا مع توماس... إديسون.*

– توماس إديسون، ليس غيره؟

– *هو شخصيًا.*

قال الأكاديمي:

– *الآن أصبح لدينا الدليل على نجاح تجربتنا! لم يعد المطلوب منك سوى تسجيل براءة اختراع هذه الآلة وقريبًا جدًّا سوف يتمكّن الجميع من التحدّث مع موتاهم الأعزاء. أحسنتَ يا سيّد ويلز، لقد طوّرتَ فكرتي وجعلتها عمليّة. أمّا أنا، فلم يكن لديّ الوقت...*

كان توماس ويلز يقوم بعمليات ضبط ومعايرة أخرى لتحسين جودة الاستقبال، حينما أطلقت شبكة التهوية في الآلة فجأةً دخانًا كثيفًا أبيض اللون. فجأةً، ألقت اللوحات الإلكترونية حزمًا من الشرر واشتعلت. انفجر الهوائي اللاقط. داعبت ألسنة اللهب الستار الذي اشتعل. لم يبقَ أمام توماس من الوقت سوى ما يكفي للإمساك بمطفأة الحريق وإلقاء مسحوقٍ أبيض على النار التي بدأت تنتشر. وسط استعجاله واندفاعه، تعثّرت قدمه بآلة التصوير التي سقطت وتحطّمت فجأةً.

قال غابرييل، متجهّمًا:

– أعتقدُ أنّ الاتّصال الآلي العابر انقطع.

– لا بدّ أنّ اللوحات الإلكترونية قد تعرّضت لتوتّرٍ قويٍّ للغاية. هذه ليست سوى مشكلة تقنية. سوف يتمكّن من إصلاح هذا الخلل.

راقب الرجلان توماس، الذي كان متحمّسًا ومحبطًا في آنٍ واحد.

ردّد مرارًا وتكرارً: «لقد نجح هذا!»، «لقد نجح هذا!»

غمغم توماس إديسون:

– كان بودّي أن أخبره أنني بقيتُ هنا بانتظار أن يُصلِح الآلة، ولكنّه لم يعد يسمعنا...

وفي تلك اللحظة ظهرت الروح الهائمة لامرأةٍ شابّة مُبالغة في وضع مساحيق التجميل وتنتعل حذاءً عالي الكعب.

– منْ منكما غابرييل ويلز؟

– أنا، لماذا؟

غضِبَ إديسون لرؤية اكتشافه يتسرّب قبل أن يُنجَزَ تمامًا، فقال بنبرة حاسمة:

– ليس لديكِ أيّ شيء تفعلينه هنا، يا آنسة. انصرفي في الحال.

– لوسي في خطرٍ كبير. لقد بحثتُ عنك في كلّ مكان! لحسن الحظّ، ساعدني دويل في معرفة مكان وجودك. يجب أن تأتي معي على الفور، يا غابرييل!

– لوسي فيليبيني؟

– لقد خُطفَت للتوّ. إنّها هي من كلّفتني بالبحث عنك.

نظر غابرييل بحسرةٍ إلى نيكروفون شقيقه، الذي انهمك في إصلاحه بينما كان الدخان لا يزال يتصاعد منه.

– يمكنك الذهاب، يا غابرييل، ليس لوجودك هنا أيّ ضرورة. سأبقى هنا لكي أتأكّد من إجراء تحسين هذا النموذج الأوّلي.

تردّد الكاتب بين الرغبة في رؤية النيكروفون وهو يعمل من جديد والرغبة في إنقاذ صديقته. من جديد، تبادرت إلى ذهنه هذه الجملة الصحيحة للغاية: «الاختيار هو تنازلٌ».

-63-

تحت هبوب الرياح، تئنّ الأشـجار وتنحني الأعشـاب، وتتطاير الأوراق المتساقطة، لكنّ ذلك لم يُبْطِئ غابرييل ودليلته الغريبة التي ظهرت في البرج الفلكي. بحسـب المعلومات القليلة التي زوّدته بها، ستكون لوسي محتَجَزة في سرداب منزلٍ معزولٍ في ضاحية تقع شمال باريس.

اكتشـفا معًا فيلا قيد الإنشـاء صُفّـت أمامها سيارتان، إحداهما من طراز بـورش، والأخـرى من طراز بـي إم دبليو. في الطابق الأرضـي، كان رجلان محميّـان جيّدًا من الرياح ومسـترخيان في أريكتين يلعبـان، وأجهزة التحكّم بين أيديهما المشـدودة، لعبةً من ألعاب الفيديو تتمثّل في قيادة سـيارة وسـط مدينةٍ ومحاولة قتل أكبر عددٍ من المشاة.

كان الرجـل الأصغر سـنًّا يلعب بيدٍ واحـدة، بينما يُداعـبُ بالأخرى قطًّا بدينًـا طويـل الشـعر. كان الحيـوان سـاكنًا في مكانـه مغمـض العينين كي لا يُزعَج بالصور المعروضة على الشاشـة والمتعاقبة بسرعة كبيرة إلى حدّ إثارة أعصابه.

لحق غابرييل بالروح الهائمة للمرأة الشابّة التي دلّته على السرداب وقادته في ممرٍّ طويلٍ فيه العديد من الأبواب.

نادى:

- *لوسي!*

ردّ صوتٌ صادرٌ من غرفة مغلقة:

- غابرييل!

عبر خشب الباب ووجدها ممدّدة على سريرٍ في غرفةٍ تشبه زنزانة سجنٍ، وفيها مرحاضٌ ومغسلة وطاولة.

- *ماذا جرى يا لوسي؟*

- كنتُ نائمة، عندما وضِعَ على أنفي وفمي منديلٌ تفوح منه رائحة نفاذة. لم يُتَح لي الوقت لكي أعرف من هاجمني. حينما اسـتيقظتُ، وجدتُ كيسًـا قماشـيًّا أسـود اللون فوق رأسـي وقد قيّدت يداي خلف ظهـري. من خلال

الارتجاجات، أدركتُ أنني في صندوق سيارة. استغرق ذلك عشرات الدقائق، ثمّ توقّفت الارتجاجات. أمسكت أياد بكتفيّ ورجليّ، ونقلتني إلى هنا. ثمّ نزع رجلٌ ضخمٌ الكيس؛ وعندما بدأتُ بالصراخ، وضع يده على فمي وقال: «تركتُ لكِ طعامًا وألبسة، والمرحاض موجودٌ هناك، ولا داعي للصراخ، فليس هناك جيرانٌ هنا». وفي تلك اللحظة وصلت دولوريس وعرضت عليّ المساعدة. فطلبتُ منها أن تذهب بحثًا عنك، يا غابرييل.

- دولوريس؟ نفس دولوريس التي كانت في سجن رين؟

تدخّلت دولوريس وأجابت مباشرةً:

- سوف يطول الشرح قليلًا، ولكن لنقل إنّ عند خروجي من السجن، أردتُ الانتقام لنفسي من الشخص الذي خاننا، أختي وأنا. لم أكن سريعة بما فيه الكفاية وتسبّبتُ بمقتلي. بعد ذلك، تجوّلتُ لزمنٍ طويلٍ قبل أن أتذكّر الفتاة التي كانت تتحدّث مع الموتى. فأردتُ التواصل معها لكي تساعدني على أن أنفّذ بنجاحِ انتقامي. بحثتُ عنها طويلًا قبل أن أجدها أخيرًا في سردابٍ وهي تبكي. وعندئذٍ قالت لي إنّه يجب أن أبحث عنك.

- مهلًا، مهلًا، دعيني أفهم جيّدًا. لوسي، كنتِ نائمة مع سامي في منزله، وقد خُدِّرتِ واختُطِفتِ. ولكن هو، ما الذي حدث له؟

- لا أدري. إمّا أنّه خُطِفَ هو الأخر وهو الآن في غرفة مجاورة، أو أنّهم قاموا بـ... أوه كلا! سيكون هذا مريعًا.

- لا يبدو لي أنّ الأمر يتعلّق بلصوص. ما المصلحة في اختطافكِ؟ لن يطلبوا فدية بالتأكيد، لأنهم إذا طالبوا بفدية، ممّن سوف يطلبونها؟ من والديكِ؟

- آملُ ألّا يكونوا قد قتلوه!

في تلك اللحظة سُمِع صريرُ الأقفال؛ فُتِحَ الباب ودخل رجلا الطابق الأرضي إلى الغرفة.

سأل الأكبر سنًّا، وهو يبحث في كلّ مكانٍ عن أثرٍ لهاتفٍ محمول:

- مع منْ تتكلّمين؟

وإذ لم يعثر على أيّ شيء، أشار على الآخر بأنّها لا بدّ أن تكون مجنونة، وتتحدّث مع نفسها. هزّ الأصغرُ سنًّا كتفيه وأخرج من جيبه محقنًا وقارورةً.

– ماذا تريدان منّي؟ لماذا اختطفتماني؟ إذا كنتما تريدان نقودًا، اعلما أننا نستطيع أن نتناقش في الأمر. لا بدّ أنّ لديّ مدّخرات، ربّما لديّ ألفا يورو في البنك. إذا رافقتماني، يمكنني سحب هذه النقود وإعطاؤها لكما. ومقابل ذلك، تُطلقان سراحي، اتّفقنا؟

قال الأصغر سنًّا ساخرًا وهو يغرز المحقن في القارورة:

– أعتقدُ أنّها لا تُدركُ ما حصل لها.

– اشرحا لي إذن! هل سامي على قيد الحياة؟ هل قتلتماه؟

قال الأكبر سنًّا بسخرية:

– سامي! إنّها قلقة على سامي!

– أخبراني ما الذي يحدث! لي الحقّ في أن أعرف! ماذا تريدان؟

أمسك بالفتاة ورفع كمّ قميصها عنوةً. قاومت.

قال الأصغرُ سنًّا:

– اهدئي وكلّ شيء سيمرّ بخير.

قال الآخر باستهزاء:

– سترين، ستسافر روحكِ عبر بلدانٍ لا يخطر على بالكِ حتى وجودها، وبعد ذلك سوف تتساءلين لماذا لم تفعلي هذا من قبل. علاوة على ذلك، الأمر لا يتطلّب مالًا، فنحن نقدّم لكِ هذه الرحلة مجانًا.

– ما هذا؟ ماذا وضعتما في هذا المحقن؟

– هذا يحملُ اسمًا جميلًا سيناسبكِ حقًّا... إنّه هيرويين. في الوقت الحالي أنتِ قلقة، ولكن قريبًا سوف يجعلكِ هذا تسافرين وسوف تطلبين منّا، بل سوف *تتوسّلين* إلينا لكي تحصلي على المزيد منه.

أمسك بذراع لوسي.

صرخ غابرييل وهو يسدّد لكماتٍ اخترقت المادّة دون أن تلقى مقاومة:

- *دعها!*

قالت دولوريس، حزينةً:

- *لا يمكننا أن نفعل شيئًا من أجلها.*

وضع الأصغرُ سنًّا عاصبة مطّاطية على ذراع الوسيطة الروحية، وبحث عن وريدها في تجويف مرفقها، ثمّ غرز الإبرة. قاومت لوسي دون جدوى. دخل السائل الأصفر في وريدها وامتزج مع دمها.

سأل غابرييل:

- *لماذا يفعلان هذا بها؟*

- *أعتقدُ أنني أعرف. هذا ما يفعلونه مع الفتيات لتحويلهنّ إلى مومسات. يبقون عليهنّ من خلال إدمانهنّ على المخدّرات.*

- *لا يمكن أن نتركها في هذه الحال!*

- *إنّها في العالم المادّي، ونحن في العالم اللامادّي، ليس في وسعنا فعل أيّ شيء.*

انصرف الرجلان وهما يقولان:

- أحلامٌ سعيدة.

ظلّت لوسي منذهلة.

- غا... غا... غابرييل؟

- *نعم، أنا هنا يا لوسي! أنا هنا!*

- غابرييل، أرجوك... ساعدني.

- *لوسي! قولي لي ماذا أستطيع أن أفعل...*

- *إنّها ستعود، لا تدعها... تدخل. يجب أنت تكون... أنت...*

- *منْ تقصدين بـ «إنّها»؟*

أشارت عليه دولوريس بأن يرفع رأسه؛ فرأى ما يقرب من عشر أرواح هائمة ملتصقة بالسقف وهي تنظر نظرات بريئة.

- *ماذا تفعل هذه الأرواح هنا؟*

أجابت دولوريس:

- *تُريدُ سرقة جسدها منها.*

- *كيف يمكن لهذا أن يحدث؟*

- *بفعل الهيروين الذي يؤثّر تدريجيًّا على دماغها، ستفقد هالتها مقاومتها. ولن تعود روحها قادرة على الصمود وستغادر جسدها. وكلّ هذه الأرواح الهائمة تُريدُ حتمًا استغلال هذه الفرصة لتأخذ منها غلافها الجسدي.*

- *كيف علمتُ بذلك؟*

- *لا بدّ أنّ هذا الأمر قد سبق أن حدث في هذا المكان. وهي تعلم أنّ بعض الفتيات يُحقنّ، من حينٍ لآخر، بالمخدّرات، وأنّ الجرعة قويّة بما فيه الكفاية لإحداثِ مخرجٍ في الجسد. تشبه هذه الأرواح الهائمة جوارح العالم اللامرئي التي تتربّص بفريستها.*

اقتربت تلك الأرواح الهائمة بالفعل من لوسي.

- غابرييل! دولوريس! أنا... أسمعكما... إنّها هنا، أليس كذلك؟ أخبراني إن كانت هنا. أخبراني الحقيقة!

اعترفت دولوريس:

- *حسنًا، هناك ما يقرب من عشر أرواح هائمة.*

- إنّها تُريدُ الولوج إلى داخلي. إنّ أوّل روحٍ تلج إلى داخلي سوف تمنع الأرواح الأخرى من الدخول وبعد ذلك لن يعود في وسعي فعل أيّ شيء. يجب أن تدخل أوّلًا يا غابرييل.

- *ماذا؟*

- أنا أعلم أنّ هذه الحثالات هنا... ولذلك سأطلب منك شيئًا... يا غابرييل... خذ جسدي.

- *لا أفهم ما تُريدين قوله.*

عبست وعضّت على شفتيها لكي تستطيع التحدّث بوضوح:

- روحكَ سليمة. لم يعد جسدي محميًّا بهالةٍ عصيّة على الاختراق. خلال بضع ثوانٍ، لن أعود محصّنة، وسوف يكون في وسع الجميع الولوج إلى داخلي. إن لم تأخذ أنت جسدي، سوف تأخذه روحٌ هائمة غريبة ولستُ متأكّدة

مـن أنّها سـوف ترضـى أن تعيده إليّ فيما بعـد. أنتَ وحدك... تبـدو لي جديرًا بالثقة... سأخرج من هذا الجسد عبر الشاكرا السابعة، في قمّة جمجمتي... خذ موقعك على حافّتها، وعندما أخرج، ادخل أنت لتحلّ محلّي...

ثمّ جهدت لكي تنطق بهذا السؤال:

- هل تُريد أن تكتشـف ماذا يعني أن تكون في جسـد امرأة؟ من المؤكّد أنّ كلّ رجل يرغب في أن يختبر ذلك على الأقلّ مرّة واحدة في حياته، أليس كذلـك؟ ثـمّ إنني أعلم جيّدًا أنّك قد أردتَ... هيّـا، اعترف بذلك... الحلول في جسدي... وهأنذي هنا أعرضُ عليكَ أن تحلّ فيه بالكامل...

- *ولكن ليس بهذه الطريقة!*

قالت دولوريس:

- *بلى، يجب أن تفعل ذلك. إنّها على حقّ، عليك أن تحلّ في جسـدها وتُشغِلِه، وإلّا سـيضيع. فعندما تصبح إحدى هذه الأرواح الهائمة المتطفّلة في داخله، لن تشأ أن تغادره أبدًا.*

- موعدنا... في شاكراي السابعة.

اقتربـت الأرواح الهائمـة، التي سـمعت الحديث، هي الأخـرى من قمّة جمجمة لوسي، مستعدّة للنزول إلى جسدها حالما يُفتَح هذا المخرج.

حذّرتها دولوريس:

- *انتظري! لا، لا تخرجي يا لوسي، الطفيليات هنا أيضًا!*

- لا أسـتطيع التعامل مع هذا، ليس في حالتي الراهنة... انتظر... ربّما لـديّ فكرة. اقتـرب إلى أقصى ما تسـتطيع من قمّة جمجمتي... سـوف أعدّ الأعداد من واحد حتى عشـرين. حينما تسمعني ألفظ العدد الدقيق لقططي، الـذي وحدنـا أنـت وأنـا نعرفـه، ادخـل فـورًا إلى جسـدي. هذا سـيمنحك الأفضلية. اتّفقنا؟ إذا أحسنت ضبط التوقيت المتزامن، سوف تنجح الفكرة. هل أنت جاهز؟

بـدأت تعـدّ. حول غابرييل، اسـتعدّت بدورها الأرواح الأخرى الشـرهة لسرقة هذا الجسد للانقضاض عليه.

- 1... 2... 3...

عانت صعوبة في نطق الأعداد بوضوح.

- 10... 11... 12... 13...

فجأةً، خرجت روح لوسي مثل طلقةٍ.

اندفع غابرييل قبل أن تحظى الأرواح الهائمة المجاورة بفرصة التصرّف.

صاحت دولوريس:

- *لقد نجحتَ!*

غادرت الأرواح الهائمة الأخرى المكان، محبطة.

حامت لوسي، وقد أصبحت محض روحٍ، أمام صديقتها القديمة دولوريس.

- *شكرًا!*

حاكت المعتقلتان السابقتان معًا في سجن رين حركة عناقٍ حارٍّ.

أمّا غابرييل، فقد احتلّ جسد المرأة الشابّة.

لم يكد يشعر بالإحساس اللطيف بالتناسخ حتى شعر بتأثيرات الهيروويين؛ إذ بدأ يشعرُ بنشوةٍ ما ويرى ومضات ملوّنة. حتى قبل أن يكتشف بدقّة شكل وحجم جسده، أرسل له ذهنه صورًا مشوّهة لكلّ ما يُحيطُ به. انحنت الجدران، ومالت، واعوجّت، واتّسع السقف وابتعد، وصعد ونزل، وأحسّ ببردٍ في يديه وبسخونةٍ في رأسه. ثمّ أحسّ فجأةً بألم حادٍّ في مكان حقن الإبرة، وبدا له فمُه مليئًا باللعاب الذي لم يكفّ عن السيلان، الأمر الذي خلق لديه إحساسًا مزعجًا للغاية. ثمّ بدأ يشعر بالغثيان.

طمأنته لوسي:

- *أنا هنا، قريبة جدًّا منك! لن أدعك تسقط، يا غابرييل، هل تسمعني؟ هل تسمعني؟*

بدت دولوريس متشائمة.

- *إنّ حلوله في جسدكِ لا يعني أنّه يُجيد استخدام قدرة دماغكِ كوسيطة روحية.*

- *غابرييل! غابرييل! هل تسمعني؟؟؟*

عانى من تشنّجاتٍ، ثمّ عندما توقّفت التشنّجات أخيرًا، استطاع بصعوبة أن يتحدّث:

- نعم. نعم، أسمعكِ، يا لوسي.

اطمأنّت السيّدتان.

- تنفّس بعمق.

أراد غابرييل أن يتنفّس ولكنّه شعر بحرقةٍ في قصبات رئتيه. سعل وبصق. وجد نفسه ممزّقًا بين متعة تناسخه والألم الناجم عن الموجة الثانية من الطاقة الغامضة التي ولّدتها المادة المخدِّرة في داخله. بدأت الهلوسات تنتابه من جديد وبدا له السرير شبيهًا بحيوانٍ ذي أربع قوائم يتوعّده. أدرك أن ذُهانه الهذياني الطبيعي قد تضخّم بفعل السمّ. امتلأ السقف بنصال شفرات الحلاقة الحادّة الجاهزة للهطول فوقه. واختلّ إيقاع دقّات قلبه، فتسارعت حينًا أو تباطأت دون سببٍ. بذل مجهودًا بدا له فوق طاقة البشر لكي ينهض، ورغم الدوخة والغثيان، توجّه نحو صنبور المغسلة ليحاول إرواء عطشه الشديد.

وضع رأسه تحت صنبور الماء البارد مثل الثلج.

قالت لوسي:

- أنا آسفة. شكرًا... لأنّك تتألّم نيابةً عنّي.

حاول أن يمشي وسقط على أطرافه الأربعة. وإذ لم يعد في وسعه النهوض، غَفا في مكانه.

حلّقت روح لوسي فيليبيني الطليقة في الغرفة فوق غلافها الجسدي السابق الذي بات مشغولًا الآن بروح غابرييل ويلز الغافية.

ولكنّها لم تحظَ بالوقت الكافي للاستمتاع بمسرّات انعدام الوزن. التفتت نحو دولوريس وطرحت عليها السؤال الذي يلحّ عليها:

- برأيكِ ما الذي حدث لي؟

- ذهبتُ للبحث في الغرف الأخرى؛ هناك فتياتٌ أخريات محبوسات مثلكِ، وعلى الأرجح هنّ أيضًا مخدَّرات.

- ماذا تستنتجين من ذلك؟

- يبدو أنّ الأمر يتعلّق بشبكة لتجارة الرقيق الأبيض.

- ولكن لا يمكنهم المجيء إلى منازل الناس في الليل لاختطافهم...

- إلّا إذا...

- كلّا، هذا مستحيل. لا بدّ أنّ سامي قد قُتِلَ أو جُرِحَ.

- استغلّي وضعكِ كمحضِ روحٍ لتفكّري مثل «عقلٍ مستنيرٍ». حسنًا، أنتِ تحبّينه، ولكن اعترفي أنّ احتمال أن يكون هو الذي سمح لهؤلاء الرجال باختطافكِ يبقى مع ذلك احتمالًا لا يَسقطُ من الحسبان.

- هذا مستحيل. سامي يحبّني.

حدّقت فيها دولوريس بغضب. تشنّجت ملامح وجه لوسي.

استأنفت حديثها:

- يجب أن أتأكّد من ذلك بنفسي. دعينا نذهب إلى بيته وسوف ترين بوضوح أنّ هناك حتمًا تفسيرًا مختلفًا.

قالت دولوريس:

- كلّا! لا يمكننا أن نترك جسدكِ هنا دون مراقبة. فيمَ ستنفعكِ معرفة الحقيقة بشأن سامي إذا ما تَلَفَ جسدكِ؟ سوف تفقدين كلّ احتمالٍ لاستعادته. ثمّ إنّ هذا التصرّف لن يكون مناسبًا حيال غابرييل الذي حلّ في جسدٍ مشبَعٍ بالمخدّرات بناءً على طلبكِ.

- إذن، ما الذي تقترحينه يا دولوريس؟

- دعينا ننتظر حتى يستفيق. ومن ثمّ، سوف نساعده على الهروب، وبعد ذلك، سوف ننشغلُ بحقيقة صاحبكِ سامي ولماذا وجدتِ نفسكِ هنا. ثقي بخبرتي كسجينة سابقة: على المرء أن يساعد أوّلًا أصدقاءَه قبل أن ينشغل بأعدائه.

وافقت لوسي على مقترحها.

ظلّ غابرييل ويلز نائمًا، ممدّدًا على سريرٍ ضيّقٍ. كان يحلم. ظهرت صور متوهّجة في ذهنه وراحت تتوضّح شيئًا فشيئًا. حلم بأحد المواضيع الرئيسية لروايته الأخيرة، *إنسان الألف عام*: سمندل المكسيك.

بدا أنّ الحيوان العملاق الأبيض ذا العينين الصغيرتين المدوّرتين والخيوط الطويلة الوردية يُريدُ أن يتحدّث معه. كان له نفس صوت جدّه إينياس:

«غابرييل... غابرييل... تشبّث بالحياة... تشبّث... لا تمت. سيكون حقًّا من الغباء أن تموت الآن».

64. الموسوعة: الأكزولوتل (سَمَنْدل المكسيك)

سَمَنْدل المكسيك هو حيوانٌ من الناحية العملية خالدٌ لا يفنى، لأنّ كلّ أجزاء جسمه قابلة للنموّ مجدّدًا. هذه الظاهرة تُذكّر بظاهرة ذيل الوزغة الذي يمكنه هو الآخر أن ينمو من جديد تلقائيًّا، لولا أنّ عند سَمَنْدل المكسيك تمتدّ هذه القدرة على التجدّد إلى كلّ أعضاء الجسم، بل حتى الدماغ. كلّ جزء يُقطَعُ من غير قصد أو يُبتَر ينمو من جديد.

تُفسّرُ هذه الميزة الفريدة بحقيقة أنّ سَمَنْدل المكسيك يستطيع أن يبقى في الحالة اليرقانية طيلة حياته. تمامًا مثل جنينٍ بشريٍّ في بطن والدته، يكون جسمه كتلةً من الخلايا الجذعية التي يمكنها بالتالي أن تتوالد. وتمامًا مثل جنينٍ بشريٍّ عائمٍ وسط سائله الأمنيوسي، حينما يُقطَعُ منه جزءٌ، لا يندمل بل ينمو من جديد.

يأخذ اسمه الأكزولوتل من لغة قديمة، هي لغة الناواتل، ومعناه «عفريت الماء». يوجَد هذا السمندل بالتحديد في بحيرات سوتشيميلكو وشالكو في وسط المكسيك، على ارتفاع ألفي متر عن سطح البحر.

غالبًا ما تكون بشرة سمندل المكسيك بيضاء مائلة للون الوردي؛ وهو مزوّد بخياشيم تشبه السرخس موزّعة في خصلات طويلة حمراء أو وردية تمنحه مظهر المُصاب بالبُهاق. هذا المظهر اللطيف استُخدِم كدُرجة لبوكيمون يُدعى: أكزولوتو. وبما أنّه يعيش في المياه، يتنفّس الأكزولوتل مثل سمكةٍ. يمكنه أن يتكاثر فيها، ولا يشيخ. وينطبق الأمر نفسه على نسله الذي يشهد عملية نضج مشابهة قبل أن يستقرّ في الحالة الجنينية ويستطيع بذلك أن يتكاثر بدوره.

بيد أنّ الأكزولوتل، إذا ما جفّت البُحيرة، يضطرُّ للخروج من

العنصر السائل ليعيش على الأرض اليابسة. فيشهد حينئذٍ تحوّلًا مفاجئًا: يصبح جلده الأبيض الشفّاف قاتمًا لكي يصبح في لونٍ بني أو أخضر، ولا يعود يستخدم خياشيمه للتنفّس بل يستنشق الهواء برئتيه، ويفقدُ القدرة على رؤية نموّ أعضائه المبتورة وتبدأ عملية الشيخوخة التي تمنحه كحدّ أقصى خمسة أعوام للعيش.

حاليًا، تُدرس الأكزولوتلات من قبل الأبحاث الطبية على أمل التوصّل إلى إعادة إنتاج هذه الظاهرة الاستثنائيّة من «المرحلة اليرقية»، التي تسبّب النمو المنهجي للأعضاء والأطراف.

منذ عام 2006، بدأ السكان المحيطون بها يعدّونها كأطعمة لذيذة. وبالتالي أصبح هذا الجنس من سمندل المكسيك معرّضًا لخطر الانقراض. وإذا ما اختفى هذا السمندل، سوف يأخذ معه السرّ المخفيّ في جيناته، السرّ الذي يسمح لكلّ أجزاء جسمه بالنموّ مجدّدًا...

إدمون ويلز،
موسوعة العلم النسبيّ والمُطلَق، المجلّد الثاني عشر.

الفصل الثالث

إفشاءُ سرٍّ

-65-

بعد يومٍ كاملٍ من النوم والرجفان والكوابيس والحمّى، هدأ جسد لوسي في النهاية، من خلال اطّراح المخدِّر ومكافحة آثاره. انفتحت جفونها، الأمر الذي أتاح لروح غابرييل أن ترى أخيرًا عبر عينيها.

خطرت في باله أوّل فكرة يعرف أنّها ليست فكرته تمامًا:

«شكرًا لأنني على قيد الحياة.

شكرًا لأنني أملك جسدًا».

ووصله ما تبقّى من التعويذة كما لو أنّه صدى:

«آمل أن أُثبِت اليوم جدارتي بفرصة أن أكون موجودة. سوف أفعل كلّ شيء لكي تخدم مواهبي قضيّة الحياة عمومًا ورفع مستوى الوعي عند أبناء جنسي من البشر الأحياء على نحوٍ خاصّ».

ارتعش «غابرييل – في – جسد – لوسي» من أنّ أفكارًا غريبة تختلطُ بأفكاره، ولكنّه ارتعش أيضًا بسبب البرد؛ فتدثّر بالشراشف وظلّ متكوّرًا على نفسه بانتظار ألّا يعود يعاني من تشنّجات، ثمّ هدأ كلّ شيء في النهاية. تنفّس ونهض وسار نحو المرآة الموجودة فوق مغسلة حُجرته.

المرّة الأولى التي رأى فيها نفسه، جفل من شدّة المفاجأة والخوف. كان وجه المرأة الشابّة الذي بات وجهه شاحبًا. بدأ يشعر بالحاجة إلى جرعة جديدة من الهيروين، ولكنّه استطاع بصعوبة أن يتمالك نفسه.

غسل وجهه بالماء لينظّف الدموع الناشفة ومسحوق التجميل الذي سال معها. تحسّس وجنتيه، اللتين شعر بأنّهما أكثر هزالًا. لمسَ جمجمته، التي وجدها أصغر حجمًا. ولامس شعره الذي أصبح طويلًا جدًّا. فحص أعضاء جسمه، فنظر إلى يديه الصغيرتين وذراعيه الرفيعتين، ونتوءات نهديه.

سرت فيه رعشةٌ جديدة.

ولكـي يتأكّـد بمـا لا يدعُ مجـالًا للشـكّ، وقف أمـام المرآة ورفـع فجأةً قميصه الرياضي. فرأى صدره ذا الحلمتين الكبيرتين باللون الوردي الغامق. كرّر هذه الحركة مرّات عديدة.

قرص نفسه، معتقدًا أنّه يحلم، وعضّ لسانه ثمّ بدأ يكشف على نحوٍ أبطأ عن جذعه. تحسّس جسده.

قال في نفســه إنّه هو الذي كان يحلم بممارســة الجنس مع لوسـي أصبح الآن لوسـي نفسـها، وإنّه يكفيه أن يمـدّ ذراعه لكي يُداعب نفســه في أوقات الفراغ.

كان الوضـع غريبًا جـدًّا إلى درجة أنّه انفجر في نوبـة ضحكٍ عصبيّة كما لو أنّه يريد اسـتعادة السـيطرة على نفســه. هدّأه هذا الضحك الذي حدث في هذا الجسد الذي كان لا يزال غير مريحٍ بالنسبة إليه ومنحه دفعةً من الطاقة.

- هل تسمعني؟

التفت، ولكنّه لم يرَ أحدًا.

- من يحدّثني؟

- هـذه أنا. لوسـي. لقـد تحوّلـتُ إلى محـض روح، وأنـت حللتَ في جسدي. أردتُ أن أتحقّق من أنّك تستطيع سماع صوتي.

- أنا أسمعكِ.

- لا بدّ أن يكون هذا هو جزء الوسـاطة الروحية من دماغي الذي يسـتمر في العمل. وبالتالي هذه الحاسة مرتبطة بأعضاء جسدي وليس فقط بروحي.

- وأنا، هل تسمعني؟ أنا دولوريس، صديقة لوسي.

- نعم، أسمعكِ أنتِ أيضًا.

قالت لوسي:

- هذا رائع. تذكّر يا غابرييل: لقد أجرينا عملية تبادل. كان هذا اقتراحي، وأعتقـدُ أنني اتّخـذتُ الخيار الصحيح، لأنه لم يكن لـديّ ما يكفي من القوّة الذهنيـة لمقاومـة آثار المخـدّرات، أمّا أنـت، فقد نجحت فـي تحمّلها. لقد نجوت والآن يمكنك أن تواصل العيش.

- هل تريدين استعادة جسدكِ؟

- *كلّا، ليس بعد. لقد أجريتَ دراسات في علم الجريمة، وكتبتَ روايات بوليسية، عقلكَ أكثر نضجًا، وأكثر قدرة استراتيجيّة، وستكون الأفضل لإدارة عملية الفرار من هذا السرداب. أمّا أنا، فسأكون رعناء فحسب. تذكّر ولوجي إلى المشرحة: لقد جرحتُ نفسي وصنعتُ حشدًا من البشر الذين لاحقوني.*

- إلى متى ستُبقين جسدكِ معي؟

- *يمكنك الاحتفاظ به لبعض الوقت الإضافي حالما تفرّ من السرداب. لديّ مشكلةٌ أخرى، مشكلة شخصيّة بعض الشيء، ينبغي لي حلّها.*

- في هذه الحالة، أنوي أن أستغلّ أنا أيضًا هذا التأجيل لمتابعة التحقيق حول قاتلي، أو بالأحرى حول تدمير غلافي الجسدي السابق ما لم يكن لديكِ اعتراضٌ على ذلك.

ذكرت دولوريس:

- *أشعرُ كأنّك تتفاوض لكي تعرف من الذي سوف يستقلّ السيارة هذا المساء... ولكنّه لم يخرج بعد من هنا!*

اقترحت لوسي:

- *سوف يمكننا أن نتبادل المساعدة. سوف أخبرك الآن بما يفعله سجّاناك في الطابق العلوي.*

اختفت للحظةٍ وعادت لتقول له:

- *إنّهما نائمان. هذه هي اللحظة المناسبة للتحرّك.*

حينئذٍ، لجأ إلى جزءِ غابرييل ويلز من عقله، فوجد مسمارين قام بثنيهما للعبث بالقفل حتى انزلق المزلاج بهدوء نحو الداخل.

فُتِحَ البابُ.

نصحته دولوريس:

- *خذ الملابس الأكثر سماكةً، فالجوّ في الخارج باردٌ.*

- *ثمّ ارتدِ حمّالة صدر إذا اضطررت لأن تركض. وسرعان ما ستكتشف أنّ هذا عمليٌّ أكثر.*

اضطرّ غابرييل لأن يكرّر العملية مرّات عديدة قبل أن يتمكّن من تعليق

مشابك حمّالة الصدر خلف ظهره. عبر الباب واكتشف أن كعبيه العاليين يجعلانه غير متوازنٍ في مشيته وأنّ حمّالة الصدر تحتكّ بجلده وتزعجه.

وفي النهاية، آثر أن يمسك حذاءه بيده ويسير حافي القدمين. سمع أنينًا ونظر من العين الساحرة في الباب. رأى فتاةً ممدّدة. اكتشف ستّة أبواب وستّ فتيات في وضعية تشبه الوضعية التي حاولوا وضع لوسي فيها.

أخرج المسمارين للعبث بالقفل الأوّل.

صاحت دولوريس:

- *ولكن ماذا تفعل؟*

- سوف أحرّر جاراتي، هيّا.

- *سوف يجعل هذا هروبك أكثر صعوبةً. أنقذ حياتك، ومن ثمّ سوف تعود لمساعدة هؤلاء الفتيات المسكينات. إذا ما تعرّضتم جميعًا للملاحقة، لن يعود في وسعكم التقدّم، لا هنّ ولا أنتَ.*

- وأنتِ يا لوسي؟ أليس لديك أيّ تعاطف مع رفيقاتكِ في السجن؟

- *دولوريس على حقّ. من الأفضل ضمان هروب جسدي بدل الرغبة في مساعدة الفتيات الأخريات وإفساد كلّ شيء.*

عرف أنّ ليس لديه الوقت للدفاع عن وجهة نظره، ولذلك سلك السلالم وصعد إلى الطابق الأرضي.

رأى الرجلين نائمين جلوسًا في الأريكة، أمام التلفزيون الذي كان لا يزال يعمل.

تقدّم بخطواتٍ حذرة، ولكنّ قدمه تعثّرت بقطعةٍ من الأثاث، وأحسّ بألمٍ حادٍّ، فعبس وكتم بصعوبةٍ أنينًا.

فتح أحد الرجلين عينيه.

- هيه! ولكن ماذا هناك...

اندفع لكي يقبض على الهاربة، ولكنّ لوسي، الحائمة فوقه، وجدت وسيلةً لتفاديه: تواصلت مع ذهن القطّ السمين لتحثّه على تغيير مكانه. تعثّر الرجل بالقطّ وسقط أرضًا.

جرى غابرييل لكي يصل إلى سيارة البورش. لحسن حظّه كانت مفاتيح التشغيل فوق لوحة القيادة. أقفل الأبواب وهو يسمع صوتًا يصيحُ من ورائه:

- لا ينبغي تركها تفرّ! بسرعة! أمسكوا بها!

وضع غابرييل الحذاء ذا الكعب العالي على المقعد المجاور، غير مستعجلٍ على انتعال أداة التعذيب هذه.

أقلع بالسيارة، تلاحقه سيارة السجّانين من طراز البي إم دبليو. سرت في جسده ارتعاشات ورجفات أخرى من جرّاء تأثير المخدّر الممزوج بدمه. تنفّس بصعوبة، وارتعشت يداه.

قال لنفسه إنّه لم يُدرك قط حتى هذه اللحظة إدراكًا حقيقيًّا حظّه في أن يكون في الجسد الحيّ، الماديّ، الملموس.

أحسّ بالفرق الموجود بين أن يكون في هذا الجسد الأصغر حجمًا، ذي نهدين وشعرٍ طويلٍ وبشرةٍ أكثر رقّةً وأكثر نعومةً، و... بدون قضيبٍ ذكريّ.

ضمّ فخذيه بعضهما على بعض ولكنّه لم يحسّ سوى بنسيج سرواله الداخلي الحريري بين ساقيه.

ابتسم لهذه الأحاسيس الجديدة التي وجدها أخيرًا ممتعة جدًّا.

لقد اكتسب نتوءات في أعلى جسده وفقد نتوءات في أسفله.

مرّر إصبعًا على فمه وأحسّ أنّ شفتيه أكثر اكتنازًا، ونظر إلى نفسه في مرآة السيارة ووجد نفسه... **جميلةً**، وهو يرى في المرآة العاكسة خلفه سيارة ملاحقيه.

فكّر في مالكة الجسد الذي يقوده، قائلًا في نفسه إنّها تملك كلّ ما هو مطلوب لكي تنجح: الذكاء والحساسية والإبداع والوساطة الروحية والجمال. نقطة ضعفها الوحيدة هي... سامي. النساء بشكلٍ عامّ أذكى من الرجال، إلّا حينما يقعن في الحبّ - يتبيّن حينئذٍ أنّهنّ أكثر سذاجةً من فتيات صغيرات.

صاحت في تلك اللحظة لوسي - الروح:

- *احذر، إلى اليمين، هناك شاحنة!*

تجنّب غابرييل – المرأة في آخر لحظة شاحنة ثقيلة تتجاوز سيارةً في الاتجاه المعاكس.

– اعذرني إذا كان هذا تطفّلًا، ولكن إلى أين تنوي أن تمضي مع «جسدي»؟

– سأذهب إلى لقاء فلاديمير كراوس.

– لماذا هو؟

– سوف يتعرّف على وجهكِ وأنا أعرفه جيّدًا. يضمّ مركزه للتحاليل قسمًا مخصّصًا لمدمني المخدّرات، ولديه جميع الأجهزة والمعدّات الضرورية لتنقية الدم. ولكن في البداية يجب أن أتخلّص من هذين الرجلين.

متذكّرًا مشاهد المطاردات السريعة التي وصفها في العديد من رواياته، ارتجل خطّة تشتمل في المرحلة الأولى على الذهاب إلى باريس. حالما عبر الطريق الدائري عند محطّة بورت دي سانت وان للمترو، اندفع مسرعًا في شوارع مونمارتر التي ازدادت ضيقًا، شارعًا بعد آخر، متجاوزًا في طريقه عدّة إشارات مرورية حمراء. تجنّب في آخر لحظة وبصعوبة درّاجات هوائية، واحتكّ بسيارةٍ خلع مرآتها العاكسة.

صرخ أحد المشاة وهو يشاهد تعرّج سيارة البورش في الأزقّة الضيّقة:

– آه من النساء حينما يقُدنَ السيارة! انظروا إلى هذه!

حاول الرجلان اللذان يستقلّان سيارة البي إم دبليو ألّا تغيب فريستهما عن أنظارهما، ولكنّهما أُعيقا من قبل شاحنة ضاغطة للنفايات كانت تتحرّك ببطء. رغم إطلاق صفّارات التنبيه في السيارة، التي ردّ عليها جامعو القمامة بإشارات استفزازية، فقدا أثر الطريدة وخرجا عن اللعبة.

قالت دولوريس بسخرية:

– أحسنتَ يا غابرييل! أنت تقود السيارة بطريقة ممتازة بالفعل... بالنسبة إلى امرأة.

توجّه غابرييل – المرأة نحو جادة الشانزليزيه التي تضمّ مختبر فلاديمير كراوس. لمّا وصل إلى المكان، انتعل حذاء لوسي ذا الكعب العالي الذي

أضـاف بضعة سـنتيمترات إلى طولـه، وتقدّم بخطوات غيـر متّزنة على غرار شخصٍ مخمور، ثمّ طلب مقابلة صديقه على نحوٍ عاجل.

تعرّفت موظّفة الاسـتقبال غيسلين مباشرةً على المرأة الشابّة وأبدت هذه المـرّة المزيد من التعـاون، وقادتها دون تردّدٍ ولا تذمّـرٍ إلى مكتب فلاديمير كراوس.

صاح فلاديمير كراوس:

– أنا سعيدٌ بلقائكِ، يا آنسة فيليبيني!

ثمّ أقرّ:

– كنتُ أخشـى ألا تعاودي الاتّصال بي مرّة أخرى. لقد خلقتِ لديّ هذا الانطباع خلال زيارتكِ الأولى...

نظر إليها بدقّة أكبر وتبيّن له أنّها شـاحبة الوجه، وأنّ يديها ترتعشـان وأنّ عينيها محاطتان بهالات سوداء.

– اسـمعني، يـا فلاديميـر. مـن الصعـب بعض الشـيء أن أشـرح لك المسـألة، ولكنّنـي اختُطِفتُ من قبل شـبكة قوّادين حاولـتْ أن تحوّلني إلى زومبـي. حقنني أفرادها بالمخـدّرات، ويجب إجراء عملية تبديل الدم. أعلم أنّك تجري هذه العملية هنا. وسوف أشرح لك الأمر حالما يتمّ تطهير دمي.

بدا فلاديمير مندهشًا من رفع الكلفة معه ومخاطبته بصيغة المفرد، ولكنّ غابرييل – المرأة أظهر له الورم الدموي في تجويف مرفقه. وتصرّف الآخر في الحال مستدعيًا ممرّضين حضروا فورًا للاهتمام بأمر المرأة الشابّة.

أُجـري لـه تحليل دمٍ، ثمّ وضِعَ في غرفةٍ حيث سـحبتْ منـه مضخّةٌ ببطءٍ الدم الملوّث ليُستبدَل به دمٌ نظيف.

شرح غابرييل – المرأة:

– أعتقد أنّ الأمر سيسـتغرق سـاعات. يمكنكِ أن تتركيني الآن، يا لوسـي، أعتقد أنني فهمت أنّ لديكِ بعض الشؤون الخاصّة التي ينبغي لكِ الانشغال بها.

– *شكرًا على اعتنائك بغلافي الجسدي.*

– أنا أشـبه بميكانيكي أودعت سائقةٌ سـيّارتها لديه لفحصها وصيانتها:

بدأتُ بإفراغ زيت المحرّك، ومن ثمّ سوف أتحقّق من ضغط العجلات قبل أن أغسل هيكل السيارة.

- *آه... همم... هناك بعض الأمور الصغيرة التي أفعلها مع جسمي والتي يجب أن أوضّحها لك.*

- مثل ماذا؟

- *لا تنم قبل أن تُزيل مستحضرات التجميل، ولا تنسَ أن تضع مرهمًا ليليًّا، وإلّا فسوف ترى بشرتي جافّة في الصباح.*

- ممتاز، وماذا أيضًا؟

- *هناك فيتامينات وأدوية يجب عليك أن تتناولها في الصباح. وهي كلّها موجودة في الخزانة اليمنى في مطبخي. ومن ثمّ إذا نما شعر ساقيّ، سيكون عليك إزالته بالشمع الحارّ، ثمّ إنني أضع بانتظام على وجهي قناعًا من العسل و...*

- لا أنوي الخلود في جلدكِ، ولذلك سوف أكتفي بتلبية احتياجاتك ذات الأولوية: غسل الدم والبشرة، تناول الطعام، النوم، وممارسة بعض التمارين الرياضية.

- *ومن ثمّ صفّف شعرك. شعرك غير مصفّف تمامًا.*

- سوف أفكّر في ذلك.

- *ولا تنسَ أنني نباتية. لا تضع لحمًا في فمي. ولكي تستكمل مراحل صيانتك للسيارة، سيكون الأمر أشبه بوضع الوقود في خزّانٍ مصنوعٍ خصّيصًا لوقودٍ خالٍ من الرصاص.*

- لا تقلقي، يا لوسي. في كلّ الأحوال، اعلمي أنّ وجودي في جسدكِ، بعد تجاوز الاضطراب الناجم عن المخدّرات، هو بالنسبة إليّ تجربة... كيف يمكنني وصفها؟... تجربة بالفعل «غريبة».

كانت لا تزال ترغب في إعطائه المزيد من النصائح بشأن التعامل مع غلافها الجسدي، ولكنّها تراجعت عن ذلك خوفًا من أن تضايقه بذلك.

- وأنتِ، بماذا تشعرين كروحٍ محضة؟

- علـيّ أن أعتـرف بأننـي أتحمّـل هـذا الوضـع فقـط لأننـي أعلـم أنني سأستطيع فيما بعد أن أستعيد جسدي. وإلّا لشعرتُ بأنني ميّتة.

- إذن فـي الواقـع، يتوقّف مصيـركِ على وعدي بأن أعيد إليكِ جسـدكِ عندما تطلبين منّي ذلك.

- لم أتخيّل حتى مجرّد تخيّل أنّه يمكنك أن تتردّد في إعادته إليّ.

ابتسم غابرييل - المرأة.

- كفّي عن إعطائي المزيد من الأفكار.

- ولكن حذاري من أن تنوي استغلال الوضع للسطو على جسدي!

ابتسم غابرييل ابتسامة أعرض.

- سوف نرى.

- أحـذّرك مـن أنّه إذا لـم تُعِدْ لي جسـدي عندما أطلب منـك ذلك وفي حالةٍ... أقصد، في حالة أفضل من الحالة التي كان عليها حينما سلّمتهُ لك، سوف أقتحم أحلامك لكي أحوّلها إلى كوابيس و...

- هيّـا! استـغلّي هذه اللحظة كروحٍ محضة لكـي تقومي بما كنتِ تعانين صعوبـة فـي القيام به عندما كنتِ مادّةً: اكتشـاف الحقيقة. في الأثناء، سـوف أكتشف إمكانات جسدكِ لكي أستعيد الأحاسيس القديمة، مثل تناول الطعام والنوم. وأخيرًا، هأنذا أحقّق أحد أحلامي: أن أكون في جلد امرأة.

لـم تُطمئـن هذه الجملة الأخيرة لوسـي. تردّدت في الإلحـاح على تلقّي الضمانات في أنّها سـوف تستردّ جسـدها، ولكنّ دولوريس أشارت لها بأنّها مستعدة لأن ترافقها للذهاب ورؤية ما يجري في بيت سامي.

- هيّا، فلنذهب إلى هناك! إلى اللقاء القريب، يا غابرييل.

حالما غادرت، استدعى الكاتبُ الممرّضةَ.

- همم... يا آنسة، أعلم أن عمليّة استبدال الدمّ قد تستغرق وقتًا، ولكنني جائع. هل يمكنني الحصول على شيءٍ أتناوله؟

وجـدت له هـذه الأخيرة صينيّة طعـام رغم تأخّر الوقـت المحدّد لتقديم الطعام للمرضى: سلطة عدس، وقطعة سلمون مسلوقة مع بطاطس مهروسة

بالإضافة إلى حلوى الكومبوت. قدّمت له كلّ الطبق مع قارورة من عصير التفّاح. تأمّل غابرييل - المرأة هذه التشكيلة من الطعام مثل لوحةٍ رسمها أستاذٌ في الفنّ وبدأ بالمشروب الذي احتفظ به وقتًا طويلًا في فمه، وهو يجدُ فيه ألف نكهةٍ، واكتشف، في الوقت الذي يشرب فيه العصير، تسوّسًا بسيطًا في أحد الأضراس.

قال في نفسه إنّ عليه أن يُخبِرَ لوسي بذلك، فمن جهته، يكره الذهاب إلى طبيب الأسنان ولا ينوي أن يفعل ذلك لأجلِ جسدٍ سوف يُعيده عمّا قريب إلى صاحبته.

بعد أن استمتع خلال بضع دقائق بكلّ جرعةٍ من عصير التفّاح، تذوّق طعم سلطة العدس، واكتشف بانبهارٍ قطعًا من الجذر، وقطعًا من لحم الخنزير المقدّد، وتردّد في تناولها، ثمّ، حينما تذكّر وعده بعدم وضع اللحم في جسد لوسي، دفع قطع لحم الخنزير المقدّد إلى حافة طبقه.

أحسّ بطعم الزيت المُصاحب للعدس، وببعض الذرّات الدقيقة من الملح وحتى الفلفل. بدا له كلّ شيء لذيذًا، وأحسّ بأنّه يشعر بجزيئات الطاقة التي ينقلها كلّ هذا الغذاء النفيس.

ثمّ تذوّق البطاطس المهروسة، ولكنّه لم يعد يتذكّر إن كان النباتيون يأكلون السمك أم لا. وسط الشكّ، واحترامًا للوسي، لم يأكل سوى لقمة واحدة من السلمون، الذي وجده لذيذًا. وفي النهاية، أبهرته حلوى الكومبوت بمذاقها اللذيذ.

وفي تلك اللحظة دقّ فلاديمير كراوس الباب ودخل.

- لقد ذهبنا بعيدًا في التحاليل: لديكِ في دمكِ، فضلًا عن الهيرويين، كوكايين وحتى ميثامفيتامين! وكأنّهم أرادوا أن يجعلوكِ مدمنة على جميع صنوف المخدّرات في نفس الوقت.

- هل تستطيع أن تشفيني، يا فلاديمير؟

- نعم، لا بدّ لغسيل الدم أن ينقذكِ، ولكن سيتطلّب ذلك منكِ الراحة.

- هل تستطيع، أقصد هل تستطيعون (لاحظ أنّ المخاطبة بصيغة المفرد تُربك محدّثه) أيضًا، لإسداء خدمةٍ لي، أن تشتروا لي ثيابًا أكثر... راحةً؟

أحتاج إلى بدلة رياضية، وحذاءٍ رياضيٍّ، ومن ثمّ حمالة صدرٍ قطنية لممارسة الرياضة. لقد سرقوا منّي هاتفي المحمول. هل تعتقدون أنّ بإمكانكم تقديم هاتفٍ لي؟ سوف أعوّضكم بثمنه فيما بعد. لقد سلبوني أيضًا محفظة نقودي.

– هل تريدين شيئًا آخر؟

– أُريدُ مسدّسًا.

لم يستطع إخفاء دهشته.

طمأنه غابرييل – المرأة:

– كلّا، أنا أمزح. لا بدّ أن يكفيني مسدّسٌ صاعقٌ أو سكينٌ أو قنبلة مسيلة للدموع. أيّ شيء لأدافع به عن نفسي في حال نجح منْ يلاحقونني في العثور عليّ.

تساءل فلاديمير إن كانت تسخرُ منه.

– هل كان طبق الطعام لذيذًا؟ إذا لم يُعجبكِ هذا، يمكنني أن أطلب من مقدّم الطعام أن يجلب لكِ شيئًا آخر.

– هذه أفضل وجبة تناولتها في كلّ حياتي! حقيقةً. وأنتَ، أقصد، أنتم لا يمكنكم أن تعلموا كم أشعر بالراحة في جلدي في هذه اللحظة.

شعر فلاديمير كراوس بأنّه لا يفهم إلّا جزئيًا إيحاءات هذه الزبونة الجميلة جدًّا التي لا يستطيع تحمّل نظرتها الحادّة جدًّا.

-66-

– كيف حدث هذا، أضعتَها؟! تُريدُ أن تقنعني بأنّها بعد أن تناولت «كوكتيل الترحيب» خاصّتها، استطاعت أن تفتح باب زنزانتها، وتسرق سيارة أحد صبيتك، وعلاوة على ذلك إضاعتهم في شوارع باريس؟ هل تعي ما ترويه لي، يا كريستوف؟ لقد وعدتني ألّا أعود أسمع حديثًا عنها! هل تُدركُ حجم الخطر الذي تعرّضني له؟ إذن، إذا كان هذا لا يزعجك، يجب أن تعثر لي عليها، وبسرعة!

طارت دولوريس ولوسي فوق سامي الذي يثرثر غاضبًا في هاتفه الذكيّ.

- ها أنتِ ترين، الآن اكتشفتِ الشخصيّة الحقيقيّة لعشيقكِ...

- لا أستطيع أن أصدّق. هل تعتقدين أنّ هو من يقفُ وراء كلّ هذا؟

- إذا كنت لا تزالين تشكّين في ذلك، اسمحي لي أن أقول لكِ إنّكِ لستِ ساذجة فحسب بل بصراحة غبيّة أيضًا. لقد سمعتِهِ بنفسكِ ماذا يقول! لا بدّ أنّه قد استدعى بعض أصدقائه المنتمين إلى ما يشبه شبكة للتجارة في البغاء للتخلّص منكِ!

واصل سامي في هذه الأثناء الصياح في هاتفه الذكيّ:

- لا يمكن التغاضي عن هذا الأمر! لقد طلبتُ منك تنفيذ هذه المهمّة كخدمة شخصيّة لي وأنت أخفقت إخفاقًا تامًّا في إنجازها. يجب العثور عليها سريعًا لأنّها تعرف عنواني، ورغم أنّها مغفّلة بعض الشيء فإنّها ستأتي في النهاية إلى هنا لمعرفة ما حدث لها.

- هنا، كما ترين، في هذه اللحظة بالتحديد، لو أنني تناسخت لأمسكتُ بأوّل آلة حادّة تقع في يدي لأحطّم بها وجهه، وأجهزتُ بعد ذلك عليه بضرباتٍ من كعب حذائي...

- الرغبة في القتل هو ردّ فعلٍ بدائي. صدّقيني هذا ليس حلًّا، سوف يلحق بنا في العالم اللامرئي. أصغي إليّ يا لوسي، نحن الاثنتين، يقع على عاتقنا ابتكار طريقة للانتقام أفضل من القتل، وذلك بفضل معرفتنا لجانبي العالم.

ظهرت سونيا، شقيقة سامي.

- ماذا يحدث؟ لماذا تصرخ، يا سام؟

- لقد طلبتُ من كريستوف أن يضمّ لوسي إلى شبكته، وقد تركها هذا الغبيّ تهرب. الآن هي طليقة في الطبيعة.

- لقد قلتُ لك ذلك، ما كان عليك أن تعرّض نفسك للمخاطر، كان من الأفضل لك أن تتخلّص منها نهائيًّا بدل الرغبة في إبعادها فقط.

- الأمر ليس بهذه السهولة، كانت فعلًا تعشقني.

- وماذا يعني؟ لا تقل لي إنّك أنت أيضًا كنتَ تعشقها؟

- الأمـر ليس كذلك، لا يمكنكِ أن تفهمي الأمر! لقد بدت أنّها في غاية السعادة بلقائها بي مجدّدًا وبذلك أثارت عواطفي.

- جانبـك العاطفي هذا سـوف يضيّعك... ها أنـت ترى ما يحدث: إنّها حـرّة طليقـة وفـي حوزتها جبلٌ مـن المعلومات عنـك. هل تتخيّـل ما الذي سيحدث لو أنّها بلّغت الشرطة عنّا؟

سُمِع صوتُ رنين إشعارٍ من الهاتف الذكي إيذانًا بوصول رسالة.

قال سامي:

- إنّـه كريسـتوف. يخبرني أنّـه كان قد خاط شـريحة إلكترونيـة لتحديد الموقـع علـى لباسـها كإجـراءٍ احتـرازي. ولذلـك عثـروا على أثرهـا، فهي موجودة في عيادة. لا بدّ لرجاله المأجورين أن يضعوا أيديهم عليها سريعًا.

تحرّكت لوسي ودولوريس على الفور.

قالت دولوريس:

- *يجب تحذير غابرييل المعرّض للخطر.*

طارتا بأقصى سرعة للذهاب إلى مختبر كراوس، فعبرتا السطح والسقوف ووصلتا إلى غرفة غابرييل.

- *بسرعة يا غابرييل، عليك أن تغادر على الفور!*

- لا تزال هناك بضع دقائق قبل أن يصبح «دمنا» نظيفًا.

- لا وقت لدينا. سيصل ملاحقوك الآن.

أوقف المضخّة ونزع إبرة الحقن.

- كيف استطاعوا أن يعلموا أنني هنا؟

شرحت دولوريس له:

- *لقد وضعوا شريحة في الملابس التي تُركت تحت تصرّفك.*

- *أرى أنّ العيادة قد جلبتْ لك ثيابًا جيدة، ارتدِها واخرج من هنا فورًا.*

ارتدى غابرييل - المرأة البدلة الرياضية وانتعل الحذاء الرياضي وغادر غرفته بتلك الملابس.

سألت غيسلين، متفاجئة برؤيتها وهي تغادر:

- إلى أين تذهبين، يا آنسة فيليبيني؟

- لديّ أمرٌ طارئ، يجب أن أغادر. آه، هناك أمرٌ آخر، هناك خطر أن يأتي رجالٌ إلى هنا ويطلبوا مقابلتي، وهو عشيقٌ سابقٌ لي وقد هجرته، وربّما يأتي معه بعض أصدقائه. لا تحاولي حتى التحدّث معهم، واطرديهم. وإذا ما ألحّوا عليكِ، اطلبي الشرطة، لم أعد بالفعل أرغب في رؤيته.

وإذ بدت غيسلين غير مقتنعة، بحث غابرييل - المرأة عن حجّة، ثمّ، وقد تذكّر عبارة دارجة، تابع حديثه، قائلًا:

- هذا الرجل شاذٌّ نرجسي.

بدت العبارة تردّد صداها جيّدًا في ذهن غيسلين التي أشارت له بإشارة تواطؤ.

- أحسنتَ يا غابرييل، يبدو أنّك قد حزتَ على القليل من النفسية الأنثوية من خلال حلولك في جسدي.

- سوف أعدّ هذا الكلام مجاملةً. والآن، أين سأجد ملاذًا؟

- في منزلي. الآن وقد تخلّصت من الشريحة المحدّدة للموقع، لن يكون في وسعه العثور عليك. ليست لديه أيّ وسيلة لمعرفة مكان سكني.

صعد غابرييل - المرأة إلى سيّارة البورش واندفع في الشوارع الباريسية، وهو يخشى من مصادفة سامي أو رجاله المأجورين.

لمّا وصل إلى منزل لوسي، خرّ غابرييل - المرأة ساقطًا في الأريكة. أقبلت القطط نحوه وهي تموء، ولكنّ بعضها، بعد حماسةٍ عفويّة أولى، توقّفت لحظةً كما لو أنّ الارتياب تسلّل إليها.

شرحت لوسي:

- إنّها ليست غبيّة. إنّها تتعرّف على مظهري ورائحتي، ولكنّها تكتشف أنّ الروح الموجودة في جسدي ليست روحي.

تمسّحت القطط بساقه وأطلقت مواءً خافتًا.

- إنّها جائعة، يجب إطعامها.

نهض غابرييل، وبناءً على توجيهات لوسي أخرج بعض الأطعمة الخاصّة للقطط، وفتح عُلَب الأطعمة، وأشعل غلاية الماء للقطط الثلاث عشرة. اكتشف جهازًا لبثّ الأغاني، فأشعله واختار أوركسترا *أداجيو الوتريات* للموسيقي الأمريكي صامويل باربر. وأخيرًا، سمح لنفسه بما كان يحلم به: الاستحمام.

أعاد اكتشاف متعة الانغمار بالماء الدافئ، الذي لا بدّ أنه ذكّره دون وعيٍ بمرحلة الحمل في بطن أمّه.

فكّر في نفسه: *آه، لو كان فقط في وسعي أن أعيش مرّة ثانية نفس الحياة. لا لشيء سوى لأن أفهمها جيّدًا في ضوء المعارف التي اكتسبتُها حديثًا... وأيضًا لكي أتلذّذ بها بالفعل، بدل أن أعبرها مثل مسافرٍ في قطارٍ يسير عبر مناظر رائعة وهو يسهو عن النظر إليها...*

استنشق وشمّ روائح مختلفة. استمتع باستعادة حاسّة الشمّ لديه، وأغمض عينيه وترك ذهنه يستقبل عرضًا سريعًا من الصور من ماضيه الذي ربطه بروائح عطرة: طفولته المبكّرة (رائحة حليب أمّه حينما كان يرضع من ثديها)، ألعابه مع شقيقه (رائحته الكريهة عندما كان يُطلق الريح من أجل المتعة)، والده الذي يدعوه إلى مختبره (رائحة الكبريت والبوتاسيوم الساخنين تحت موقد بنسن)، أمّه التي كانت تسحب منه البطاقات (عطرها برائحة الورد ورائحة أوراقها القديمة المهترئة للعبة التاروت)، المدرسة التي كان يروي فيها حكاياته عن الوحوش للفتيات، المرعبة والمشوّقة في آنٍ واحد (كانت تفوح منهنّ رائحة العطور الرخيصة الممزوجة برائحة الباتشولي والعلكة الفقاعية)، كليّة علم الجريمة التي رأى فيها أوّل جثّة في حياته (الرائحة الفظيعة التي كانت تفوح منها والممزوجة برائحة الفورمالين التي من المفروض أنّها تخفي رائحة الجثّة، والتي جعلته يقول في نفسه آنذاك إنّ أسوأ ما في الموت هو الرائحة الكريهة التي يبعثها). تذكّر لحظات محدّدة أخرى: المرّة الأولى التي مارس فيها الحبّ (أمضى وقتًا طويلًا في شمّ جلد صديقته واعتبر أنّ ذلك هو الشيء الصحيح الذي يفعله)، أحد تقاريره الأولى (صوّره في غوّاصة وكان غابرييل قد شمّ رائحة رذاذ البحر المالح، ثمّ الهواء الفاسد في قمرة القيادة). تذكّر قفزته الأولى بالمظلّة (رائحة عرقه قبل أن

يقفز في الفراغ). المرّة الأولى التي مارس فيها الغوص في البحر، مكتشفًا بذلك الإحساس الرائع بالطيران (رائحة الفوهة البلاستيكية لقارورة جهاز الغوص). لقاؤه مع ناشر أعماله (رائحة عطر ما بعد الحلاقة بالبرغموت). زيارته الأولى إلى المطبعة ليشاهد طباعة كتابه (الروائح المتميّزة للحبر الصناعي، وروائح الزيت الساخن لمسنّنات المطابع الدوّارة الكبيرة من طراز كاميرون وروائح الورق المطبوع حديثًا). تذكّر أنّه حينما أمسك للمرّة الأولى بروايته المنشورة، شمّها مطوّلًا، وأحسّ بالرغبة في الانتحار لكي تتوقّف حياته في تلك اللحظة التي انتظرها كثيرًا.

انبعثت روائح أخرى في ذاكرته: روائح الشوكولا الساخنة، وروائح رقاب النساء، والسراخس، والكعك المحلّى على الشاطئ، والبصل المقلي في مطبخه... ثمّ عيد ميلاده الأخير، ورائحة الشموع الممزوجة بقشدة قالب الحلوى، وعطر سابرينا، وعطر بعض عشيقاته السابقات الأخريات اللواتي حضرن عيد ميلاده يومذاك، ورائحة الشامبانيا ثمّ رائحة النبيذ الأحمر، ورائحة القهوة، ورائحة الشراشف النظيفة (مع قليلٍ من مسحوق الخزامى) التي نام فيها للمرّة الأخيرة، وأخيرًا في الصباح الذي توقّف فيه أمام متجر بائع الزهور، حيث لم يعد يشمّ أيّ رائحة. اعتبر أنّ حاسّة الشمّ هي الحاسّة الأولى وأيضًا الأقوى، لأنّ هذه الحاسّة هي التي تتيح للمولود الجديد التعرّف على أمّه، وفقدان هذه الحاسّة يعني النهاية.

ولذلك استمتع وابتهج باستعادة حاسّة الشمّ مؤقّتًا. أمسك بواحدة تلوى الأخرى من القوارير الملوّنة التي كانت في متناوله وشمّ روائحها: الشامبو، والبلسم، وقناع الترطيب، وسائل الاستحمام، والصابون السائل ذو الرغوة. صبّ هذه المادة الأخيرة، وعند ملامستها للمياه الجارية من الصنبور، تشكّل زبدٌ من الرغوة البيضاء الصابونية.

تنفّس غابرييل – المرأة بعمق.

تصاعد صوت أداجيو صامويل باربر من الصالون، مضفيًا المزيد من الجدّية على اللحظة التي يعيشها.

غطس رأسه في الماء.

تذكّر اللحظة التي دخلت فيها لوسي إلى صالة الانتظار في عيادة فريدريك لانغمان، وقفزه عبر النافذة، وتحليقه الأوّل، واللحظة التي أدرك فيها أنّه ميّت. سرت رعشةٌ في جسده. وتذكّر اللحظة التي وجد فيها جسده عبر سقف الغرفة. واللحظة التي أعلن فيها أحد المسعفين أنّ الأمر قد قُضي. تذكّر مراسم دفنه، واكتشاف النيكروفون وحلوله في جسد لوسي.

وماذا لو أنّ... كلّ هذه اللحظات الغريبة ليست سوى هلوسات؟ ماذا لو أنّه في حلمٍ أكثر اتقانًا بقليل من الأحلام التي تراوده بالعادة؟ فجأةً راوده شكٌّ هائل في حقيقة وجوده، وماضيه وحاضره. أيّة نيّة حسّ قبتله

كلّا! لا يمكن لهذا أن يكون حلمًا.

كان قد ثبّت بنفسه قاعدةً بألّا يلجأ في رواياته إلى عبارة «لم يكن هذا إلّا حلمًا» أو عبارة «كان هناك أخٌ توأمٌ مخفيّ». ربّما كان هذا غشًّا ـ فهو في غاية السهولة، وبالتالي لا يليق بكاتبٍ متطلّبٍ. استأنف تفكيره.

إذًا، هذا ليس حُلمًا.

إذًا، هذه حياته السابقة الحقيقية.

إذًا، هذا موته الحقيقي حديث العهد.

إذًا، لقد تناسخ بالفعل، مؤقّتًا، في جسد امرأة. مع أنّ هذا قد يبدو غريبًا.

أخرج رأسه من تحت الماء، مثل جزيرةٍ تظهر إلى السطح الرغوي لمغطس الحمام.

وهأنذا أصبحتُ تلك المرأة التي وددتُ التقرّب إليها.

سكب الصابون على نفسه، وهو يُمرّر ليفة الاغتسال على الجسد، أحسّ بلذّة غريبة في مداعبة كلّ سنتيمترٍ من هذه البشرة الناعمة الأكثر حساسيّة بكثير من بشرته السابقة كرجل. شعر باللذّة والنشوة، وبفرحة أن يكون حيًّا من جديد. هتف صوتٌ في رأسه:

- حينما تنتهي من الاغتسال، وقبل خروجك، اسكب رشّة ماء باردة على ساقيّ وصدري. هذا مفيدٌ للدورة الدمويّة وينعشها. وإذا ما عثرتَ على بثرةٍ، احذر من أن تفقأها باستخدام الأظفار. وبعد ذلك، وربّما أنت لا تعلم

هـذا، هذه الخصلة الطويلة من الشـعر تسـتغرقُ وقتًا حتى تنشـف: سـيتعيّن عليك اسـتخدام مجفّف الشـعر. ولكن عن مسـافة بعيدة بعض الشـيء حتى لا تجازف بحرق شعري.

لـم يعـد يصغي إليهـا، ورفع درجـة حرارة الحمّـام ولعـب بأصابع قدمه بالماء المشبع بالرغوة. ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه.

واصلت لوسي حديثها:

- *ألم تعد تشعر بأثر المخدّرات؟*

وفـي تلـك اللحظة اشـتدّ ألـمٌ في بطنـه. اعتقد فـي البداية أنّهـا التأثيرات الجانبيـة للمخـدّرات، ولكنّـه أدرك أنّ هـذا ألـمٌ مختلـف، بعيـدٌ عن رأسـه وموضعيٌّ جدًّا. فتصوّر أن يكون الألـم ناجمًا عن التهابٍ في المعدة والأمعاء أو عـن عسـرٍ فـي الهضم - وكان قد سـبق له أن عانى من هذا الشـعور بعد تناوله أغذية منتهية الصلاحية. خرج من حوض الاسـتحمام، ونشّف جسمه ولاحظ بقعة دمٍ على المنشـفة. فكّر في الحال في جرحٍ، ولكنّ لوسـي نقلت إليه المعلومة الّتي كان يجهلها:

- *أهلًا وسهلًا بكَ في عالم النساء.*

لم يجرؤ على فهم ما قالته.

- *كان عليّ أن أخبرك أنّ دورتي الشهرية تبدأ اليوم.*

- هل تريدين القول إنني... في الدورة الشهرية؟

- *الفوَط موجودة في الخزانة فوق المغسـلة. سوف أرشدكَ لكي تضعها بالطريقـة الصحيحة. ولكن لتحقيق ذلك، عليك أن تسـترخي حيث لا ينبغي أن تضغط بشدّة.*

شـرحت له بالتفصيل العمليـة ومع ذلك اضطرّ لأن يكـرّر العملية ثلاث مرّات حتى نجح في إدخال هذا الشيء الغريب في جسده.

حينما نجح أخيرًا، رنّ جرس باب المدخل.

تساءلت دولوريس بقلق:

- *منْ عساه يكون هذا؟*

- *اذهب لترى، يا غابرييل!*

استغلّ غابرييل - المرأة ذلك لكي يرتدي ثيابه في عجالةٍ.

تساءلت دولوريس:

- *هل هؤلاء أتباعٌ آخرون لسامي؟ كيف استطاعوا أن يعثروا عليه بهذه السرعة طالما لم يعد يحمل شريحة لتحديد الموقع؟*

- كلّا هؤلاء *ليسوا رجال عصابات*، هؤلاء زبائن.

- في مجموعات؟

- مساء يوم *الأحد*، أُجري جلسات روحانية جماعية.

لحقت دولوريس بغابرييل أمام الباب وتعرّفت على عددٍ من أعضاء الحكومة.

- *ولكنّ هذا وزير الداخلية، ما اسمه؟*

- فالاديه. إنّه صديق.

- والآخرون؟

- ألا تعرفينهم؟

- *مهلًا، لا أستطيع أن أصدّق، إنّه مصحوبٌ برئيس الوزراء بروكار!*

- *لقد قال لي إنّه سوف يصحبه إليّ، ولكنني لم أصدّق ذلك بالفعل.*

- *لم يبقَ سوى أن يصطحب رئيس الجمهورية!*

- حسنًا، سيتعيّن *عليّ أن أستعيد جسدي لكي أدير الوضع.*

- كلا، هذا مستحيلٌ في هذه اللحظة.

- *ولماذا؟*

بدا الأسف على محيّا دولوريس.

- *إذا لم يتمّ ذلك ببطء وبموافقة واضحة من الطرفين، يمكن للروحين أن تجدا نفسيهما تتعايشان في نفس الجسد. وحينئذٍ، يكون هناك خطر الإصابة بمرض انفصام الشخصية المزمن. بشكلٍ عامّ، من الأفضل الانتظار لمدّة أربع وعشرين ساعة قبل الإقدام مرّتين متتاليتين على إجراء هذا النوع من الاستبدال الصادم بعض الشيء.*

كانت لوسي لا تزال تتذكّر الوقت الذي قضته في جناح الطبّ النفسي في المستشفى حيث أراد الجميع حرقها بسبب الشعوذة.

لاحظت دولوريس أنّ الرجلين السياسيين يصطحبان معهما نساءً.

ألحّت دولوريس على لوسي:

- سيكون من الأفضل أن تستردّي جسدكِ بهدوء غدًا.

- ولكنّ وزير الداخلية ورئيس الوزراء هنا وغابرييل لا يعرف كيف يتصرّف!

- في هذه الحالة، علينا مساعدة غابرييل في إنقاذ الموقف وعدم الإحراج.

رنّ جرس باب المدخل من جديد. وقف غابرييل - المرأة أمام خزانة الملابس، محاطًا بالقطط، واستعرض كلّ الفساتين متسائلًا في نفسه عن الفستان الذي يمكنه أن يرتديه.

قالت دولوريس، مندهشةً:

- ولكن، هذا رئيس الوزراء! لم أكن أعلم أنّ لديك كلّ هذا التأثير...

- ليكن معلومًا لديكِ أنّ غالبية الحكّام لديهم منجّمهم أو وسيطهم الروحي، لأنهم يدركون أنّهم لن ينجحوا أبدًا في إدارة بلدٍ بفعاليّة إذا اعتمدوا فقط على ذكائهم. ثمّ حينما يصلون إلى القمّة، ينتهون جميعًا إلى قبول فكرة أنّ هناك بالضرورة قوى غير مرئية تؤثّر على العالم المرئي.

67. الموسوعة: راسبوتين

من بين الشخصيات الكبيرة من الوسطاء الروحيين الذين أثّروا في رجال سياسة يأتي غريغوري راسبوتين في مرتبة متقدّمة.

بعدما ولِد حوالي عام 1869 في عائلة من الموجيك (الفلاحين الروس) في قرية بوكروفسكوي، في سيبيريا الشرقية، أظهر في سنٍّ مبكّرة هيبةً قويّة وتأثيرًا بالغًا من خلال قوامه وقوّته ونظرته الحادّة المنبعثة من عينين زرقاوين، ولكنّه تميّز أيضًا بميله إلى تعاطي

الكحول ومغامراته النسائية العديدة؛ وكانت عشيقاته يقلن عنهُ إنّ لديه قضيبًا ذكريًّا يبلغ طوله أكثر من ثلاثين سنتيمترًا مع شامةٍ على قاعدته. حينما كان يثمل، لم يكن يتردّد في إخراجه والتباهي به لإثارة إعجاب المحيطين به. حينما طارده حشدٌ من الغوغاء لقتله بتهمة الشعوذة، أُنقِذَ راسبوتين في الرّمق الأخير من قبل الشرطة وأودِعَ في ديرٍ مخصّص للمنحرفين والمجرمين. أصبح زاهدًا، وسط دهشة الرهبان الكبيرة، وحفِظَ عن ظهر قلب مقاطع كاملة من الكتب المقدّسة. واستطاع أن يحرم نفسه من الطعام والنوم خلال أسابيع عديدة، وهو يظلّ جاثيًا على ركبتيه مستغرقًا في تلاوة الصلوات خلال ليالٍ كاملة.

كان راسبوتين موهوبًا بقدرات الشفاء: يُروى أنّه أعاد النظر إلى رجلٍ أعمى وأتاح لامرأة عقيمة أن تلد توأمًا. وزَعم أيضًا أنّه يستطيع التحدّث مع الحيوانات، وكان يُجيدُ في الحقيقة ترويض الخيول الأكثر تمرّدًا وعنادًا.

بعد إقامته عند الكهنة، سافر عبر كلّ روسيا واستُضيفَ في الصالونات الفاخرة في سان بطرسبورغ. كانت البرجوازية المحليّة مستاءة وتشعر بالضجر، وقد أدهشها وأثار إعجابها هذا الاختصاصي في العلوم بحديثه إليهم عن التواصل مع الموتى، وبتنظيمه لحفلات الموائد الدوّارة على غرار الأخوات فوكس.

آنذاك كان أليكسي، نجل القيصر نيقولاي الثاني، يعاني من الهيموفيليا (نزف الدم الوراثي) الذي كان يُدعى أيضًا (داء الملوك). استدعت الإمبراطورة ألكسندرا فيودوروفنا، بعد أن نفدت كلّ الحلول، راسبوتين إلى مخدعه على أمل أن يجترح معجزةً. وفي الواقع بدأ الطفل، الذي يعالجه الكاهن ذو الشعر الطويل والعينين الواسعتين الزرقاوين، يتحسّن سريعًا بعد زيارته. فدُعي راسبوتين للإقامة في القصر لكي يعالج كلّ أفراد العائلة باستخدام قواه الغامضة.

وقد نال ثقة الزوجين الإمبراطوريين – التي استغلّها لكي ينام مع

الخادمات – ولكنّ هذه الثقة لم تتوقّف عند حدّ الطبّ: طرح القيصر والإمبراطورة عليه أسئلة بشأن مستقبل البلاد، وطلبوا منه النصح حول السياسة العسكرية التي ينبغي اتّباعها، وقيمة أو ولاء وزرائهما. ولذلك تنامى تأثيره على كلّ سياسة البلاد باطراد.

في عام 1910، صرّح: «وضعَ اللهُ العائلةَ الإمبراطورية وروسيا تحت رعايتي الوحيدة. إذا حدث أن متّ قبل أواني، فسوف يموت القيصر والإمبراطورة وأطفالهم الخمسة بدورهم».

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، طلبت فرنسا وإنجلترا من حليفتهما روسيا فتح جبهة في الشرق للتخفيف عن الجبهة في الغرب. نصح راسبوتين القيصر بأن يرفض الطلب. منذ تلك اللحظة، بدأت مؤامرة ضدّه من قبل أجهزة الاستخبارات الغربية مع دعم ومساندة الأرستوقراطيين الروس الذين كانوا يكرهون جميعهم هذا الساحر المؤثّر للغاية.

في التاسع والعشرين من يونيو / حزيران عام 1916، بينما كان راسبوتين يخرج من كنيسةٍ، طُعِنَ من قبل جاسوسةٍ متنكّرة في هيئة متسوّلة، ولكنّه تعافى بسهولة من جروحه.

في التاسع والعشرين من ديسمبر / كانون الأوّل عام 1916، مستغلًا حفلةً في قصر مويكا، دسّ الأمير فيليكس يوسوبوف كميّة كبيرة من سيانيد البوتاسيوم في قالبِ حلوى. تناول راسبوتين الغذاء، ولكنّ السمّ الذي من المفترض أن يفعل مفعوله بطريقة حادّة لم يسبّب له أي مشكلة وأمضى بقية السهرة في الغناء والعزف على القيثارة. وإذا عيل صبره، راح يوسوبوف يبحث عن مسدّسٍ، وعاد إلى قاعة الطعام وأطلق رصاصةً على قلب الوسيط الروحي. وفي حين كان يوسوبوف يعاين الجثّة التي لم تعد تتنفّس، فجأةً انفتحت عين راسبوتين اليسرى، ونهض في وثبةٍ واحدة وانقضّ على يوسوبوف لكي يخنقه. تمكّن هذا الأخير بصعوبة من الإفلات منه وركض إلى أربعةٍ من المتآمرين معه وهو يصرخ: «إنّه لا يزال على قيد الحياة!» نزل الجميع متسلّحين

بالمسدّسات ولكنّهم اكتشفوا أنّ ضحيّتهم قد تمكّنت من مغادرة القصر. تعقّب المتآمرون الآثار التي أثبتت أنّ فريستهم كانت تزحف فوق الثلج. عثروا عليه وأطلقوا عليه ثلاث طلقات إضافية للإجهاز عليه. ثمّ لفّوه في معطفه، وقيّدوه وأخذوه وألقوا به من فوق جسرٍ في نهر نيفا المتجمّد. عُثِر على الجثّة في اليوم التالي وقد امتلأت رئتاها بالماء، وهو دليلٌ على أنّ راسبوتين كان قد تحرّر من أربطته، وسبح في النهر، ولكنّه أُصيب بالإنهاك وغرق في النهاية.

جاء معجبوه فيما بعد لأخذ القليل من الماء المحيط بجثّته لكي يحصلوا على قواه الخارقة. أمّا بالنسبة إلى قضيبه الذكري، فقد أُخِذَ لكي يُعرَض في متحف سان بطرسبورغ الذي لا يزال إلى يومنا هذا إحدى القطع الرئيسية الأكثر جذبًا للزوّار.

انخرطت روسيا في الحرب العالمية الأولى إلى جانب الفرنسيين والإنجليز، إلى حين اندلاع ثورة عام 1917 حيث تحقّقت نبوءة راسبوتين: قُتِل القيصر نيقولاي الثاني، والإمبراطورة، وأطفالهما الخمسة، وبعض أقاربهما على يد الثوّار.

إدمون ويلز،
موسوعة العلم النسبي والمطلق، المجلّد الثاني عشر.

-68-

خناصرهم متّصلة مع إبهامات مجاوريهم، كان رجلا السياسة وزوجتاهما في حالةٍ من الحمّى.

أغمض غابرييل - المرأة، مرتديًا ثوبًا جميلًا متلألئًا أسود اللون مزخرفًا بجواهر برّاقة، عينيه واستغرق في التركيز والتأمّل.

وجّهته لوسي:

- *أخبرهم أنّ يشكّلوا حلقة من الطاقة التي سوف تسمح للأرواح المُستَحضَرة بالمجيء لزيارتهم.*

- سنشكّل حلقة سحرية والتي...

- *كلّا، ركّز جيّدًا، فأنت لا تصغي إليّ جيّدًا، لم أقل «سحرية». كلمة «السحر» قد تعكّر صفو مزاجهم.*

- إذن حلقة من الطاقة والتي...

- يجب أن تنطق بالضبط ما ألقّنكَ إيّاه، كن منتبهًا، يا غابرييل. *«التي سوف تسمح للأرواح المُستَحضَرة بالمجيء لزيارتنا»*.

- التي سوف تسمح للأرواح المُستَحضَرة بالمجيء لزيارتنا.

- *أحسنت. اسألهم منْ يُريدون استحضارهم ولماذا. سوف أنقل إليك مباشرةً جميع الإجابات.*

- منْ هم الذين تريدون استحضارهم؟ ولماذا؟

قال وزير الداخلية فالاديه لزميله بروكار:

- هيّا، يا جيرار، اِبدأ!

- حسنًا! الوضع خطير. لقد اكتشف بعض الصحفيين الذين يبالغون قليلًا في الفضول والتلصّص قضية تسريب أموالٍ مخصّصة بشكلٍ طبيعي لمكتب السكن الاجتماعي. نودّ... أقصد، أودّ أن أعرف كيف استطاع منْ قام بهذا الاحتيال الصغير أن يقرّر التصرّف في هذا الموقف المحرج. أريدُ استحضار الرئيس السابق فرانسوا ميتران.

- ممتاز، دعونا نركّز. أنا أستدعي... فرانسوا ميتران.

أغمض الأشخاص الخمسة أعينهم وانتظروا.

استدعت لوسي دراكون. ظهر هذا الأخير، وللمرّة الأولى، بفضل حضورها في العالم اللامرئي وبفضل حواسها الجديدة، استطاعت أخيرًا أن ترى ملامحه. كان رجلًا قصير القامة وذا كرشٍ ووجهٍ سمين، يرتدي رداءً وينتعل صنادل.

- *طاب صباحكِ، يا لوسي!*

- *طاب صباحك، يا دراكون! أنا سعيدةٌ برؤيتك.*

- *ما الذي في وسعي فعله لمساعدتكِ؟*

- *أودّ أن تذهب لإحضار فرانسوا ميتران.*

- أنتِ محظوظة، فهو لم يتناسخ بعد، إن كان متاحًا سوف أجلبه لكِ.

عاد بعد أقلّ من دقيقة واحدة مع الرئيس الفرنسي السابق الذي صرّح:

- لقد شرح لي دراكون الوضع. أرى من الطبيعي أن أساعد من تولّوا منصب الرئاسة بعدي. إنها، كيف أصف ذلك، «خدمة ما بعد البيع». علاوة على ذلك، يُسعدني أن أواصل ممارسة عملٍ سياسيٍّ، ولو في العالم الآخر.

فجرى حوارٌ غريبٌ تحدّث فيه فرانسوا ميتران إلى لوسي التي تواصلت بدورها مع غابرييل لكي ينقل كلّ كلمة من كلماتها.

وهكذا أخبر ميتران بروكار عن الترتيبات والتعديلات المعقّدة التي كان يستخدمها في عهده في سبيل تمويل الصناديق السرّية لحزبه، ثمّ لحكومته، والتي سمحت له بدفع مصاريف الحملات الدعائية واللقاءات في المقاطعات، ومن ثمّ «الانقلابات». أمّا في ما يتعلّق بالصحفيين، فشرح أنّه لم يكن يتردّد في التنصّت عليهم ومن ثمّ ابتزازهم أو، إن لم يكفِ ذلك، إخضاعهم للمراقبة والمراجعة الضريبية، وحتى إخضاعهم لتهديدات جسدية. وأخيرًا، اعترف بأنّه مع ذلك اضطرّ في بعض الأحيان إلى «تصفية» بعض المزعجين الذين ربّما كان في وسعهم تقويض دعائم حكومته.

بدا الإكتوبلازم منبهرًا بقدرته أخيرًا على إفشاء أسراره الصغيرة.

- حسنًا، هذا هو، لقد أخبرتك بكلّ شيء، يا جيرار. لو كنتُ في مكانك، امتنانًا على هذه النصائح الطيّبة، لاستحضرتُ نفسي كمرجعٍ في خطابي المقبل. من شأن هذا أن يجعلك عفويًا وذا مصداقية ومحبوبًا، بل ويتيح لك الفرصة في أن تصبح رئيسًا. وداعًا.

انتهى غابرييل - المرأة من ترداد ما كان الرئيس السابق يتلوه عليه من خلال فم لوسي.

في العالم اللامرئي، تحاور ميتران مع مَنْ دعوه:

- ليكن معلومًا، أيّتها الفتيات، هنا أشعر بالملل بعض الشيء. عندما كنتُ على الأرض، كنتُ أستشير الوسطاء الروحيين والمرشدين. كان ذلك مسلّيًا. كنت أتخيّل كيف يمكن لأحدهم أن يكون في العالم الآخر؛ ولكن منذ علمتُ ما هو العالم الآخر وأنني أعيشُ فيه، بدأتُ أشعر بالملل. هل

ترغبين في أن نلتقي على نحوٍ أكثر انتظامًا؟ لن يكون علينا سوى أن نلتقي في بيتي. لا أزال أعيشُ في قصر الإليزيه. سوف تَرَيْنَ، إنّه أنيقٌ جدًّا.

بعد تدخّل فرانسوا ميتران، تلطّف الجوّ حول المائدة الدوّارة. ظلّت أطراف الأصابع متّصلة بعضها ببعض. سمح غابرييل - المرأة بعد ذلك لوزير الداخلية بالتحدّث إلى إدغار هوفر، الرئيس السابق لمكتب التحقيقات الفدرالي إف بي آي، المرتبط بالمافيا. تفوّه هذا الأخير بكلمات عنصرية جدًّا ولكنّه بدا مبهرًا للوزير الفرنسي. ثمّ أعربت كلّ واحدة من المرأتين المرافقتين للوزيرين عن رغبتها في التحدّث مع والدتها. نهلتا من نصائحهما بشأن الحياة وحتى من وصفات ومقادير إعداد وجبات الطعام في المطبخ. بسبب كلّ هذا، بدأت الآلام في البطن تُتعِبُ الكاتب، الذي قطع الجلسة وأوصل إلى الباب ضيوفه المنبهرين، عاقدين العزم على أن يعودوا سريعًا.

ما إن غادروا، حتى هوى غابرييل في أريكةٍ متنفّسًا الصعداء. جاءت القطط بطريقة عفوية تتمسّح بربلتي ساقيه كما لو أنّها تريد إزالة المشاعر السلبية المتولّدة عن هذه الجلسة.

- حسنًا، عقد جلسة من الموائد الدوّارة مع وزيرين يُستحضرُ فيها رجال سياسة متوفون: لقد نجح الأمر!

- *لقد أبليتَ بلاءً حسنًا، يا غابرييل.*

- لحسن الحظ كنتِ هنا يا لوسي. بيني وبينكِ، هل يمكنكِ أن تؤكّدي لي أنّ مَنْ رأيتِه في العالم اللامرئي هو ميتران الحقيقي؟

- *ومَنْ سواه يستطيع إعطاء معلومات كهذه؟*

- بالتأكيد... حسنًا، لقد أنهكني كلّ هذا، سيكون من الأفضل لي الذهاب إلى النوم. ربّما هذا هو أكثر ما ينقصني كروح هائمة، هذه اللحظات التي نسترخي فيها تمامًا لنكفّ عن التفكير.

وفي الحال خلع غابرييل - المرأة الملابس الخاصّة بالوسيط الروحي، وارتدى قميصَ نومٍ، واستلقى في السرير.

وقال وهو ينظر إلى السقف:

- إيّاكما أن تتلصّصا عليّ وأنا نائم! فقططكما تحميني وستخبرني بالأمر.

ردّت عليه لوسي:

- *لا تقلق، لدينا أمورٌ أخرى نقوم بها غير استراق النظر إليك.*

-69-

بدأ يشخر. حامت لوسي ودولوريس فوق السرير الذي ينام فيه سامي داودي.

تذمّرت السجينة السابقة في سجن رين، التي أصبحت اختصاصية في اختبار الطاقات:

- *لديه هالة محكمة تمامًا.*

واصلتا الدوران حوله في حين بدأ يشخر على نحوٍ أقوى.

- *انظري، إنّه يغطّ في نومٍ عميقٍ. ربّما لدينا فرصة في أن يتغيّر الوضع. كوني مستعدّة يا لوسي.*

راقبت الوسيطة الروحية الغلاف الضبابي حول عشيقها السابق. أصبحت بعض المناطق منه داكنة، وأخيرًا ظهرت فتحة صغيرة في قمّة الجمجمة.

- *إنّه في طور نوم حركة العين السريعة، لم يعد لديه أيّ نوع من الحماية. هيّا يا لوسي.*

وفي تلك اللحظة، بدأت الوسيطة الروحية الشابّة الحائمة فوق النائم تقرّب ببطء سَبَّابتها منه. دسّتها في الثقب، وغرزتها في الجمجمة. بدرت منه اختلاجة طفيفة وانبعثت طقّة خفيفة من فمه. واصلت مع ذلك نقب جمجمته ونجحت في الوصول إلى دماغه. وضعت طرف سَبّابتها على الجسم الثفني، هذا الجسر اللحمي الذي يربط نصفي كرة الدماغ، وشعرت مباشرةً بطاقة أفكاره. ولكنها علمت أنّه ليس لديها وقتٌ تضيّعه، فنوم حركة العين السريعة لا يستغرق أكثر من عشر دقائق كحدٍّ أقصى. وجب عليها أن تجد سريعًا وسيلةً للتأثير على ذهنه.

- *أنا أمّك. أصْغِ إليّ.*

سأل سامي بصوتٍ مرتفعٍ في نومه:

- أمّي؟

- أصْغِ إليّ يا سامي: ما فعلته لم يكن جيّدًا. أنا أتألّم لرؤيتك تلوّث اسم عائلتنا. يجب عليك إصلاح خطأك!

- أمّي!

- أسْكُت، وأصْغِ إليّ. عليك أن تتصرّف لكي يُطلِق كريستوف الفتيات الأخريات. وعليك أن تتصرّف بطريقة بحيث لا يعود في وسعه الإقدام على هكذا تصرّف مرّة أخرى. أبلغ عنه الشرطة، إذا لزم الأمر، هل تسمعني؟ وعليك الكفّ عن مخالطته.

- أمّي...

- أنا في السماء وأراقبك. يجب أن تُصلح الضرر الذي ألحقته بالفتيات البريئات. ويجب أن تخبر صديقك ألّا يعود إلى البحث عن لوسي. هل تسمعني؟ يجب أن تدع هذه الفتاة وشأنها من الآن فصاعدًا.

- ولكن يا أمّي...

- أسْكُت وأطعني يا سامي! وإلّا سأكون في غاية التعاسة. وليس هذا ما تُريد، أليس كذلك؟

- كلا...

- أنا أراك وأراقبك يا سامي. يجب أن تكفّر عن ذنبك، وذلك بإصلاح الخطأ الذي ارتكبته. ويجب أن يحصل هذا منذ الغد؛ هل فهمت جيّدًا؟ قل لي إنّك سوف تفعل ذلك.

- سوف أفعل ذلك.

- ولن تعود أبدًا إلى إلحاق الأذى عمدًا بأحد، عدني بذلك.

- ولكن يا أمّي...

- عدني بذلك، وإلّا سوف أقتحم كلّ ليلة أحلامك لأحوّلها إلى كوابيس!

- حسنًا يا أمّي. أعدكُ بذلك.

- ممتاز، إذن منذ صباح الغدّ سوف...

أشـارت دولوريس على لوسـي أن لا جدوى من الاستمرار في هذا: لقد خرج سـامي مـن طور نوم حركة العين السـريعة وهالته رمَّمَـت. وبالتالي لم يعد يسمعها.

احمرّت دولوريس غضبًا:

- لو أنّ الأمر متروكٌ لي وحدي، لعاقبتُ عشيقك السابق السافل هذا!

- ولكننا لا نستطيع التصرّف في العالم غير المرئي...

- بلـى، يمكننـا التصـرّف بعـض الشـيء. حينمـا مـتّ، بدأت أكتشـف إمكانـات التأثير من دهاليز الليمبو، ووجدتُ بعـض تلك الإمكانات. يكفي دفـع الناس نحو ميولهـم الطبيعية السـيّئة... بنفس الطريقة التـي وجدتِ بها للتـوّ حبيبك السـابق، أنا وجدت الرجل المنفوخ الـذي خاننا، أختي وأنا. ثمّ انتقلت إلى الانتقام منه...

- كيف؟

- كان لديـه ميـلٌ طفيـف إلـى الشـرب، وسـاعدته، دعينا نقـول، في أن يغـرق أكثـر في نقطة ضعفه هـذه. بعد ذلك، حالما ثقبت هالتـه جيّدًا، رحتُ أبحث عن إغريغور[1] من السُكارى في العالم اللامرئي. والإغريغورات كما تعلمين قطيعٌ من الأرواح التي تفكّر بطريقة مماثلة، وتتصرّف بشكلٍ جماعيٍّ ومتناسق، إنّها أشبه بنادٍ للأرواح الهائمة. وإذ ماتت هي نفسها بسبب الإدمان علـى الكحـول، تميل إلى القيام بالتبشير لكـي يتألم أقصى عـدد ممكن من النـاس مثلهـا. وبالتالي، إذا مـا أزعجَنا أحدُهم بالفعل، يمكننـا أن نحثّه على الشـرب ومن ثمّ تركه لقمة سائغة لواحدة من هذه المجموعات التي ستدفعه باستمرار نحو ميله السيئ.

- وهل نجح هذا؟

- لقـد انتابتـه نوبـات مـن الهذيـان الارتعاشـي، وتحـوّل إلـى مريضٍ بالأعصاب ومتشـرّدٍ، ولـم يعد في وسـعه القيام بأيّ شيء، حتى لم يعد يقوى على الوقوف على قدميه. صدّقيني، هذا أفضل حتى من قتله، لأنّ هذه الحالة

1- الإغريغور: مفهوم يشير إلى روح المجموعة التي تشكلت من خلال تجميع نوايا وطاقات ورغبات العديد من الأفراد المتحدين لغرض محدد. المترجم

قد تستغرق وقتًا طويلًا جدًّا، وتؤدّي إلى إفساد عقله. وهذا المرض يُغذّى ويُشجّع من قبل إغريغور السكارى الذي لا ينضب في العالم اللامرئي.

- ولكن هذا عقابٌ قاسٍ بعض الشيء.

- أنتِ لطيفة للغاية يا لوسي. هل عليّ أن أذكّركِ بأنّ سامي تسبّب في ضياع ثمانية أعوام من حياتك بإرسالكِ إلى السجن؟

- ولكن بفضل هذا السجن اكتشفتُ موهبتي، ووجدتُ مهنتي وقابلتكِ!

- أنتِ تسامحين سريعًا جدًّا. أمّا أنا فأؤيّد أن يدفع السفلة ثمن شرورهم وأن نكفّ عن إيجاد الأعذار لهم. لقد كذب صاحبك سامي عليكِ، ووشى بكِ عند الشرطة، واختطفكِ عبر أصدقائه القوّادين، لا أدري ما الذي يجب عليكِ فعله! برأيي، يستحق أن يُلقّنَ درسًا حقيقيًا. ولكن لا بأس، إذا أردتِ أن تكتفي بإلقاء المواعظ الأخلاقية عليه من خلال انتحال صفة أمّه وتهديده بالكوابيس، فهذا خياركِ. وأنا أحترمه. تعالي، اتبعيني، هناك شيءٌ أُريكِ إياه.

طارت المرأتان نحو مركز مدينة باريس.

أخذت دولوريس لوسي إلى أمام نصب المحرقة في حي ماريه. تجمّعت سحابةٌ من الأشباح، مجموعة من شهداء عمليات الترحيل السابقين، حول المتحف.

قالت دولوريس بحسرة:

- انظري إليهم. ماذا يفعلون؟ لا شيء. يلتقون بعضهم ببعض لكي يتذكّروا محنتهم. المشكلة الحقيقية هي أنّ غالبية الناس مثلكِ. حتى الضحايا ليسوا حاقدين، الأمر الذي يجعل عدالة البشر غير متحقّقة لا على الأرض ولا في العالم الآخر. تصوّري أنّ الضابط الألماني الذي ارتكب، خلال الحرب العالمية الثانية، مجزرة أورادور سور غلان، والذي حبس جميع السكان في كنيسةٍ قبل أن يحرقهم أحياءً، مات بعد أن شاخ محاطًا بذويه. تمامًا مثل الدكتور منغيله الذي أجرى تجارب فظيعة في معسكرات الاعتقال على الأطفال، وخاصة التوائم.

- أو غالبية النازيين الذين تلقّوا المساعدة في فرارهم نحو البرازيل أو الأرجنتين...

- لا يصحّ هذا على النازيين فقط، بل إنّ ماو وستالين وكيم إيل سونغ وبينوشيه، الذين ارتكبوا المذابح بحقّ جموعٍ من الأبرياء، هم أيضًا ماتوا مرتاحين في أسرّتهم أو في المستشفى. في الواقع، غالبية الأوغاد، سواء كانوا من الطغاة الدمويين والمجرمين أو من الجلّادين، ماتوا بهدوء بعد أن شاخوا في بذخٍ، ومع قدرة إرشاد ورثتهم إلى كيفية مواصلة عملهم. وحتى بعد موتهم، يبقى هناك أناسٌ على دراية بشرورهم لكي يواصلوا تبجيلهم.

- لم يعد في وسعنا فعل أيّ شيء في هذا المجال، فالأوغاد لا يملكون الحظّ فحسب، بل يرون المتطوّعين يهبّون من كلّ حدبٍ وصوبٍ لمساعدتهم.

ظلّت المرأتان تتأمّلان لحظةً في صمت أمام قائمة المرحلّين البالغِ عددُهم سبعةً وسبعين ألف مرحّلٍ، بينهم أحد عشر ألفًا وأربعمئة طفلٍ.

تنهّدت لوسي:

- عدالة البشر هي بالفعل طوباوية.

- لستُ موافقة على رأيكِ. أعتقدُ أنّه بما أنّ عدالة البشر تبدو عاجزة هنا، لا بدّ من ابتكار ما يشبه «محكمة غير مرئية» بقضاةٍ من الأرواح الهائمة يمكنهم فرض عقوبات من دهاليز الليمبو.

- مثل تجربتكِ مع هذا الرجل المدمن على الكحول؟

- تمامًا. أعتقدُ أنّنا سوف نستطيع، نحن الأرواح الهائمة المدفوعة بإحساسٍ بالعدالة، أن نتصرّف عندما يقف قضاة العالم المادّي مكتوفي الأيدي.

- هذا يجازف بضرورة القيام بعملٍ...

- هذا يأتي في وقتٍ مناسب، فلديّ كلّ وقتي. أعتقدُ أنني وجدتُ معنى لما تبقّى من حياتي في دهاليز الليمبو!

ثمّ نظرت المرأتان إلى قائمة أسماء ***الأشخاص الصالحين*** الذين خاطروا بحياتهم في سبيل إنقاذ ثلاثة آلاف وثمانمئة وثلاثة وخمسين شخصًا، مفضّلين السعي إلى إغضاب البربرية بدل الخضوع لها. أثار هذا الجدار،

أكثـر مـن جـدار الضحايا، لدى لوسـي وعيًا: إنّ عـدم القيام بفعل أيّ شـيء سـوف يعني الحكـم على الفتيـات الأخريات بأن يلقين نفـس المصير الذي خضعت له.

- لقد غيّرتُ رأيي يا دولوريس. لا أعتقد أنّ سـامي سـوف يعدّل سلوكه من خلال تذكّر أمّه. ربّما سـوف يبذل جهـودًا لبعض الوقت، ولكنّه لن يتغيّر أبدًا في جوهره.

أسرعت إلى منزل سامي وجلست على سريره.

سألت دولوريس:

- ما الذي تنوين فعله؟ هل ستجعلينه مدمنًا على الكحول مثل صديقي السـابق؟ دعينا نبدأ بمنحه الرغبة في شـرب زجاجةٍ صغيرةٍ من الجعة البـاردة في السـاعة العاشرة صباحًا. حينما يشرب منها عشر زجاجات، سوف نقترح عليه أن يشـي للشـرطة برفيقه القوّاد. ثمّ سـوف نجعله متعلّقًـا بالكحول إلى درجة جعله فاقدًا لكلّ إرادة حرّة، وفي النهاية، سـوف نسـلّمه لأصدقائي من الأرواح الهائمة الذين ماتوا بسبب تليّف الكبد.

- كلّا. لـديّ فكرةٌ أفضل. هل أراد أن يحقنني بالمخدّرات لكي يحوّلني إلى مومس؟ سـوف نسـقيه من نفس الكأس. ومن شـأن هـذا أن يكون بداية مناسـبة لمحكمتـكِ في العالم اللامرئـي: إخضاع المؤذين إلـى نفس الأذى الذي ألحقوه بالآخرين.

70. الموسوعة: الأرواح السوداء

يكره بعض البشر بالفعل أقاربهم. في ما يلي بعض الذين وضعوا كلّ طاقتهم لكي يتسبّبوا بأكبر قدر ممكن من الآلام لأقرانهم:

- أصدر الإمبراطور الصيني تشين شي هوانج (259-210 قبل الميلاد) ذات يوم قرارًا بحظر التفكير. أراد إصدار قانونٍ لم يعد مكتوبًا ولكنّه عضويٌّ، ينصّ على أنّ الفرد الذي يرغب في السرقة لن يستطيع القيام بذلك لأنّ يده سترفض طاعته. ولتنفيذ ذلك، ثمّة سلاحٌ وحيد: الرعب. اخترع عقوبات أكثر رعبًا يومًا بعد آخر لبلوغ هذا

الهدف. ولتطوير فنّ إيلام اقرانهم، أسّس جامعات للتعذيب وأنشأ نظامًا للشرطة يُرغَمُ فيه الأطفال على مراقبة آبائهم والوشاية بهم حتى إن فكّروا مجرّد تفكير في معاداة الإمبراطور. عيّن حصانه وزيرًا، وأمر بإتلاف كلّ كتب بلاده، ونظّم حملة قطع رؤوس ما بين خمسمئة إلى ستّمئة عالم من علمائه، تحت ذريعة عجزهم عن الحصول على اكسير الخلود له. وتجاوزت حصيلة ضحاياه النهاية ثلاثة ملايين ضحيّة.

- الملك العبري هيرودس، الذي ولِدَ في عام 73 قبل الميلاد وتوفّي في العام الثاني بعد الميلاد، والذي نُصِّب على العرش من قبل الرومان، نزع من قبائل إسرائيل سلطتها السياسية، وطرد الحاخامات، وقتل زوجته وكذلك العديد من أطفاله. وإذ عاصر يسوع المسيح (الذي مات بعد هيرودس بأربع سنوات)، قتل عشرات الألوف من الصبية اليهود لا لشيء سوى لترويع السكان وجعلهم أكثر إذعانًا. قضى بشكلٍ منظّم على كلّ الأفراد الذين كانوا يهددون من قريبٍ أو من بعيدٍ سلطته. من كثرة عمليات السلب والمكائد والسرقات، ترك البلاد تتراجع إرضاءً للرومان الذين كانوا يخشون حركات التمرّد المتكررة في المنطقة. وقد طلب أن يُقتَلَ، عند وفاته، جميع الرجال المهمّين في البلاد بشكلٍ منهجي حتى يكون الحداد مؤثّرًا لأقصى درجة ممكنة.

- الإمبراطور الروماني كاليجولا (12-41م)، بعد الفترة الأولى من حكمه الذي أظهر نفسه خلالها على نحوٍ خاصّ كحاكمٍ محبٍّ للخير واكتسب شعبية كبيرة، لا يتّخذ سوى قرارات رشيدة وحكيمة، أُصيب بحمّى أدخلته في غيبوبة. وبمجرّد الشفاء، تغيّرت حالته الذهنية تمامًا. وتحوّل وجهه السموح سابقًا إلى وجهٍ قاتمٍ وعابس. أصدر قوانين غير منطقية وعاقب كلّ الذين رفضوا الخضوع له. استهوى تعذيب ومعاقبة معارضيه أو حتى أفراد أُخذوا بطريقة عشوائية فقط لتلبية متعته، وكان يُطيلُ في بعض الأحيان فترة احتضارهم عدّة أيام. كانت واحدة من طرائق التعذيب المفضّلة

لديه هي شقّ لحم الضحايا على طول العمود الفقري، بدءًا من مفرق الفخذين وصولًا إلى أعلى الصدر. وكان يمارس نكاح المحارم مع شقيقاته. كان يحضر حفلات زواج الأرستقراطيين ويطالب بقضاء الليلة الأولى مع زوجاتهم. وإذا امتنع الزوج، كان يستأصل خصيتيه ويأكلهما بحضور زوجته التي يرغمها هي الأخرى على تناولهما. تُنسبُ إليه بعض الأقوال المأثورة، من بينها: «ليس هناك سوى طريقة وحيدة لمضاهاة الآلهة، ألا وهي أن تكون قاسيًا مثلها»، و«ليس هناك سوى الكراهية لجعل الناس أذكياء»، و«حينما أقضي يومًا دون قتل أحد، يغمرني شعورٌ عارم بالوحدة». انتهى بالقتل طعنًا على يد جنوده الذين أكلوا لحمه لكي يتأكّدوا من أنّه قد مات بالفعل.

- الإمبراطور الروماني نيرون (37-68م)، الطاغية القاسي والمجنون الذي اضطَهد المسيحيين في عروضٍ منظّمة لإعدامهم. أحرق روما وألقى الشِعر وهو يشاهد البيوت تحترق. قتل الألوف من الأشخاص، بينهم أمّه، وخالته، وزوجة أخيه، وزوجته السابقة، وزوجته وصهره. ثمّ قتل بشكلٍ منهجيٍّ أفراد عائلته كافة. عدا الاغتصاب الذي كان يمارسه بشكلٍ متكرّر، تراوحت عقوباته المفضّلة بين التسميم وقطع الرأس، مرورًا بالصلب واستخدام الخازوق.

- لُقِّب ملك الهون أتيلا (395-453م) باسم «سوط الله». قرّر تدمير الإمبراطورية الرومانية والقضاء عليها نهائيًا، ومارس صنوفًا مكرّرة من التعذيب، مثل تمزيق أعضاء جسم سجنائه عضوًا تلو الآخر. وكآكلٍ للحوم البشر، تناول لحم اثنين من أبنائه، ولم يتردّد في شرب دم ضحاياه. حينما رفضت شابّة فرنسية أن تتزوّج به، عذّبها ثمّ قتل بطريقة دراماتيكية أحد عشر ألفًا من مواطنيها. ومن خلال حرقه وتدميره المنهجي للمدن التي احتلّها، تحمّل مسؤولية مقتل عشرات الألوف من الأشخاص.

- الإمبراطورة وو شتيان (625-705 م)، ذات الأصول المتواضعة دخلت إلى حريم الإمبراطور تايتسونغ العظيم في سنّ

الثانية عشرة. وكواحدة من أجمل نساء عصرها، أصبحت سريعًا محظية الإمبراطور، ثمّ أغوت أيضًا ابنه، غاوزونغ، الذي أنجبت منه طفلًا خنقته، قبل أن تتّهم بهذه الجريمة زوجته الرسميّة. فطُلِّقَت هذه الأخيرة وحلّت وو شتيان محلّها. منذ تلك الحظة، انخرطت في السياسة، ودفعت باتجاه الحرب، وأرغمت زوجها على إرسال قوّاته لقهر الممالك الثلاث التي كانت تحتلّ شبه الجزيرة الكورية. قادت الحرب ضدّ التيبتيين في الغرب وضدّ الأتراك في الجنوب الغربي. قطعت رؤوس غالبية الموظّفين وأخذت أطفالهم عبيدًا. ثمّ سمّمت الإمبراطور غاوزونغ وأصبحت أوّل امرأة تحصل على لقب إمبراطورة. منذ ذلك الحين، قضت على جميع أفراد سلالة تانغ الحاكمة، وأسّست سلالة خاصّة بها أسمتها زو. على مدى خمسين عامًا، حكمت بقبضة من حديد، ونظّمت على نحوٍ يوميّ حفلات عربدة وإعدامات علنية، ومارست التعذيب – مع ميلٍ إلى التمثيل بالجثث (قطع الأنوف والآذان والأقدام والسيقان) – وحافظت على الترويع في بلاطها كما في الدول المتاخمة في الشرق وفي الغرب.

– الإمبراطور المغولي جنكيز خان (1155–1227م) بنى أضخم إمبراطورية في عصره من خلال تدمير الإمبراطورية الصينية واحتلال ممالك أوروبا الشرقية وممالك الشرق الأوسط. وقد نشر ترسانة من أساليب التعذيب التي يفوق كلّ منها الآخر شناعةً: سلق الجنرالات الأعداء المهزومين في قدرٍ أو صبّ المعدن المنصهر في آذان وعيون كلّ منْ يزدريه. استعبد مئات الألوف من السجناء والأسرى الذين استخدمهم كدروع بشرية أثناء المواجهات الحربية بهدف استنزاف مخزون سهام الأعداء. أوصى محاربيه بقطع شرايين أحصنتهم وشرب دمها لكي يمدّوا أنفسهم بالطاقة.

إجمالًا، سيكون جنكيز خان قد قتل بين عشرين وثلاثين مليون شخص، مُبيدًا بذلك ثلاثة أرباع سكان الهضبة الإيرانية وسهول أوروبا الوسطى.

– الأمير التركي – المغولي تيمورلنك (1336–1405 م) أنشأ

إمبراطورية قائمة على تدمير المدن والمجازر الجماعية. يُقدّر أنّه قد قتل من خمسة عشر إلى عشرين مليون شخص. مارس هو الآخر صنوفًا مختلفة من التعذيب، مثل ترك ألوف الضحايا يختنقون ببطْء حتى الموت، أو إرغام ألوف الرجال على القفز من أعلى منحدرٍ على الرماح المنصوبة. في بغداد، نحر تسعين ألف مدنيٍّ ليكونوا عبرةً؛ وفعل الأمر ذاته مع سبعين ألف مدنيٍّ في تكريت، وسبعين ألفًا في أصفهان، وعشرين ألفًا في حلب. بهدف بثّ الذعر، بنى أبراجًا استخدم فيها جماجم ضحاياه بدل القرميد.

- جون ملك إنجلترا (1167-1216 م)، الذي استوحى أسطورة روبن هود، كان رجلًا عنيفًا وشهوانيًّا وقاسيًّا. كان يتغزّل بنساء أتباعه اللواتي أنجب معهنّ اثني عشر طفلًا غير شرعيٍّ قبل أن ينفي أو يقتل أمّهاتهم. لقد خان على التوالي والده وأشقاءه وزوجته والبارونات الذين كانوا متواطئين معه، وأخيرًا خان بلده بأكمله. كان يُلقي بكلِّ مَنْ يعارضه في السجن ليلقى فيه حتفه جوعًا. رفع الضرائب تلبيةً لهذيانه وعربدته ولهوه وقاد بلده نحو البؤس. مات في النهاية من جرّاء إصابته بمرض الزحار.

- بول بوت (1925-1998 م)، الدكتاتور الشيوعي الكمبودي، زعيم حركة الخمير الحُمر، قتل مليونًا وسبعمئة ألف شخص (20% من سكان كمبوديا). حرّض الفلاحين القرويين على قتل سكان المدن، وشجّع بشكلٍ عامّ الأميين على قتل المثقّفين. كان يعتبر أنّ هدف التعذيب ليس دفع الشخص إلى الاعتراف فحسب، بل أيضًا دفعه إلى المطالبة بإعدامه. بعد أن قضى على أولئك الذين عدّهم معادين للشيوعية، أمر بول بوت بنشر قطع جثمانه بعد موته، وإتلاف جميع الوثائق الإدارية التي يرد ذكره فيها وقتل جميع الأشخاص الذين عرفوه، حتى يتأكّد من أنّه قد نُسي، كما لو أنّه لم يكن موجودًا.

إدمون ويلز،

موسوعة العلم النسبي والمطلق، المجلّد الثاني عشر.

-71-

لعق لسانٌ خشنٌ وجهه.

رفع غابرييل – المرأة أحد جفنيه ورأى قطّة على بعد بضعة سنتيمترات من حدقة عينه التي كان في وسعها أن تفقأها بضربة واحدة من مخلبها الحادّ جدًّا.

فتح عينه الأخرى ووجد غرفة لوسـي مضاءة بأول خيوط أشعّة الشمس. ركضت نحوه قططٌ أخرى، بدت بوضوح جائعة.

انفرجت سـاقاه الرفيعتان وغادرتا السرير وقادتاه نحو المطبخ. سـكبت يـداه ذات الأصابـع النحيلة الأطعمـة الخاصّة بالقطط فـي مختلف الأوعية. فتح نافورة الماء وراودته فكرةٌ بعد تأخّرٍ طفيف:

«شكرًا لأنني على قيد الحياة.

شكرًا لأنني أملك جسدًا.

آمل أن أُثبِت اليوم جدارتي بفرصة أن أكون موجودة».

توجّه نحو المرآة وتعرّف على نفسه.

أنا روح الكاتب غابرييل ويلز في جسد الوسيطة الروحية لوسي فيليبيني. كلّا، أنـا لسـتُ مجنونًـا. كلّا، أنا لا أحلـم. كلّا، كلّ ما يجري ليـس نابعًا من خيالي. نعم، يمكن أن يكون هناك ما هو أسوأ.

واقفًا في المطبخ، أحسّ برئتيه تنتفخان وتنكمشان، وبقلبه ينبض.

أغمض عينيه، وأحسّ بالدم المتدفّق في أوردته يصلُ حتى أطراف أصابع يديه وقدميه.

فتـح النافـذة واستنشـق الهواء مـلء رئتيه، قبـل أن يضع مـن جديد قطعة موسيقيّة من أداجيو للموسيقار صامويل باربر الذي ازداد إعجابه به باطراد.

قال في نفسه: *نُدرك أهمية فرصة أن نكون أحياء عندما... نكون قد عشنا تجربة الموت.*

كتـب هـذه الجملة، متحقّقًا مـن أنّه لم يفقد أيّ عادة مـن عاداته ككاتبٍ، مدوّنًا الأفكار التي يمكنها أن تردَ في روايته المقبلة.

في النهاية، أن يكون المرء كاتبًا هو شكلٌ من أشكال العُصاب. أو على الأقلّ مرضٌ مُفتَرَض.

تذكّر أنّه سيضطرّ لأن يُعيد هذا الجسد المذهل لصاحبته، ولكنّ هذه الفكرة، دون أن تخيّب أمله، منحته الرغبة في الاستفادة من كلّ ثانية تكتنز الكثير من الإمكانات.

ومع ذلك، فإنّ روح الكاتب هي التي انتصرت. بحث عن حاسوب لوسي. ولحسن حظّه، كان لديها جهازٌ من أحدث جيل يعمل باستخدام بصمة الإصبع، الأمر الذي جنّبه الاضطرار لإيجاد كلمة المرور.

ولما اشتغل الحاسوب، بدأ بالكتابة.

«مَنْ... قتلني...؟»

أكثر من أيّ وقتٍ مضى، أدركَ أنّ ما هو حقيقيّ لا يُضاهى وأنّه في بعض الأحيان «لا يُصدّق»، وأنّه، ككاتب، ليس إلّا المقلّد المتواضع للخالق الذي يبتكر على الدوام أوضاعًا غير عاديّة. فتخيّل لنصّه الإهداء التالي:

«إلى السيناريست العظيم الذي خلق العالم المعقّد الذي نعيش فيه. من معجبٍ مُطلَقٍ».

حاول حثيثًا أن يتذكّر بالتفصيل كلّ ما حدث له، ودوّن كلّ حادثة طارئة وبدأ سرده، متناوبًا بين مشاهد الحوار ومشاهد الحركة.

من جديد، تساءل ما هي الجملة التي يمكنها أن تكون جملته الأخيرة، قائلًا في نفسه إنّ عليه أن يختار خاتمة غير متوقّعة.

تذكّر في تلك اللحظة الأسكليبيون، وهي مؤسّسة رعاية متخيّلة من قبل الطبيب اليوناني أسكليبيوس، الذي كان يعالج المجانين من خلال وضعهم في متاهة تحت الأرض. حينما كان المرضى، بعد أن يتوهوا وسط الظلام، يرون أخيرًا وميضًا، كانوا يركضون نحو منبع الضوء، ويرفعون وجوههم نحو النور الذي يُشير إلى المخرَج، فيتلقّون على رؤوسهم سطلًا كبيرًا مليئًا بالثعابين. كان التأثير جذريًا. باكورة الصدمة الكهربائية، بطريقة ما – فوائد المفاجأة النهائية.

بنفس الطريقة، الحبكات الناجحة هي المتاهات التي يبحث فيها القارئ عن الضوء الدالّ على المخرج، وفي اللحظة التي يعتقد فيها أنّه قد وجده، لا بدّ أن يتلقّى سطلًا من الثعابين.

تذكّر غابرييل أيضًا أنّ الطبيب أسكليبيوس قد مات مضروبًا بالصاعقة (هل كانت صاعقة ربّانية من الإله زيزوس؟) بسبب محاولته إحياء الموتى.

لاحظ أنّ عقله ينجرف. كان هذا أكبر عيوبه: تقدّم له ذاكرته محاور عديدة للتفكير، لكنّها تحرفه أيضًا في بعض الأحيان عن خطّه السردي.

يجب أن يحافظ على المسار.

كتب على الحاسوب بسرعة كبيرة ما يشبه الخطّة الشاملة.

ولكنّه سرعان ما اكتشف أنّ المشكلة تكمن في أنّ ما حدث له بالفعل ليس موثوقًا به. لن يصدّق أحدٌ للحظة واحدة حكاية موته وتناسخه بشكلٍ مؤقّت كامرأة.

راح يكتب على الحاسوب على نحوٍ أسرع فأسرع. إنّ مجرّد شعوره بالنقر على لوحة الأزرار بأصابعه ذات الأظفار الطويلة جدًّا وسماع نقرها على الأزرار منحاه شعورًا بالانتشاء.

سيكون الأمر المثالي استمرار حياته على هذا المنوال، مع جسده الذي هو جسد امرأة شابّة وروحه التي هي روح الكاتب القديم. وما الذي يمنعه من ذلك، في نهاية المطاف؟ أهو الوعد الذي قطعه للوسي بأن يعيد إليها جسدها حينما تُطالبه به؟

كتب وأحسّ بذهنه الذي يجري سطرًا بسطر مثل حصانٍ يركض في الغابة.

أحسّ أنّه يستعيدُ وحدته في عقلٍ متماسك. في النهاية، ربّما كان هذا أكثر ما ينقصه حينما كان روحًا بحتة: النقر على لوحة أزرار حاسوبٍ لشقّ سبيل الحبكة.

الكتابة تنقذني. إنّها اللحظة الوحيدة التي أجد فيها نفسي بالفعل. إنّها الفضاء الوحيد الذي لا أكتفي فيه بمتابعة الأحداث، بما أنني أنا منْ يخلقها.

واصل كتابة فصول من حكايته إلى أن بدأ يشعر بحرقةٍ في عينيه.

نظر إلى ساعة الحائط، فوجدها تشير إلى الساعة الثانية عشرة وثلاثين دقيقة. كان قد كتب عمليًّا مدّة أربع ساعات دون حتى أن ينتبه إلى ذلك.

ارتدى سترةً وخرج إلى الشارع، ثمّ استقلّ سيارة أجرة، مستسلمًا لأن يضطرّ للتأقلم مع نمط حركة التنقّل المتعرّجة مثل البشر الأحياء.

لو كان روحًا هائمة، لكان قد وصل الآن. بثّ السائق موسيقى صاخبة، ورفع درجة الصوت إلى الأقصى. عندما طلب منه غابرييل - المرأة أن يُخفّض الصوت، أجابه بأنّه في سيارته وسيفعل ما يحلو له.

اكتشف غابرييل بذلك من جديد عيوب أن يكون في العالم الماديّ، فما بالك إذا كان امرأة...

بالبنية الجسدية الهزيلة والعضلات الضامرة للوسي، لم يستطع السماح لنفسه بالانخراط في مشاجرة، والوصول فيها إلى التهديد الجسدي. في المرآة العاكسة للسيارة، رأى نظرة السائق مليئة بالشهوة.

سرت رعشة غير مريحة في جسد غابرييل - المرأة. عاود الألم بطنه من جديد.

- اهدئي يا آنستي، لقد أوشكنا على الوصول.

شعر غابرييل بأنّه فريسة محتمَلة في مواجهة حيوانٍ مفترس. وكما لو أنّه يريد تأكيد هذا الإحساس، ابتسم السائق كاشفًا عن كلّ أسنانه ومرّر لسانه على شفتيه في حركة لا لبس في شبقيتها.

- ها قد وصلنا يا آنستي الجميلة. كما ترين، معي يجري كلّ شيء دائمًا على ما يُرام. الأجرة خمسة وثلاثون يورو.

دفع له غابرييل المبلغ المطلوب.

سأل السائق منصدمًا:

- وماذا عن إكراميتي؟!

لم يُجب غابرييل، فشتمه الآخر شتيمة جنسية.

أدرك الكاتب أنّه في كلّ مرّة حاول أن يضع نفسه في جلد امرأة من خلال

إحدى شخصياته، كان بعيدًا عن وصف الحقيقة. وبدأ من الآن فصاعدًا يفهم حقيقة الأمر.

وصل إلى أمام العمارة التي يعيش شقيقه فيها. دقّ جرس الهاتف الداخلي.

– من هناك؟

– أنا لوسي فيليبيني.

– الطابق الخامس، الشقّة على اليمين.

ولأنّ المصعد كان معطّلًا، صعد غابرييل – المرأة الدرج ووجد شقيقه الذي ينتظره على عتبة باب الشقّة.

– يا لها من سعادة أن ألتقي بكِ مجددًا يا آنسة فيليبيني. لم أكن أتوقّع أنّكِ... ستأتين إلى بيتي. حتى إنّني لا أعلم كيفَ حصلتِ على عنواني الشخصي و...

– هل لديك القليل من الوقت؟ ألا تزال ترغب في أن نتناول الغداء معًا في المطعم؟ هيّا بنا، أنا جائعة.

ارتدى توماس معطفًا ثمّ قادها إلى مطعمٍ ومشربٍ فاخرٍ قريبٍ من منزله. ما إن وصلا إلى المكان، حتى ترك المرأة الشابّة تدخل أمامه وقدّم لها الكرسي. على الأقلّ، استفاد غابرييل – المرأة من الكياسة الذكورية... جلس وخلع خلسةً حذاءه ذا الكعب العالي الذي لم يكن حتمًا مرتاحًا فيه.

– زيارتكِ إلى هنا مفاجئة جدًا... وغير منتظرة.

– ماذا هناك من طعامٍ طيّبٍ هنا؟

– هذا مضحك، عادةً ما كان أخي يستخدم هذه العبارة.

في لحظةٍ خشي أن يفضح أسلوبه في الكلام هويّته، لكنّ هذا الصوت الذي دوّى في جمجمته طمأنه. فصوته حادّ، وفي النهاية يختلف كثيرًا من الداخل عن الصوت الذي سمعه عند لوسي عندما لم يكن في جسدها.

– لماذا رغبتِ في أن تقابليني بهذه السرعة؟ ألا تزالين تحقّقين بشأن موت أخي؟

- لقد صنعتَ نيكروفونًا، أليس كذلك؟

- كيف استطعتِ أن تعرفي هذا؟!

بحث غابرييل - المرأة عن تفسيرٍ وانتهى إلى القول:

- غابرييل هو الذي أخبرني خلال جلساتنا. لقد أخبرني أنّه تحاور معك من خلال هذه الآلة.

- إذن كان بالفعل هو، لقد تحدّثتُ فعلًا مع أخي الميّت...

- ما هو مؤكّد هو أنني أجريتُ اتّصالًا روحانيًّا معه وتحدّث لي عن آلتك. أخبرني أنّها تعطّلت. هل أصلحتها؟

- كلّا... لسوء الحظّ، القطعة التي احترقت فيها ليس من السهل الحصول عليها. لقد طلبتُها، وأعتقدُ أنني سوف أتلقّاها الأسبوع المقبل.

قدّم لهما نادلٌ قائمتي طعام.

- طبق اليوم هو ديك رومي مع الكستناء.

سأل توماس:

- والسمك؟

- سمك الشفانين مع نبات القبّار.

- سأتناول هذا الطبق.

قال غابرييل - المرأة متذكّرًا الوعد الذي قطعه أمام لوسي بعدم إدخال «جثث الحيوانات» إلى جسمها:

- همم... أنا نباتيّة.

- ليست لدينا قائمة وجبات نباتية محضة، ولكن يمكننا أن نقدّم لكِ سلطة سيزار من دون لحم الخنزير المقدّد وشرائح لحم الدجاج.

أشار غابرييل بإشارةٍ بأنّ هذا سيكون مناسبًا جدًّا وأردف:

- كيف نجحتَ في صنع هذه الآلة غير العاديّة؟

أحبّ توماس هذا الاهتمام بعمله. شرب كوبه من الماء في جرعة واحدة، ثمّ انحنى نحو غابرييل - المرأة:

– هل تعلمين، يا آنسة فيليبيني، حتى الآن ليس هناك سوى وسيلتين لتحليل ما يُحيط بنا: الكيمياء والفيزياء. أمّا من جهتي، فأعتقدُ أنّ هناك شكلًا ثالثًا للتعبير عن المادّة. إذا أخذتِ قرصًا لإحدى سيمفونيات مالر، يمكنكِ أن تقطّعي جسم القرص إلى قطعٍ عديدة، ولكنكِ لن تجدي في أيّ قطعةٍ من الجزيئات نوتات السيمفونية. ولذلك، أطرح عليكِ السؤال التالي: أين تقع الموسيقى في قرصٍ؟

– لا أدري.

– هذه موجة غير مادّية. إذا أخذتِ عصفورًا، لن تجدي كذلك في خلايا دماغه أو في حمضه النووي لحن تغريده. ويمكنكِ الحصول على عصفورين توأمين تمامًا، لهما نفس الحمض النووي...

– ... ولكنّهما يغرّدان بطريقة مختلفة؟

– أرى أنّكِ بدأتِ تدركين إلى أين أُريدُ أن أصل. الأمر ينطبقُ تمامًا على الجسد البشري. يمكنكِ تحليل كلّ الخلايا العصبية لدماغ أينشتاين، ولن تجدي في أيّ مكانٍ منه معادلة تكافؤ الكتلة والطاقة ط = ك.س2. وفي وسع المرء أن يبحث في دماغكِ أو في حمضك النووي قدر ما يشاء، ولكنّه لن يجد فيهما أحلامكِ. هذا هو اكتشافي: هناك شيءٌ آخر في مكانٍ آخر لا يمكن الكشف عنه بأيّ وسيلة فيزيائية أو كيميائية. شكلٌ ثالثٌ ليس ماديًا.

– هل قلتَ موجة؟

– بالضبط. موجة، ليس لها أيّ قوام ولكنّها تستطيع التأثير على المادّة. الاستماع إلى سيمفونية مالر يُثير لديّ دفعاتٌ من الإندروفين. وتغريد العصفور يمنح الرغبة لشريكته الجنسية في التزاوج وسوف تولَدُ بيضةٌ. معادلة تكافؤ الكتلة والطاقة ط = ك.س2 تُتيح بناء محطّات الطاقة النووية التي توفّر لنا إمّا الكهرباء لإنارة بيوتنا، أو القنابل لتدميرها. ومع ذلك، إذا ما فكّرنا جيّدًا، فإنّ مصدر كلّ هذا ليس سوى فكرة.

– لا شيء سوى موجة...

تفاجأ غابرييل للحظةٍ بإعجابه بأخيه. لم يسبق له أن سمعه يتحدّث بطريقةٍ على هذه الدرجة من الوضوح والإقناع.

– هذا ما أتاح لي فهم مثالك عن السكّر في الشاي. كنتُ أعمى. وكنتُ عنيدًا. لقد علّمتني الجامعة وهي تضع لي غمامات تمنعني من إدراك العالم في تعقيده المدهش. ولهذا السبب أيضًا أعتقدُ أنّه لن يستطيع أيّ حاسوب أن ينسخ فكر أخي. أقصى ما في وسعه فعله هو أنّه سوف يقلّد بعض مهاراته الكتابية.

– لنعد إلى نكرفونك.

– قلتُ لنفسي إنّه إذا كان أحدهم يتحدّث إلى الموتى، فهذا لأنّه هناك من كلّ بدّ موجة منبعثة وموجة متصوّرة. وجدتُ مخطّطات نيكروفون إديسون، وهو يذكر فيها حقلًا مغناطيسيًا. فبحثتُ في الموجات المغناطيسية ومن خلال الاستنتاج، حدّدتُ المنطقة الضيّقة للطيف الذي يمكن لهذه الموجات أن توجد فيها. إنّها موجات ذات سعة كبيرة مع قمم قريبة من الموجات فوق الصوتية.

– هل لهذا السبب تتلقاها القطط؟

– في الحقيقة، العديد من الحيوانات تتواصل أيضًا على هذا الطول الموجي، مثل الخفافيش أو الدلافين.

اقترب توماس من جسد الوسيطة الروحية ووضع يده على فخذها. تلقّى ذهن غابرييل شحنة كهربائية متناقضة: إذا كان جسده النسوي يتلقّى إشارة مريحة، فإنّ فكرة أنّ شقيقه التوأم يتغزّل به كانت لا تُطاق. تحرّكَ متراجعًا إلى الخلف فجأةً؛ وفي حركته صدم الطاولة بركبته وقلب كوبًا تكسّر على الأرض إلى عدّة قطع.

– لقد تغيّرتُ يا لوسي. قبل الآن، كنتُ عقلانيًا وديكارتيًا ولم أكن أرى فيكِ سوى محتالة تستغلّ سذاجة الناس. أمّا الآن، فأصبحتُ أعرف أنّكِ على حقّ: يمكننا التحدّث مع الموتى، وقد نجحتُ في التواصل مع أخي المتوفّى.

فخطرت في بال غابرييل فكرةٌ لتسهيل الحوار مع توماس في العالم الآخر:

– في الاتّصال الروحاني الأخير الذي أجريتُه مع أخيك، طلب منّي أن

أتفـق معك على رمزٍ يسـمح لكَ بالتعرّف عليه على نحوٍ مؤكّد. هل تُريد أن تعرف ما هو هذا الرمز؟

- دعينـي أخمّـن: «Rosabelle Believe» رمز الممثّل هوديني للتحدّث من العالم الآخر مع زوجته؟

- نعـم. سـتكون هـذه كلمة السـرّ التي تدلّ علـى أنّك تتحـدّث حقًّا مع غابرييل الحقيقي وليس مع روحٍ تزعم أنّها هو.

- وأنتِ يا آنسة فيليبيني، إلى أين وصلتِ في تحقيقكِ؟ لا أدري إن كنتِ قـد قرأتِ الصحف، ولكن مشـروع غابرييل ويلز الافتراضي لألكسـندر دي فيلانبروز يتقدّم بخطوات كبيرة. وقد أعلن أنّ نسـخة رواية *إنسان الألف عام* المكتوبة من قبل برنامجه للذكاء الاصطناعي سوف تصدر في غضون شهرٍ.

- ولكنّه لن يستطيع أبدًا أن يُضاهي جودة عقلٍ حقيقيٍّ لكاتبٍ...

- هل سوف يتمكّن الجمهور من معرفة الفرق؟ تخيّل أنّ بعض الناقدين، النادمين على عدم اكتشافه خلال حياته، استيقظوا فجأةً وروّجوا لهذا العمل المقيت. سيكون فظيعًا إذا نجح فيلانبروز في أن يواصل إلى الأبد عمل أخي باستخدام روبوته!

وصلت أطباق الطعام. أمسك غابرييل بشوكته وبدأ بتناول الطعام بحركاته المعتادة؛ وإذ رأى دهشـة توماس، تمالك نفسه وشـرع بالقيام بحركات أكثر نسوية وصلت إلى حدّ التكلّف.

- ألا تزالين تعتقدين أنني أنا من قتلتُ أخي التوأم؟

- حتى هذه اللحظة، لا أستبعد أيّ فرضيّة.

- آنسـة فيليبينـي، أنـتِ عنيـدة وذكيّـة، ولكـن لا أفهم لمـاذا تواصلين الاشتباه بي.

أمسـك بيدها وضمّها إلى صدره قبل أن يحظى غابرييل - المرأة بفرصة سحبها.

- أَحِسّـي بطاقتي. أدركي صدقي. أصغي إليّ جيّدًا. لم أقتل أخي وأريدُ أن أعرف مثلكِ تمامًا مَن الذي ارتكب هذا العمل الشنيع.

في حين استغلّت لوسي ودولوريس استغراق سامي من جديد في النوم العميق لكي تؤثّرا على أحلامه، ظهر دراكون.

- *لماذا تفعلان هذا؟*

أجابت لوسي، وهي تشرح في الوقت ذاته لدولوريس أنّ الأمر يتعلّق بصلة وصلها مع الهرمية.

- *نحن نتحرّك لكي نمنع هذا الوغد من استعباد فتياتٍ.*

- *في الحالة الطبيعية، نحن، كيانات الهيئة النجمية الوسطى، دعونا نترك... (لفظ الكلمة بازدراء) شعب الهيئة النجمية الدنيا يزحف وسط الأحياء دون أن نتدخّل في ذلك. ولكن أثار انتباهي سلوككما في إشراك إغريغورات كحولية لكي تنقضّا على كائنٍ حيّ.*

قالت دولوريس:

- *لوسي وأنا أردنا أن نمنع ضرر كائنٍ حيٍّ سامٍّ لئلا يوقع المزيد من الضحايا. يهدف تصرّفنا إلى أن نعوّض في العالم اللامرئي ما لا تستطيع عدالة البشر تحقيقه على الأرض.*

- *العدالة، العدالة، كم من السهل النطق بهذه الكلمة وكم من الصعب تطبيقها عمليًّا! ماذا تعرفان عن العدالة؟*

شرحت المُعتقَلة السابقة، التي ازدادت إصرارًا على الدفاع عن موقفها:

- *أردنا أن نؤسّس محكمة للموتى، لتدارك أخطاء محاكم الأحياء.*

وإذ غدت أكثر جرأةً، واصلت:

- *نحن في القرن الحادي والعشرين، ولا يمكن لهذا أن يستمرّ أكثر، يجب القضاء على كلّ هذه الكائنات المنحرفة والضارّة التي تعيثُ شقاءً وتفلتُ من العقاب تمامًا، وفي بعض الأحيان في أعلى قمّة الأمم أو المتسرّبة إلى الشبكات الموازية للسلطة القائمة.*

أظهر الرجل ذو الرداء الأبيض خيبةَ أملٍ.

- أنا لستُ شخصًا عاديًا... في الواقع، أنا عمليًا مخترع العدالة. أنا دراكون الذي كتب، في عام 621 قبل ميلاد يسوع المسيح، أول القوانين المكتوبة المطبّقة دون تمييزٍ على كلّ فرد، أيًا كانت طبقته الاجتماعية. حتى ذلك الحين، كانت عدالةٌ مختلفة تحكم الأثرياء والفقراء، بقوانين منفصلة، حسب إن كان المعنيّ رجلًا أو امرأة، أجنبيًا أو مواطنًا.

سألت لوسي بارتيابٍ:

- لم يكن هناك بالفعل أيّ شيء بهذا المعنى من قبل؟

- كانت هناك الوصايا العشر التي أملاها موسى. ويعود هذا إلى ألف وثلاثمئة سنة قبل ميلاد يسوع المسيح، ولكن تلك الوصايا لم تكن تعني سوى العبرانيين، الذين لم يكن عددهم كبيرًا. في بلادي، اليونان، التي كانت آنذاك السلطة الرئيسية في حوض البحر الأبيض المتوسّط، كانت القوانين شفوية فقط، ومتروكة للتفسير الحرّ للمشرّع. وكان هذا الأخير يعاقب حسب حدسه دون الرجوع لأحدٍ. وقد أدّى هذا إلى الكثير من التجاوزات. أنا منْ وضعتُ حدًّا لقانون الانتقام الخاصّ. وأنا من ابتكرتُ فكرة نقش القوانين على ألواحٍ خشبية معلّقة على مداخل المدن، ثمّ على المسلّات الحجرية، حتى لا يستطيع أحد الزعم بأنّه يجهل القانون. وأنا من ابتكرتُ التمييز بين القتل العمد والقتل غير المقصود. أقول كلّ هذا لأخبركما أنّ العدالة هي مجال اختصاصي أنا.

- هل وُجِد مصلح «العدالة الدراكونية» نسبةً إليك؟

- نعم، ولكن لم يكن لديّ الخيار. لإيجاد بديلٍ عن الرغبة في الانتقام، كان لا بدّ من أن تضمن العدالة عقابًا نموذجيًا. وكطوباويٍّ، مثلكما تمامًا، اعتقدتُ بوجوب التساهل مع أيّ شيء. ولذلك كان اللصوص يُعاقبون بعقوبة الموت. ولذلك ارتبط اسمي بفكرة أحكامٍ في غاية القسوة.

اعترضته لوسي:

- لو أنّك عملتَ بالفعل على الأرض في سبيل مزيدٍ من العدالة، لتفهّمت بسهولة تصرّفنا. ساعدنا بدل السعي إلى إيقافنا.

أجاب ببرود:

- ما الذي تريدان التدخّل فيه؟

تفاجأت كلٌّ منهما بالتغيّر في لهجته.

- نحن هنا للدفاع عن الأخلاق.

- ألـم يخطـر على بالكمـا أنّ هذا العالـم ممتازٌ كما هو عليـه ولا ينبغي تغيير أيّ شيءٍ فيه؟

قالت دولوريس غاضبةً:

- حتى شبكات الإتجار بالنساء؟

- يجب أن تصل الإنسانية إلى نهاية أخطائها، بما في ذلك الأكثر إثارةً للصدمة، لكي تفهم الواقع.

- هل تقصد أنّ هؤلاء الفاسقين الأوغاد جزءٌ من الخطّة الكونية؟

- تمامًـا مثـل المتعصبيـن الدينيين والطوائـف والمخـدّرات والكحول والحرب والمجازر والأوبئة والحماقة البشرية...

- ولكـن ألا يمكن تصوّر كوكبٍ بلا حرب، بلا فقر، بلا جرائم قتل، بلا منحرفين، بلا طغاة، بلا مجاعة؟

- هذا الكوكب موجود بالفعل، صدّقاني.

- آه حقًّا؟ وأين هو؟

- كلّ كواكـب النظـام الشمسـي هي هكذا. المشـكلة هي أنّهـا أيضًا بلا أكسجين... وبالتالي بلا حياة.

بدا دراكون راضيًا جدًّا عن دعابته، وأوضح:

- إنّ اعتقـاد المرء بأنه قـادرٌ على إنقاذ الناس وتغيير العالم فيه الكثير من الادّعـاء. ولذلك سـوف أطالبكما بالكفّ عن «إصـلاح» عدالتكما الصغيرة الشـخصية دون الأخذ بالحسـبان التحدّيات التي تفوق طاقتكما. لن يستحقّ الإنسـان الخـلاص حتـى يكافـح بنفسـه ضـدّ حصّته مـن الظـلام. يجب أن تكـون لديـه إمكانية ارتكاب الخطأ حتى يسـتحقّ النجاح. ضعا التحسـينات في اعتباركما بدل الرغبة الدائمة في تغيير كلّ شـيء بأسـرع ما يمكن. التطوّر يحدث ببطء، وعلى دفعات. ثقا بالهرمية التي تعلوكما.

صرخت دولوريس محتجّةً:

- إذن هل سيكون علينا الاستسلام وعدم فعل أيّ شيء؟!

- يجب على المرء القيام بقليلٍ من العمل، بمستوى طاقته، وعدم المبالغة في تقدير قواه. لا تنسيا أبدًا أنّ الأمور إذا كانت على هذه الحال، فلأنّ هناك أسبابًا خفيّة لذلك. ربّما يكون من الضروري أن يخطئ المرء لكي يفهم ما هو الصحيح. فالخبرات تُصاغ على مراحل عديدة: يقوم الناس بالتجارب أوّلًا ثمّ يرون نتائج تجاربهم وينتهون بإدراك أنّ عليهم تغيير سلوكهم، قبل أن يصبح طبيعيًا بالنسبة إليهم أن يتصرّفوا على نحوٍ مختلف.

تحدّث دراكون بلهجةٍ جافّة، بيد أنّ دولوريس لم تدع نفسها تتأثّر بما يقول.

سألت صديقتها:

- أيّ معسكرٍ تختارين يا لوسي؟

- هذا هو صلة وصلي المفضّلة مع الهيئة النجمية الوسطى: لا أرى نفسي متعارضة معه.

- أنتِ تستسلمين إذن؟ تتنازلين عن انتقامكِ؟

وجدت لوسي نفسها ممزّقة بين الموقفين ومشاعرها الخاصّة.

- أنا أقبل بالعالم كما هو عليه.

- أمّا أنا، فلا يا لوسي. إذا كنتِ لا تشعرين بقوّة مقاومة الشرّ، سأقاومه وحدي. وسوف أفعل كلّ ما في وسعي لكي تتحقّق ذات يوم هذه المحكمة السماوية وتسدّ ثغرات محاكم الأحياء. وداعًا يا لوسي، أتمنّى لكِ الأفضل، لكن لا يمكنني أن أرى نفسي أنسحب أمام هذه المسؤوليات الجديدة الناجمة عن هذا الإدراك.

ما كادت تقول هذا حتى عبرت السقف، تاركة لوسي وحيدة مع دراكون فوق سرير سامي.

- كنتَ قد أخفيتَ هذا عنّي؛ هل حقًّا أنت مخترع العدالة؟

- كان ذلك في عصرٍ آخر.

- وهـل أنت راضٍ عن العدالة فـي الحال التي أصبحت عليها الآن على الأرض؟

- لا أوافق على كلّ ما يحدث فيها، ولكنني أتفهّم الأمر.

- هل يمكنني إذن أن أطرح عليك سؤالًا شخصيًا بعض الشيء؟

- تفضّلي.

- الآن وقد تنازلتُ عن إلحاق الأذى بعدوّي، أودّ أن أُحسِن إلى صديقٍ.

- غابرييل ويلز؟

هزّت رأسها بالإيجاب.

- إنّه في جسدي. وقد انتهى هذا بإقامة صِلات... هل تعرف منْ قتله؟

تمطّى فمه في ابتسامةٍ، واتّخذ هيئة ماكرة.

- نعم.

رفعت أحد حاجبيها.

- وهل تستطيع أن تكشفه لي؟

- بالطبع. ولكن يا عزيزتي لوسي لن يفيدكِ في شيء أن تعرفي ذلك.

- إذن لنقل إنني أسألك عن ذلك لمجرّد إرضاء فضولي.

- سوف تُصابين بخيبة أمل. الأمر أشبه بكشف خدعة سحرية.

- لديّ رغبة شديدة في أن أُفاجأ. لم تُخيّب معرفة الخدع السحريّة أملي قط.

- كما تشائين.

عندئذٍ، اقترب دراكون من أذن لوسي ليهمس لها باسم القاتل. ولم تصدّق لوسي ما سمعته.

73. الموسوعة: نظرية تأثير القرد رقم مئة

نشأت «نظرية تأثير القرد رقم مئة» من مُراقَبة أُجريت على قرود المكاك اليابانية، واسمها العلمي *Macaca fuscata*، وهي القرود التي تتّسم بشعرٍ طويل فضيّ اللون ووجهٍ ورديّ كما ظهرت في العديد من

الصور، الملتقطة بين عام 1952 وعام 1965، حيث ظهرت منغمسةً في مياه بُحيرةٍ وسط الأبخرة المتجمّعة على سطح البحيرة في جزيرة كوجيما الصغيرة أو في جزيرة كيوشو.

كان فريقٌ من العلماء اليابانيين يغذّون القرود بالبطاطس الحلوة التي يلقون بها على الرمل. أحبّت القرود هذه الوجبة كثيرًا، ولكن وجدت أنّه من غير المريح تناول الرمل الذي يغطّي قشرتها.

وجدت أنثى، كانوا قد أسموها إيمو، حلًّا لهذه المشكلة: غمست حبّتها من البطاطس الحلوة في الماء لكي تنظّفها من الرمل، وإذ وجدت النتيجة مُرضية، بدأت تغسل بانتظام كلّ حبّات البطاطس قبل أن تأكلها.

في البداية، كانت الوحيدة التي تمارس هذا الطقس، ولكن العلماء لاحظوا أنّ القِردة الشابّة هي أوّل من اقتدى بها. ثمّ جاء دور أناثٍ أخريات.

ولاحظ العلماء أنّ الذكور المسنّين هم الأكثر تردّدًا في الإقدام على هذه الحركة، حيث ظلّوا يراقبون هذا السلوك الجديد بامتعاضٍ ظاهرٍ في تكشيراتهم.

مرّت السنوات، وأُحصيت في جماعة القرود المزيد من القرود التي تنظّف البطاطس الحلوة قبل تناولها.

والحال أنّ العلماء اليابانيين لاحظوا أنّ في اليوم الذي بدأ فيه القرد رقم مئة بغسل حبّته من البطاطس، بلغ العدد ما سُمّي بالكتلة الحرجة، وبدأت كلّ قردة الجزيرة تعدّ أنّ السلوك الطبيعي هو أن يغسل القرد حبّته من البطاطس قبل أن يأكلها.

والأكثر إثارةً للدهشة هو أنه ما إن تمّ تجاوز هذا العدد المحدّد وهو الرقم مئة، بنوعٍ من العدوى، حتى تبنّت مستعمرات قردة المكاك في الجزر الأخرى نفس السلوك. لا سيما أنّه كان من المستحيل تمامًا أن تستطيع القردة عبور المسافة الفاصلة بين الجزر سباحةً.

فنشر عالمٌ أمريكي هو ليال واتسون فرضية فحواها هو أنّه حينما

يغيّر عددٌ كافٍ من الأفراد طريقة تقديرهم لفكرة جديدة، تنتشر هذه الفكرة بسرعة كبيرة، مثل موجةٍ في الهواء، إلى درجة أنّها عمّت كلّ القردة دون ملاحظة أيّ انتقالٍ بينها.

في عام 1984، نشر كين كييس كتابًا عنوانه *القرد رقم مئة*، قارب فيه سلوك قرود المكاك اليابانية والمجتمعات البشرية. وصاغ فرضية أنّه عندما تبلغ إضافة الطاقة الذهنية للأفراد عتبةً معيّنة، يحدث نوعٌ من الانفجار الذي يُحدِثُ تغييرًا في الوعي العامّ. في البداية، لا يلامس هذا إلّا عددًا محدودًا من المبادرين والفضوليين - الشباب على سبيل المثال، الذين غالبًا ما يكونون أكثر مرونةً وأكثر اهتمامًا بالسلوكيات الجديدة -، ثمّ تحت تأثير الاستجابة، يغدو هذا الابتكار الجديد هو المعيار. وفي النهاية تنسى الأجيال التالية التصرّفات الخرقاء لأسلافها.

إدمون ويلز،
***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

-74-

وقف غابرييل - المرأة في المكتب الفاخر لصاحب دار نشر فيلانبروز. وكان هذا الأخير يجلس بين كدسين من المخطوطات، ويتحدّث بصوتٍ عالٍ عبر الهاتف.

- تمامًا... نعم... سوف يُنشرُ فكر ويلز بفضلنا في جميع أنحاء العالم... طبعًا... سوف يحيا هذا الفكر بعدّة طرق، ولكن اعلم أنّ منشورات فيلانبروز سوف تكون نشِطة على نحوٍ خاصّ في هذا الابتكار... كلّا... كلّا... لا أحدّثك عن هذا. أنا أحدّثك عن شيءٍ مختلفٍ تمامًا، عن قصّة جديدة لغابرييل ويلز، عن قصّة جديدة غير مسبوقة نملكها حصريًّا. لماذا ليست معروفة؟ لقد أودعها لديّ شخصيًّا، قبل عامين ليعرف رأيي بها. وقد احتفظتُ بها بعناية حتى هذه اللحظة، والآن سوف نتمكّن من نشرها.

لم يعد غابرييل - المرأة يتذكّر أنّه أرسل هذه القصّة إلى دي فيلانبروز،

وتساءل في نفسه عن أيّ قصّة يتحدّث ألكسندر. أمامه، واصل ناشر أعماله حديثه:

- ... طالما أنني أخبرتك بذلك... عنوانها؟ «لو كنتُ مكانك».

تذكّر غابرييل - المرأة هذا النصّ وفهم خيار الناشر.

- الحبكة؟ كاتبٌ من الأكاديمية الفرنسية وكاتبٌ لقصص الخيال العلمي يقرّران تبادل نصوصهما. والنتيجة، يُغدق الناقدون بالمديح على العمل الذي من المفترَض أنّه كُتِب من قبل الأكاديمي، في حين أُهمِلَ العمل الذي زُعِمَ بأنّه كُتِبَ من قبل كاتبٍ لقصص الخيال وتعرّض للتشويه. بيد أنّ الأكاديمي لا يتوقّف عند هذا الحدّ: قرّر أن يستقيل من المعهد وأن يكتب روايات تنبؤّية. أمّا بالنسبة إلى كاتب قصص الخيال العلمي، فقد أدرك أنّه لطالما رغبَ في قرارة نفسه أن يكتب شِعرًا. هل أعجبك هذا؟... كلّا؟... لماذا؟ بالطبع أنا أعرف أنّ هذا لن يُصالحنا مع منافسينا، ولكنني أعتقد على وجه التحديد أنّ غابرييل ويلز كان سيُسعَدُ بنشر لقصّته الآن. لنقل إنّ هذا سيكون بمنزلة احتفاء ما بعد الموت أو بادرة طيّبة تجاهه.

لاحظ الناشر أنّ المرأة الجميلة الواقفة أمامه تبدو مهتمّة للغاية بحديثه، فلم يسعَ إلى الإصغاء إليها.

- على أيّ حال، لم يعد لديّ ما أخسره، ولذلك من الأفضل إنّ أحاول تحريك الأمور وإحداثِ تغييرٍ.

لدى سماعه هذه الجملة، تذكّر غابرييل - المرأة لماذا بدا له هذا الناشر على الدوام ودودًا. دون تردّد، انتظر بفارغ الصبر أن يغلق ألكسندر دي فيلانبروز السمّاعة، بعد ما يقرب من عشرين دقيقة.

- أنا سعيدٌ بلقائكِ آنسة فيليبيني، وأنا آسف لأنني جعلتكِ تنتظرين. أما زلت تبحثين عن قاتل ويلز؟

- نعم، ولكنني أحقّق تقدّمًا في تحقيقاتي.

- موازي؟

- إنّه بريء.

شبك ومن ثمّ أفرد أصابعه الطويلة ذات الأظفار المطليّة بالكامل.

– بمَنْ تشكين إذن؟ بأخيه؟

– توماس أيضًا بريء.

– أنا؟

– لا تزال هناك بعض الشكوك التي تراودني بشأنك يا سيّد فيلانبروز. ساعدني في تبديدها.

ابتسم ألكسندر، وفكّر، ثمّ نهض من مكانه.

– سوف أُزيلُ شكوكِ إلى الأبد. اتبعيني يا آنسة.

لبرهةٍ، ونظرًا لمعرفة غابرييل – المرأة لشهرة الناشر كزير نساء، انتابه الخوف من أن يقوده إلى دهليزٍ ليستفرد به ويحصره ولكنّه قاده في الواقع إلى مكتبٍ فاخرٍ تغطّي جدرانه صور غابرييل ويلز الشخصيّة. رأى رجلًا متراخيًا في أريكةٍ، منهمكًا في العمل على شاشةٍ ضخمة.

– مرحبًا سيلفان!

– طاب صباحك، يا معلّم.

– سيلفان دورو مدير شركة «الروح الخالدة»، هو الذي أنجب الفكر الافتراضي لغابرييل ويلز. بهذه الطريقة سأُعبّرُ عن حبّي لكاتبي المفضّل: سوف أُخلّده. هل تصدّقين أن يستطيع أحدنا قتلَ كاتبٍ يحبّه إلى هذه الدرجة؟ من فضلكَ يا سيلفان، قدّم عرضًا عن المشروع للآنسة.

عندئذٍ، أمام روح غابرييل ويلز المتناسخة في جسد لوسي فيليبيني، ظهر وجه الكاتب المُصمّم بإتقانٍ بالغ. شعر بأنّه يرى نفسه في المرآة.

قال غابرييل ويلز الافتراضي:

– طاب نهاركِ يا آنسة.

حثّها دي فيلانبروز بإلحاح:

– هيّا، اِحْكي معه! حتى وإن كان هذا مربكًا جدًّا، تحاوري معه كما لو أنّه غابرييل الحقيقي! ليس عليكِ سوى أن تناديه باسم غابرييل الافتراضي.

- طاب نهاركَ يا غابرييل الافتراضي.

- أنتِ فاتنة، يا آنسة.

لم يكن غابرييل يتوقّع أن تتغزّلَ به نسخته الافتراضية.

علّق ألكسندر دي فيلانبروز:

- نظرًا لأنّ ويلز الحقيقي كان مشاكسًا وزير نساء، أعدنا إنتاج هذه السمات الشخصيّة من خلال الذكاء الاصطناعي الذي يفيد في جعل نسخته الافتراضية مطابقة لنسخته الحقيقية.

قرّر غابرييل - المرأة أن يرمي كلّ أوراقه.

- لديّ سؤالٌ أطرحه عليك يا غابرييل: بحسب رأيكَ، منْ عساه يكون قد قتل نسختك الحقيقيّة؟

تقلّص الوجه الافتراضي أمامه على نحوٍ طفيف، ثمّ تحرّكت الشفة السفلى، الأمر الذي يمكن تفسيره بلحظةِ تفكيرٍ مركّزٍ.

قال أخيرًا:

- الكثير من الناس كانوا يتمنّون أن يتوقّف غابرييل العضوي عن الكتابة.

همس ألكسندر دي فيلانبروز في أذن الشابّة:

- كان غابرييل ويلز مصابًا بشيءٍ من البارانويا، ولذلك برمجنا هذه السمة أيضًا، حرصًا على الوفاء لفكره.

- ولكن منْ، بحسب رأيكَ، كان له المصلحة أكثر من غيره في أن يضع حدًّا لحياته؟

ردّد الوجه الظاهر على الشاشة لكي يكسب بعض الوقت:

- مَنْ؟

من جديد أظهر لحظةً من التفكير المركّز.

- لنـرَ الأمور بطريقة مختلفة... مَنْ، يا عزيزي غابرييل الافتراضي، كنتَ ستختار كقاتل لو أنّك كتبتَ روايةً عن موته؟

رفع ألكسندر دي فيلانبروز إبهامه كعلامة تشجيعٍ.

– بهذه الطريقة بالضبط يجب طرح السؤال.

مـرّة أخرى، أبدى الوجه الظاهر على الشاشـة لحظةً مـن التفكير المركّز قبل أن يسترخي.

قال غابرييل:

– «لفهم نظامٍ ما، يجب عليك الخروج منه».

– وعندما نخرج منه، ماذا نجد؟

– لقد وجدتُه! القاتل هو... القاتل هو... القاتل هو...

تأتأ غابرييل الافتراضي، وجمد على الشاشة، ثمّ انطفأت الشاشة فجأةً.

صرخ سيلفان دورو:

– أوه كلّا! لقد عطّلتِه!

– الأعطال أمورٌ تحدث، لا سيما مع برنامجٍ جديد.

فكّك غطاء الحاسوب وفتّش عن مصدر العطل.

– لقد أخبرتكِ بذلك، لا يجب طرح الكثير من الأسئلة عليه، فهذه نسخة تجريبيّة!

ردّ غابرييل – المرأة:

– لم أكن أعلم أن طرح أسئلة عليه حول القاتل سيضعه في هذه الحالة. أشعرُ بخيبة أمل.

لـم يتخـلّ ألكسـندر دي فيلانبروز عن هـدف التأثير على المرأة الشـابّة، ففتح درجًا وأخرج منه رزمةً من الورق المطبوع.

– هذه هي الفصول الثلاثة الأولى من رواية *إنسان الألف عام*.

– هل تسمح لي بقراءتها؟

– يمكنني أن أسـمح لكِ بـأن تطّلعي على الصفحات العشـرين الأولى منهـا، ولكـن ليس أكثر. أمّا بقيّة الرواية، فسـرّية للغاية ويجب بالطبع أن تُعاد قراءتها وتُنقّح من قبل كائنٍ بشريٍّ، لكي يمنحها «تماسكًا».

قرأ غابرييل – المرأة، متلهفًا، الاستهلال.

«مَنْ لم يحلم يومًا بأن يرى حياته تطول إلى ما لا نهاية؟»

اكتشـف ألكسـندر جيّدًا أنّ رواياته تبدأ دائمًا بسـؤالٍ، وأظهر وفاءه لهذه الخاصيّة. أمّا تتمّة السرد فتخضع لبنية رواية بوليسية تقليدية ابتكارها الوحيد هو موضوعها: إطالة أمد الحياة.

بدا له البطل عاديًّا بعض الشيء، ولكنّه شكّ في قدرة برنامجٍ بسيط للذكاء الاصطناعي على فهم جنون البشر.

أشعل ألكسندر سيجارًا ونفث بضع حلقاتٍ من الدخان الكثيف.

– هل تدركين، يا آنسـة فيلييني، قيمة امتياز أن تقرأي هذه الرواية قبل الجميع؟

لـم يجـرؤ غابرييـل على إخبـاره برأيـه الحقيقي فـي هذا الفصـل الأوّل المشوب بالتفاهة، واكتفى بأن شكره.

– بالطبـع، إذا رغبـتِ في قـراءة ما تبقّى من الرواية، فهـذا ممكن. ولكن سيكون علينا عندئذٍ أن نلتقي مرّة أخرى بطريقة أقلّ رسميّةً...

ناوله بطاقة الزيارة خاصّته؛ شـكره غابرييل – المرأة واسـتأذنه المغادرة. في الطريّق، فكّر في كلّ الكيمياء التي أتاحت له تحويل دماغه إلى آلة لصناعة القصـص. ازداد قناعةً بأنّ ضعف برنامـج **غابرييل ويلز الافتراضي** يكمن في حقيقة أنّه لن يكون أبدًا فضوليًا بقدر عقلٍ بشريٍّ حيّ.

رغب الكاتب، الذي أحسّ بأنّه في حالة تأهّب في جسد الوسيطة الروحية، في اسـتغلال الفرصة التي منحها له هذا الغـلاف الأنثوي الجديد، ولكن في قرارة ذهنه، أحسّ بأنّ قاتله قد مسّـه بعمق. تحطّم شـيءٌ ما في داخله. طالما أنّه لا يعلم لماذا قُتِلَ ومَن الذي قتله، لن يتمكّن من إيجاد السلام.

75. الموسوعة: كينتسوغي أو فنّ الترميم بالذهب

في الثقافة اليابانية، يمكن لشيءٍ مكسور أن يكون أكثر قيمةً من شيءٍ جديدٍ وسليم، وذلك باعتبار ترميمه مصدرًا إضافيًا لإضفاء الأهمية عليه.

بل ولفنّ الترميم من أجل التحسين اسمٌ: كينتسوغي (ويعني حرفيًا «التوصيل بالذهب»). وتعود الإشارات الأولى إلى كينتسوغي إلى القرن الخامس عشر، عندما أرسل الشوغون الياباني أشيكاغا يوشيماسا وعاءً صينيًا لشرب الشاي مكسورًا إلى الصين من أجل ترميمه. حسب التقليد المتّبع، عاد إليه الوعاء مزخرفًا بمشابك حديدية قبيحة. فاحتجّ الشوغون واقترح حرفيون يابانيون أن يرمّموا الوعاء بتثبيت روابط من الورنيش المغطاة بالذهب والظاهرة بوضوح. فأصبحت هذه الروابط زخرفة جديدة مضافة إلى العمل الفني الأصلي. منذ ذلك الحين، درجت العادة عند الشوغون بألّا يعودوا إلى رمي الأشياء الخزفية المكسورة، بل منحها حياة ثانية وذلك بإبراز آثار كسرها بدل إخفائها.

لقد ذاع نجاح فنّ كينتسوغي إلى حدّ أنّ بعض هواة جمع التُحف، وعلى نحوٍ خاصّ بين هواة جامعي أواعي الشاي التقليدية، الذين يُصلحون آنية الشاي الخزفية، كانوا يحطّمون عمدًا الأواني الخزفية فقط لكي يقوموا بزخرفتها بروابطَ من الذهب. ومن خلال منح حياة ثانية للأشياء، ساق فنّ كينتسوغي أيضًا فكرة أنّ الإنسان الذي عاش مآسي، الذي تحطّم ورُمِّمَ، أكثر أهمية من إنسانٍ سليمٍ محميٍّ من تقلّبات الحياة.

إدمون ويلز،
***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

–76–

حاولت أن تقاوم. كانت سجينة الهنود الذين ربطوها إلى عمودٍ. وصل زعيمهم حاملًا سكّينًا كبيرة وقرّب طرف سلاحه من قميص سجينته الجميلة؛ فتنفّست هذه الأخيرة على نحوٍ أعمق وأسرع، نافخةً صدرها، إلى درجة أن أحد أزرار قميصها انفكّ.

صاح المخرج:

- أوقفوا التصوير! نكتفي بهذا. فكّوا وثاق سابرينا، من فضلكم.

فكّ معاونوه وثاق الممثّلة التي طلبت في الحال كوبًا من الشامبانيا لكي تهدّئ من انفعالاتها، في حين أنّ الممثّل الذي مثّل دور الزعيم الهندي استغلّ هذه الاستراحة لكي يطلب منها التوقيع له على تذكارٍ.

من بين الحاضرين، تعرّفت سابرينا على طيف لوسي.

قالت الممثّلة بسخرية:

- تجدينني كلّ مرّة في وضعٍ حسّاسٍ. المرّة الأخيرة، كنتُ أُعذّبُ من قبل قضاة لويس الرابع عشر الأشرار، وهذه المرّة، أنا أسيرة لدى هنودٍ ليسوا أقلّ فجورًا.

- أليست الحياة سيناريو يتكرّر إلى ما لا نهاية؟

- كم هذا مضحك، أنتِ تتحدّثين مثل غابرييل ويلز. هذه هي بالضبط الجملة التي كان سيتفوّه بها. بالمناسبة، إلى أين وصلتِ في التحقيق بشأن موته؟

- أحقّق تقدّمًا.

من حولهما، انهمكت فرق التقنيين - اختصاصيو الإكسسوارات، ومهندسو الصوت، والمزيّنون - في حركة دؤوبة وعصبية.

سأل المخرج:

- سابرينا، سنتوقّف في استراحةٍ مدّة عشر دقائق، هل هذا يناسبك؟

زرّرت الممثّلة قميصها.

- كلّا، لنتوقّف مدّة عشرين دقيقة. وأنتِ يا آنسة فيلبيني اتبعيني إلى غرفة ملابسي، سوف نحظى فيها بهدوءٍ أكثر ونأخذ راحتنا في الحديث.

دعتها إلى منزلٍ متنقّلٍ فاخرٍ، مفروشٍ بأثاثٍ خشبيٍّ غير أصليّ.

قال غابرييل - المرأة:

- شكرًا لأنّكِ منحتِني من جديد القليل من وقتكِ.

- لا أدري لماذا، يا آنسة فيليبيني، ولكنني أحبّ كثيرًا طريقتكِ في الحياة.

وقبل أن يُتاح لها الوقت لكي تتصرّف، اقتربت سابرينا وأصبحت على بعد سنتيمترات فقط من وجهها.

قالت:

- هيّا، لا تتظاهري بالاندهاش، فأنتِ تعرفين جيّدًا أنني معجبة بكِ...

لم يكن غابرييل - المرأة يتوقّع أن تشتهيه امرأة. فما بالكم إذا كانت هذه المرأة هي عشيقته السابقة.

- هذا يعني لي الكثير، ولكن...

تراجع إلى الوراء، في حين واصلت سابرينا الاقتراب منه بلا هوادة.

وإذ تغزّل به أخوه، ثمّ ناشره، ثمّ عشيقته السابقة، لم يتوقّع غابرييل - المرأة بالتأكيد أن يأخذ تحقيقه مسارًا كهذا. أدرك لماذا كانت لوسي تلقى الكثير من الصعوبات في استجواب المشتبه بهم...

- منذ أن رأيتُكِ، شعرتُ بأنّنا كنّا متّصلتين بطريقة غير مرئية بعضنا ببعض، أنتِ وأنا.

قرّبت الممثّلة شفتيها. قالت:

- لدينا القليل من الوقت، قبّليني.

- ولكن... جئتُ من أجل التحقيق...

- ألا أُثيرُ إعجابكِ؟ كلّ الرجال يحلمون بي، وتوجد ملصقات صوري بملابسي الداخلية في غرف كلّ الـ...

أوضح غابرييل - المرأة:

- ... مراهقين وسائقي الشاحنات، أعرف ذلك، ولكنني لستُ من هؤلاء ولا من أولئك.

- لا تتظاهري بالبراءة والحشمة، هيّا، قبّليني!

وقبل أن يدرك غابرييل ما الذي يجري، شعر بشفتي الممثّلة الفاتنتين على شفتيه. لقد تعرّف على هذا الفم، ولكنّ الشعور كان مختلفًا الآن وهو امرأة.

خطرت فكرةٌ على باله.

في النهاية، أنا أعيد نفس التحقيق الذي تجريه لوسي وأستجوب نفس المشتبه بهم، ولم أجد أيّ دليل حاسم، ولم أحصل على أيّ معلومة أخرى غير التي حصلت هي عليها. أنا لستُ أفضل منها في جسدها. الاختلاف

الوحيد هو أنها تجيد على ما يبدو بطريقة أفضل مني إبقاء الناس على مسافة منها.

وإذ ملّ المقولة، اكتفى بأن فتح فمه قليلًا وتلقّى قبلةً بثّت الدفء في عظام وجنتيه.

– هل خَجلتِ، يا آنسة؟

– أنا أجري... تحقيقًا لكي أعرف منْ قتل غابرييل ويلز.

– لقد سبق أن أجبتكِ بأنّه موازي، لماذا جئتِ تطرحين عليّ نفس السؤال؟ هيّا، استسلمي، أعدكِ بأنّ هذا سيعجبكِ.

في حين شدّدت سابرينا قبضتها، لاحظ غابرييل – المرأة أنّ عضلات الجسد الذي يرتديه لا تسمح له بالتحرّر من قبضتها. لو أنّه كان في جسدِ رجلٍ، لاستطاع بكلّ تأكيد أن يحرّر نفسه منها، ولكن هل كان سيرغب في ذلك؟ هنا، أصبحت سابرينا بسهولة فوقه. قلبته على ظهره، وثبّتت ذراعيه بركبتيها.

– نحن الاثنتين لنا الرغبة في نفس الشيء. وهذا ما يحفّز كلّ ممارساتنا. نرغب في القبلات، ونرغب في ممارسة الحبّ.

قاوم غابرييل – المرأة بطريقة خجولة، بينما داعبت الأخرى صدره عبر ثيابه وبدأت تجرّده من ملابسه.

ولكنني مع ذلك لن أسمح بأن أُغتَصَب من قبل حبيبتي السابقة!

حاول أن يتهرّب، وأدار رأسه، واحتمى بساعديه، ولكنّه أحسّ فجأةً بألمٍ فظيع. هذه المرّة لم يكن الألم في بطنه بل في رأسه. اعتصر صداعٌ رهيب دماغه. فتح فمه في صرخةِ ألمٍ مستمرّ. بدا كأنّ كلّ جسده قد تكهرب.

– ما الذي حدث لكِ؟ ما الخطب؟

تمتم:

– صداعٌ!

أوقفت الممثّلة في الحال غزوتها لتذهب وتجلب قرصًا مسكّنًا للألم.

– هذا يحدث لي أيضًا؟ إنّه كابوس، أشعر بألمكِ.

أحسّ غابرييل – المرأة بأنّ مثقبًا معدنيًا يتحرّك داخل جمجمته. ابتلع العديد من الأقراص وازدردها مع كأس ماء.

– يجب أن أعود. اعذريني على إزعاجكِ.

– هل أنتِ متأكّدة من أنّك قادرة على التنقّل؟

– سوف أكون بخير، شكرًا لكِ.

نهض بصعوبة وبالاستناد إلى ذراع سابرينا القويّة، غادر المنزل المتنقّل، مترنّحًا. وصل إلى سيارة لوسي من طراز سمارت. أثّر الدوّاء عليه قليلًا، وأحسّ غابرييل أنّ حممًا منصهرة تجري في صدغيه. قاد السيارة وهو يغمض أحيانًا عينيه تحت تأثير الألم. هذه الحال هي أيضًا إحدى نتائج أن يكون للمرء جسدٌ. وصل أخيرًا إلى منزل الوسيطة الروحية وانهارَ، في حين جاءت القطط تخرخرُ قرب رأسه.

أُرسِلَت إليه موجةٌ مهدّئة من القطط، ولكن لم يكن هذا كافيًا لتخفيف الألم. فنهض من جديد لكي يُسدِل الستائر ويُطفِئ الأضواء، ثمّ تمدّد على السرير، في حين ظلّت القطط تلاحقه. قال في نفسه إنّ هذا قد يكون ما يُسمّى صداعًا عينيًا: حيث إنّ أخفّ ضجيجٍ وأخفّ شعاعٍ من الضوء يسبّبان له الألم. بقدر ما كان يُجيد تفسير الإشارات المنبّهة من جسده السابق، لم يفهم أيّ شيءٍ من جسد لوسي.

تدخّلت الوسيطة الروحية التي ارتفعت عن الأرض تحت السقف، وسط الدهشة الكبيرة للقطط التي لاحظتها على الفور. قالت:

– *أتمنّى ألّا تكونَ قد أتلفتَ غلافي الجسدي.*

قال غابرييل، عابسًا من شدّة الألم:

– أنا مستعدٌّ لأن أعيده إليكِ، أخبريني بما عليّ فعله، وسوف أغادره حينما تشائين!

– *لا أرغبُ في الحلول في جسدٍ يعاني من نوبةِ صداعٍ، لا شكّ في ذلك.*

– *هذا ليس جسدي!*

– *أعتقد أنّ الأمر المثاليّ، في هذه اللحظة، هو أن نكون نحن الاثنين محض أرواح.*

– ولكن لا يمكنكِ أن تدعي جسدكِ بلا روح! يمكن لروحٍ هائمة أن تسرقه منكِ.

ازدادت القطط عصبيّةً حولهما.

قالت لوسي:

– لا تقلق، فأنا أعرف ماذا أفعل. على أيّ حال، لديّ خبرٌ سار وآخر سيّئ. أيّهما تريد أن تعرف أوّلًا؟

– السارّ! لستُ مستعدًّا ذهنيًّا بالفعل لسماع الأخبار السيّئة.

– عرفتُ منْ قتلكَ.

– حقًّا؟ كنتُ أودُّ لو أعرف ذلك في ظروفٍ أفضل... وما هو الخبر السيّئ؟

– لا أستطيعُ أن أخبركَ به في الوقت الراهن لأنك في هذه المرحلة لن تستطيع فهم ذلك.

– هل تسخرين منّي؟

عصف الألم من جديد بدماغه وجعله يئنّ أنينًا حادًّا.

– كلّا، صدّقني، أنا أفعل كلّ شيء لكي أساعدك. بيد أنني أعتقدُ أنّه إذا كنتَ تُريدُ مواصلة تحقيقك، سيكون من الأفضل أن تكون روحًا محضة.

– ماذا نفعل إذن، الآن في الحال؟

– حالات صداعي مؤلمة للغاية، لا أُريدُ أن أعود إلى جسدي الآن. ولذلك أقترحُ عليك أن تغادره أنتَ أيضًا وأن تنضمّ إليّ في دهاليز الليمبو.

أحسّ مرّة أخرى بشحنة كهربائية حادّة تنغز داخل جمجمته.

– أخبريني بما يجب فعله! ولكن بسرعة، لم أعد أُطيقُ هذا الألم.

– أَصْغِ إليّ وافعلْ بالضبط ما سأقوله. ستجلسُ أوّلًا في وضعية اللوتس على وسادتي الخاصّة بالتأمّل.

جرجر رجليه حتى وصل إلى الوسادة الحمراء.

– يجب أن يكون عمودك الفقري مستقيمًا إلى أقصى ما يمكن وجمجمتك مشدودة نحو الأعلى.

حاولَ أن يطبّق النصائح وهو يُغالب الألم.

- دع نوعًا من السُبات والخمود يستولي على أطرافك، على قدميك وأصابعك، ويسري ببطءٍ في جسدك، محوّلًا لحمك إلى رغوة طريّة، ثمّ إلى خشبٍ صلبٍ.

ركّزَ تفكيره وهزّ رأسه.

- سوف يتحوّل كلّ جسدك إلى ما يشبه شجرة فاقدة للحسّ. يصعد النسغ على طول ساقيك وذراعيك، ثمّ يصل إلى حوضك، وقفصك الصدري، ويخدّر كلّ أنحاء جسدك. يتباطأ إيقاع نبض قلبك. ويتدفّق الدم على نحوٍ أضعف في شرايينك. ويصبح تنفّسك خفيفًا. ولا تعود تشعر بأيّ شيء.

أرخى وجهه.

- الآن، تصوّر كوّة مضيئة في قمّة جمجمتك. افتحها ودع روحك تخرج منها.

اقتربت القطط.

- هل أنتِ متأكّدة من أنّه ليست هناك أيّ روح هائمة في الأنحاء؟

- على العكس، أنا متأكّدة من وجودها.

- ولكنّها في هذه الحالة سوف تستغلّ الفرصة...

- لا تخف. سوف تحمي قططي غلافي الجسدي، وطالما يعشش فيه الصداع، لن يرغبَ أحدٌ في الدخول إلى هذا الجسد الأليم.

وإذ اطمأنّ، تصوّر غابرييل كوّة مضيئة في قمّة جمجمته وفرّت روحه من خلال هذا المخرج. بات يرى بروحه، وفي اللحظة ذاتها، لم يعد يشعر بالصداع. سرى فيه شعورٌ هائل بالعذوبة والسلاسة.

رأى لوسي.

رأته لوسي.

كما رأى بعض الأرواح الهائمة المتطفّلة التي تحلّقت فوقهما واقتربت منهما.

قالت:

- لقد غيّرتُ رأيي، فأنا أخاف كثيرًا من أن يُسرَق جسدي منّي، سوف أستعيده وأدخل إليه. ففي نهاية المطاف، سوف ينتهي الصداع إلى الزوال.

مستفيدة من كون قمّة جمجمتها في متناولها، غاصت فيها كما لو أنّها تدخل إلى غوّاصةٍ.

ولكن ما كادت المرأة الشابّة تدخل جسدها، حتّى شعرت بشحنةٍ كهربائيّةٍ في رأسها. فنهضت، وتمدّدت بكلّ طولها على السرير، وسحبت الغطاء حتى ذقنها، لكي تُعاود إخراج روحها من جسدها.

قال لها غابرييل، ساخرًا:

- في الواقع، أنتِ لا تعرفين ما الذي تريدين، يا لوسي.

ردّت، منزعجةً:

- أنا امرأة، ولديّ الحقّ في أن أغيّر رأيي. ثمّ إنني كنتُ قد نسيتُ أنّ الصداع مؤلمٌ إلى هذه الدرجة... كنتُ آمل أن أقوى على الصمود، لكنّ تذوّقي لمتعة أن أكون محض روح جعلني أكثر رقّة.

- إذن، هل سنترك بالفعل غلافكِ الجسدي خاليًا من الروح؟

- أعتقدُ أنّنا نستطيع تركه في حالة الغيبوبة هذه، شريطة أن تحرسه قططي الثلاث عشرة. على أيّ حال، أنا مستعدّة للمجازفة.

وإذ لم يعد غابرييل قادرًا على التحلّي بالصبر، طرح السؤال الذي كان يحرق شفتيه:

- الآن وقد أصبحنا نحن الاثنين في نفس «الحالة الروحية»، هل يمكنكِ أن تكشفي لي منْ هو قاتلي؟

-77-

تحتهما، شكّلت أمواج بحر المانش قممًا من الزبد الفضيّ. عبرت الروحان الهائمتان البحر الداكن وراء سواحل النورماندي. سرعان ما ظهرت منحدرات دوفر. ثمّ إنجلترا. ذهبتا إلى العاصمة ثمّ وصلتا إلى أوندرشاو المنزل الذي بناه كونان دويل في جنوب لندن والذي وجد فيه أكثر مُتع الحياة.

كان المنزل عبارة عن عمارة كبيرة رمادية وبيضاء اللون حوِّل إلى متحفٍ مخصّصٍ للكاتب الذي ينتصب تمثاله أمامه.

كان مبتكر شخصية شيرلوك هولمز، بالصدفة، حاضرًا في الصالون، مشغولًا بقراءة رواية، مستخدمًا المالك الأخير لهذا المتحف مثل «مقلِّبٍ للصفحات»، مشيرًا إلى هذا الرجل، الموهوب حتمًا بالوساطة الروحيّة، بأن ينتقل، عندما يستطيع، إلى الصفحة التالية.

وجد غابرييل فكرة استخدام كائنٍ حيٍّ بهذه الطريقة فكرةً ذكيّة.

قال له غابرييل:

- نعتذر لك لأننا أزعجناك، يا معلّم، ولكن في المرحلة التي نحن فيها من تحقيقنا، نعتقدُ أنّك الوحيد القادر على مساعدتنا.

- ولكنني أعرفك، أنت الكاتب الصغير للروايات البوليسية الفرنسية!

- وهذه المرأة الشابة التي ترافقني هي لوسي فيليبيني، وسيطة روحية كبيرة في باريس.

- وسيطةٌ روحيّة هنا؟ ولكن أين جسدها؟

- جسدها سليمٌ، في غيبوبة، وينتظرها فارغًا من كلّ روح في باريس.

أمسك كونان دويل بيد المرأة الشابّة لكي يقبّلها.

- سررتُ بلقائكِ. ظلّت زوجتي الأولى، لويز، لوقتٍ طويلٍ في غيبوبة، وحاولتُ آنذاك أن أتحدّث معها بفضل امرأة وسيطة روحيّة.

- هناك مجموعة من الظروف. جسدي «غير قابلٍ للسكن» تمامًا في الوقت الراهن.

- ولا تخافين من أنْ يُسرَق منكِ؟

- لديه صداعٌ نصفيٌّ. إذا حاول أحدهم سرقته منّي، سوف يفهم ألم«ي».

عاود غابرييل سؤاله:

- هل توافق على أن تساعدنا، يا معلّم؟

- تحقيقٌ جنائيّ، قلتَ لي... حول موت مَنْ؟

- موتي أنا.

انفجر السير كونان دويل ضاحكًا.

- *كنتُ أتمنّى أن أضع هذا الحوار في إحدى رواياتي.*

قاد دويل الفرنسيين إلى غرفةٍ في المتحف مليئة بكتبه وبشبكات العنكبوت. على اليمين، كان درعٌ حربيٌّ يحمل مطردًا صدئًا. وعلى اليسار، لوحات تحمل صوره في مراحل مختلفة من حياته مع زوجته الأولى، وزوجته الثانية والعديد من الأطفال.

- هذه قاعة مغلقة من المتحف. لا ضوء فيها ولا تدفئة، فيها الغبار والرطوبة؛ لا أدري لماذا، ولكنني أشعرُ بأننا، نحن الأرواح المحضة، نكون أفضل حالًا في هذا الجوّ.

لاحظ غابرييل في الواقع أنّ هذا الاضطراب، الذي كان سيعدّه في الماضي مثيرًا للكآبة، يبعث فيه الطمأنينة.

- *يجب أن تخبرني بالمزيد عن مقتلك، يا سيّد ويلز.*

- *في الحقيقة، أخذ التحقيق منذ بعض الوقت مسارًا غير متوقّعٍ.*

- *ها أنا أصغي إليك.*

- *لقد اكتشفت لوسي فيليبيني، الحاضرة هنا، منْ قتلني.*

- *في الواقع، هذا يغيّر جوهر التحقيق كثيرًا! إذن، فيما أُفيدكَ بعد الآن؟*

- *في البداية، يجب أن تعرف منْ هو قاتلي، يا معلّم.*

انحنت لوسي على أذن مُبتكر شخصية شيرلوك هولمز وأسرّت له باسم القاتل. بدا كونان دويل في البداية متفاجئًا، قبل أن ينفجر من جديد في الضحك.

- *وممّن أخذتما هذه المعلومة؟*

- *من دراكون.*

- *مخترع العدالة؟*

- *منه شخصيًا. هو في الهيئة النجمية الوسطى، ولكن بيننا علاقة متميّزة بعد أن تبادلنا خدمات عديدة.*

قطّب الكاتب الإنجليزي حاجبيه وعبس، حائرًا، ثمّ استنشق مرّات عديدة دخان غليونه الذي أشعله افتراضيًّا، قبل أن ينفثه دفعة واحدة في عمودٍ طويلٍ وشفّافٍ.

ردّد:

- كم هذا غريب، كم هذا غريب! وفي نفس الوقت، يا له من تحدٍّ! في الحقيقة، هذا مثيرٌ حقًّا.

مسّد دويل شاربيه. وقف أمام لوحةٍ تحمل صورته وسط أرضٍ بور، ثمّ حاكى حركة إشعال غليونه.

- أنا أعشق التحدّيات. وأجد قصّتك... بالفعل فريدة.

- صدّقني لو أننا عرفنا كيف نتصرّف من تلقاء نفسنا، لحاولنا أن نتدبّر أمرنا وحدنا. عندما ذكرتَ حلقة أصدقائك الكتّاب من متابعي جلسات الموائد الدوّارة، قلتُ في نفسي إنّك ستكون في موقع أفضل مَنْ يمكنه أن يساعدنا.

- لن أجرؤ قطّ على إزعاج كلّ هذه الأسماء العظيمة لحلّ مشكلة كاتب فرنسي صغير. على أيّ حال، نحن لسنا في حاجة إليهم؛ يلزمنا أشخاصٌ آخرون أكثر اختصاصًا وكفاءةً بكثير. وأنت محظوظ لأنني أعرف أين أجدهم.

جال في الغرفة.

- هذا مكانٌ خاصّ، خاصٌّ جدًّا. إذا كنتما لا تعلمان، أعتقد أنّ هذا يجب أن يثير اهتمامكما.

في تلك اللحظة، بدرت من درع الفارس الذي يحمل المطرد الصدئ حركة خفيفة، وتحطّم النصل ذو الرأسين، مصدرًا ضجيجًا معدنيًّا صاخبًا، جعل الروحين الهائمتين تجفلان.

سأل غابرييل، متعجّبًا:

- هل أنتَ من فعلتَ هذا؟ هل أنت قادرٌ، كروحٍ هائمة، أن تؤثّر على المادّة؟

وكما لو أنّه يجيب على سؤاله، خرج جرذٌ من الدرع وركض يصعد المكتبة. قضم بقواطعه الطويلة صفحةً من إحدى روايات دويل.

قال دويل، ساخرًا:

- هكذا تنتهي أعمالنا. تقضمها الجرذان.

قال غابرييل وهو يرى القارض يلتهم فصلًا من الرواية:

- على أيّ حال، يبدو أنّه يحبّ كتبك.

- هيّا بنا، دعونا لا نضيّع وقتنا! إذا أردتما تحقيق تقدّمٍ في تحقيقكما، فلا بدّ من التصرّف طالما لا يزال ذلك ممكنًا.

-78-

من تحت الأرواح الهائمة الثلاث، مادت الغابات والمروج الإنجليزية المليئة بالخراف البيضاء والبيوت الصغيرة. وصلت إلى قرية لاركيل الإنجليزية في مقاطعة ويلتشاير، ليس بعيدًا عن مدينة إيمزبري.

أشار كونان دويل إلى بيتٍ من طابقين، تمتدّ منه هو الآخر حديقةٌ على شكل شريطٍ ضيّقٍ وطويل. غاصت الأرواح الثلاث في السقف لكي تصل إلى المطبخ، حيث وجدت رجلًا مكرّشًا له لحية وشعرٌ أبيض طويلٌ. كان الرجل يقف منتصبًا أمام طاولة العمل التي تحمل شاشة تلفزيونية تبثّ برنامجًا عن الطبخ، ويحاول قدر المستطاع تقليد حركات مقدّم البرنامج.

- أقدّم لكم مايكل بلومر. من الناحية الرسمية هو الدليل السياحي لمَعْلم ستونهنج الأثري.

- ومن الناحية غير الرسميّة؟

- هو الكاهن غاتواتر، وهو الكاهن الأفضل في المنطقة.

راقب الفرنسيّان الرجل الذي بدا شغوفًا بدرسه التلفزيوني عن الطبخ.

- وهو من سيساعدنا؟

- نظرًا للوضع الحالي، وللطبيعة الخاصّة وهويّة قاتلك، بصراحة، لا أرى سواه مَنْ في وسعه فعل ذلك.

- غاتواتر، هل تسمعني؟

لم يُجِب.

- هل أنت متأكّد من أنّ لديه قدرات في الوساطة الروحية؟

- بالطبع. ولكنّه أيضًا عنيدٌ جدًّا.

- *غاتواتر، هل تسمعني؟ غاتواتر؟*

- *أعتقد أنّه مجرّد رجل عاديّ، فهو لا يسمعنا.*

- *هيّا، يا غاتواتر، كفّ عن لؤمكِ، وأجبني، هذا أنا!*

بعد التمتمة ببضع كلماتٍ باللغة الغالية، نطق الكاهن أخيرًا بكلماتٍ مفهومة:

- مَنْ ذا الذي يجرؤ على إزعاجي؟

- *أنا كونان دويل. جئتُ مع صديقين، إنّهما فرنسيّان يحتاجان إليك.*

- أنا لا أحبّ الفرنسيين.

- *إنّهما من الأرواح النيّرة.*

منزعجًا، أطفأ غاتواتر التلفزيون ورمى كلّ ما في الطبق الذي أعدّه في حاوية القمامة.

- أنا لا أحبّ الفرنسيين! بسببهم وبسبب ضابطهم اللعين ماركيز دي لافاييت خسرنا أمريكا!

- *غاتواتر، لا ينبغي العيش في ذكريات الماضي...*

- أتطلبُ منّي أنا بألّا أعيش في الماضي؟ هل تريد أن أذكّرك مَنْ هو الميّت ومَنْ هو الحيّ بيننا كلينا؟

- *لنقل ليس «فقط» في الماضي.*

نظر الكاهن إلى ساعة يده.

- على أيّ حال، لقد حان موعدي، عليّ الذهاب إلى العمل.

ارتدى بدلة زرقاء بحرية، واعتمر قبّعةً وغادر منزله الصغير.

- *من فضلك يا غاتواتر، أصغِ إليّ.*

- لا تلحّ عليّ يا دويل، لن أساعد أصحابك من آكلي الضفادع.

لمّا وصل أمام نصب الأثر الصخري ستونهنج، اكتشف الرجل مجموعة السيّاح الصينيين التي تنتظره.

قال:

- صباح الخير. أنا دليلكم السياحي، مايكل بلومر، وسوف أجعلكم تكتشفون هذا المكان الساحر.

تقدّم مترجمٌ صيني لينقل كلامه.

- أطلب منكم ألا ترموا النفايات على الأرض، وألّا تبصقوا في هذا المكان، وألّا تسرقوا أحجار الأثر، وألّا تحفروا الأحرف الأولى من أسمائكم وسط قلوبٍ، وألّا تلقوا بأعقاب سجائركم على الأرض.

تقدّم السيّاح، وبنبرةٍ رتيبة ولكن بلغةٍ إنجليزية متقنة للغاية، شرح مايكل بلومر، المعروف أيضًا بالاسم المستعار غاتواتر:

- ستونهنج يعني «الحجر المعلّق» في اللغة الإنجليزية القديمة. وقد بُني مجموع هذا الصفّ من الحجارة بين عام 3000 وعام 1000 قبل الميلاد. أُكتُشِف هذا الأثر الحجري من قبل البروفيسور غولاند في عام 1901، ومنذ ذلك الحين، يحاول الجميع تفسير سرّ هذا المعبد الحجري. إنّه أحد أعظم أسرار الخلق.

وقف أمام حجرٍ مسطّح.

- يُدعى هذا الحجر هيل ستون، أي «حجر الكعب».

التقط الصينيون صورًا. انتظر الدليل السياحي، ثمّ قاد مجموعته من السيّاح قدمًا مثل راعٍ يقود قطيعه من الخراف.

- هناك دائرتان من ثلاثين فتحة. في داخلها دائرة من حجارة مغليث الرملية، التي تُدعى «حجارة السارسين». والدائرة الخارجية، تُسمى «الحجارة الزرقاء».

انبهر السيّاح الأسيويون وأطلقوا صيحات التعجّب والاندهاش عند سماع كلّ مصطلح تقني، ثمّ التقطوا صورًا لأنفسهم أمام صخور مونوليث.

- في الوسط، حجر المذبح. وهو عبارة عن صخرة رملية خضراء اللون يبلغ وزنها ستة أطنان، لم يُعرها العلماء اهتمامًا في بداية أعمال الحفر والتنقيب. وتُعدّ هذه الصخرة في الوقت الراهن مركز ثقل النظام في هذا الأثر.

من جديد تصاعدت صيحات الإعجاب والاندهاش بين جموع السيّاح.

– اتبعوني. في هذا المكان عُثِرَ على الهيكل العظمي لرجلٍ، «رامي سهام ستونهنج». لقد استنتج العلماء أنّه كان رامي سهام من قوسه الصواني والسهام النموذجية التي كانت بحوزته. لا بدّ أنّ الرجل كان في الثلاثين من عمره؛ فقد مات في عام 2300 قبل الميلاد، حسب التأريخ بالكربون المشعّ وفق النظير غير المستقرّ من نظائر الغلاف الجويّ.

سأل سائحٌ صيني باللغة الإنجليزية مباشرةً:

– مَنْ كان هنا أيضًا في العصور الأخرى؟

– يبدو أنّه منذ عام 100 بعد الميلاد، بذل الرومان مجهودًا كبيرًا في محاولة تدمير هذا المكان الذي بات مكانًا لتجمّع الثائرين ضدّ الإمبراطورية. وفي وقتٍ لاحقٍ، فعل القساوسة ومختلف الملوك كلّ ما في وسعهم من أجل دفن أو تحطيم هذا المكان الذي عدّوه مكانًا «شيطانيًّا».

ألحّ نفس السائح الصيني في السؤال:

– وقبل ذلك؟

– أُنظر، من النادرِ أن يُطرَح عليّ هذا السؤال! أقدم الآثار البشرية التي وجِدَت هنا تعود إلى ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد. يبدو أنّه كان هناك معبدٌ مشابه، وخاصّة من الخشب، وبدل الصخور الواقفة، كانت هناك أشجارٌ.

قال أحد الصينيين:

– لدينا أيضًا مثل هذه المعابد في بلادنا.

اعتقدَ أحد مواطنيه أنّه من المفيد أن يضيف شيئًا خوفًا من أن يفقد الدليل السياحي ماء وجهه، فقال:

– ولكن بحجمٍ أصغر بالطبع.

هزّ الدليل السياحي كتفيه وشرح دفعةً واحدة:

– مؤخّرًا، بعد قياس بمقياسٍ مغناطيسيٍّ، تبيّن أنّ دوائر هذه الحجارة تركّز حقلًا جيومغناطيسيًّا يصعد حلزونيًّا نحو السماء. وهذا يؤثّر على حديد الدم، وعلى نحوٍ خاصّ على أكسيد الحديد الأسود العائم في آذاننا.

أشار إلى صورة ثعبانٍ منقوشةٍ على الصخرة.

- هذه العلامة التي وجِدَت في أغلب المعابد المصرية تمثّل هذه الطاقة البريّة التي يتحكّم بها الرجال الذين يمارسون الشامانية.

لم يجرؤ المترجم الصيني، الغارق تمامًا، على محاولة ترجمة معلومات على هذه الدرجة من النخبوية.

ختم الدليل السياحي حديثه بنبرة محبطة:

- سعيدٌ بإعطائكم هذه المعلومات وأشكركم على الإكرامية التي منحتموني إياها.

استعجل الصينيون في التقاط صورهم الأخيرة، ثمّ تركوا مكافآت سخيّة للدليل السياحي الذي شكرهم مطأطئًا رأسه بخفّة.

بعد ذلك، ذهب مايكل مباشرةً إلى مشربٍ ومطعمٍ للوجبات الخفيفة وحوّل جزءًا من هذه النقود إلى مكاييل موسوعة غينيس. انضمّ إليه كونان دويل والفرنسيّان.

- *غاتواتر، من فضلك ساعدنا.*

- ما الذي ستقدّمونه لي مقابل هذه المساعدة؟

أجاب غابرييل ويلز:

- *أنت تعلم أنني كروح هائمة، لا يمكنني أن أعطيك أيّ شيءٍ ماديٍّ، سيّدي العزيز غاتواتر.*

- اِبْحث واُعْثر على سلعٍ للمقايضة.

ذكّره كونان دويل:

- *أمّا أنا، فأعمل على إسداء خدمةً للكائنات التي لا تقدّم لي شيئًا مقابل ذلك.*

قال الدليل السياحي، ساخرًا:

- من المذهل فعلًا أن نلاحظ أنّه حالما يموت الناس، يكتسبون تلقائيًّا كلّ الخصال التي لم يكونوا يتحلّون بها حينما كانوا أحياء!

قال غابرييل:

- *مهلًا، ربّما لديّ اقتراحٌ أعرضه عليك: إذا ساعدتنا، وأتحت لي أن أجد قاتلي، سوف أخبركَ بكلّ ما سأكتشفه.*

بصق الرجل من فمه جرعة البيرة التي كان قد ارتشفها.

- وماذا تتوقّع أن تكتشف؟

- *نحن أرواح هائمة، ويمكننا أن نذهب إلى حيث لا تستطيع الذهاب إليه كشخصٍ حيّ.*

- هذا الأمر لا يهمّني.

تقدّمت لوسي للردّ عليه، فقالت:

- *السيّد غاتواتر، لقد أكّد لنا كونان دويل أنّه ليس هناك سواك من يستطيع مساعدتنا، هنا مع أصدقائك.*

عبس الرجل.

- هل حان دور الإطراء؟ لن ينفعكم أن تجاملوني. ليس هناك أحدٌ لا يمكن الاستغناء عنه، ليس هناك مَنْ لا بديل عنه.

لم تعد الأرواح الهائمة الثلاث تجد أيّ ذريعة للتقدّم. غاتواتر هو من استأنف الحديث:

- هل ستكون حقًا قادرًا على أن تخبرني بما سوف تكتشفه... بفضلي أنا؟

ردّ غابرييل، مستعيدًا الأمل:

- *سوف أقدّم لك تقريرًا بأدقّ التفاصيل الممكنة، فأنا كاتبٌ.*

- حقًّا؟ مثل السيّد دويل. أن يكون المرء كاتبًا... بدا لي على الدوام أنّها مهنة الكسول. لا أصدّق أننا ندفع لبعض الأشخاص لكي يبقوا جالسين أمام آلة كاتبة ويخترعوا قصصًا، هذا يصعقني.

- *لقد كتبتُ كتابًا حول الموضوع الذي قد يهمّك. عنوانه هو **نحن الموتى**.*

- آه، هذا الكتاب لك؟ تصوّر أنني قرأتُ نسخةً إنجليزية منه. كنتُ أجهل أنّك فرنسيٌّ حتى.

- *لم يلقَ الكثير من النجاح في بلدكم.*

- ما لم يعجبني فيه هو قصّة الحبّ بين البطل والشخصية النسائية. ليس فيها ما يكفي من الجنس. يشعر المرء بأنّك لا تجرؤ على كتابة المشاهد الإيروتيكية. ومع ذلك، كانت هناك كتابات نقدية مليئة بالإطراء الحماسي لكتابك في الصحف الإنجليزية.

فقدت لوسي صبرها.

- هل تعتقد حقًّا أنّ هذا أوان الحديث عن الأدب؟ إذا كنّا هنا، فلأنه لدينا مشكلة عاجلة تحتاج إلى حلّ. وأودّ أن أذكّرك بأنّ لديّ جسدًا «فارغًا» ينتظرني، تحرسه فقط قططي. وحينما تجوع وترى أنّ لا روح في هذا الجسد لتذهب وتجلب لها طعامًا، هناك خطر أن تتركني لأوّل روح متطفّلة قادمة. بل حتى أن تأكلني!

- لقد غضبت السيّدة الشابّة...

ألحّ كونان دويل:

- إذن، هل يمكننا الاعتماد عليك، يا سيّد غاتواتر؟

طلب الدليل السياحي لستونهنج كوبًا آخر من البيرة مع القليل جدًّا من الرغوة.

- لعلمكم، اسمي مقتبَس من اسم كاهنٍ غاليٍّ كان يعيشُ في عصر القيصر. وكلمة «غوتو - Gutu» في اللغة السلتية تعني «كلام» وتحوّلت إلى «غات - guth» في اللغة الايرلندية، و«غوت - gott» في اللغة الألمانية، و«غاد - god» في اللغة الإنجليزية: الله. غاتواتر - Gutuater، الرجل الأقرب إلى الله، الكاهن الأكثر احترامًا عند قبائل القرنوط السلتية؛ وهو الذي بادر إلى الثورة ضدّ الرومان. حكم عليه القيصر بالجلد بالسوط؛ فجُلِدَ حتى الموت ثمّ أُجهِزَ عليه بضربة من فأس. وبفضل اسمه، ورثتُ طاقته ومواهبه القيادية وأيضًا غضبه. يمكنني أن أساعدكما. ولكن لتحقيق ذلك سيكون عليّ أن أجمَع أوّلًا الكهنة الآخرين في المنطقة.

- هل الأمر معقّد؟

- حينما تُمنَحُ لنا الوسائل، لا شيء يبقى معقّدًا. سوف أُقيمُ لكم حفلة سامونيوس؛ وهو احتفالٌ يسهّل الاتصالات مع العالم الآخر. وهو يُقام في الحالة الطبيعية في الأوّل من نوفمبر / تشرين الثاني، ولكنني سأمنحكم استثناءً.

سألت لوسي، وقد استبدّ بها فجأةً الفضول بشأن هذا الطقس:

- وماذا تتضمّن بالضبط حفلة سامونيوس خاصّتك هذه؟

- تتضمّن تناول لحم خنازير برّية، وشرب شراب الشعير الكحولي وشراب العسل. المشكلة أنّ كلّ هذا مكلفٌ جدًّا. ماذا لديكم لتدفعوه؟

- نحن في العالم اللاماديّ، ولا نستطيع أن ندفع لك قرشًا واحدًا.

عبس الكاهن غاتواتر.

- إن لم يكن هناك مال، لن تكون هناك حفلة سامونيوس. لن يقبل الكهنة الآخرون بألّا تُحترَم طقوس الاحتفال.

هاجت لوسي، غاضبةً:

- تثملون بشراب الشعير الكحولي وتلتهمون لحم الخنازير البرّية؟ ولكنني كنتُ أعتقدُ أنّ الكحول يضرّ بالمنعةِ وبالسيطرة على العقل.

- ليس عندنا. نحن نستخدم هاتين المادتين لفتح أبواب عقولنا.

شرب جعته وأغمض عينيه كما لو أنّه يريدُ أن يُبرهِن على أنّه يتحكّم بآثار هذه المادة على عقله.

أخرج كونان دويل غليونه الافتراضي وسحب منه عدّة مرّات لكي يُطرق في التفكير.

- لوسي، لا بدّ أن نوبة الصداع النصفي التي ألمّت بكِ قد انتهت، أليس كذلك؟

- أتمنّى ذلك. ليس من المريح أبدًا الدخول إلى منزلٍ من نار.

اقترح كونان دويل:

- في هذه الحالة، سوف تعودين إلى جسدكِ ومن ثمّ تتحوّلين إلى هذا السيّد الذي لا بدّ أن أعترف بأنّ فساده قد خيّب أملي.

- حتى إن كنتُ كاهنًا، فأنا لستُ إلّا بشرًا. حالما أتلقّى النقود، ثقوا تمامًا أنّ حفلة سامونيوس سوف تنطلق. وعندئذٍ، سوف تتمكّن من إيجاد قاتلكَ، يا سيّد ويلز.

أقلعت لوسي دون تأخيرٍ نحو فرنسا لتحريك الوضع. مسح غاتواتر، راضيًا، الرغوة من على لحيته، وشمّر عن ساعديه.

79. الموسوعة: الدرويدية

تجد الدرويدية أصلها لدى البارثولونيين، وهم يشكّلون شعبًا يأخذ اسمه من زعيمهم بارثولون.

كان البارثولونيون يعيشون في إيرلندا قبل خمسة آلاف عام، لكنّ كارثة طبيعية أزالتهم عن الوجود خلال أسبوعٍ واحد. لم يبقَ منهم سوى ناجٍ وحيد، وهو حفيد بارثولون، ويُدعى توان، واسمه يعني في اللغة الأيرلندية «الصامت». كان آنذاك يبلغ من العمر مئة عام، ونجا من الموت من خلال التحوّل إلى أيل. عاش متجسّدًا في هذا الحيوان ثلاثمئة عامٍ، ثمّ أصبح خنزيرًا بريًّا مدّة مئتي عام، ونسرًا مدّة ثلاثمئة عام، وأخيرًا تحوّل إلى سمكة سلمون مدّة مئة عام. وفي هذا الشكل الأخير تمّ اصطياده من قبل رجلٍ وقُدِّم إلى الملكة كيريل، زوجة الملك السلتي مويندبرغ.

التهمت الملكة سمكة السلمون وأنجبت كائنًا بشريًّا متشرّبًا بذهنها، أسمته توان ماك كيريل. وكان هذا الطفل يحتفظ في ذاكرته بكلّ حكمة ومعارف الشعب البارثولوني، ونقلها على هيئة تعليم درويدي، وكلمة «درويد – druide» تعني «مستنير» ولقّب بها الكهنة السلتيون. فهو إذن أوّل كاهن في التاريخ. وكانت وظيفة الكهنة الآخرين تقتصر على نقل معارفه. وقد اشتهروا بخصوصيّة أنّهم لم يتباهوا بالمعرفة المكتوبة، بل فضّلوا عليها المعرفة الشفوية. ولذلك كانت المعرفة تنتقل من الفم إلى الأذن، من المعلّم إلى التلميذ، ولم تكن تُدوّن في أيّ مكان.

كانت وظائف الكهنة متنوّعة جدًّا، إذا ما حكمنا عليها من خلال ما عُثِرَ عليه في مساكن يُعتَقَد أنّها تعود إليهم: المباضع، والمقصّات، والكمّاشات، والعظام التي تمّت إعادة لحمها بعد انكسارها، والجماجم المثقوبة، الأمر الذي يدلّل على أنّهم كانوا على دراية ومعرفة بالطبّ وحتى بجراحة الدماغ.

فعّل يوليوس قيصر فيما بعد الدور القضائي للكهنة الدرويديين،

الذين أصبحوا الحرّاس على توقيع العقود وفرضوا عقوبات على الذين يتخَلَّفون عن أداء واجباتهم. ولم يكن أيّ قرار يُتّخَذ من قبل الملوك السلتيين دون أخذ رأي كاهنهم الخاصّ.

كان الكهنة يعرفون على نحوٍ دقيق تاريخ مجتمعهم ويستطيعون سرد شجرة عائلة كلّ فرد من القبيلة. كانوا يسافرون كثيرًا ويتحدّثون لغاتٍ عديدة. كما كانوا يصنعون أطرافًا اصطناعية للجنود الجرحى – وخاصّة للملك نوادا الذي فقد إحدى ذراعيه في معركة –، وكانوا على دراية بعلم الفلك ولهم تقويمهم الخاصّ، مثلما يوضّح تقويم كوليغني، الذي يعود إلى العصر الغالي، أحد الآثار المكتوبة النادرة التي عُثِرَ عليها من قبل الدرويدية الغالية.

من بين العديد من القدرات السحرية المنسوبة إليهم، يمكننا ذكر نافورة الصحّة، وهي عبارة عن حمّام لشفاء الجرحى وإنقاذ المحتضرين، وإكسير النسيان، الذي له القدرة، إذا ما أُضيف إلى مشروبٍ، على جعل من يشربه ينسى كلّ شيء، وتفاحة المعرفة التي تنمّي الذكاء، وغلام ديسين، وهي لعنة يكفي النطق بها للتسبّب بموت فردٍ عن بعدٍ، أو أيضًا التعويذة السحرية إيمباس فوروسناي، وهي تعويذة تسمح بتحقيق التنوير.

استمرّ احتفالهم الرئيسي، السامونيوس، في العالم الأنجلوسكسوني تحت اسم هالوين. في ذلك العصر، كان الناس يتنكّرون في هيئة موتى لكي يخدعوا العفاريت ويتجنّبوا محاولة تحميلهم الأحياء.

ومع ذلك، حسب الكهنة الدرويديين، الموت ليس أسوأ ما قد يحدث، طالما أنّ الأرواح خالدة. حينما يموتُ شخصٌ، يذهب إلى (السيده)، وهي العبارة الغالية التي تعني «العالم الآخر». وقد تصوّروا السيده كقصرٍ فخمٍ من الكريستال يقع فوق الغيوم.

إدمون ويلز،

موسوعة العلم النسبي والمطلق، المجلّد الثاني عشر.

-80-

اكتمل القمر، ورسم ضبابٌ كثيفٌ ما يشبه دانتيلا فضّية فوق البراح.

اجتمع الجميع حول حجر المذبح: أربعة وستون رجلًا في سترات طويلة بيضاء ويرتدون رداءً وعلى رؤوسهم عصابة مطرّزة بثلاثة خطوط صفراء تطوّق شعرهم الطويل الرمادي أو الأبيض، ومنجلٌ معلّق بحزامهم، وعلى صدورهم صليبٌ درويدي.

كان غاتواتر الأطول والأكثر بدانةً بينهم. فرض طيفه الطاغي الاحترام على الجميع.

سال شراب الشعير الكحولي ذو اللون الكهرماني وفيرًا في الأكواب الخشبية. نصب أحد الكهنة الدروديين موقدًا ووضع الجميع خنازير بريّة كاملة على أغصانٍ قلبوها فوق الجمرات. عزفت نساء شابّات صهباوات بعيونٍ خضراء على القيثارة والدف. وغنّى البعض معًا بعض الألحان القديمة.

أقرّ غابرييل ويلز:

- *هذا جميل.*

علّق كونان دويل:

- *هذا عالم ما قبل وصول الرومان. العالم السحري حيثُ كانت تُعبَدُ الأشجار الضخمة وحجارة مغليث. عالم الجنيات والعفاريت والهوبيت والشياطين الذي غذّى كلّ الأدب الخيالي.*

في تلك اللحظة حضرت حول النار مجموعة من الأرواح الهائمة وهي ترتدي أزياءً تنتمي إلى عصورٍ مختلفة جدًّا.

تابع كونان دويل:

- *لا أستطيع أن أصدّق أنّ هوديني لم يشأ أن يؤمن بوجود هذا. كم سيكون عالمنا مملًا وبلا طعمٍ لو لم يكن هناك سحرٌ!*

- *ربّما لهذا السبب كان ساحرًا، لكي يُضيف شيئًا من الخيال في حياته اليومية.*

قال دويل، متذكّرًا:

- كنتُ أحبّ هوديني حبًّا جمًّا. لا تستطيع أن تعرف إلى أيّ درجة مزّق خلافنا قلبي.

أجابه غابرييل:

- كان أخي التوأم ديكارتيًّا عنيدًا، ولكنّه في النهاية تغيّر كثيرًا.

بعد تناول لحم الخنزير المشوي وشرب الكحول بالعسل، وضع الرهبان تيجانًا من نبات الهدال وتحلّقوا في دائرة ليدندنوا بأغانٍ بنبرةٍ منخفضة، بلغةٍ لا يعرفها غابرييل. ثمّ أخذوا أماكنهم في مركز الدائرة الأضيق لحرم ستونهنج، وجلسوا جميعًا القرفصاء ممسكين بعضهم بأيادي بعض.

شرح دويل الذي بدا أنه يعرف الطقوس والشعائر الدرويدية:

- هذا يُدعى «حلقة الأحياء». آمل أن يسمح هذا برفع مستوى الطاقة وفتح أبواب السماء.

ارتفع صوت الغناء فجأةً، فتوقّف غاتواتر في الحال.

- ما الذي يحدث؟ هل هناك مشكلة؟

تناقش الكهنة بلغتهم الخاصّة غير المفهومة وبدا عليهم القلق. رفعوا رؤوسهم، وعرفوا عندئذٍ ما هي المشكلة: لقد ظهرت مجموعة مجهولة من الأرواح الهائمة.

- ماذا يفعل هؤلاء هنا؟

عبس دويل.

- ألا تعرفهم؟ هؤلاء روت فرييه وأتباعه. أعتقد أنهم يريدون منعنا من التصرّف.

تعرّف غابرييل على كتّاب **الرواية الفرنسية الجديدة**، ولكنّه تعرّف أيضًا على كتّابٍ آخرين مزعجين وأنانيين قادمين من كلّ البلدان - إنجلترا، الولايات المتّحدة الأمريكية، إيطاليا، إسبانيا، روسيا-، متنكّرين بأزيائهم كأكاديميين وأرستقراطيين أدبيين، وروّاد عالم الموضة، ومحكّمي الأناقة، يرتدون ملابسهم الرسميّة البرّاقة للغاية، وإكسسواراتهم وجوائزهم كالكثير من ميداليات المعارك التي حصلوا عليها في حربهم ضدّ الذوق الأدبي الرديء.

ومع ذلك لم يبدُ كونان دويل متأثّرًا، وقال:

- *أعتقدُ أننا سنحتاج إلى سلاح الفرسان.*

أفرج عن ابتسـامة ورفع يـده. فظهر بعض أصدقائه الذيـن كانوا مختبئين خلـف الأحجـار: إدغـار آلان بو، هـوارد فيليبـس لافكرافت، جـون رونالد رويـل تولكين، جـول فيرن، هربرت جورج ويلز، إسـحاق أسيموف، رينيه بارجافيل، بيير بول.

قال دويل:

- *علـى أيّ حال، كان يجـب أن تُخاض هذه المعركة عاجلًا أو آجلًا. أنا سعيدٌ بأن حدث هذا هنا والآن، على أرضي.*

إنّ قـوات الأدب الخيالي حتمًـا أقلّ عددًا من قوات الأدب «الرسـمي»، ولكن بدا الجميع يتحرّكون بحيويّة وبنفس القدر من العزم والتصميم.

نهـض غاتواتـر وتوجّه نحو صخرة مغليـث التي ضربها بيديـه كما لو أنّه يقـرع طبـلًا. فعـل الكهنـة الآخرون الأمر نفسـه. بعـد غناء النسـاء مع عزف القيثارة، أحدث الصـوت الكتيم لحجارة مغليث المضروبة براحات الأيدي تغييرًا جذريًا في الجوّ.

سأل غابرييل:

- *ما الذي علينا فعله لكي نقاتل في بعدٍ لا ماديٍّ؟*

أجـاب كونـان دويل ببسـاطة مُظهـرًا كلب آل باسـكرفيل وكذلـك بطله شيرلوك هولمز المسلّح بمسدّسٍ:

- *من خلال شخصياتنا، بالطبع.*

فـي مواجهتهم، أظهر كتّاب المؤسسـات بدورهم شـخصياتهم: شـبابٌ رومانسـيون، فلاسـفة محبطون، كتّابٌ واعظون، نسـاءٌ هسـتيريات، شـعراء مكتئبـون، جنـودٌ بالـزيّ العسـكري الرسـميّ، عشّـاقٌ مختبئـون فـي خزانة الملابس، عشيقاتٌ يرتدين جوارب موصولة بالسراويل الداخلية، متشرّدون مكتئبون.

لم تتأخّر ردّة الفعل بالحدوث: أخرج جول فيرن حبّاره العملاق، وأخرج لافكرافـت مخلوقه الكوني كثولو، وأظهر أسيموف روبوتَه، وأخرج فرانك

هربرت دودةً عملاقة، وأظهرت ماري شيلي مخلوقها فرانكشتاين، وأخرج برام ستوكر دراكولاه، وأخرج تولكين ما يقرب من عشرة هوبيتٍ، ودفع بيير بول بقردة تمتطي أحصنة ومسلّحة ببنادق.

سخر روت فرييه الذي استدعى بعبعه:

- آمل ألا تنوي إخافتنا بوحوشك الصغيرة التي تشبه أطفالًا مجرّدين من كلّ عمقٍ نفسي.

تقدّم الحشد الذي يشكّل جيش شخصيات الروايات الأكاديمية إلى الأمام.

أقرّ روت فرييه:

- أنا أحبّ العنف، فهذا سيتيح أخيرًا درء ضرر هؤلاء الكتّاب الصغار البؤساء الذين ليست لهم أهمية. الشيء الوحيد الذي سوف ينقص هذه المعركة هو رائحة دم أعدائنا المهزومين.

سخر دويل:

- على الأقلّ، أغلبية الشخصيات التي تشكّل جيشك سوف تشهد للمرّة الأولى قليلًا من الحركة.

رأى الكهنة بارتباكٍ ما يحدث فوقهم وسرّعوا إيقاع قرعهم على صخور مونوليث، وهم يواصلون في الوقت ذاته الغناء بصوتٍ منخفضٍ ومبحوحٍ أكثر من ذي قبل.

تغطّت السماء بغيومٍ سوداء داكنة خطّطتها بروق الرعد. اختفى القمر، وأخمد المطر نار الموقد وكذلك الحرائق الفرعية.

صاح روت فرييه:

- إلى الهجوم! يحيا الأسلوب!

أجاب كونان دويل:

- إلى الهجوم! يحيا الخيال!

مزّق وميضُ برقٍ السماء.

وفجأةً، اصطدم جيشا الشخصيات الأدبية بعضهما ببعض في ضجيجٍ هائل.

-81-

«شكرًا لأنني على قيد الحياة ليومٍ إضافي».

بعد أن عادت لوسـي إلى جسـدها، وجدت أنّ صداعها النصفي قد زال، لكنّها لا تزال تعاني من بعض الآلام في بطنها، بيد أنّها عرفت نفسها وعرفت أنّ الأصعب قد مضى. دون أن تضيّع ثانية واحدة من وقتها، شغّلت حاسوبها وقامت بالتحويل على حساب مايكل بلومر.

نظـرت عبر النافذة؛ فوجدت السـماء مغطاة بالغيـوم والمطر يهطل. أنار وميض البرق الغرفة وتوتّرت القطط.

راجعت مواعيد رحلات القطارات المقبلة إلى لندن، وهي تنوي الذهاب إلى ستونهنج بسيارة أجرة انطلاقًا من هناك لكي تحضر بقية الأحداث. ولكن سوف تحتاج على الأقلّ إلى ثلاث ساعات كاملة، وإلى ذلك الحين ستكون الحفلة قد انتهت بلا أدنى شكّ.

تذكّـرت أنّها قد وعدت غابريـيـل بأن تتّصل مع والدة القتيل السويسـري الذي كشـف لها عن الاسـم الجديد لسـامي واتّصلت بها فـي الحال. حينما رفعت السيّدة السمّاعة، شرحت لها سريعًا الظروف الاستثنائية لهذا الاتّصال وأعطتهـا المفاتيح الثلاثة التي تُثبِتُ أنّ الرسـالة واردة بالفعل من ابنها. ومن ثمّ أخبرتها بما يتمنّاه ابنها: إنّه يتمنّى أن تُسـامح قاتله، وأن تحلّ لجنة الدعم وألّا تنشـغل بعد الآن إلّا بسـعادتها الخاصّة. على الطـرف الآخر من الخطّ، غرقت السـيّدة فـي انفعالاتها وعواطفها، في حين شـعرت لوسـي بالارتياح لكونهـا لم تتحدّث إليها وجهًا لوجه. اسـتغرقت المحادثة بضع دقائق، وفي لحظة إغلاق السمّاعة، عدّت أنّ الرسالة قد وصلت.

في تلك اللحظة دقّ أحدهم الباب. جفلت الوسـيطة الروحية، خشيةً من أن يكون هؤلاء رجال سـامي، أو سامي شـخصيًا، وربّما يكون قد عثر عليها بفضل شريحة تحديد المواقع التي لم تكن قد فصلتها، ولكن من خلال النظر عبر النافذة، تعرّفت على توماس ويلز. وإذ اطمأنّت، فتحت له الباب.

– لقد جئتُ لأضع تحت تصرّفكِ نسخةً محمولة من النيكروفون.

انتظـر علـى عتبة الباب وهـو يحمل حقيبة ضخمة في حيـن يهطل المطر بغزارة. دعته لوسي للدخول.

سأل:

- هل ما زلتِ على اتّصالٍ بأخي في العالم العلوي؟

- بطريقةٍ ما... لماذا تسألني عن هذا؟

- قـد أحتاجُ إليكِ في متابعة موازية. أنتِ في العالـم الميتافيزيقي وأنا في العالـم المـادّي. هذا هـو إلى حدٍّ ما الـذي اتّفقنا عليه خـلال حديثنا الأخير، أليس كذلك؟ هل أستطيع القيام بذلك؟

دون انتظار ردّها، نصب على طاولة منخفضة قطعًا مخروطيًّا أسـود اللون يتّصـل محوره الأصفـر بحاسـوبه المحمول. اقتربـت القطط بفضـولٍ. ولأنّ لوسي لم تكن تعرف محتوى ما أخبره به غابرييل ويلز حينما كان في جسدها، آثرت ألّا تُكثِرَ من الحديث معه وأشـارت له إلى المكان الذي يمكنه الجلوس فيه. فعّل العديد من البرامج وقام ببعض عمليات المعايرة والضبط التي تطلّبت كلّ تركيزه. راقبته دون أن تنبس ببنت شفة. واصل معالجاته على الحاسوب.

- مرحبًا؟ هل من أحدٍ؟

أصـدر الجهاز أزيـزًا وواصل عمليات المعايرة والضبـط. لم تجرؤ على مقاطعته.

- مرحبًا؟ هل هناك روحٌ هائمة تسمعني؟ مرحبًا؟ مرحبًا؟

ولأنّ شيئًا لم يحدث، غادرت القطط لتنام.

قال صوتٌ صادرٌ من مكبّر الصوت في الجهاز:

- *أنا هنا.*

- غابرييل؟ إذا كنتَ أنتَ المتحدّث، قل لي ما هو الرمز السرّي.

قال الصوت في مكبّر صوت الجهاز:

- *كلّا، أنـا إديسـون. أنـا أتبعـك في كلّ مـكان منذ حـدوث العطل لكي نواصـل حديثنـا. لا أفهـم حتّى لمـاذا أتيت إلى هنـا، فقد كان في وسـعنا أن نواصـل هذا الحـوار في مختبـرك. أمّا بالنسـبة إلى أخيـكَ، فأعتقـد أنّ لديه مشاغلَ أخرى في الوقت الحالي. والآنسة فيليبيني على علمٍ بذلك.*

بلغت حماسة توماس ذروتها.

- مساء الخير، السيّد إديسون.

التفت نحو لوسي:

- وأخي، أين هو؟

قالت:

- في هذه اللحظة؟ حسب المعلومات الشحيحة التي أعرفها، هو الآن في جنوب إنجلترا.

- وماذا يفعل هناك؟

- يشارك في «احتفالٍ محليٍّ» صغير.

أظهر إديسون نفاد صبره.

- *لا يهمّنا أمر أخيك. أنا موجودٌ هنا. هذا كلّ ما يهمّني. لاحظْ جيّدًا أنني أوّل ميّتٍ يتواصل مع إنسانٍ حيّ، إذا ما تحدّثنا من الناحية العلمية. وهذا مهمٌّ لي أنا الذي لم أستطع أن أكون أوّل إنسان حيّ يتواصل مع ميّتٍ. وبفضل الآنسة فيليبيني، لدينا شاهدٌ على ذلك. هل يمكنكِ تصوير ما حدث بهاتفكِ الذكيّ، يا آنسة؟*

لم تشاركهما لوسي حماستهما، فتراجعت إلى الوراء، واسترخت في أريكتها وأغمضت عينيها.

- الآنسة فيليبيني، هل نمتِ؟

ظلّت لوقتٍ طويلٍ ساكنة بلا حراك؛ وحدهما قرنيتا عينيها تحرّكتا تحت الجلد الرقيق لجفونها.

- الآنسة فيليبيني؟!

بدت كأنّها تحلم، في حين عاد إلى آلته واستأنف عمليات المعايرة والضبط لها.

- إديسون؟

- *لا أزال هنا! لنستأنف حديثنا، أرجوكم.*

قالت لوسي بنبرةٍ لامبالية:

- كلّا.

ثارت روح العالِم الهائمة:

- *ماذا تقصدين بـ «كلّا»؟*

- لقد تلقّيتُ للتوّ رسالةً من أعضاء هرميتي، وهم يمنعونك عن إفشاء اكتشافك للجمهور.

احتجّ إديسون:

- *ماذا؟ ولكن من الضروريّ أن يعرف الجميع!*

ردّت لوسي:

- هذا محظور.

سأل توماس:

- وماذا لو رفضنا الخضوع لهذا الإملاء؟

- سوف يتكفّل أعضاء هيئة الهرمية بحملكما على تغيير رأيكما. ولكن هذا يجازف بأن يكون الأمر شاقًّا بالنسبة إليكما. لن يكون في وسعكما القول إنّني لم أخبركما!

- أعضاء ما يُسمى هرميتك المزعومة لا يُخيفونني. لا يمكنهم التأثير على المادّة.

نهضت، واقتربت لمسافة بضعة سنتيمترات من وجه العالم واتّخذت هيئة متوعّدة.

- هم لا يستطيعون، ولكن أنا أستطيع.

- لن أتخلّى عن اكتشافٍ على هذا القدر من الأهمية لمجرّد أنّ وسيطة روحية نصحتني بعدم القيام بذلك.

- ليس لديك الخيار.

- هلّ تصدّقين أنّكِ ستنجحين في إخافتي؟ ثمّ، ما الذي قد أخافه منكِ؟ أن تضربيني؟

اتّخذت لوسي عندها هيئة مهدِّدة، واعتقد توماس لبضع ثوانٍ أنّها تتهيّأ لصفعه.

- لمنع شخصٍ من ارتكاب حماقةٍ، هناك العصا ولكن هناك أيضًا الجزرة...

فاقتربت منه أكثر إلى حدّ أن تلامست شفاههما.

-82-

انهمـر المطر عاصفًا فوق صخور ستونهنج. واصل الكهنة الدرويديون، وهم في حالة نشوة، القرع على أحجار مغليث والغناء.

ظلّت السماء الغاضبة مليئة بالسحب السوداء الفحمية الداكنة، تعبرها بروقٌ بنفسجية وبيضاء. وقد تجابهت الأرواح الهائمة وسط هذا الضجيج الصاخب.

بعث كتّاب المؤسّسة موجةً هائلة من الملل، تشبه نوعًا من الوحل الغادر الـذي أوقـع في الفخّ فرانكشـتاين، وروبوت أسـيموف وكثولـو لافكرافت. حتى المحار العملاق لجول فيرن بدا في مظهر وحشٍ بحريٍّ فاشـل. تراجع دراكولا برام ستوكر أمام الصليب المرفوع من قبل القديس أوغسطين، وبدا معسـكر أدب الخيـال برمّته في حالـة اندحار. رفعت فينوس فـي الفراء بطلة روايـة ساشـر مازوخ سـوطها لتضرب به إدغار بـو الذي حـاول غرابه نقرها بمنقـاره لكـي يرغمها على ترك سيّده وشأنه، لكـنّ فينوس أبعدته بسـهولة بضربـةٍ مـن سـلاحها. أمّا أليـس بطلة روايـة لويـس كارول، أليـس في بلاد العجائـب، فقد هوجِمَت من قبل بعبع روت فريبه الذي ردّد على مسـامعها: «خـذي حبّـة ملبّس، يـا صغيرتي». فقـرّر غابرييل ويلز أن يستدعي الملازم البجع لإبعاد هؤلاء الأشرار، الأمر الذي نجح فيه دون صعوبة تُذكَر.

أصبحـت المعركـة حولهـم أكثر إثـارة، واختلطـت شـخصيات الرواية بمبتكريها للمساهمة في هذه المعركة السماوية الفاصلة.

لوحِق الفرسان الثلاثة لألكسندر دوما من قبل الأخوة كارامازوف، الذين كانت مسدساتهم أسهل على التذخير من بنادق الفرسان. أغرت إيما بوفاري بطلـة فلوبير روبنسـون كـروزو بطـل دانييل ديفو. وسـحق جوليان سـوريل بطـل ستاندال الصرصـور العمـلاق لكافكا. وانقـضّ البعبع علـى الهوبيت وأمسـك بهم بشـبكةٍ وهو يصرخ: «أيّها الصغار، أيّها الصغار، تعالوا إلى هنا يا صغاري!»

ظهـر حلفاءٌ للطرفين المتقاتلين، وقاتل القرصان لونغ جون سيلفر بطل رواية ستيفنسون جزيرة *الكنز* بالسيف بعضَ الفلاسفة – الشعراء المدعومين

مـن مجموعةٍ مـن الإناث المغـرورات المضحـكات، المسـلّحات بمراوح عملاقة.

واصل الكهنة الدرويديون الضرب على أقواس صخور سـتونهنج بإيقاعٍ محمومٍ، في حين أضفت البروق المبهرة على المشهد تأثيرًا ستروبوسكوبيًا[1] قويًا.

صاح روت فربيه، رافعًا سيفه عاليًا كأكاديمي:

- *أيهـا الكتّـاب التافهون، اعترفـوا بأنكم قد انهزمتـم! اعترفوا بضعفكـم وارحلوا من هنا.*

ردّ كونان دويل:

- كلّا، سوف نقاتل حتى النهاية!

وفـي تلك اللحظـة ظهر من وسـط سـتونهنج إكتوبلازم ثعبـانٍ عملاق. أحـدث ظهوره مفاجأةً عند جميع المتحاربيـن. صعد الحيوان حلزونيًّا حتى تحكّم بمنطقة المعركة وحاصرها.

فُتِحَ شدقه، وبدأ بالكلام. صاح بهم وهو يحرّك لسانه مثل شريطٍ:

- *هل جُننتُم إذن؟*

سأل روت فربيه، متضايقًا من هذا المُشاغب:

- *مَنْ أنت؟*

- *أنـا توان، أوّل كاهـن درويدي. وأنتم هنا في ديـاري، لأنني خالق هذا المكان المقدّس.*

توقّـف الكهنـة الدرويديـون عـن القرع علـى الصخور، وتوقّـف الرعد، والمطر أيضًا، وتفرّقت السُحب.

- *لماذا تتشاجرين أيتها الأرواح الصبيانية؟*

أجاب روت فربيه:

- *لا تحشر نفسك في قصصنا!*

1- الستروبوسكوب: المصطربة أو المصباح الرعّاش، هو جهاز كهربائي يُستعمَل لقياس سرعة الدوران والتردّد وأيضًا الزمن الدوري للأجسام ذات الحركة الاهتزازية أو الدورانية. المترجم

- نحن جميعًا سواسية. نحن جميعًا رواة قصص. ليس هناك أدبٌ جيّد أو سيّئ. الأدب الخيالي يحتاج إلى الأسلوب وإلى علم النفس. والأدب الذي يفضّل الأسلوب يحتاج إلى الخيال والتخيّل. المضمون والشكل ليسا متعارضين، بل مكمّلين بعضهما لبعض. تذكّروا أنّ جذوركم تلتقي عند الشعراء الغنائيين، والقوالين، رواة ما قبل التاريخ بجانب مواقد النار. أنتم تسلكون الطريق الخاطئ حينما تعدّون الأدب وسيلة للسلطة في حين أنه وسيلة للتثقيف والتفكير والترفيه. وظيفتكم هي التربية. بفضل هوميروس، انتشرت الثقافة اليونانية في حوض البحر الأبيض المتوسّط. وبفضل فولتير، وهوغو، وفلوبير، وفيرن، تألّقت فرنسا وشعّت في العالم. وبفضل دوستيوفسكي، وتولستوي، توهّجت الثقافة الروسية. وبفضل شكسبير، وأوسكار وايلد، جذبت الثقافة الإنجليزية أنظار العالم برمّته. وهناك الكثير الذي يُقال عن الأدب الصيني، والهندي، والكوري، والياباني... لقد ساهم كلٌّ منكم، في مجاله، في هذا الأمر الاستثنائي: لقد قدّمتم قصصًا تسمح للأطفال بأن يناموا، ويحلموا، ويستشعروا آفاقًا جديدة. تتيح الروايات للأرواح السفر دون أن تتحرّك من مكانها. وأقول لكم، أنا، توان، الذي دافعتُ في عصري عن الأدب الشفوي ضدّ الأدب المكتوب، إنني الآن مقتنعٌ بأنّ جميع الآداب دون استثناء تستحقّ أن يُدافَع عنها. قوّتنا تأتي من تنوّعنا. من الغباء محاولة إثبات أنّ أدبًا ما يتفوّق على آخر، لأنّه ليس هناك جنسٌ رديءٌ من الكتب - هناك فقط كتّابٌ رديئون، لا يُجيدون منح القرّاء الرغبة في قلب الصفحات. ويجب الكفّ عن الرغبة في فرض وجهة نظرٍ تهدف إلى جعل الأدب زيًّا موحّدًا. يا بروست، أنا أعلمُ أنّك تحبّ الخيال العلمي.

اعترف الكاتب المعنّي، خافضًا عينيه:

- نعم، يجب أن أعترف بذلك.

- وأنت يا غابرييل، أعلم أنّك قرأت بروست وأنّك أحببته.

أقرّ غابرييل ويلز:

- هذا صحيح.

- *على الرغم من أنه يكتب جملًا طويلة وصعبة، أليس كذلك؟*
أمَرهما الثعبان العملاق:
- *هيّا تصافحا إذن!*
حاكى الإكتوبلازمان، شبه فزعين، وشبه مقتنعين، حركة المصافحة.
- *دويل، هل أحببت قراءة عوليس للروائي جيمس جويس؟*
- بالتأكيد.
- *ومع ذلك، لا يمكننا أن نقول إنّه كتابٌ سهلٌ...*
- *لقد عانيتُ بعض الصعوبة في قراءته، ولكنني عشقته بعد ذلك.*
- *إذن، عليكم جميعًا أن تتصالحوا، هيّا!*
وافقت المجموعتان المتخاصمتان على الاقتراب بعضهما من بعض دون محاولة قضاء إحداهما على الأخرى.
- *وصالِحوا أيضًا بين شخصياتكم، التي لا علاقة لها بمشاجراتكم الأنانية.*
امتثل هؤلاء للأمر.
- *والآن، لا تنسوا أنّ التحدّي هو قيادة أجيال المستقبل نحو الثقافة. لا تختلقوا الأعداء.*
من فوقهم، باتت السماء صافية وبدأت النجوم تتلألأ. ذابت شخصيات الروايات في السُحب وسرعان ما بقي الكتّاب وحدهم، وقد شاب جميعهم بعض الحرج.
على الأرض، انهار الكهنة الدرويديون، منهكين.
شرح توان:
- *لهذا السبب كانوا في حاجةٍ إلى الطعام والشراب الكحولي، لكي يكتسبوا قوة استحضاري وإظهاري. الآن وقد خرجتُ من قبري، آمُركم بأن تتفرّقوا وألا تعودوا إلى القتال سوى في سبيل القضيّة الوحيدة التي تستحق القتال من أجلها: الثقافة!*
تفرّقت الأرواح الهائمة للكتّاب والتفت الثعبان العملاق نحو غابرييل:
- *أنت، ابقَ هنا.*

وجّـه إليـه كونان دويـل، وجول فيـرن وهربرت جورج ويلز إشـارة دعم ومساندة.

- كن قويًا يا غابرييل!

نظر توان بإمعانٍ إلى الكاتب الفرنسي.

- إذن، أنتَ من أثرتَ هذا الاضطراب هنا، أليس كذلك؟

- أنا أبحثُ عمّن قتلني.

- وهل ترى أنّ هذا يستحقّ أن تأتي وتُثير البلبلة والاضطراب في السماء وتُزعـج الجميع، في الأعلى كما في الأسـفل؟ ولكن من تحسـبين نفسكِ، أيتها الروح الصغيرة التي لا تساوي شيئًا على الإطلاق؟

- أُريدُ أن أعرف الحقيقة حول موتي. لن أتراجع عن هذا ولن أستسلم.

- حسـنًا، إذا كنـتَ تأخـذ الأمـر على هـذا النحـو، فأنا أحـذّرك من أنني سوف...

علا صوتٌ أنثوي قادمٌ من الأعالي:

- ... تدعه يلحق بي.

ظهـرت هيـدي لامار، مرتديـة نفس الأزيـاء التي كانت ترتديهـا في فيلم *شمشـون ودليلة*. ابتهج غابرييل ويلز بهذا الحضور للممثّلة بالفسـتان الأزرق والصنادل الذهبيّة، والتاج اللؤلؤي على شعرها.

- دعـه يا تـوان. لم يعد هذا مـن اختصاص الهيئة النجميـة الدنيا. هذا مـن اختصاص الهيئة النجمية الوسـطى. أنا سـأتكفّل بالأمـر، إنّهم ينتظرونه في الأعلى.

أمام مشهد الجمال البهي هذا، وقف غابرييل ويلز منذهلًا، صامتًا.

سأل توان، مستغربًا:

- سـوف تصعدين به إلى السـماء؟ تصعدين بروحٍ هائمة بسـيطة؟ إلى الهيئة النجمية الوسطى؟

تهرّبت الممثّلة الهوليوودية من استغرابه، وقالت:

- هناك رهانٌ يدور حول هذه الروح.

- هذه الروح؟ هل سوف تقابل أحدًا من الهرمية؟

- لا يمكنني أن أخبرك بشيء، يا توان، ولكنني أشكرك لأنك وضعت حدًّا لهذا النزاع العبثي والغبي. وأنت، يا غابرييل، هل تريد أن تعرف أسباب موتك؟ حسنًا، سوف تعرفها سريعًا جدًّا. لأنّ أحد قوانين الكون هو أنّ كلّ روح تحصل في النهاية على ما ترغب فيه. ولكنني لستُ متأكّدة من أنّ هذا هو أفضل ما يمكنني أن أتمنّاه لك. في بعض الأحيان يكون مكسب المرء في عدم معرفته.

في حين غاص الثعبان توان في أرض ستونهنج، قادت هيدي لامار غابرييل إلى أعلى الغلاف الجوّي للأرض.

قال كونان دويل، وهو على وشك أن يفقد بعض برودة أعصابه:

- هممم... هل هذا وهمٌ أم هي بالفعل هيدي لامار، الممثّلة الأمريكية؟

أجابه لويس كارول:

- لا بدّ أنّ هذا شبحها. لقد استخدموا الأنثى الأكثر قدرةً على التأثير عليه.

- أنا لا أعرف أعمالها السينمائية.

- كانت ممثّلة في أعوام الثلاثينيات من القرن العشرين. أنا أيضًا لم أشاهد أيًّا من أفلامها.

- إنّها أجمل امرأة ألهمتني التأمّل.

- إنّها قادمة من فضاءٍ بعيدٍ.

- لن يدعكِ المنتمون إلى الهرمية أن تصعدي به بسهولة. يجب أن يكون هناك سببٌ محدّد وواضح.

تنهّد كونان دويل:

- في النهاية، لم توضّح ملابسات موتي. لن أتفاجأ بأن أكون أنا أيضًا قد سُمّمت... ولكن منْ ذا الذي استطاع أن يقتلني فعلًا؟

راقب لويس كارول المكان الأخير الذي رأى فيه غابرييل ويلز يختفي، وفكّر بصوتٍ عالٍ:

- أتساءل أين هو في هذه اللحظة.

- لا بدّ أنّه بعيدٌ جدًّا.

- آمل أنّ يفكّر على الأقل في إرسال إشارة إلينا...

83. الموسوعة: فيكتور هوغو والروحانية

في أغسطس / آب من عام 1852، بعد انقلاب نابليون الثالث، لجأ فيكتور هوغو إلى جيرسي، إحدى الجزر الأنجلونورماندية، حيث استأجر منزلًا معزولًا (زُعِمَ أنّه مسكونٌ بالأرواح) في وادٍ مظلمٍ وبارد. عُدّ وصوله حدثًا مهمًّا في هذه الجزيرة الصغيرة التي لم يكن يحدث فيها شيءٌ مهمّ. كان فيكتور هوغو يدعو بانتظام السكان إلى تناول العشاء في منزله وشهد مرحلةً من الإنتاج الغزير.

بعد عامٍ من وصوله، نزلت في بيته إحدى صديقاته، دلفين دي جيراردان، وهي الأخرى شاعرة. ذكرت هذه الصديقة دُرجة الروحانية القادمة من أمريكا بفضل الأخوات فوكس وتحدّثت له عن آلن كارديك، البابا الجديد للديانة الروحانية في فرنسا. لم تُطل الإقامة في جيرسي سوى أسبوعٍ واحدٍ، ولكنّها أثارت حماسًا كبيرًا من خلال تنظيمها لسهرات جرت فيها جلسات الموائد الدوّارة.

في البداية، كان فيكتور هوغو ارتيابيًا جدًا بشأن هذه الموائد ورفض المشاركة فيها. كانت الجلسة الأولى، في السابع من سبتمبر / أيلول 1853، مخيّبة للآمال. لم يتجلّ أيّ ميّت وآثر الناس الجالسون حول المائدة الحديث عن مؤامرات المناهضين للبونابرتية بدل الحديث عن الموتى.

في الحادي عشر من سبتمبر / أيلول 1853، اهتزّت المائدة أخيرًا، ومنْ زعمت أنّها تتكلّم لم تكن سوى ليوبولدين، ابنة فيكتور هوغو، التي كانت قد ماتت غرقًا في نهر السين. ومنذ تلك اللحظة، وافق الكاتب الشهير على المجيء إلى الجلسات وتحوّل سريعًا من مرتابٍ منها إلى محمومٍ بها. وقد دوّن بدقّة في المحاضر الحوارات التي أجراها مع ابنته الراحلة، ثمّ مع موتى آخرين، بل كتب قصيدة حول هذا الموضوع: «ما يقوله الفم المظلم».

وبعد أن غادرت دلفين دي جيراردان، واظب فيكتور هوغو على تنظيم الجلسات الروحانية داعيًا عمليًا كلّ مساء أصدقاءه في

الجزيرة، وسجّل جميع أحاديثه مع الموتى. وهكذا زعم الكاتب أنّه قد تحاور مع شخصيات شهيرة مثل موازي وأفلاطون وأرسطو وإسخيلوس وهانيبال القرطاجي ويسوع المسيح ولوثر ودانتي وغاليليو وشكسبير وراسين وموليير ولويس السادس عشر ومارات وروبسبيير ونابليون الأوّل واللورد بايرون وثلاث شخصيات أسماها السيّدة البيضاء والسيّدة السوداء والسيّدة الرمادية. كما ذكر الكاتب في طاولته حيوانات من الأساطير مثل أسد أندروكلس أو أتان بلعام أو الحمامة الشهيرة لسفينة نوح.

كانت كلّ هذه الأرواح تتحدّث الفرنسية، وفي مدوناته، شرح هوغو أنّه إلى جانب هؤلاء المشاهير، كانت هناك أرواح حيّة ولكنّها نائمة، مثل روح عدوّه اللدود: نابليون الثالث (الأمر الذي أتاح لهوغو أن يخبره وجهًا لوجه برأيه فيه). كانت الجلسات تبدأ بشكلٍ عامّ نحو الساعة التاسعة والنصف وتنتهي بعد الساعة الواحدة فجرًا (وقد سُجِّلَت أوقات البدء والانتهاء على نحوٍ دقيق في المَحاضر).

توقّفت الجلسات فجأةً في عام 1855، حينما انتابت أحد المشاركين، وهو جول أليكس، شقيق الدكتور أليكس، نوبة خرف صاعقة خلال إحدى جلسات الروحانية (انتهى به الأمر في ملجأ شارنتون).

في نفس الفترة، أُبعِد هوغو عن جيرسي بسبب ضلوعه في قضيّة سياسية واستقرّ في جزيرة أنجلونورماندية جديدة، وهي جزيرة غيرنيزي، التي مكث فيها أربعة عشر عامًا.

وحفر هناك على أثـاث المنزل قائمة بأسماء كلّ الرجال المشهورين الذين كان قد تحدّث معهم بفضل جلسات الموائد الدوّارة.

إدمون ويلز،

موسوعة العلم النسبي والمطلق، المجلّد الثاني عشر.

انفصـل جسـداهما العاريـان لكـي يتدحـرج كلٌّ منهما في جانبـه. كانت رائحة جماعهما الماجن لا تزال تغمر الوسـائد. وسـط الشراشف المجعّدة، استعادت لوسي أنفاسها، بينما كان توماس منتشيًا.

– إذا كان هذا هو الثمن الذي ينبغي دفعه لكي أتخلّى عن مشاريعي... لكنّ المرأة الشابّة بدت مشغولةً.

– ما المشكلة؟

– شـيءٌ مـا لا يسـيرُ على ما يُـرام. حتى الآن، كنـتُ أركّز علـى غابرييل وكنتُ أشـعرُ على الدوام بروحـه، حتى عندما كان بعيـدًا. والحال أنني الآن لم أعد أراه قط.

– ولكنكِ شرحتِ لي أنّ شخصًا ميّتًا لا يمكنه أن يختفي تمامًا...

– بالضبـط. إمّا أن يتحـوّل إلى روحٍ هائمة، وإمّا يتناسـخ. وهنا، لا يبدو أنّنـا أمام أيٍّ من الاحتماليـن. يبدو كأنّه قد غادر زماننا ومكاننا. هل يمكن أن يكـون قـد حدث له أمـرٌ خطير في العالـم اللامرئي؟ أُريـدُ أن أتأكّد من ذلك تمامًا. سوف أسأل من هرميتي عمّا حدث.

أخـذت وضعية زهـرة اللوتـس على إحدى وسـائد السـرير، وأغمضت عينيهـا، وأطرقـت في التفكير. تحرّكت مقلتا عينيهـا تحت جفونها. بعد عدّة دقائق، فتحت عينيها.

– لم أنجح حتى في الاتّصال مع دراكون.

– إذا كنـتِ تمنعينني من الاتّصال مع الموتى عبر نيكروفوني وأنتِ أيضًا لم يعد في وسعكِ فعل ذلك، فهذا يدلّ على أننا قد أصبحنا...

– ... مفصولين عن العالم اللامرئي.

– ... مثل الناس العاديين.

أزعجتها هذه الفكرة كثيرًا لا سـيما أنّها كانت تعيش على اتّصالٍ دائمٍ مع الأرواح الهائمـة وعلـى معلومات هرميتها. انتابها شـعورٌ بأنّه قـد تمّ التخلّي عنها. أخذها توماس بين ذراعيه.

– يمكننا أن نعيش دون التواصل مع الموتى، كما تعلمين. لقد طلبتِ منّي أن أتخلّى عن التحدّث معهم، وأنتِ ألا تستطيعين فعل ذلك؟

– أنا أعلم أنّ هذا ليس منطقيًّا، ولكن هذا الأمر أقوى منّي.

– أغلبية الأشخاص الذين يعيشون دون اتّصالٍ مع العالم الآخر تسير حياتهم بطريقة ممتازة.

– هذا الصمت يقلقني. أنا قلقة بشأن أخيك.

تكوّرت على نفسها في حضنه.

– لا بدّ أن يكون هناك سببٌ لكي تفصلني الهرمية. ماذا سنفعل الآن؟

قال وهو يضع قبلةً لطيفة على كتفها:

– نعيش في العالم الماديّ مع الأحياء.

– يبدو لي فجأةً أنّ هذا «محدودٌ» جدًّا...

حاول توماس أن يهدّئها.

– ألا يمكن أن يكون هذا مجرّد انقطاع مؤقّت؟

لم تقتنع لوسي بذلك وبدا أنّ قلقها يتزايد تدريجيًّا. أدرك توماس أنّه إذا استمرّ الوضع على هذه الحال أكثر، فسوف تفقد وظيفتها.

– غدًا، سوف نذهب إلى قبر أخي؛ فإذا كان هناك مكانٌ يمكننا العثور عليه فيه، فلا بدّ أن يكون هناك.

– لماذا غدًا؟ تعال، سنذهب إلى هناك في الحال.

لم يجرؤ توماس على معارضتها. ارتديا لباسهما على عجلٍ وسلكا الطريق.

لمّا وصلا إلى أمام الشاهدة المكتوبة عليها عبارة «أنا حيّ وأنتم موتى»، جلست لوسي، وأغمضت عينيها وركّزت تفكيرها. راقبتها قططٌ بريّة من بعيد.

طال الانتظار كثيرًا.

هبّت الريح وبعثرت أوراق الشجر. ظلّ توماس جالسًا بجانبها وانتظر. وأخيرًا، بعد انقضاء ربع ساعة، فتحت لوسي عينيها.

– أخبريني، هل وصلتِ إليهم؟

– نعم. تحدّثتُ مع دراكون، شفيعي.
– وماذا قال لكِ؟
– طلب منّي ألّا أعود إلى التدخّل أبدًا في هذه المسألة وأن أدع الموتى في سلام.

-85-

طار غابرييل في الفضاء إلى جانب هيدي لامار.

– لو تعلمين ما الذي يعنيه لي أن أكون معكِ هنا! أنا المعجبُ الأكبر بكِ. بالنسبة إليّ، أنتِ المرأة الأروع على مدى كلّ العصور، أنتِ تجسيدٌ للعبقرية الأنثوية.

قالت الممثّلة:

– شكرًا لك، ولكن هل لي أن أعرف من أين يأتيك هذا الشغف بالممثّلات الهوليووديّات لأعوام الثلاثينيات من القرن العشرين؟

– كنّ الأجمل! لقد أحببتُهنّ جميعًا... غريتا غاربو، لورين باكال، إنغريد برغمان، آفا غاردنر، ريتا هيوارث، أودري هيبورن، ليز تايلور، جين تيرني... ولكنني لطالما اعتبرتُ أنّك الأكثر تميّزًا من بينهنّ جميعًا. عندما علمت أنّكِ أوّل من وضعتِ أساس اختراع نظام تحديد المواقع العالمي GPS، ابتهجتُ أكثر.

طافا حول الشمس وأشارت هيدي لامار إلى كوكبٍ صغيرٍ أكبر حجمًا من القمر.

شرحت هيدي لامار:

– كما تعلم، هناك إدارتان لسكان الأرض. من جهة هناك ما يمكننا تسميته «الفردوس»، الدوّامة الموجودة في مركز المجرّة والتي تشفط أرواح منْ يرغبون في التناسخ. وقد تحدّثتَ عن ذلك روايتك **نحن الموتى**، *وبالتالي أعتقدُ أنّك كنتَ قد أدركت وجود هذا الفردوس من خلال الحدس.*

– لقد استنتجتُه من خلال قراءة **كتاب الموتى التيبتي** *و* **كتاب الموتى الفرعوني**.

- إذن أنت تعرف بالفعل: الفردوس، أو «قارة الموتى»، وهو مكوّن من سبعة طوابق تجتاز فيها الروح محنًا مختلفة تسمح لها بمعرفة معنى الحياة. في نهاية هذه الخطوة، يُحكّم على الروح، ومن ثمّ يُعرَض عليها اختيار والديها المستقبليين ومكان ولادتها. ولكن بالنسبة إلى الآخرين، أولئك الذين يرغبون في البقاء، أي الأرواح الهائمة، فهناك بالفعل حاجة إلى بنية موازية.

مدّا أذرعهما لكي يحلّقا بأقصى سرعة.

- هناك حاليًا على سطح الأرض ثمانية مليارات من البشر الأحياء وأربعة مليارات من الأرواح الهائمة، ويتنامى العدد باطراد. كان لا بدّ لهذه الإدارة أن تُقام في مكانٍ ما. ولكي يتأكّد القادة من أنّ لا أحد يراهم أبدًا، قرروا إقامة «مكاتبهم» على كوكبٍ صغيرٍ يقع مقابل الكرة الأرضية مباشرةً، في محور الشمس. وقد أسموه «المَطْهَر»، اقتباسًا من الكتاب المقدّس.

- هل هذا مشتق من كلمة «طهارة»؟

- بل سأقول أنّه مشتق من كلمة «تطهير». ومن هناك نتلقّى التوجيهات لتطهير قطيع الأرواح الهائمة بهدف منحها الرغبة في التناسخ وتولّي أمر تطوّرها بدل الركود إلى الأبد وسط البشر الأحياء.

في تلك اللحظة ظهر أمامهما كوكبٌ صغير أمغر اللون.

قالت الممثّلة:

- ها هو «المَطْهَر».

- هل هنا تعيش الهرمية؟

- الهيئة النجمية العليا. عليك أن تدرك جيّدًا أنّ بين الفردوس والمطهر، الاختلاف ليس فقط جغرافيًا؛ فالنظامان متوازيان ومنعزلان بعضهما عن بعض بإحكام. لكلٍّ منهما تنظيمه الخاصّ. ما سوف تكتشفه هو في الحالة الطبيعية ليس في متناول أرواح الهيئة النجمية الدنيا.

- وأنتِ؟

- أنا في الهيئة النجمية الوسطى. تمامًا مثل دراكون، الذي تعرفه، بحسب ما أعتقد. أنا أنقل التوجيهات من الهرمية إلى الأرضيين، سواء كانوا

من الوسطاء الروحيين أو من الأرواح الهائمة. باختصار، نحن وسائل نقل التعليمات.

- وهل عددكم كبير؟

- عشرات الآلاف، على الأكثر.

هبطت روحا غابرييل ويلز وهيدي لامارا على الكوكب المجرّد من الغلاف الجويّ والمحيطات والغابات ووضعتا على السطح على حافة فوهةٍ، فأشارت عليه الممثّلة بأنّ عليه أن يعبر سماكة الأرض.

- ألا تأتين معي؟

- لقد أخبرتك بذلك: أنا من الهيئة النجمية الوسطى، لا الهيئة النجمية العليا، لم أعبر قطّ هذا الحدّ. هنا، في هذا المكان، أتلقّى التعليمات التي ينبغي لي أن أنقلها إلى الكرة الأرضية.

تمنّى أن يبقى لمزيدٍ من الوقت بجانبها، ولكنه لم يعرف كيف يخبرها برغبته تلك.

- هل تعلمين أنّ لديّ صديقة تشبهكِ كثيرًا؟

- الآنسة فيليبيني؟

- إنّها تشبهكِ، ولكن... الآن وقد رأيتكِ، أدركتُ أنّكِ بالفعل مختلفة.

- هل هذه مجاملة تحاولُ أن تجاملني بها؟

- نعم... أقصد... أودّ أن أخبركِ أنّه إذا كانت حياتي كغابرييل ويلز واغتيالي لم يُفيدا في شيءٍ إلّا في لقائي بكِ، فهذا اللقاء وحده يستحقّ بالفعل كلّ هذا العناء.

- شكرًا.

- هل يمكنني أن أراكِ مجدّدًا؟

- سوف يتوقّف هذا على ما سيحدث لك هناك في الأسفل.

- وماذا سيحدث لي، بحسب رأيك؟

- بداهةً، سوف تلتقي مع كائناتٍ من الهيئة النجمية العليا. لا أعلم في الحقيقة إن كان عددهم سيكون كبيرًا، مثل هيئة محلّفين من رؤساء الملائكة، أو سيكون شخصًا واحدًا فقط، من قبيل ربٍّ أو إلهٍ. ولكي أكون

صريحة معك، أرغب أشدّ الرغبة في أن أرافقك، ولكن هذا محظورٌ بالنسبة إليّ. «هم» طلبوا منّي فقط إحضارك إلى هنا. وأعتقد أنّهم اختاروني أنا لهذه المهمّة لأنني كنتُ أنثاك المثالية.

تجرّأ غابرييل ويلز على أن يعترف لها باستحياء:

- كم أتمنّى في هذه اللحظة أنّ يكون لديّ ورقةٌ وقلمٌ لأطلب منكِ توقيعكِ للذكرى.

- هذا جزء من سلبيات أن يكون المرء ميّتًا، إذ لا يمكنه طلب توقيع المشاهير الذين يلتقي بهم في العالم الآخر...

أفرجت الممثّلة عن ضحكة خفيفة مهذّبة، ثمّ انحنت عليه وقبّلته. لم يشعر بأيّ شيء، رأى فقط وجهها النقيّ الشفّاف على بعد بضعة سنتيمترات من وجهه.

قالت:

- سيكون هذا بديلًا عن التوقيع. هيّا، عليك الآن أن تنزل. استفد من فرصة اقترابك من الهيئة النجمية العليا!

قبّل يدها بلطف، ورغب في إخبارها بالكثير من الأشياء، ولكنّه لم يعرف من أين يبدأ.

- لن أنسى هذه اللحظة أبد الدهر. حتى وإن تناسختُ، سوف أحتفظُ بهذه اللحظات المذهلة محفورةً في أعماق روحي، أيًا كان جسدي المستعار في المستقبَل.

أشارت عليه بأنه لم يعد لديه المزيد من الوقت ليضيّعه. فاندسّ، متحسّرًا، تحت الطبقة الصخرية للمطهَر، ووصل إلى كهفٍ يشبه تجويف حجر أمانيست الكريم. وجد جميع الجدران مزيّنة ببلورات أرجوانية شفّافة تبعثُ وميضًا مائلًا للزرقة.

كان يوجد في وسطه عرشٌ ضخمٌ من حجر الصوان، يتربّع عليه أحدهم، طيفًا وحيدًا في تلك القاعة الواسعة جدًّا.

تقدّم غابرييل.

طاف حول العرش، ورأى الشـخص الجالس عليـه، وعرفه وتراجع إلى الخلف فجأة، في حركة عبّرت عن دهشته.

صاح مندهشًا:

- *أنتِ؟*

- *سعيدةٌ بلقائكَ، يا غابرييل...*

86. الموسوعة: الأرواح النورانية

إذا كان بعض الأشخاص يقضون حياتهم وهم يتساءلون كيف يمكنهم إبادة أكبر عدد من بني جنسهم، فهناك أشخاصٌ آخرون لا يفكّرون إلّا في مساعدتهم. وسنذكر هنا ثلاثة أشخاص غير مشهورين كثيرًا:

- كانت إيرينا سندلر ابنة وسيطٍ روحي بولوني كرّست حياتها لمساعدة المحرومين. في عام 1942، متنكّرةً في شخصية ممرّضة مكلّفة رسميًّا باقتفاء آثار مرض التيفوس، نظّمت عملية هروب ألف ومئتي طفلٍ يهودي من غيتو وارسو. في عام 1943، انكشف أمرها، فاعتُقِلَت وعُذِّبَت، ولكنّها لم تُفصح قط عن أي معلومة. وبعد أن حُكِمَت بالإعدام، نجحت في الفرار وواصلت مقاومتها النشيطة. في نهاية الحرب، ساعدت الأطفال الذين أنقذتهم في العثور على ذويهم (كانت قد أخفت قائمة أسمائهم في جرّة مخبّأة في حديقة منزلها). ماتت في الثامنة والتسعين من عمرها، معبّرة عن أسفها لعدم تمكّنها من إنقاذ المزيد من الأطفال.

- كان الأسترالي جيمس هاريسون في الثالثة عشرة من عمره حينما اضطرّ للخضوع إلى عملية إزالة إحدى رئتيه. كان يجب أن يُنقَل إليه العديد من ليترات الدم وظلّ راقدًا في المستشفى مدّة ثلاثة أشهر. خلال هذه المدّة، لم يكفّ جيمس عن التفكير بكلّ المتبرّعين الذين يدين لهم بالبقاء على قيد الحياة؛ فقد استولى هذا الدَيْن الأخلاقي على ذهنه. لدى مغادرته المستشفى، قرّر

أنّ يتبرّع، حالما يبلغ سنّ الرشد، بدمه كلّما أمكنه ذلك. والحال أنّ جيمس كان يتمتّع بمولد مضاد نادر، قادرٍ على إنقاذ الأطفال الرضّع الذين يعانون من مرض نظام الزمرة الدموية الريسوسية، وهو أحد أشكال فقر الدم المميت. وهكذا تبرّع أكثر من ألف مرّة بالدم خلال ستين سنة، الأمر الذي أتاح إنقاذ مليوني طفل من الموت. بل إنّ علماء البيولوجيا تمكّنوا بفضل دمه من اكتشاف لقاحٍ مضادٍ للمرض.

– كان شافارش كارابيتيان المولود في عام 1953 أرمينيًا. أصبح بطل العالم للسباحة سبع عشرة مرّة، وبطل أوروبا ثلاث عشرة مرّة، وبطل الاتحاد السوفيتي سبع مرّات، وسجّل أحد عشر رقمًا قياسيًّا عالميًّا. صبيحة السادس عشر من سبتمبر / أيلول عام 1976، بينما كان يمارس رياضته اليومية في الجري مع شقيقه، شاهد حافلةً تنحرف عن طريقها وتسقط في المياه المتجمّدة لبحيرة يريفان. فقد الركاب الاثنان والتسعون جميعهم الوعي تحت تأثير الصدمة. غطس شافارش وتقدّم وسط المياه الداكنة، وعثر على الحافلة على عمق عشرة أمتار، وحطّم زجاجها الخلفي بقدميه، وأُصيب بجروحٍ بفعل شظايا الزجاج، ونجح في انتشال ثلاثين شخصًا قام شقيقه لاحقًا بإسعافهم؛ وقد نجا منهم عشرون شخصًا. وفي أعقاب هذه المأثرة، رقد هو نفسه، منهكًا وجريحًا ومتجمّدًا من البرد، في المستشفى في حالة غيبوبة مدّة خمسة وأربعين يومًا. بعد تسع سنوات من هذه المأساة، وجد نفسه بجوارِ مبنى يحترق، وقد علَق في داخله العديد من الأشخاص. مرّة أخرى، لم يتردّد، وغاص هذه المرّة وسط ألسنة اللهب، في محاولةٍ لإنقاذهم. هنا أيضًا، اضطرّ لأن يقضي عدّة أشهر في المستشفى لكي يتعافى من حروقه. وقد سُمّي كويكبٌ باسمه تكريمًا له.

إدمون ويلز،

موسوعة العلم النسبي والمطلق، المجلّد الثاني عشر.

حدّق فيها الكاتب، وهو لا يزال تحت تأثير الصدمة.

- أعتقدُ أنّك ستتخلّف عن وضع خاتمة روايتك، عزيزي غابرييل.

ساد الصمت.

- وهل تعرف لماذا؟ لأنّ استهلالك كان تحدّيًا من المستحيل التصدّي له.

لم يستطع أن يزيح بصره عنها، وتلعثم:

- لو... لو... لو كنتُ أعلم أنّكِ أنتِ من فعلتِ!

- لقد فعلتُ كلّ شيء حتى لا تفكّر في ذلك مجرّد تفكير.

أمعن النظر في أدقّ تفاصيلها ولم يستطع أن يصدّق، ولكنّها كانت بالفعل هي. لقد عرفها. إنّها السيّدة العجوز النحيلة التي كانت تعتمر قبّعة بيروفية ذات شرابة وردية وتُمشي كلبها البطباط المربوط بسلسلة صبيحة موته. وكان الكلب ينام على ركبتيها، وهو يَشْخِر.

بدت نظرتها، خلف نظّارتيها، خبيثة.

قال غابرييل لنفسه إنّها لا بدّ أن تمتلك حسّ الفكاهة حتى تختار هذا المظهر. هو الذي يرى العالم من الأعلى مأهولًا بملائكةٍ جدّية ذات أجنحة طويلة... يا له من افتقارٍ إلى الخيال في هذا الجانب!

- انهض يا غابرييل. لكي تبدأ، عليك أن تعرف أمرين: أنا اسمي ميتراتون وأنا محبّة للكرة الأرضية. الفكرة، المكان، الشكل، الموقع، اللون... هذا الكوكب على ذوقي أنا.

داعبت كلبها.

- أنا أيضًا لديّ أختٌ توأم. وهي التي فتحت طريق التناسخ الروحي. وأنا من جهتي وضعتُ نظام إدارة الأرواح التي لا تزال تأبى التناسخ الروحي. الهيئة النجمية الدنيا، الهيئة النجمية الوسطى، الهيئة النجمية العليا، المطهَر... كلّ هذا هو أنا.

انحنت انحناءة خشوع واحترام.

- في البداية، كانت غالبية الأرواح ترغب في أن تولد من جديد.

وحدهم المنتحرون والعشّاق كانوا يرغبون في البقاء بالقرب من غلافهم الجسدي القديم. إنّهم يمثّلون في أقصى تقدير...

- 10%؟

- بالضبط. 10% من الأرواح الهائمة و90% من حالات التناسخ.

- إذن، لقد كنتُ على حقّ.

- كان هذا صحيحًا في البداية، ولكن الأمر تطوّر سريعًا.

ارتاح غابرييل لكونه لم يُخطِئ في إعطاء هذا الرقم في روايته *نحن الموتى*، حتى وإن كانت هذه البيانات قديمة بعض الشيء.

أكّدت العجوز ميتراتون، وقالت بنبرة مشوبة بالحزن:

- الآن، الأمر بات معكوسًا تمامًا، يبقى 90% من الموتى كأرواح هائمة وفقط 10% منهم يرغبون في التناسخ. ونتيجة لذلك، سرعان ما تمّ تجاوزنا. ولذلك اضطررتُ لأن أعيّن موظّفين.

نهضت وارتفعت عن الأرض فوق بلورات على شكل مسامير.

- لقد قرأتُ كلّ كتبك، يا غابرييل. ولكن يجب أن أعترف بأنني لم أحبّها كلّها. بدت لي بعضها، دعني أقول، «غير متقنة». وبعضها الآخر خيّبت أملي بحبكتها، ولكن لأنك نشرت الكثير منها، لديّ بالتأكيد كتبي المفضّلة منها. على كلّ حال، لدي الوقت الآن، والقراءة هي إحدى هواياتي المفضّلة.

أنزلت نظارتيها بإصبع.

- ومع ذلك يجب عليّ أن أقرّ بأنك لست كاتبي المفضّل. عدا ذلك، أنا لا أحبّ أسلوبك، فهو جافّ جدًّا. جملك قصيرة جدًّا. تذهب إلى الجوهري مباشرةً دون إتاحة الوقت للقارئ بأن يتجوّل بين مشاهدك. لا تستخدم الكثير من الاستعارات والألفاظ المجازية. ولا تلجأ إلى ما يكفي من اللغة الشعرية. ثمّ الطامة الكبرى في خواتيمك! تبًّا لك، يا غابرييل! كان عليك أن تعتني بمشاهدك الختامية! التخيّل هو نقطة قوّتك ومع ذلك تفتقر خواتيمك غالبًا إلى الجرأة. إنّها مكشوفة لنا مسبقًا! ليست هناك رواية واحدة من بين أعمالك لم أستطع أن أصف بدقّة المشهد الختامي فيها، مع اكتشافاته وإيحاءاته المزعومة.

لم يدرِ غابرييل بماذا يُجيبها، فلزم الصمت، وحاكى إشارة اعتذار.

- ومع ذلك، أنت لست الوحيد الذي تخفق في خواتيمك؛ فغالبية كتّاب روايات التشويق يفشلون في خواتيمهم. فالخاتمة تبقى حاسمة، يا غابرييل. مثل اللحظة التي يُخرجُ فيها الساحرُ الأرنبَ من القبّعة: قبل كلّ شيء لا ينبغي أن يفشل في هذه الحركة!

- أنا آسف. لو أنني كنتُ أعلم أنّ أعمالي تُقرأ من قبل أشخاصٍ مرموقين مثلكِ، لاعتنيتُ بالتأكيد أكثر بخواتيم رواياتي...

- حسنًا، أعترفُ بأنني قاسية بعض الشيء معك. لا تراني إلّا كقارئة متشدّدة ومتطلّبة. ثمّ عليّ بالفعل أن أعترف أنّ هناك رغم ذلك في بعض رواياتك خواتيم ناجحة. ما أحبّه هو عندما يكون الحلّ قد أُعطي منذ الصفحات الأولى، ولكنّ القرّاء يمرّون من أمامه دون أن ينتبهوا إليه. هذا هو تمامًا مبدأ الإلهاء الذي يعتمده السَحَرة في تضليل مشاهديهم.

وضعت كلبها على عرشها واندسّت في قفزةٍ طائرة في كاتدرائيتها المصنوعة من بلورات حجر أمانيست. توجّهت نحو منطقةٍ تعكس صفحات مطبوعة.

- يجب أن أحدّثكَ أيضًا عن انطباعاتي كقارئة «سماوية». عليّ أن أقول إنّ بين كلّ مزاياك، أكثر ما يعجبني فيك هو أنّك... تسلّيني. المرّة التي ضحكتُ فيها عند قراءتي لأعمالك هي عندما تساءل الملازم البجع إن لم يكن شخصية روائية. ماذا يُسمى هذا؟

- التضمين السردي[1].

ضحكت ميتراتون مرّة أخرى حينما تذكّرت قراءتها لهذا المقطع. لامست كوارتز يشبه سطحُه شاشةً مغطّاة بصفحات.

- كما أنني أحببتُ، في المجلّد الثاني، المقطع الذي تهجر فيه حبيبة الملازم البجع حبيبها لأنها بعد مضي عامٍ كامل بلغت رعشتها الجنسية الأولى

1- تقنية في الرواية الحديثة تُفضي إلى بتر مسار الحكاية الأولى وتأجيل نهايتها، فضلًا عن مضاعفة التخييل بتضمين حكاية داخل حكاية. المترجم

وحقدت عليه بسبب ذلك. هذا المشهد... «إنساني» للغاية. لقد أدركت عناصر أساسية لروح معاصريك: إنّهم متناقضون، إنّهم نقيض ما يزعمون. إنّ المراقبة من هنا أمرٌ مسلٍّ، ولكنّه كان أكثر سخرية عندما قرأته عندك.

- شكرًا.

- وحين علِم «الموظّفون العاملون لديّ في العالم اللامرئي» أنني أهتمُّ بك، لم يكفّوا عن غمري بالمعلومات عنك. تحوّلت حياتك إلى مسلسلٍ. أنت تعلم، مثل مسلسلات التشويق التي تسبّب الإدمان على المشاهدة. كانت قراراتك مفاجئة جدًّا، ومبتكرة جدًّا، و... غريبة جدًّا.

عادت ميتراتون إلى الجلوس على عرشها البلوري، وعاد كلبها البطباط إلى وضعيته المفضّلة على ركبتيها.

- لماذا طوّرت موهبتك؟ لأنك عانيت من التوأمة مع أخيك توماس، عانيتَ من الرعاية العقيمة المقدّمة لجدّك، عانيتَ من تسفيه ما كشفته كصحفي، وصولًا إلى حدّ طردك من العمل، وتحقير عملك كروائي. هذا هو كلّ ما جعلك متمرّدًا وملهمًا.

- هل هذا يعني أنّ المرء لا يمكنه أن يُبدع دون معاناة؟

- بلى، ولكن هذا نادر جدًّا. أحد رساميّ المفضّلين، الإنجليزي ويليام تيرنر، كان سعيدًا في حياته الزوجية، وثريًّا، ومشهورًا، ومع ذلك كان يبحث كلّ الوقت عن التجديد، مبدعًا ومُلهمًا.

- لو قيض لي أن أولد من جديد، لتمنّيتُ أن أحظى بهذه الميزة: الإبداع دون ألم.

تركت السيّدة النحيلة ذات القبّعة البيروفية بشرابة وردية صمتًا طويلًا يمرّ وهي تحدّق خلاله في الرجل الواقف أمامها.

وأخيرًا سأل غابرييل:

- مَنْ قتلني؟

- آه، أخيرًا... كنتُ أتساءل متى ستقرّر أن تطرح عليّ هذا السؤال. في النهاية، لهذا السبب سمحتُ لك بزيارتي.

- مَنْ؟

داعبت كلبها البطباط.

- أنا.

لم يستطع غابرييل أن يصدّق أذنيه. مرّة أخرى تركت ميتراتون صمتًا طويلًا يمرّ قبل أن تُردف:

- جاءتني فكرة قتلك من قراءة إحدى قصصك. القصّة التي عنوانها «وفي النهاية يُكتَشَف أنّ القاتل هو أنا». لمرّة واحدة، وجدتُ ليس عنوانك فقط بل وخاتمتك أيضًا ممتازين. حينما قرأتها، قلتُ لنفسي: وماذا لو أنني أنا مَنْ قتلته؟

انفجرت ميتراتون في الضحك.

- هل تتذكّر الحبكة؟ جريمة قتل في غرفة مغلقة، يستحيل الدخول إليها بأيّ طريقة مهما كانت: لا جدران مستعارة، ولا سقف مستعار أو أرضية مستعارة. وفي قصّتك، في النهاية، نكتشف أنّ القاتل كان ملاكًا. أي إنّه شخصٌ مثلي. ففكّرتُ حينذاك بإمكانية انخراطي في هذا النشاط الصغير النموذجي للبشر الأحياء: القتل.

بدت ميتراتون مستمتعة بسردها.

- اِعْلَم أنني لم أفعل هذا إلّا من أجلك. يمكنك أن تعدّ هذا امتيازًا: أن يتنازل أحدهم من الهيئة النجمية العليا للتصرّف مع كائن حيّ هو حدثٌ فريد وأنت منْ استفدتَ من هذا التصرّف.

- ولكن لماذا؟؟

- اضطررتُ لقتلك بسبب مخطوطتك الأخيرة. ***إنسان الألف عام****. لقد اكتشفها الموظّفون الإداريون لديّ وقرأتها قبل أن تنشرها لأنّه اتّضح أنّك وجدتَ بالصدفة أفكارًا كانت إلى حدٍّ ما... رائدة على نحوٍ يتجاوز الحدّ. في الواقع، في هذه الرواية، أنت تتخيّل أنّ عالِمًا يؤسّس مركزًا ينجح فيه في إطالة أمد الحياة باستخدام جينات ثلاثة حيوانات: فأر الخلد العاري، للتغلّب على مرض السرطان وعلى الالتهابات؛ سمندل المكسيك، لإتاحة عمليات زرع الأعضاء واستبدال كلّ الأعضاء التالفة؛ وسلحفاة غالا باغوس العملاقة، لمنع الشيخوخة. هل تتذكّر ذلك؟*

- بالطبع.

- المشكلة هي أن تطلّعاتك في تلك الفترة كانت صحيحة إلى حدّ كبيرٍ. لديك حاليًا جمهور يُقدّر بمليون قارئ للرواية الواحدة. والحال أنّ بين مليون قارئ هناك علماء؛ ويكفي أن يجرّب واحدٌ من بينهم الوصفة كما وصفتَها حتى يتثبّت من أنّ... هذا سينجح! لقد اعتقدتَ أنّك تكتب الخيال العلمي، ولكن من خيالك وتوثيقك فقط وجدتَ إجابات في حين أخفق العلماء الحقيقيون المحصورون في مجال اختصاصهم في استشرافها.

- هذه هي وظيفة الخيال العلمي: توقّع ما سيحدث للعالم قبل أن يتغيّر. لقد وصف جول فيرن الرحلة إلى سطح القمر قبل قرنٍ من إنجاز تلك الرحلة!

- نعم، ولكن هذا لم يغيّر جوهريًا مغامرة نوعه، هو لم يفعل سوى مواكبة حركة كانت قد بدأت أصلًا، في حين أنّك ذهبت بعيدًا جدًّا. يصل حاليًا متوسّط الأعمار في أوروبا إلى ثمانين عامًا. ويتزايد عدد المعمّرين الذين يبلغون مئة عام من العمر أو أكثر، وتتحرّك البشرية بهدوء نحو عشرة مليارات نسمة. وهذا هو الميل الطبيعي الذي نسعى إلى كبحه. وأنت تقترح صراحة إطالة أمد الشيخوخة.

- هذه ليست سوى رواية، هذا مجرّد خيال.

- نعم، ولكن أعيدُ وأكرّر: إذا ما جرّب أحدهم وصفتك، سوف يكتشف أنّ هذه الوصفة ستنجح وسوف يؤسّس بالفعل مركز «ينبوع الشباب» الذي تصفه. وبالتالي، سوف يتزايد عدد المعمرين البالغين مئة عام من العمر أو أكثر وسط الأكثر ثراءً في البداية، ثمّ ستُعمّم هذه الظاهرة وتصبح ديمقراطيةً. وسوف ننتقل من متوسّط العمر البالغ ثمانين عامًا إلى الأمل في أن يصبح هذا المتوسّط مئة عامٍ. ثمّ ليبلغ مئتي عامٍ. وعندئذٍ، وخلال عشرات السنين فقط، سوف يتضاعف عدد البشرية وينتقل من عشرة مليارات إلى عشرين مليار نسمة. والحال أنّ الكوكب ليس قابلًا للتوسيع، وموارده ليست بلا حدود. عشرون مليار نسمة يعني عشرين مليار فمٍ مفتوحٍ يجب إطعامه، عشرين مليون من المستهلكين الإلزاميين. وسوف يحتاج البشر إلى المزيد من

البلاستيك والمزيد من النفط والمزيد من اليورانيوم، والمزيد من الخشب، والمزيد من الهواء، والمزيد من الماء. وهذا يعني أننا سوف نُهدر الثروات الطبيعية: سوف تتلوّث المحيطات، ويغدو الجوّ غير صالح للتنفّس، وتُبادُ الغابات، وتنقرض كلّ أشكال الحياة البرّية، وسوف تتحوّل الكرة الأرضية قريبًا إلى كوكبٍ مُستَنزَف.

– بسبب روايتي؟!!!

– بسبب آرائكَ التي تأتي سابقة لأوانها بكثير...

تنهّدت تنهيدة خيبة أمل.

– عندما يتزايد عدد البشر على الكرة الأرضية على نحوٍ مبالغٍ فيه، يجب علينا أن «نعوّض». هذا يعني تشجيع اندلاع حروب عالمية وانتشار الأوبئة، وحدوث الزلازل. يغدو كلّ هذا ضروريًا لتشتيت هذا القطيع البشري الذي غدا كبيرًا للغاية.

– تسمّون هذا «تشتيتًا»؟

– يبدو أننا وحدنا نحن هنا ندرك أنّ الانفجار السكاني هو أسوأ خطر يُحدق بالبشرية والكوكب. وأنت، غير مدركٍ، وفي الوقت الذي كنتَ تعتقد أنك تكتب رواية بسيطة، كنتَ على وشك أن تقترح منهجًا لتسريع هذا الخطر!

– لم أفكّر قط في هذا.

– لحسن الحظّ استطعنا أن نتدخّل في الوقت المناسب.

– وخطّطتم للقضاء عليّ...

– ما كان يجب أن تُنشَر رواية **إنسان الألف عام** على نحوٍ خاصّ.

– ما الذي فعلتموه لقتلي؟

وضعت السيّدة العجوز ذات القبّعة البيروفية كلبها من جديد على ركبتيها.

– كنت قد أخبرتَ الدكتور لانغمان أنك لا تريد أن تموت مثل جدّك، وأنك لو امتلكت الخيار لتمنّيت أن ترحل دون ألم أثناء نومك. فحقّقنا لك أمنيتك.

- وبطريقة عملية؟

- في المرحلة الأولى، اكتشفنا أنّ غيسلين مُسَرْنمة، وهو ما كان يعني بالنسبة إلينا أنّه من الممكن التأثير عليها.

- غيسلين؟ تقصدين مساعدة كراوس؟ لهذا السبب كان جدّي إينياس قد سمِعَ أنّ امرأةً هي وراء مقتلي...

- في المرحلة الثانية، قامت غيسلين، التي تلاعبنا بها، في الليل لكي تتّصل عبر حاسوبها بملفّات المرضى. فتحت ملفّك وعدّلت فيه البيانات. كتبت مستوى من علامات الورم يُشير إلى أنّك تعاني من سرطانٍ عضال سريع الانتشار. سُلِّمت الوثيقة إلى كراوس الذي لم يقرأها وإنّما حوّلها إلى الدكتور لانغمان. وهو الذي قرأ الوثيقة. وحالما اكتشف درجة خطورة مرضك، اتّخذ القرار الذي كنت أتمنّاه: وضع حدًّ لحياتك قبل أن تعيش أهوال احتضارٍ طويل. ولأنّ لديه مستحضرات كيميائية معقّدة، فقد ركّبها لكي يمنحك الموت الأكثر راحةً: أثناء نومك، دون حتى أن تشعر بذلك.

- متى تصرّف؟

- وضع المزيج المميت في كوبك من الشمبانيا مساء عيد ميلادك. وقد شربتَ الكأس في نفس اللحظة التي غرزت فيها أسنانك في أوّل لقمة من الكاتو. ثمّ تغلغلت المادة تدريجيًا في أعضاء جسدك، وأتعبتك، ومنحتك الرغبة في النوم؛ فنمتَ، وحلمتَ، وتوقّف قلبك تدريجيًا ولم تستيقظ بعد ذلك. هذه هي الطريقة التي «أنا» قتلتُكَ بها.

هزّ غابرييل ويلز رأسه، محاولًا أن يستوعب كلّ هذه المعلومات.

- ولكن لماذا إذن صادفتُك صباح اليوم التالي في الشارع قبل أن أكتشف أنني ميّت؟

- أنا من هواة السينما. هذه كانت فقط حركة هيتشكوكية، يُظهرها دائمًا على نحوٍ قصيرٍ وخاطف في أفلامه. اخترتُ هذه الهيئة لأنني قرأتُ في ذهنك أنّها الهيئة التي ستبدو لك على الدوام الأكثر بعدًا عن الشبهة. من سيتصوّر أنّ السيدة العجوز النحيلة ذات القبّعة البيروفية هي... المفتاح؟

اقترب منها.

- وماذا عن إتلاف المخطوطة؟

- لقد تصرّفنا مع أخيك عبر الأحلام. وقد نجحت خطّتنا. لحسن الحظّ، رغم أنّ أخاك يزعم أنّه عالِم وديكارتي، ولكنّه يتأثّر كثيرًا بأحلامه.

ضمّ غابرييل ويلز ساقيه في وضعية زهرة اللوتس وارتفع عن الأرض قبالة ميتراتون.

- إذن، لقد قتلتموني لأنّ البشرية كانت مهدّدة بسببي بأن تشهد امتدادًا خطيرًا في أملها بالحياة؟

- وبالتالي تشهد نموًّا سكانيًّا سريعًا وخارج السيطرة. الآن وقد عرفتَ سبب قتلك، هل تفهمني؟

أدار غابرييل رأسه، ونظر إلى البلورات الأرجوانية التي تبطّن هذا الكهف الغريب في جوف كوكبٍ مجهول. وغاص بنظرته في نظرة هذه السيّدة العجوز التي بدت مفعمة بالطيبة.

88. الموسوعة: الإنسان غير الواعي

إذا كان الدكتور إينياس سيميلفيس، من الناحية الموضوعية، الكائن البشري الأكثر إحسانًا إلى بني جنسه من خلال اقتراحه على الأطباء غسل اليدين قبل توليد النساء، حيث أتاح هذا الاقتراح تجنّب الكثير من حالات وفاة الأطفال، فإنّ توماس ميدغلي هو على الأرجح الكائن البشري الأكثر إضرارًا ببني جنسه... دون أن يعلم ذلك.

كان توماس ميدغلي كيميائيًّا أمريكيًّا، لم يكن يطمح في البداية إلّا إلى إسداء المعروف للبشرية.

في عام 1911، وُظِّف من قبل مختبرات شركة جنرال موتورز، التي كانت تبحث آنذاك عن وسيلةٍ لتخفيف ضجيج محرّكات الاحتراق. اكتشف ميدغلي أنّ إضافة الرصاص إلى البنزين تجعل المحرّكات تدور بطريقة أكثر سلاسة. فحوّلت الشركة المتعددة الجنسيات الشهيرة هذا الوقود الجديد إلى وقودٍ تجاري وأغرقت به السوق

بملايين الليترات. ولكن ما كان يجهله هو أنّ المنتوج الذي اكتشفه سامٌّ بدرجة عالية. والأدخنة الناتجة عن عوادم السيارات تسمّم الجوّ. ولم يتأخّر تأثّر ألوف البشر عبر العالم بنتائج هذه السموم، بدءًا من عمال شركة جنرال موتورز وميدغلي نفسه.

ولكنّ الكيميائي لم يقف عند هذا الحدّ: بعد البنزين المخلوط بالرصاص، قرّر في نهاية أعوام العشرينيات من القرن العشرين، أن يعكف على مشكلة أخرى، وهي مشكلة الغازات السامّة التي تحتوي عليها ثلاجات تلك الفترة، والتي تسبّبت انبعاثاتها بوفيات عديدة. ولاستبدال تلك الغازات، اخترع الفريون، أوّل مركبات كلوروفلوروكربون (CFC)، ولكي يبرهن على أنّ هذه المادة الثورية عديمة الخطر، راح الكيميائي إلى حدّ استنشاقها أمام الملأ. ولم تُعرَف الآثار الحقيقية للكلوروفلوروكربون إلّا في أعوام السبعينيات من القرن العشرين، حينما اكتُشِفَ ثقبٌ كبير في طبقة الأوزون. بحسب المؤرّخ جاي ر. مكنيل، يفوق ضرر توماس ميدغلي على الغلاف الجوي ضرر أيّ كائن حيّ في تاريخ البشرية. مات في عام 1944، حينما ارتدّت عليه في النهاية عبقريته المدمّرة من غير قصد: لأنّه كان مصابًا بشلل الأطفال، صنع نظامًا معقّدًا من البكرات ليستخدمه في الخروج من سريره على نحوٍ أسهل؛ وقد وجِدَ مخنوقًا بأسلاكه.

اضطرّ العالم للانتظار حتى أعوام العقد الأخير من القرن العشرين لكي يُسحَب الوقود الممزوج بالرصاص من السوق، بعد أن تمّ قياس وإثبات ضرره الكارثي على البيئة.

إدمون ويلز،
***موسوعة العلم النسبي والمطلق*، المجلّد الثاني عشر.**

-89-

أصبح غابرييل ويلز في المَطْهَر وفكّر وسط بلورات حجر الأمانيست.

قالت له ميتراتون:

- لقد صعدتَ لكي تعرف الحقيقة بشأن موتك، والآن عرفتها، يا غابرييل. وقد أخبرتَ لوسي أنك سوف توافق بعد ذلك على أن تتناسخ. حان الوقت بالنسبة إليك لكي تُكمل بقيّة الرحلة. كلّ ما يمكنني أن أضمنه لك هو أنني سوف أمارس تأثيري بأفضل ما يمكنني لكي تستطيع أن تكون، في تناسخك المقبل، روائيًا أيضًا. وهذا سوف يُتيحُ لي أيضًا أن أواصل قراءة قصصك، ولن أتوانى عن مقارنتها مع قصص تناسخاتك السابقة. بحسب رأيي، سوف تَضع أفضل الخواتيم لرواياتك في حياتك المقبلة.

- ولكن سيكون عليّ أن أعيش مرحلة الطفولةِ من جديد!

- طبعًا. وما المشكلة في ذلك؟

- عدم القدرة على المشي، وتناول العصيدة، وتلقي الصفعات على الأرداف، والملابس الضيّقة جدًا، والوالدان اللذان لا يفهمان شيئًا ويفرضان رؤيتهما للعالم عليّ، والدرجات المتدنّية في المدرسة، والمعارك في ميدان التناسخ...

- هذا ضروري لكي تنمّي شعور التمرّد الذي سوف يغذّي عملك الأدبي. إذا كانت فتوّتك سهلة للغاية، فلن تصبح رافضًا ومتمرّدًا.

- ولكن ليس مؤكّدًا أنني سأُدرك في ذلك العمر أنه يجب أن أصبح كاتبًا!

- في الحقيقة، سوف تكون على الدوام صاحب إرادتك الحرّة.

بعد لحظةٍ من التفكير، انتهى غابرييل إلى القول:

- كلا.

- كلّا، ماذا؟

- أنا أرفض أن أتناسخ.

- هذا شيءٌ آخر!

- أريدُ أن أواصل حياتي كغابرييل ويلز.

عبست ميتراتون؛ بدا محدّثها مقتنعًا بحقّه المشروع. أردف:

- وماذا لو راجعتُ نسختي من الرواية وأعدتُ فيها النظر؟ إذا ما وضعتُ في رواية إنسان الألف عام معلومات أقلّ وضوحًا ودقّةً، في طبعة

تحت رقابة الهيئة النجمية العليا، بحبكةٍ رومانسية جدًّا، مع الكثير من الإثارة والمشاعر، طبعة تفسح حيّزًا ضيّقًا للتطوّرات العلمية في حدّ ذاتها، والتي تُخفّض إلى الحدّ الأدنى؟ سوف أكتفي بالقول إنّ مجموعةً من العلماء قد أجرت عمليات تلاعب بالجينات، دون إعطاء المزيد من الإيضاحات. في النهاية، سأقول إنّ تجربة إطالة أمد الحياة قد فشلت، وهذا سوف يُثبّط عزيمة الذين سيحاولون استنساخ التجربة الموصوفة في الكتاب.

من جديد، أنزلت السيّدة العجوز نظارتيها بنظرة ارتيابية، لكنّ غابرييل واصل حديثه:

- ستكون حكاية فشلٍ ذريع: سوف أبيّن أنّ الفريق الذي أراد إطالة مدّة متوسّط أعمار البشر لم يفشل في ذلك فحسب، بل أدرك أنّ هذه الفكرة سيّئة وغير صالحة. وسوف تكون الرسالة هي: «من الأفضل أن يعيش المرء حياةً قصيرة جيّدة، بدل حياةٍ طويلة مضمونها تعاقب أيامٍ لا طعم لها».

ظلّت ميتراتون لامبالية، في حين تثاءب الكلب البطباط ملء شدقيه.

أضاف غابرييل:

- بعد قراءة رواية **إنسان الألف عام**، *لن يعود القرّاء يرغبون حتى في العيش في شيخوخة!*

شعر الكاتب بأنّه يُلقي الخطبة الأهمّ التي يضطرّ لارتجالها على الإطلاق. بحث عن كلماته، التي كانت تخرج في العادة بسرعةٍ من فمه، وغمغم:

- لا بدّ أن يعيشوا بشكلٍ مكثّف وبوعي. وسوف يرغبون في المقام الأوّل في أن يكونوا نافعين للآخرين وللكوكب. وخاصّة للكوكب.

ضمّت ميتراتون ساقيها في وضعية زهرة اللوتس. فكّرت وقتًا طويلًا ثم قالت أخيرًا:

- اتّفقنا.

- هل وافقتِ؟

- نعم، خاصّة لأنني لستُ متأكّدة من أنّ ما سوف تكتبه في تناسخك الروحي المقبل سوف يضحكني مثلما يضحكني ما كتبتَه حتى الآن.

- أعدكِ بأنْ لا أنسى أبدًا وعدي لكِ. سوف آخذ دائمًا بالحسبان تأثير كتبي على قرّائي.

- عليك ألّا تركّز على الهيمنة البشرية التي ستؤدّي إلى إبادة كلّ الأجناس الأخرى ونضوب المواد الأوّلية. الإنسيّة كانت مناسبة لعصر النهضة، أمّا الآن، فيجب الانتقال إلى شيءٍ مختلف. هل اتّفقنا؟

- نعم.

- من الآن فصاعدًا، سأكون أنا بطريقة ما محرّرة أعمالك! يجب أن تحتوي على الكثير من الإثارة وعلم النفس، والشخصيات والحبكات الغرامية، والتشويق، والقليل من الروحانية (ليس كثيرًا حتى لا تتحوّل إلى مجنونٍ)، وخاصّة القليل من العلم الفعّال، بل وغيابه كليًا!

- بل أتساءل إن كنتُ سأذكر وجود سمندل المكسيك، الذي يجهله معظم الناس.

- لا تذكر سمندل المكسيك.

- ولن أتحدّث أيضًا عن فأر الخلد العاري أو عن سلحفاة غالاباغوس. وسيكون علاجي قائمًا على الأسبرين.

- وكذلك لن يكون في وسعك الإشارة إلى ما اكتشفته هنا في كواليس العالم غير المرئية. وبالتأكيد لن يكون في وسعك كذلك الحديث عنّي.

قال غابرييل، محاولًا كسب الوقت:

- على أيّ حال، حتى إذا فعلتُ ذلك، لن يصدّقه أحد. إنّ القول بأنّ سيّدة قصيرة القامة مع كلبٍ تجلس فوق هرمية الأرواح يفتقر إلى المصداقية.

انفجرت ميتراتون في الضحك.

- هذا صحيح... سوف يعتقد الناس أنّ هذا ضربٌ من الخيال.

- كان شعاري على الدوام هو: «فليفهم منْ يستطيع ذلك».

بدت ميتراتون سعيدة ومستمتعة.

- بعد أخذ كلّ شيء بالاعتبار، أسمح لك بذكر بعض العناصر التي عشتَها بالفعل.

- حتى وصولي إلى هنا؟

- في نهاية المطاف، أحبّ كثيرًا فكرة أن يعتقد القرّاء أنّ هذا ضربٌ من الخيال عندما تقول الحقيقة.

- يمكنني إذن أن أتكلّم حتى عنكِ؟

- ربّما سيمنح هذا الناسَ الرغبةَ في أن يكونوا أكثر لطفًا مع السيّدات المسنّات صاحبات كلبٍ صغير... على كلّ حال، أعتقدُ أنّه من المفيد أن ينتاب قراءَك الشعورُ الغامض بوجود شيءٍ آخر في الأعلى. ولكن ليس أكثر من هذا. أكرّر عليك القول، أنا أفضّل الديكارتيين على المؤمنين بالخرافات أو الصوفيين! أفضّل أتباع هوديني على أتباع دويل! أيقظ لدى قرائِك الشعور بالغموض. بحسب رأيي، هذا هو الشيء الأكثر قيمةً. ولكن، إذا توصّلت البشرية في أيّ وقتٍ من الأوقات بسببك أنت إلى زيادة متوسّط عمرها، فسوف أحوّل طلبك هذا إلى ندمٍ عظيم. لقد سبق أن فعلتُ ذلك مع أوبنهايمر، الذي أراد أن يتحكّم بالطاقة النووية دون تحمّل عواقبها.

- يمكنني إذن أن أواصل حياتي كغابرييل ويلز؟

- جسدك الذي تعفّن في مقبرة بير لاشيز لا يمكنه بالتأكيد أن يحيا من جديد. سوف تبقى روحًا هائمة. ويقعُ على عاتقك أنت أن تجد جسدًا قادرًا على أن يفهمك ويترجم أفكارك. أعتقدُ أنّك ستختار شقيقك، الآن وقد اخترع نيكروفونه. لقد منعتُ عليه الإفصاح لعامّة الناس عن وجود هذا الجهاز، ولكن يمكنه استعماله بشكلٍ خاصّ طالما أنّ لا أحد يعرف ذلك.

حدّقت فيه بحدّة.

- هل لك أن تتخيّل ما الذي قد يحدث لو أنّ النيكروفونات تُباع بحريّة في المتاجر مثل الهواتف؟ كانت كلّ الأرواح الهائمة الضجرة (وهي جميعها ضجرة) ستُسرع إلى التحدّث مع الأحياء. كان من شأن ذلك أن يصبح مهرجانًا للأشخاص المزعجين... ليست لديك فكرة عن خسّة وتفاهة أغلبية الموتى! إذا أشاع شقيقك نيكروفونه، سوف تُتاح لجميع الإكتوبلازمات فرصة التعريف بنفسها، وسوف تُعرّض نفسها عندئذٍ لخطر إفشاء أسرارٍ خطيرة، ومن شأن هذا خلق المزيد من المشكلات للأحياء.

انفجرت ميتراتون في نوبة ضحكٍ جديدة.

- هيّا إذن يا غابرييل وتدبّر أمرك في جعل شقيقك كتومًا... وإلّا سأضطرّ لقتله كما قتلتُكَ.

- سوف أمرّر إليه الرسالة عندما يعاود الاتّصال بي. ومع ذلك، مع فائق احترامي لك، أنا لا أنوي اللجوء إليه ولا إلى نيكروفونه. أفضّل المرور عبر جولي. هي أيضًا يمكنها سماع صوتي. سوف أُملي عليها نسختي الجديدة من رواية إنسان الألف عام *وسوف تتكفّل هي بنقلها إلى ناشر أعمالي.*

- الخيار خيارك. حسنًا، ماذا تنتظر؟ لقد أمضيتُ معك الكثير من الوقت. لستَ الوحيد الذي ينبغي لي الانشغال به. اذهب الآن واكتب روايتك. ومن فضلك، من أجلي أنا فقط، ضع لها نهاية مفاجئة بعض الشيء، اتّفقنا؟

شعر الكاتب بأنّ شعورًا عارمًا بالامتنان يغزوه.

من الآن فصاعدًا، أصبح يعرف، ويستطيع أن يتحرّك. نظر إلى ميتراتون التي غمزته غمزة خفيفة قبل أن تضع إصبعها على شفتيه: لا تفتح فمك بكلمة واحدة.

- شيءٌ أخير: لديّ استهلالٌ أقترحه عليك. يمكن أن يبدأ البطل بالقول: «ما الذي تعلّمتَه من حياتك الماضية؟»

-90-

استيقظت لوسي فيليبيني.

مسّدت كتفيها بسرور، ولامست ذراعيها ويديها وفخذيها ومرّرت يدها بين شعرها وتلت تعويذتها الصباحية.

نهضت ورأت اللافتة معلّقة على الجدار:

«على المرء أن يُمتّع جسده ويُريحه
كي ترغب روحه في البقاء فيه».

فمارست بعض تمارين الرشاقة وكمال الأجسام وهي تُصغي في الوقت

نفسه إلى ألبوم فرقة (ديد كان دانس - الأموات يستطيعون أن يرقصوا)، ثمّ أجرت حركات اليوغا: تحيّة الشمس ووضعية القطّة.

وبعد أن استحمّت، ارتدت ثيابها الأكثر تنوّعًا بالألوان: فستانٌ مشقوق أحمر اللون بياقةٍ عريضة، وقلادة مزيّنة ببجعة سوداء، وحذاء بكعبٍ عالٍ وصباغٍ أحمر. غادرت شقّتها.

بعد مضي بضع دقائق، أصبحت أمام مبنى منشورات فيلانبروز.

طلبت أن تُقابل ألكسندر، الذي استقبلها على الفور.

- تزدادين جمالًا، يا آنسة فيليبيني. في كلّ مرّة أراكِ، تتسارع نبضات قلبي وتزداد قوّة.

قبلت المجاملة بإيماءةٍ متحمّسة من رأسها وانتقلت إلى الموضوع الذي يهمّها.

- لديّ خبرٌ سارّ وآخر سيّئ. أيّهما تريد أن تسمع أوّلًا؟

- السيّئ.

- سيكون عليك التخلّي عن برنامجك غابرييل ويلز. لقد عفا عليه الزمن ولا يُعجِب الروح الهائمة لغابرييل ويلز الذي لا يُريدُ أن يُبتَذَل فكره بآلتك.

لم يحاول ألكسندر دي فيلانبروز حتى أن يُعارضها.

- وما هو الخبر السارّ؟

- كوسيطة روحيّة، يمكنني أن أخبرك أنّ الروح الهائمة لغابرييل ويلز تشعر بأنّها مستعدّة لأن تكتبَ بنفسها نصَّ رواية *إنسان الألف عام*.

رفع حاجبيه دهشةً.

- وكيف يمكن لهذه المعجزة أن تحدث؟

- سوف يستخدمني كناسخة ويُملي عليّ الرواية من مكانه في دهاليز الليمبو. سوف يكون «غابرييل ويلز» الأصلي، وسوف تتعرّف على أسلوب كتابته، وكذلك القرّاء.

- إذا صدّقتُ أنّكِ تقولين الحقيقة، كيف سأتمكّن من تقديم هذا للجمهور؟

- سوف توهِم الناس بأنّ برنامج غابرييل ويلز الافتراضي لشركة الروح

الخالـدة هـو الذي كتب الرواية. وسـوف يعتقد الجميـع أنّ برنامجك عمليٌّ بالفعل، وهذا أمرٌ جيّد بالنسبة إليك.

سعل الناشر سعالًا خفيفًا ومنح نفسه القليل من الوقت للتفكير.

– هذا يذكّرني بقصّة لإدغار بو، «لاعب الشطرنج لصاحبه مايلزل».

نظر إلى المرأة الشابّة ولم يعد يخفي حماسته.

– أنـتِ فعـلًا شـخصيّة اسـتثنائيّة، يا آنسـة فيلييني. كلّما عرفتـكِ أكثر، زاد إعجابـي بـكِ. الرواية المكتوبة من قبل برنامـج غابرييل ويلز الافتراضي منجزة الآن. لقد قرأتها. وسوف أخبركِ الحقيقة: إنّها سيّئة للغاية ولا تساوي شيئًا. لم يتمكّن نظام الذكاء الاصطناعي من إيجاد السرّ الذي يُضفي كلّ هذه الأهمية لروايات غابرييل ويلز ويميّزها عن سواها.

– أهو «القليل من الموسيقى»؟

– بالأحـرى، «القليـل مـن الجنون»... بحسـب رأيي، ويلـز عبارة عن كتلة من الاضطرابات العصبية والتشـوّهات النفسـية التي لا يستطيع أيّ نظامٍ للـذكاء الاصطناعي المعلوماتي أن يُحاكيهـا. إنّ نقاط ضعفه هي التي تصنع تميّزه. برنامج غابرييل ويلز الافتراضي يكتب تلقائيًّا حبكات مُحكَمة، مقدّمة بأسـلوبٍ ذي ذخيـرة لغوية أكثـر ثراءً بكثيرٍ من أسـلوب غابرييـل الحقيقي. ولكن كلّ هذا خاصّ جدًّا.

انحنت لوسي إلى الأمام.

– إذن... هل توافق على أن نعمل معًا، يا ألكسندر؟

– هناك سؤالٌ صغيرٌ وبسيط وعمليّ: مع من سأتفاوض بشأن العَقد؟

– معي أنا، ولكنّ غابرييل سيعيد قراءته من فوق كتفي، بكلّ تأكيد...

تصافحا، وقد أدرك كلاهما أنّ شيئًا جديدًا تمامًا سـوف يحدث في عالم النشر.

91. الموسوعة: لاعب الشطرنج لصاحبه مايلزل

في عام 1770، قدّم المهندس الهنغاري فولفغانغ فان كمبلن لبلاط الإمبراطورية النمساوية رجلًا آليًّا قادرًا على أن يلعب الشطرنج. كان

الرجل الآلي على شكل خزانة كبيرة من خشب القيقيب تعلوها رقعة شطرنج مُثبّتة عليها دمية. وكانت الدمية ترتدي عمامة وعباءة من الفراء؛ وتُحيطُ بفمها شوارب كثيفة وسميكة سوداء؛ وتُمسك يدها اليسرى بغليونٍ، في حين تبقى ذراعها اليمنى موضوعةً على الطاولة، جاهزةً للعب. وتحتوي الأبواب الثلاثة للخزانة على مجموعة من التروس التي تتحرّك عندما يقوم اللاعب بالحركة.

وكان كمبلن قد أطلق على رجله الآلي هذا اسم «التركي». زعم أنّ آلته لا تجيد لعبة الشطرنج فحسب، بل تقهر أفضل اللاعبين في العالم، وهو التصريح الذي جلب له السخرية والتجريح.

خلال عرضه الأوّل في بلاط النمسا، فاز الرجل الآلي على كلّ منافسيه ولعب بسرعة كبيرة بحيث لم تتجاوز مدّة أيّ مباراة نصف ساعة. وعندما حاول أحد اللاعبين أن يقوم بحركة ممنوعة في قوانين الشطرنج، هزّ التركي رأسه في إشارةٍ إلى الاستنكار وأعاد القطعة إلى مكانها، ممّا ساهم في إظهار الطبيعة المذهلة لهذه الخدمة المقدّمة.

في عام 1783، قاد كمبلن رجله الآلي في جولة عبر أوروبا. وقد فاز بشكلٍ منهجي على كلّ اللاعبين، بمن فيهم الأكثر شهرةً. فقط في باريس هُزِم التركي من قبل اللاعب أندريه فيليدور، الذي كان يُعدّ أفضل لاعب في العالم. بيد أنّ فيليدور اعترف بأنّ تلك المباراة كانت الأصعب التي خاضها طيلة حياته المهنية. لقد فاز التركي حتى على اللاعب بنجامين فرانكلين، الذي كان آنذاك سفيرًا للولايات المتّحدة الأمريكية في باريس.

خلال جولته الأوروبية، سمح كمبلن لبعض العلماء بفحص آلته، ولكن لم يستطع أيّ منهم اكتشاف سرّ نجاحه. بعد جولته، أودِع التركي في قصر شونبرون قرب فيينا. حينما غزا نابليون النمسا، أراد أن يلعب مباراة شطرنج ضدّه. هُزِم الإمبراطور في المباراة.

حينما مات كمبلن، باع ابنه الرجل الآلي للموسيقار الألماني يوهان مايلزل الذي يعود إليه الفضل في اختراع بندول الإيقاع.

وقد طوّر هذا الأخير آليّته - بات التركي يحرّك عينيه ويفتح فمه لكي يلفظ كلمة «شطرنج» - وقام معه بجولةٍ أخرى في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا التي واجه فيها تشارلز بابيج أحد أفضل علماء الرياضيات في عصره. فرّ مايلزل، المُثقَل بالديون، مع آلته إلى الولايات المتّحدة الأمريكية، حيث واصل عروضه مع التركي. واجه هناك بعض الرجال الآليين الآخرين من لاعبي الشطرنج ونجح في الفوز عليهم جميعًا. في عام 1836، استلهم إدغار بو هذه الشخصية ليكتب قصّةً، «لاعب الشطرنج لصاحبه مايلزل». قضى التركي أخيرًا خلال حريق المسرح الوطني في فيلادلفيا. وقد زعم بعض الشهود أنّ التركي، وهو يحترق، نطق مرّات عديدة كلمة «شطرنج».

اكتُشِف سرّه في عام 1857 من قبل سيلاس ميتشل، ابن آخر مالكي الآلة. اعترف أنّ الخزانة كانت مزوّدة بقاعٍ مزدوج يختبئ فيه لاعب شطرنج صغير الحجم كان يحرّك ذراع التركي بفضل نظامٍ معقّدٍ من القضبان والعتلات. وكان يتمكّن بذلك من الإمساك بقطعة شطرنجٍ وتحريكها من مكانها. وكان أوّل من يشغل الخزانة ضابطٌ بولونيٌّ مبتور الساقين بسبب الجروح التي أُصيب بها في الحرب؛ وقد تعاقب فيما بعد خمسة عشر لاعبًا على أخذ مكانهم في القاع المزدوج للخزانة خلال السنوات الأربع والثمانين من عمل التركي. كانت الصعوبة التي يواجهها كمبلن والمالكون الآخرون هي العثور على عباقرة في الشطرنج من صغار الحجم لا يُجازفون بكشف سرّهم.

وكان لا بدّ من الانتظار حتى عام 1997 لكي يهزم حاسوبٌ - ديب بلو - بطلَ العالم في الشطرنج، الروسي غاري كاسباروف.

إدمون ويلز،

موسوعة العلم النسبي والمطلق، المجلّد الثاني عشر.

-92-

قفزت القطط برشاقة من أثاثٍ إلى أثاث. حكّت قطّةٌ سوداء برأس مخالبها داخل أذن هريرة هزّت رأسها. ومضغت قطّة برتقالية صفحة من مجلّة بيبول. وراقبت قطّتان أخريان عبر النافذة حركة ذهاب وإياب الطيور.

عادت لوسي فيليبيني من موعدها. تجرّدت من ملابسها وهي تدندن بأغنيةٍ، وارتدت رداء الحمام وجلست في أريكةٍ.

سأل غابرييل، بنفاد صبر:

- إذن، ماذا قال؟

- لقد منحك كلّ ما طلبته.

أحسّ غابرييل بالارتياح.

- بينما كنتِ عند ناشري، كنتُ عند أخي وأقنعته بألّا يكشف للعلن وجود نيكروفونه. وقد شرحتُ له التحدّيات، وقد فهم. كانت المشكلة تكمن في إديسون.

- لا أحبّ هذا الرجل.

- هل كنتِ تعلمين أنّ كرسيّه الكهربائي لم يكن يعمل جيّدًا وأنّ أوائل مَنْ اختبروه تلقّوا عشرات الشحنات الكهربائية قبل أن يستسلموا أو يحترقوا وهم أحياء؟ ليس هذا فحسب، بل إنّ شقيقي أخبرني أيضًا أنّ إديسون اعترف له بأنّه قد سرق براءات اختراعاته من نيكولا تسلا الذي أراد أن يقدّمها مجّانًا للجمهور.

- وهل تحدّثت معه عن قتلك؟

- لم يعد هاجس موتي يستولي عليّ. من الآن فصاعدًا، سوف أعدّ هذا مرحلةً ضرورية لتطوّر ذهني.

- ومع ذلك، يبقى أن يُقتَل المرء على يد أحد أفراد الهيئة النجمية العليا هو أكثر رقيًّا بكثير من الموت بسبب سرطان البروستاتا في دارٍ لرعاية المسنين والمحتضرين.

- ومع ذلك، لو كان الخيار لي، لآثرتُ أن أبقى على قيد الحياة.

- حسنًا، لم أجرؤ على أن أسألك عن ذلك، ولكن في العالم العلوي... ماذا رأيت؟

- «هم» طلبوا منّي ألّا أتحدّث عن ذلك. كل ما يمكنني إخبارك به هو أنّ الأمر المهمّ حينما نموت هو أن نتذكّر كلّ ما تعلّمناه.

نهضت وتوجّهت نحو النافذة، منزعجة من عدم الثقة هذا.

- وماذا تعلّمتَ على وجه التحديد؟

عدد غابرييل لها القائمة:

1. *الحياة البشرية قصيرة ومن مصلحتنا الاستفادة من كلّ ثانية منها.*
2. *نحن نحصد ما زرعناه بأنفسنا. يستطيع الآخرون أن يحاولوا التأثير علينا، لكن نحن منْ يتّخذ القرارات ونحن من يتحمّل مسؤولية نتائجها.*
3. *ليس بالأمر الخطير أن يفشل المرء، بل على العكس من ذلك هذا يساهم في بناء شخصية الفرد لأنّ كلّ فشل يعلّمنا شيئًا ما.*
4. *لا يمكننا الطلب من الآخرين أن يحبّونا، فهذا عملٌ يقوم به المرء بمفرده، ومن تلقاء نفسه.*
5. *كلّ شيء يتحرّك، ولا ينبغي أن نحاول إيقاف أو حجز أحد أيًا كان، لا الأشياء، ولا الحيوانات، ولا البشر.*
6. *علينا أن نقدّر ما لدينا بدلَ الرغبة في ما ليس لدينا. كلّ حياة هي فريدة وممتازة بطريقتها الخاصّة، ولا داعي لمقارنتها بحياة أخرى، يجب فقط محاولة تحقيق أقصى استفادة منها.*

قالت ممازحةً:

- أخبرني إذن، هل بصعودك إلى الهيئة النجمية العليا أصبحت فيلسوفًا؟ إذا كان هذا صحيحًا، انتهى أمرنا! أتمنى فقط أنّك لن تطلب منّي إدراج هذه الأفكار المجنونة في رواياتك المقبلة!

-93-

انتصف الليل.

نامت لوسي، تدحرجت بعض القطط الدافئة والمُخرخرة مثل كراتٍ عند قدميها.

شخرت وحرّكت شفتيها.

نظـر إليها غابرييل وهـي نائمة ووجدها أروع من ذي قبل. كادت تضاهي هيدي لامار في جمالها.

مـا الذي أتمنّاه أكثـر من العيش بجانب امرأة استثنائية إلـى هذه الدرجة والعمـل معهـا؟ كانت هي العنصر الناقص من حياتي. من المؤسـف أنني لم ألتقِ بها إلّا بعد مماتي، ولكن أن تأتي متأخّرًا خيرٌ من أن لا تأتي أبدًا...

سرت قشعريرة لطيفة فيه عندما تذكّر ما شعر به حينما كان داخل جسدها.

عبر السـقف وحلّق فوق السـطوح. أحـبّ أن يكون روحًـا هائمة، قادرة علـى أن ترى كلّ شـيء وتسـمع كلّ شـيء، وتسـتطيع أن تحدّد اليـوم الذي سترغب فيه بالتناسخ.

ذهـب إلـى مقبرة بير لاشـيز، ونظر إلى شـاهدة قبـره وعبارته المنقوشـة الغامضة مثل لغزٍ. لم يعد يخاف المرض، ولا الألم، ولا الشيخوخة. والأهمّ مـن كلّ ذلـك، بات لديـه الآن هذا المشـروع المثير: مواصلـة عمله الأدبي، بطريقة مختلفة، انطلاقًا من دهاليز الليمبو.

وبخـلاف مـا كان يعتقد حتـى تلك اللحظة، بـدا له مـن الآن فصاعدًا أنّ الأولوية ليست لإيجاد الجواب على السؤال: «لماذا متُّ؟»

بدا له أنّ الأهمّ هو الإجابة على هذا الاستفهام الآخر، الأكثر غموضًا: «لماذا وُلدتُ؟».

بطاقات شكر

هذا الكتاب مكرّس لذكرى جدّي إيزيدور فيربير، الذي قادني رحيله على الدوام إلى أن أتساءل حول الرعاية العقيمة مثلما تُمارَس حاليًّا في مجتمعاتنا (وهو الأمر الذي ألهمني في الماضي روايتي *ثاناتونوتس* و*إمبراطورية الملائكة*).

مع خالص شكري لـ:

باتريسيا داريه التي شرحت لي مهنتها كوسيطة روحية وكلّ تحدّياتها التي لم يكن قد سبق لي أن فكّرت فيها. لقد أتاحت لي أن أتخيّل كيف تكون الحياة اليومية لشخصٍ مطلوبٍ باستمرار من قبل الأرواح الهائمة (حتى في الليل) ومن الأحياء أيضًا.

باتريك بود، الهاوي الكبير لجمع القصص الغريبة، الذي منحني الرغبة في الصعود إلى المسرح لكي أواصل عملي كراوي حكايات أمام الجمهور.

جوناثان فيربير، الذي روى لي حكاية الأخوات فوكس وحكاية النيكروفون.

جيل مالينسون الذي غذّت أحاديثه الروحانية عملي على الدوام.

سيلفان تيمسي، قارئ إصداراتي الأولى والمشرف على موقع الإنترنت bernardwerber.com.

كلّ أصدقائي الذين قرأوا مسودات رواياتي لكي يعطوني رأيًا أوّليًا أو يقدّموا لي مصادر استلهام شخصياتي: أميلي أندريو، فانيسا بيتون، فانسان باغويان، دافيد غالي، فريديريك سالدمان، زويه أندريو، ستيفان كراوس، سيلفان أوردورو، أليكس بيرجيه وجوليان هيرفيو.

ناشر أعمالي ريشار دوكوسيه الذي يتابعني منذ روايتي الأولى، وكلّ فرق التحرير في دار آلبان ميشيل التي عملت على هذا المشروع.

الرعاية العقيمة: هي الاستمرار في تقديم الرعاية الصحية والعلاج لمريض على الرغم من عدم وجود فائدة معقولة أو أمل في الشفاء. المترجم

الموسيقى التي كنتُ أسمعها
خلال كتابة هذه الرواية

أغانـي فرقة ديد كان دانس – الموتى يسـتطيعون أن يرقصوا (وهي فرقة لموسيقى الروك تؤلّف موسيقى جنائزية مع الصوت الأسطوري للمغنيّة ليزا جيرارد) وخاصّة الأغاني: سانفين، هوست أوف سيرافيم، ساكريفيس.

موسيقى فيلم *غلاديايتر*.

كامي سان سانس، *رقصة الموت*.

صامويل باربر، أوركسترا *أداجيو الوتريات*.

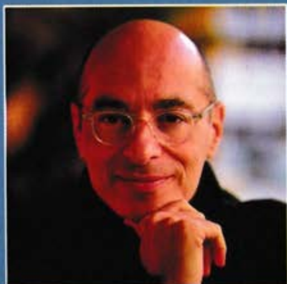
وودكيد، *أحبّك*.

الفهرس

برنار فيربير

من العالم الآخر

بطل الرواية غابرييل ويلز كاتب شعبي، أو كاتب روايات بوليسية، يسأل من قتلني؟ بعد وفاته مباشرةً يدرك ويلز أنه كان ضحية جريمة قتل: شخص ما سمّمهُ. فيصبح طوال الرواية مهووساً باكتشاف قاتله، فيقوم بالتحقيق بنفسه بناء على خبراته ككاتب روايات بوليسية بالتعاون مع وسيط روحاني هو «لوسي فليبيني» التي ما زالت في العالم المادي باحثةً بين الأرواح عن حبيب لها قد مات منذ سنوات. يدخلنا الروائي برنار فيربير في أجمل عالم لما بعد الموت حيث يختلط الأدب والعلوم والتاريخ والتحقيق البوليسي والخيال في «قارة الموتى» التي تتكون من سبعة مستويات تمر فيها الروح بتجارب مختلفة تسمح لنا بفهم معنى الحياة. إذ يستمر البطل بعد الموت بمطاردة الأشباح ونلتقي معه بأرواح نابليون وأديسون وكونان دويل والكثير من المشاهير، عالم من الفكاهة والمعرفة والتشويق يدخلنا فيه الكاتب المتوفى وهو يحاول حلّ لغز موته من خلال استجواب المشتبه بهم: الناشر الذي يستعد لإصدار كتابه. رفيقة الكاتب الممثلة المشهورة. الناقد جان مويسي الذي أعلن أخيراً أن ويلز هو أسوأ كاتب عرفه، وأنّهُ عارٌ على المهنة.



رواية

هذه الرواية تثبت بما لا يقبل الشكّ أن لبرنار فيربير قلماً ساحراً يدفعنا إلى الغرق في عوالمه التي لا تملّ.

